التغير الاجتماعى فى المجتمع القروى

دراسة فى محافظة الدقهلية

« القيطون وهلا وكفر الشيخ »

تأليف

الدكتور محمد عاطف غيث

أستاذ علم الاجتماع المساعد

كلية الآداب - جامعة اسكندرية

١٩٦٥

الدار القومية للطباعة والنشر

تصدير

إن صلاتى المستمرة والعميقة بأهل قريتى ـ القيطون ـ كان لها أثر واضح فى حفزي لأخرج هذه الدراسة ، كما أن اتصالى المستمر بالثقافة القروية وإدراكى لما يحدث فيها من تغير على مدى عدد من السنين ، واتصالى من جهة أخرى بالثقافة الحضرية وبأبحاث علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، جعلنى احاول سبر غور الحياة القروية لأقدم لقراء العربية أول دراسة لتغير القرية، وأسهم فى نفس الوقت فى الاتجاه الذى يتزايد نموا فى كل أنحاء العالم لدراسة المجتمع القروى ، بطريقة تختلف عن الاتجاه السائد فى أمريكا فى ميدان علم الاجتماع الريفى ، الذى تستند النظرية والتطبيق فيه الى حقائق مستمدة من واقع المجتمع الريفى الأمريكى . إن كل بحث فى أى مجتمع يسهم فى تقدم فهم الحياة الإجتماعية وفى نمو النظرية السوسيولوجية . ولكن حقائق المجتمع الريفى الأمريكى التى تشكل موضوع علم الاجتماع الريفى لا تساعد كثيرا فى فهم المجتمع القروى فى أغلب بلاد العالم وخاصة فى بلادنا ، نظرا للاختلاف الجوهرى بين موضوعى الدراسة ، والتباين الواضح فى المنهج وأسلوب الدراسة خاصة عندما تكون العينة قرية كما هو الشأن فى مجتمعنا ، أو مزرعة صغيرة كما هو الشأن فى المجتمع الأمريكى ويزداد التباين عمقا عندما يختلف التوجيه الأيدولوجى.

إننى أفتح الباب بدراستى هذه لفهم المجتمع القروى عندنا كخطوة أولى لإعادة النظر فى مفاهيمنا عن الحياة القروية ، ولإدراك التغير الذى تتزايد سرعته والنتائج البعيدة المدى التى تترتب عليه ، حتى نضع فلسفة جديدة لسياستنا الاجتماعية لمواجهة مشاكل القرية ، ومعالجة مسائل التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى اتجاه التطبيق الاشتراكى ،

أننى لا أستطيع أن أختم هذا التصدير دون أن أذكر فى خشوع والدى بعد ثمانى عشرة سنة من وفاته ، لقد كان مؤمنا بالتغير مدركا للمستقبل فاعدنى للحياة وأمدنى بكل ما أعتز به من قيم . ولا أنسى المرحومين عقل أحمد غيث وصبح حسنين غيث ومحمد الجوهرى غيث وأحمد هندى غيث واحمد عبد النبى غيث والسيد صبح النادى وعطوه شريف وعبد الرازق بلبل وكثير غيرهم ممن تولوا قيادة القرية وتوجيهها فى نواحى حياتها المتعددة وأثروا فى اتجاهات تغيرها ، والذين تعلمت منه الكثير .

وسأظل أذكر المعاونات القيمة والتشجيع المستمر والارشاد المستنير الذى تلقيته فى كل مراحل هذه الدراسة وفى إخراجها من أستاذى الدكتور على أحمد عيسى ومن أصدقائى العديدين فى القيطون والقاهرة والاسكندرية .

عاطف غيث

الاسكندرية ـ أكتوبر ١٩٦٥

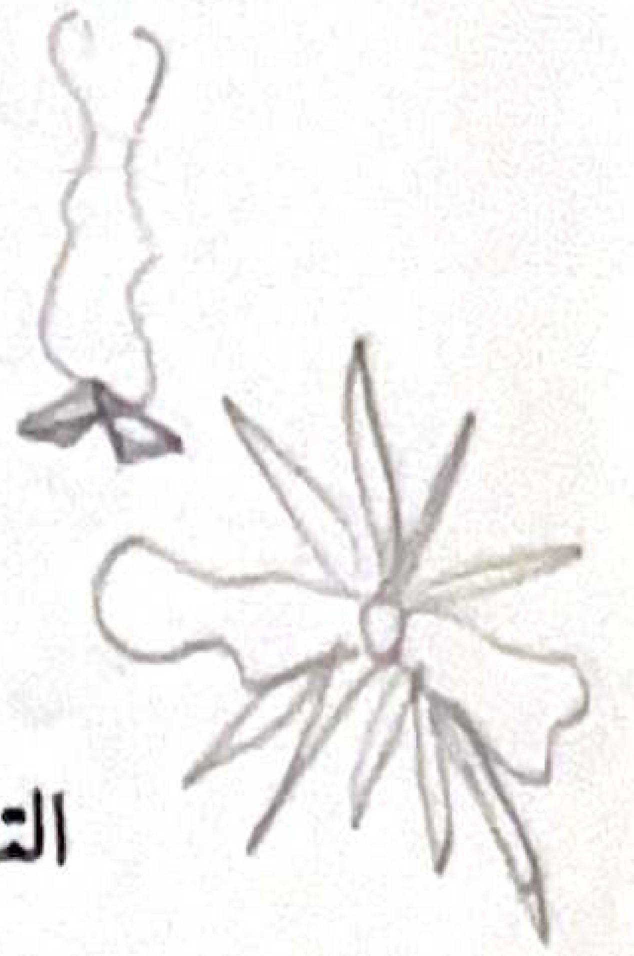
المحتويات

الصفحة

الصفحة

١١,٥ _ ١,٥ يوم اربعاء

الجداول والاحصاءات والخرائط



مقدمة

التغير الاجتماعي في المجتمع القروى في الجمهورية العربية المتحدة ، ظاهرة يلاحظها كل من يهتم بالدراسات القروية من أى زاوية . ففى أكثر القرى بعدا من المدينة وطرق المواصلات السهلة ، يمكن للملاحظ العابر أن يدرك آثار هذا التغير في البناء الاجتماعي وفى الثقافة المادية . وتزداد هذه الآثار وضوحا كلما زاد القرب من المدينة أو تحسنت طرق المواصلات . ويبدو أن التغير فى المجتمعات القروية ظاهرة عامة فى جميع أنحاء العالم ، الأمر الذى كان من شأنه لفت أنظار الباحثين فى علم الاجتماع والانثربولوجيا الاجتماعية الى هذه الحقيقة . فأجريت عدة دراسات على عدد من القرى فى جهات متعددة ، كان إبراز التغير فيها أحد النواحى الهامة التى عنى الباحثون بتسجيلها ، مثلما فعل دوبيه Dube فى قرية شاميربت Shamirpet فى الهند، ومارتن يانج M. yang فى دراسة تايتو Taitou بالصين ، وجون إمبرى Embree فى دراسة قرية سوهى مورا Suye Mura فى اليابان، وحامد عمار فى دراسة قرية سلوا بأسوان ، وكثيرون غيرهم . ولكنى لا أعرف دراسة موجهة كلية لبحث التغير الاجتماعي فى مجتمع قروى على النحو الذي أحاوله هنا .

لماذا قرى هلا رقيطون وكفر الشيخ ؟

من الثابت الآن أن دراسة المجتمعات القروية المتغيرة أصبحت أمرا يهتم له

كثير من المعنيين بالدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجيــة لدرجات الاجتماع الانسانى المختلفة، قبل أن تنطمس المعالم القروية القديمة ويصبح من الصعب إعادة تصويرها، وخاصة فى حالة لا تعطينا عنها المصادر التاريخية أو المعلومات الاحصائية بيانات دقيقة يمكن أن تخدم البحث العلمى .

وتصبح مثل هذه الدراسات واجبا علينا من ناحيتين :

الأولى — لامكان دراسة التغير الاجتماعى فيما بعد من حيث عوامله وعملياته ونتائجه .

والثانية — لتصبح المقارنة بين المجتمعات المختلفة ممكنة، مما يمهد السبيل الى وضع قواعد علم الاجتماع المقارن، الذى هو الهدف من كل الدراسات فى العلم الاجتماعى .. ولا تزال الدراسات المقارنة فى علم الاجتماع بطيئة فى نموها وللانثروبولوجيين الفضل فى محاولاتهم الأولى لاجراء مثل هــــذه المقارنات (١) .

والقرى موضوع الدراسة تقع جنوبى مركز ميت غمر، والمركز نفسه يقع

(١) من أهم الدراسات المقارنه التى أجريت فى ميدان المجتمعات البدائيه، مقارنه الانساق السياسية والزواج والقرابة فى افريقيا، وفى المجتمعات القروية، المقارنات التى عقدت بين بعض قرى الهند وغيرها من القرى المدروسة خصوصا فى المكسيك .

Forte, Evans - Pritchard. African Political Systems, Oxford, 1955.

Radcliffe-Brown, Forde, African Systems of Kinship and Marriage. Oxford. 1956

Marriot, Village India, (Studies in The Little Community) Chicago, 1956 .

جنوبى محافظة الدقهلية، وهى القرى التى اخترتها لدراســة التغير الاجتماعى فيها دراســة مقارنة، ولا أســتطيع أن أجزم أنها تمثل من حيث النموذج المجتمع القروى فى الجمهورية العربية المتحدة. ولهذا لا تكون النتائج التى وصلت اليها منطبقة بالضرورة على جميع القرى. وإنما قد تتشابه معها القرى التى لها نفس الظروف والخصائص. ذلك لأننى أعتقد أن القرى لا تمثل فى واقع الأمر نموذجا واحدا .

وقد جاء اعتقادى هذا نتيجة لزيارتى لعدد من القرى وعلى الأخص فى محافظات الدقهلية والشرقية والبحيرة، ونتيجة أيضا لاختلاف توزيع الملكية من قرية الى قرية، وقرب بعض هذه القرى من المدن أو وقوعهـا على حافة الصحراء، أو وســط أرض زراعية قليلة الخصوبة كما هو الحال فى شمال الدقهلية، أو بجوار البحر الأبيض المتوسط كالقرى القريبة من مدينة دمياط. كل هذا يؤدى الى إمكان قيام عدة نماذج من القرى على أساس تشابه كل مجموعة منها فى خصائصها الكلية أو فى بعضها، وبالتالى تكون دراسة كل نموذج ضرورية حتى يمكن معرفة آثار اختلاف الخصائص على الحياة الاجتماعية، وتصبح الدراسة المقارنة ممكنة على أساس الاتفاق أو الاختلاف فى جميع الخصائص أو فى بعضها (١) .

صعوبات الدراسة :

وتثير المقارنة صعوبات متعددة، وتزداد هذه الصعوبات خصوصا اذا

1 — M. Eortes, E.E. Evans - Pritchard, African Political Systems, OxFord 1959 Intro py A. R. Radcliffe-Brown pp. XI, XII.

كانت المقارنة من وجهة نظر التغير الاجتماعى . فالمقارنة بين المجتمعات أو بين أنساق معينة فيها أمر يقضى بأن تكون هذه المجتمعات أو الأنساق قد درست من قبل ، أو يقوم الباحث نفسه بهذه الدراسات قبل عمل المقارنات ، وهذه مهمة صعبة فوق طاقة باحث واحد ، ولا بد من تعاون عدد كبير من الباحثين على ذلك ، حتى يكون اختلاف وجهات النظر عاملا من عوامل التحقق والدقة . كما أن دراسة التغير تقتضى ايضا أن تكون المجتمعات أو الانساق محل الدراسة قد درست فى فترتين مختلفتين ، وهما الفترتان التى يراد إجراء المقارنة بينهما لامكان الكشف عن عوامل التغير و نتائجه . وقد كانت الدراسة المقارنة ودراسة التغير بالذات ممكنة فى بعض أنحاء العالم لوجود مثل هذه الدراسات كما هو الحال فى المجتمعات الأفريقية البدائية ، أو فى بعض المجتمعات القروية فى الصين والهند والمكسيك أو فى المجتمعات الحديثة التى تحتفظ باحصاءات وسجلات ووثائق بلغت درجة عالية من الدقة .

وفى دراستى هذه واجهت هذه الصعاب جميعا للاسباب التالية :

١ — ليست هناك — فيما أعلم — دراسات سوسيولوجية أو انثروبولوجية منشورة عن القيطون التى اخترتها ، ولا عن أى قرية اخرى فى مجتمعنا يمكن ان تصلح فى الدراسات المقارنة أو فى دراسات التغير ، فيما خلا دراسة حامد عمار عن قرية « سلوا » (١) . ولكن هذه الدراسة من حيث الموضوع لا تتفق والموضوع الذى درسته ، وهو التغير الاجتماعى لبعض الأنساق الاجتماعية .

1—H. Ammar, Growing up in an Egyptian Village, Silwa, Province of Oswan, London, 1954.

٢ — المصادر التاريخية التى ينصح بعض العلماء كروبرت ردفيلد Redfield بالاعتماد عليها نسبيا فى دراسة المجتمعات القروية ، لم تكن صالحة لهذه الدراسة فبعضها يصور حاله « المجتمع المصرى » بطريقة عامة ويعرض للأحداث التى تعرض لها ، ويسجل آثارها بطريقة لا يمكن الإعتماد عليها فى مثل هذه الدراسة ، وبعضها الآخر يتعرض لوصف القرى بطريقة موجزة ، مشيرا إلى خصائص القرية وشهرتها بطريقة عامة جدا .

ولهذا لم أجد مفرا من إهمالها (١) . حقيقة أنه كان من الممكن الإفادة من وصف تطور نظام الحكم والنمو الإقتصادى والإجتماعى ، الذى ورد فى بعض هذه المصادر ، أو فى بعض الدراسات الأخرى كدراسة شارل عيسوى أو الأب عيروط إلا أن تتبع هذه التطورات فى أثرها على القرية كان أمرا صعبا من شأنه نسبة طبيعة الحياه الإجتماعية والاقتصادية الى عوامل ليست ذات أثر مباشر أو واضح خصوصا فى الفترة « الفرضية » السابقة على التغيرات الحديثة .

٣ — الاحصاءات والبيانات والوثائق المتعلقة بالمجتمعات القروية نادرة جدا وتكاد أن تكون فى حكم المعدومة بالنسبة للقرية كما أن الموجود منها غير دقيق ولا يمثل الواقع سواء ما تعلق منه بتاريخ القرية أو سجلات

(٢) جورج لندبرج فى نقده لامكان الاعتماد على المصادر التاريخية فى دراسات التغير فى الوقت الحاضر ، يقول بأننا نستطيع أن نعتمد عليها اذا ازدادت دقتها وزادت السجلات المطبوعة والمصورة، وبذلك تكون التعميمات التى تتوصل اليها حينئذ ذات أهمية علمية كبرى. وهذا فى رأيه موقف لن يصل اليه الا بعد سنوات عديدة

2- G. Lundberg. Foundations of Sociology, London, 1939, 513

المواليد والوفيات والزواج والطلاق أو مساحة الأرض الزراعية أو عدد السكان ، أو بصفة عامة كل ما يلزم لإجراء دراسة اجتماعية سليمة. ولهذا كان الاعتماد على مثل هذه المعلومات ، بجانب عدم دقته ، لابد أن يؤخذ بحذر شديد .

ومع ذلك حاولت أن أتغلب على هذه الصعوبات ، وأعلم أن محاولتي يشوبها عدد من وجوه النقص ، ولكن مدى نجاحي في ابراز التغير الاجتماعي في هذا « النموذج » وتحليله متروك الحكم ، في ضوء الظروف السابقة .

خطوات الدراسة :

ولتحقيق الدراسة الحقلية وعرض نتائجها وتحليلها ، اتبعت الخطوات الآتية في اختيار موضوعات الدراسة في القرية ، وفي طرق دراستها ، وفي العرض التحليلي لمحتوياتها .

١ ــ قبل أن أحدد للموضوعات التي درستها ، كان علي أن أعين خصائص النموذج الذي تمثله القرى . والواقع أن تحديد النموذج من أصعب الأمور خصوصاً في وجود عدد كبير من القرى ، قد تشترك جميعا في ناحية واحدة كالاعتماد على الزراعة ، وقد تختلف في عدة نواح أخرى . ولما كان من أهم شروط النموذج (أو عينة الدراسة) «التحديد الواضح» ، «الصغر النسبي» لتصبح دراسته ممكنة ، خصوصا في بحث مقارن عن التغير الاجتماعي ، فقد اخترت قرية القيطون لهذا الغرض.

٢ ــ هذا وينطبق على القرى ، وخاصة في الفترة السابقة على التغير الحديث

الخصائص التي قال روبرت ردفيلد انها تنطبق على المجتمع المحلي الصغير Little Community وهي التميز distinctiveness وهو ظاهرة شعور الأشخاص بالانتماء الشديد لهذا المجتمع ، والصغر Smallness وهو أن المجتمع ككل يكون وحدة مستقلة للملاحظة المباشرة ، كما يصلح أي جزء منه كالعائلة لمثل هذه الملاحظة ، والتجانس Homogeniety وهو تشابه نشاط الأفراد واتجاهاتهم على أساس الجنس وطبقات العمر ، والاكتفاء الذاتي Self-Sufficiency وهو أن جميع أنواع النشاط الاقتصادي والاجتماعي تستغرق داخل المجتمع كل حياة الفرد والجماعة ، دون حاجة الى الخارج (١) وقد أخذت بهذه الخصائص باعتبار أنها تصور حالة القرية قبل التغير الحديث بناء على ما ثبت عن طريق الدراسة الحقلية كأساسيتين فيما بعد .. ولأن التغير في نهاية الأمر كان تغيرا في هذه الخصائص .

٣ ــ لكن هذه الخصائص قد تنطبق على كل القرى في الجمهورية العربية المتحدة قبل التغير دون استثناء . ولهذا يلزم مزيد من التحديد حتى يكون النموذج الذي تنتمي اليه القرية واضحا ومتميزا . وقد وجدت أن توزيع الملكية والموقع الجغرافي ، وخصوبة الأرض الزراعية يمكن أن تكون خصائص فارقة هامة في تحديد النماذج بجانب الخصائص السابقة . ووجدت أيضا أن القرية تشترك في الخصائص الأخيرة بطريقة لا تتشابه معها أعداد كبيرة من القرى الأخرى .

تتكون القيطون قديما والآن من صغار الملاك ، ولم تقع ضمن دائرة

1— R. Redfield, The Little Community. Viewpoints For The Study of a Human Whole Chicago 1956, pp. 4.5

أو « عزبة » قبل تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي عام ١٩٥٢ ، ولم تكن الفروق بين العائلات قديما أو الأسر الآن كبيرة من حيث مساحة الأرض الزراعية المملوكة لكل منها ، والأرض الزراعية كانت ولا تزال على درجة عالية من الخصوبة ، ومن حيث الموقع الجغرافي ، ليست قريبة مباشرة من طرق المواصلات أو المدينة حتى يمكن أن يقال أنها كانت في شبه عزلة قبل التغير الحديث ، وهي أيضا تقع في جنوب شرق فرع دمياط ، وتروى أرضها عن طريق الترع التي تأخذ مياهها من الرياح التوفيقي . وبجانب ذلك يقوم البناء الاجتماعي في القرية على أساس البدنات التي تنتمي كل منها إلى أصل واحد ، حتى أن كل بدنة خصوصا في الفترة القديمة ، كانت تكون مجتمعا داخل مجتمع أكبر .

٤ـ وعلى هذا قد تتشابه مع هذا النموذج أعداد كبيرة من القرى التي لها نفس الخصائص . حتى ليبدوا أنني أدرس هذه القرى جميعا مرة واحدة ، ذلك لأنني لا أدرس « مجتمعا قائما بذاته » بل أدرس « مجتمعات » لها خصائص لا تتشابه مع كثير غيرها في مجتمعنا فحسب ، بل في مجتمعات متعددة من العالم (١).

٥ـ ولهذا كانت محاولة اعطاء القرية « صيغة عامة قائمة بذاتها » بحيث تبدو مختلفة عن « جميع » القرى ، أمرا يجعلني انحرف بالبحث جهة لا تتفق مع طبيعة البحث العلمي الموضوعي ، بل سيجعلني أسقط بعض الحقائق الهامة التي قد تؤيد الرغبة في « تشييد » هذه الصيغة.

1— O. Handlin, The Uprooted. Boston 1951 p.7. qouted by Redfield, Peasant Society and Culture, Chicago, 1956, pp. 106—107

٦ ـ ونظرا لضرورة دراسة القرية مرتين احدهما في الفترة القديمة ، والأخرى في الفترة المتغيرة لامكان الكشف عن التغيرات التي حدثت وبيان عواملها ونتائجها ، فانني لم اقم بدراسة شاملة للقرية ، بل اخذت انساقا معينة فيها درستها في الفترتين ، وكان من الممكن أن اختار نسقا واحدا كما يفعل كثير من الباحثين الآن في علم الإجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ولكنني رأيت أن الجمع بين عدة انساق تبدو شديدة الارتباط في حالتي « الاستقرار » « والتغير » ودراستها على أساس هذا الترابط ، يمكن أن يؤدي الى مزيد من الفهم والدقة في تتبع التغير الاجتماعي وآثاره . ولهذا درست العائلة والحياة الاقتصادية والثقافة المادية ، وكنت واعيا دائما بالعلاقات والآثار المتبادلة بينها وبين الأنساق الاجتماعية الأخرى ، أي أنني درستها كأجزاء داخل كل متكامل .

والواقع أن العائلة كما تبين ذلك من البحث الحقلي كانت تكون الوحدة الرئيسية في البناء الاجتماعي ، وكانت الى جانب الوظائف الاجتماعية التي تقوم بها ، مركز النشاط الاقتصادي ، أي أنها الاطار الذي عاش فيه الفرد حياته كلها ووجد فيه اشباعا لكل حاجاته ، والحياة فيها ، وكثافة العلاقات ومداها داخلها وخارجها ، هو الذي اعطى للحياة الاجتماعية في الفترة القديمة الطابع المميز الذي اعطى بدوره العلاقات الاجتماعية في القرية صيغة محددة ، ولهذا كان التغير في العائلة من حيث البناء والوظيفة مفضيا لتغيرات مصاحبة عديدة في الحياة الاقتصادية والثقافة المادية كما سيأتي بيان ذلك فيما بعد .

٧ ـ وكان من الضروري عند دراسة هذه الموضوعات الثلاث ـ العائلة

والحياة الاقتصادية والثقافة المادية ـ أن أحدد موقفى مقدما ، من الهدف النهائى من هذه الدراسة ، فهل أسجل كل شيء فى حالتى الاستقرار والتغير لأبرز المظاهر الرئيسية لهذه التغيرات وأسبابها ؟ أم أجرى الدراسة على أساس فروض معينة أحاول أن أثبتها وادحضها أو اعدلها فى ضوء الحقائق التى لاحظتها ؟ وقد فضلت ان اتبع الطريق الثانى ، أى أننى سأستخدم القرية كمكان مناسب لدراسة بعض المشاكل ذات الأهمية العلمية العامه فى ابحاث التغير الاجتماعى (١) .

الفروض الأساسية

ستكون دراستى للموضوعات الثلاث السابقة اختبارا « لعدة فروض معينة » على النحو التالى :

١ ـ هناك ميل قوى للتقليل من أهمية «البيئة» فى التفسير السوسيولوجى واعتبار علاقة الإنسان بالإنسان هى المعول الأول فى فهم المجتمعات . ومنذ أن ظهر كتاب دوركايم فى قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، يتركز اهتمام كثير من الباحثين فى مختلف انحاء العالم على تفسير الظواهر الاجتماعية بظواهر اجتماعية أخرى ، وزاد اقتناع العلماء بهذا الاتجاه فى التفسير خصوصا بعد ازدياد سيطرة الإنسان على الطبيعة واخضاعها لمشيئته . ولكن هذا الاتجاه لا ينبغى أن يؤخذ كتعميم ينطبق على المجتمعات لاختلاف مدى تأثر كل منها بالبيئة الطبيعية . ففى المجتمع القروى تكون علاقة الانسان بالطبيعة مهمة جدا لأنها تحدد نوع النشاط الاقتصادى الذى يكون مع بقية اجزاء

1 — R. Redfield, Op. cit. p. 155

البناء الإجتماعى كلا متكاملا . وفى دراسة للتغير الاجتماعى فى مثل هـذا المجتمع ، يكون تأثير البيئة عاملا مهما فى حالتى الاستقرار والتغير ، وبالتـالى لا يكون الأمر كما حاول ردفيلد أن يأخذ به فى وضعه لـ « قواعد المنهج » فى دراسة المجتمعات القروية ، من تركيز الاهتمام على علاقة الإنسان بالإنسان ونقده لاتجاه ايفانز بريتشارد فى دراسة النوير على أساس الاهتمام بدراسة اثر البيئة على المجتمع النويرى Oecology . فقد يصلح اتجاه ردفيلد هـذا فى دراسة محددة لمجتمع قروى فى زمن معين Synchronic ولـكنه لا يصلح فى دراسة لهذا المجتمع تمثل زمنين مختلفين diachronic . ولهذا أميل الى التسليم بأن كل تغير فى علاقة الانسان بالبيئة . يعنى بعض التغير فى علاقته بأقرانه (١)

٢ ـ فى التغير الموجه ، يكون المؤثر الخـارجى عاملا أول فى تفسير التغيرات وذلك مثل التغيرات التى تسببت عن اتصال الأوربيين بالمجتمعات البدائية ، ولذلك كان الإنتشار عن طريق الاتصال الثقافى Cultural Contact وهو « مؤثر خارجى » مؤديا الى تغيرات عديدة فى هذه المجتمعات. ولهـذا كان اهتمام الباحثين فى التغير الاجتماعى فى المجتمعات البدائية ، موجها أغلبه الى دراسة فى الاتصال فى التغيرات الثقافية ، وتأثر بهذا الاتجاه كثير من الباحثين فى المجتمعات القـروية فى الهند والصين حين نسبوا التغيرات فى القرى الى تدخل الحـكومة والمدينة ولكنى أميل الى القول ، بأنه فى التغير غير الموجه ، كما هو الشأن فى النموذج الذى أدرسه ، تـكون بواعث التغير

1 — Radcliff - Brown, Forde, Afrian Systems of Kinship and Marriage, London, pp. 2—3

2 — Maciver: page, Society, An Intreductory Analysis, London, p. 512

الأول « داخلية » نتيجة لازدياد السكان واستمرار ضغطهم على المصادر الطبيعية الثابتة وتكون العوامل الخارجية عوامل معجلة Accelerating Factors وكلما زاد التغير مدى وكثافة تترابط العوامل الداخلية والخارجية فى إحداث التغيرات الثقافية ، وعندئذ قد تصبح المؤثرات الخارجية آثار أكثر وضوحا .

٣ — « الاصلاح الاجتماعى » الذى لا تفرضه قوة القانون يكون قليل الأثر جدا فى التغير الثقافى، ما لم يكن البناء الاجتماعى . نفسه قد بدأ يتغير ، أو تكون الذبذبات التى تحدث فيه ، أو مظاهر اختلال التوازن تحدث فى فترات قصيرة المدى ، وخصوصا فيما يتعلق بالعلاقة المتوازنة بين الحياتين الاقتصاديه والاجتماعية ولهذا كانت تجربة المركز الاجتماعى فى قرية هلا القرية غير محققة لما قصد منها .

٤ — فى المجتمعات البدائية والحديثة قد يحدث نتيجة للتغيرات السريعة تخلف ثقافى (١) بين قسمى الثقافة المادى وغير المادى ، أو عدم استواء (٢) بين مكونات هذه الثقافة uneveness . ولكن فى المجتمع القروى عندما لا يكون التغير سريعا وغير موجه فى نفس الوقت لا يحدث اختلال للتوازن أو سوء توافق ، فتسير عمليات التغير فى كل اتجاه ، بمعنى أن كل تغير فى جزء متساند من اجزاء المجتمع يؤدى الى تغيرات مصاحبة فى الاجزاء الاخرى

(١) نظرية وليام اجبرن المشهورة فى التخلف الثقافى نتيجة لأن أجزاء الثقافة لا تتغير بنفس الدرجة ولذلك يحدث عند التغير تخلف بين هذه الاجزاء المتساندة قبل ذلك

W. Ogburn, Social Change 1922

(٢) نظرية عدم الاستواء لا تختلف كثيرا عن نظرية التخلف .

G & M. Wilson, The analysis of social change Cambridge 1955, p. 158 .

وفى الكل أيضا . ذلك لأن نمو الثقافة المادية . الذى يكون طبقا لنظريات التخلف وعدم الاستواء أسرع وأسبق من نمو الثقافة غير المادية ، لا يكون له نفس الخصائص فى المجتمع القروى . فهو نمو كمى لا كيفى ، بمعنى أن القديم يجاور الجديد ، ويكون التأثير متبادلا بينهما وليس من جانب واحد فقط . كما أن تغير العائلة مثلا وتفككها إلى أسر يؤدى الى تغيرات مصاحبة فى خصائصها وفى القيم المرتبطة بها ... وهكذا . اذن فالميل هنا الى الاعتقاد بأن مكونات الثقافة تتغير ككل أى أن عمليات التغيرات تسير فى « معية Togetherness » فى جميع أجزاء البناء الاجتماعى والثقافة المادية المرتبطة بها.

٥ — يميل كثير من كتاب القرن التاسع عشر والباحثين فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية فى القرن العشرين ، الى نوع من الثنائية dichotomy حين يقارنون بين المجتمعات فى انتقالها عند التغير من حالة الى أخرى . فالسير هنرى مين فى كتاب القانون القديم Ancient Law ، عام ١٨٦١ يتصور أن هناك نوعين من المجتمعات ، مجتمع يقوم على أساس المركز من حيث الاعتراف بالحقوق والواجبات فى الوحدة العائلية . ومجتمع يقوم على أساس التعاقد Contract من حيث قيام العلاقات التعاقدية بين الأفراد كمنظم لحقوقهم وواجباتهم (١) وكذلك تينس Tonnies حين يميز بين الوحدة التلقائية Cemeinschaft التى تقوم على العلاقات المباشرة والمشاركة فى قيم واحدة ، وبين الوحدة غير التلقائية Cesellschaft حيث تكون العلاقات فيها فردية تمايزية (٢) ويعتبر دور كايم أكبر من أعطى لهذه الثنائية

1 — Redfield, Op. cit. p. 140.
2 — W. Sprott, Sociology, London. 1956, p.162

طابعا علميا على أساس دراسات مستفيضة وخاصة فى تقسيم العمل . والمجتمع الذى يعتمد على نفسه ويتشابه الأفراد فيه بمجتمع يقوم على التضامن الآلى ، والمجتمع الذى يعتمد على مجتمعات أخرى ويتميز داخليا بتقسيم العمل هو مجتمع عضوى Organic . وقد وجد كل من روبرت ردفيلد وجودفرى ومونيكا ولسون على سبيل المثال — هذه الثنائية صالحة فى توجيه الدراسة الحقلية ، الأول عندما درس بعض قرى ياكتان Yucatan ، وصور انتقال المجتمع القروى أو البدائى من الفولك FolK الى المدينة Civilisation (1) على أساس أن التغير فى المجتمع البسيط يؤدى الى زيادة الخصائص الحضرية، والثانى جودفرى وبلسون وزوجته حين حللا التغير الاجتماعى فى وسط افريقيا من البدائية الى التحضر ، على أساس زيادة اعتماد المجتمع البدائى على مجتمعات اخرى (2)

وانتى على ذلك أميل ايضا الى الأخذ بهذه الثنائية فى تغير القرية ، واعتقد أن المجتمع القروى يتغير من مجتمع بسيط تكون فيه القرابة أساس العلاقة والاكتفاء الذاتى خاصية الوحدات العائلية المكونة له . الى مجتمع معقد تكون فيه المصلحة أساس العلاقة ، والاعتماد المتبادل داخليا وخارجيا خاصية الكل والجزء معا .

المنهج والطريقة : المنهج الذى يجمع بين الطريقة السسيولوجية والطريقة الانثروبولوجية

وعلى أساس الفروض والنظريات السابقة ، العائلة والحياة الاقتصادية والثقافة المادية ، التى اتخذت منها فى فترتى الاستقرار والتغير، ميدانا للدراسة

1 — Redfield, Op. cit, p. 43.

2 — G. & M Wilson, Op. cit., pp. 25-30

لاجراء التحقيقات الضرورية ، تحددت نقطة الصفر Zero point وطريقة الدراسة وطريقة العرض على النحو التالى :

يثير الحد الفاصل بين فترتى الاستقرار والتغير ، وهى المسمى بنقطة الصفر ، صعوبات متعددة لأن المجتمعات لا تكون فى أى مرحلة من تاريخها فى حالة ثبات تام ، بل إن التغير فيها ضرورة كالتنفس فى الجسم الحى . ولكن هناك من التغيرات ما لا يؤدى إلى نتائج واضحة فى المدى القصير ولذلك يمكن اعتبار المجتمع على هذا الأساس فى بعض مراحله فى حالة استقرار فرضى ، ودراسته على أساس ثبات العوامل ، وبغير ذلك تصبح دراسة التغير دراسة مقارنة مستحيلة ، ولذلك تكون نقطة الصفر المختارة فرضية تخضع لتقدير الباحث فى بعض الأحيان ، فقد تكون بناء على حدوث تطورات هامة فى تاريخ معين كغزو أو ثورة أو حرب لوحظ بعدها أن تغيرات متعددة بدأت تأخذ سبيلها فى المجتمع ، واكتفى هنا باثبات إننى جعلت عام ١٩١٤ الحد الذى يفصل بين القرية القديمة والقرية المتغيرة ، لاعتقادى أن الحرب العالمية الأولى التى حدثت فى هذا العام والأحداث التى مر عليها المجتمع المصرى بعد ذلك حتى الآن ، ذات أثر بالغ فى التغير الاجتماعى ، هذا إلى أن زيادة السكان على طاقة الأرض الزراعية أخذت منذ هذا التاريخ أيضا تحدث اختلالا فى توازن العائلة والقرية ككل ، ولم يؤد عودة التوازن بعد ذلك إلى رجوع المظاهر العامة للحياة الاجتماعية إلى ما كانت عليه .

وجعلت عام ١٨٨٣ وهو العام الذى صدر فيه القانون المدنى الأهلى الذى أقر نظام الملكية الفردية للأرض الزراعية ، بصفة عامة ، وعام ١٩٠٠ بصفة خاصة هو المدى الزمنى الذى ينطبق عليه الخصائص فى القرية كما جاء فى

هذه الدراسة ذلك لأنه فى الوقت الذى لم تكن فيه المصادر التاريخية غير صالحة للاستفادة منها ، كان على ألا أعتمد على ذاكرة كبار السن لمدى أبعد من ذلك ضمانا لدقة المعلومات وعدم الركون فيها الى الظن أو المبالغة أو الخيال .

والمنهج المتبع فى هذه الدراسة ليس منهجا تاريخيا أو منهجا آخر قريبا منه . ولكنه منهج يضم المقارنة والتحليل (١) وفى طريقة الحصول على المعلومات اعتمدت على طريقتين رئيسيتين ، الأولى معلومات كبار السن وخصوصا فى الفترة « المستقرة » والثانية ملاحظاتى المباشرة باعتبارى ملاحظا مشاركا .

٣ ـ ومع ذلك استفدت مما أمكن الإستفادة منه من الإحصاءات والبيانات الرسمية . وينبغى هنا أن أشير الى أننى فى الدراسة لم أقابل الصعوبات التى قابلت أكثر الباحثين فى المجتمعات البدائية ، مثل المدة اللازمة لإجراء البحث ، أو اختلاف اللغة ، أو التوافق مع طبيعة الحياة فى المجتمع محل الدراسة ، أو التماس المودة ، أو التصرف بحذر(٢). وفى مقابل ذلك قد تثار مسألة الموضوعية ودقة الملاحظة باعتبار أن الباحث الغريب على المنطقة يكون أكثر حساسية بالنسبة لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية التى تختلف عن المظاهر التى تعودها فى مجتمعه ، الى جانب أنه يكون مخلصا وغير

يعتقد رادكليف براون أن مقارنة الانساق الاجتماعية وتحليلها تزودنا بخطط للتصنيف وبدون التصنيف لا يمكن ان يكون هناك علم .

1 - Radcliffe-Rrown Op. cit. p. 2

2 - S. F. Nadel, the Foundation of Social Anthropology. London, 1953 pp. 35-39

متحمس ، ومع وجاهة هذه الاعتراضات . إلا أننى أعتقد أنه من الناحية الموضوعية لم تعد لها أهمية كبرى فى دراسة المجتمعات الصغيرة كالقرى فالباحث فى قرية نشأ فيها يكون أقدر على فهم الحياة القروية ويستطيع أن يدرك الفرق بين ثقافتين عاشهما فعلا وبطريقة أشد اتصالا من الباحث الاجنبى ودراسات دوبيه ومارتن يانج وحامد عمار خير دليل على ذلك . فالحقائق التى أوردتها فى هذه الدراسة تعتبر سجلا لما رأيته شخصيا وخبرته وسمعته ثم حققته وحللته فى السنوات الأخيرة .

الى كل من يحاول الاعتماد على وقائع حياتنا

في فهم حركة مجتمعنا والتخطيط لمستقبلنا

الفصل الأول

التمهيد النظرى

١ ـ القرية كمجتمع داخل مجتمع أكبر .

٢ ـ النموذج فى المجتمعات القروية .

٣ ـ القرية والطريقة الأنثروبولوجية .

٤ ـ التغير والدراسات المقارنة للنماذج .

٥ ـ التغير الاجتماعى والمجتمع القروى .

٦ ـ خاتمة.

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

والمجتمع القروى الذى تكون القرية وحدته الأساسية أخذ الآن ينال نصيبا متزايد من اهتمام العلماء وعلى الأخص المشتغلين بالدراسات الأنثروبولوجيا الإجتماعية حتى أن روبرت ردفيلد R. Redfield وهو أحد أساطين الأنثروبولوجيا الإجتماعية فى العالم يرى أن موضوع الدراسة فى فى هذا العلم لابد أن يتحول إلى دراسة المجتمعات القروية التى تعتبر ثقافتها جزءا من ثقافة أكبر ، وهى من الناحية الفنية مرتبطة بأحد المدنيات القديمة ، الأمر الذى يؤدى إلى تعديل فى خطط الدراسة المتبعة فى دراسة الشعوب البدائية المنعزلة والمكتفية بذاتها والتى لكل منها ثقافة متمايزة.. ويقول،لسنا نريد أن ندرس الثقافات ٠ كما هو الوضع بالنسبة للثقافات العديدة للمجتمعات البدائية ، ولكننا نريد أن ندرس « الثقافة » كما هى موجودة فى المدنيات القديمة الآن ، وفى أجزائها المختلفة وعلى الأخص المجتمعات القروية [١] . وقد درس ردفيلد فى عام ١٩٣١ بالإشتراك مع الفونسو فيلا Alfonso Villa أحد قرى المكسيك(٢) ثم عاد لدراستها بعد ذلك عام ١٩٤٨(٣) لدراسة مدى التغير الذى طرأ على القرية منذ دراستها لأول مرة . وقد تابعه فى هذا الإتجاه عدد من الباحثين درسوا ولا زالوا يدرسون مجتمعات قروية فى مختلف أنحاء العالم وخصوصا فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية مثل دراسة جون امبرى J. Embree لقرية يابانية (٤) ودوبيه

---

1 — Redfield, R.; Peasant society and Culture, Chicago 1956

2 — Redfield, R.; Villa, Alfonso; Chan Kom : A Maya Village, Washington, 1934.

3 — Redfield, R.; A Village that chose Progress; Chan kom Revisted, Chicago, 1957.

4 — Embree, John F.; A Japanese Village. Suya Mura. London. 1946.

لقرية هندية (١) ويانج Yang لقرية صينية (٢) ، وتبع ذلك محاولات لعقد دراسات مقارنة على أساس اختيار النموذج الذى يمثل مجتمعات محلية (٣) خصوصا فى الصين والهند .

ومبعث الإهتمام بدراسة المجتمعات القروية أن قسما كبيرا من سكان العالم يعملون بالزراعة خصوصا فى المدنيات القديمة ٠ والزراعة بالنسبة لهم « طريقة فى الحياة » متميزة عن غيرها بخصائص يمكن ملاحظتها عن كثب ، الأمر الذى يؤدى إلى مزيد من التشابه بين هذه المجتمعات فى اتجاهاتها العامة . كما أن دراسة الحياة القروية بالإضافة إلى الدراسات المستمرة الآن للمجتمعات المتحضرة والبدائية يمكن أن تمهد السبيل لعقد مقارنات حقيقية بين مختلف نماذج الحياة الإنسانية ، الأمر الذى ينير الطريق أمام الفهم الحقيقى للمجتمع الإنسانى . وهذا أجدى من الإقتصار على نموذج واحد كما فعل الأنثروبولوجيون بالنسبة للمجتمع البدائى . ويقول ردفيلد Redfield من الغريب أنه فى الوقت الذى كان الأنثروبولوجيون ماضين فى اعتبار المجتمع البدائى نموذج الدراسة كان جراهام ولاس Walias يكتب كتابا يلفت النظر الى الحقيقة القائلة ، أن العالم ماض إلى أن يصبح مجتمعا واحدا كبيرا،فالبدائى المنعزل أصبح مرتبطا بالمجتمع الكبير،ولهذا فان الانثروبولوجى أصبح يتجه الآن الى دراسة مجتمعات فى علاقات متعددة ومعقدة مع شعوب معروفة التاريخ أو مجهولته . (٤)

---

1 — Dube, S. C.; Indian Village, London, 1956

2 — Yang, Martin C.; A Chinese Village. Taitou; Chan tung Province, London, 1947.

3 — Fei, H.T; Chang Chin—I; Earthbound China: A Study of Rural Economy in Yunnan, London, 1948 and Marriot, M.(ed.)Village India: studies in Little Community. Chicago, 1950

4 — Redfield, R.; Peasant Society and Culture, Chicago 1956 pp. 8—9.

مستقلا بذاته ، ولهذا كان البحث الانثروبولوجى يدور فى دائرة هذا المجتمع وفى ثقافته ،ولم يجد الباحث نفسه مضطرا لأن يبحث فى علاقة هذا المجتمع بأى مجتمع آخر قريب أو بعيد،ولكن الباحث حين يتحول لدراسة المجتمع القروى فانه سيجد حقلا مختلفا ، فثقافة هذا المجتمع مثلا ليست مستقلة كثقافة المجتمع البـدائى لأنها جزء من ثقافة المدنية التى تقع فى أطارها . ولهذا لا يستطيع الانثروبولوجى أن يطبق مناهجه الاولى فى دراسة المجتمع القروى على أنه ثقافة كاملة . وفى أثناء الدراسة سيجد أمرين يصدقان على هذا المجتمع ولا يصدقان على المجتمع البدائى :

١ — الثقافة القروية لكى تدوم تتطلب اتصالا مستمرا بمجموع الافكار التى تنبعث من خارجها لان حياة القرية العقلية والدينية ليست كاملة بل هى ناقصة دائما حتى أنه اذا نظرنا إليها على أنها مجموعة أنساق متزامنة Synchronic فسوف لا يمكن أن تفهم من خلال ما يجرى داخل أذهان القرويين أنفسهم .

٢ — ولهذا فان القرية — على هذا النحو — تدعونا الى البحث فى التفاعل بين مجتمعها وبين مراكز المدنية . فالثقافة القومية لها تاريخ ملموس ونحن مطالبون بدراسة هذا التاريخ . وهذا التاريخ ليس محليا ، بل أنه أنه تاريخ مدنية تكون القرية وثقافتها فيه عبارة عن تعبير محلى واحد لها(1)

ومعنى ذلك أن الأنثربولوجى الذي لم يكن يهتم بتاريخ المجتمع البدائى بسبب عدم وجود وثائق أو مصادر تاريخية لهذا المجتمع ، ولافتراض عدم التغير فى بنائه أو ثقافته كثيرا لمدة طويلة من الزمان ، فانه مضطر الآن نتيجة لتغير موضوع الدراسة من حيث العلاقات والمؤثرات الخارجية التى

(1) Dube, S.,C., Indian Village, London, 1956 pp. 3—7 and Embree, Op cit., p. XI.

لابد من إدراك أثرها على هذا الموضوع ليمكن إدراك بنائه وثقافته ادراكا صحيحا ، أن يعتمد على التاريخ والمصادر والوثائق التى قد تكشف عن التطورات أو الاحداث التى تعرضت لها القرية أو المجتمع القروى — الموضوع الجديد — نتيجة لكونها جزءا لا يتجزأ من مدنية كبيرة لها تاريخها ولها اتجاهها المميز . وردفيلد Redfield بهذا المطلب الجديد فى الدراسة الانثروبولوجية للمجتمعات القروية يضيف مهمة صعبة — لابد منها — على كاهل الانثروبولوجيين ، خصوصا وأن المصادر التاريخية والمؤرخين لايتعرضون الا فيما ندر لاحوال القرى أو يصفون الحياة فيها بصورة لاتفيد الدراسة الانثربولوجية كثيرا . أما اذا كان الهدف أن نربط بين الاحداث التاريخية فى المدنية التى تكون القرية فيها جزءا غير مستقل بذاته بطبيعة الحياة الاجتماعية فيها ، فهذا أمر عسير التحقيق أيضا . ولكن انتماء المجتمع القروى لمدنية كبيرة يفيد فى ناحية هامة ، هى احتمال وجود عناصر التشابه الهامة بين الأجزاء المكونة لهذه المدنية قرويها وحضريها ، الامر الذى يمكن معه تحديد الأنماط الممثلة للدراسة المقارنة ، وبالتالى يمكن رد الاختلافات التى قد تكون موجودة بين هذه الانماط الى ظروف متضمنة فى هذه المدنية نفسها أو فى الاوضاع الايكولوجية التى تقع فيها .

وهذا يؤدى بنا الى النظر الى القرية من زاويتين : الزاوية الأولى أنها وحدة تنظيم المجتمع القروى، بمعنى أنها أساس التنظيم الإدارى شأنها فى ذلك شأن القرى فى جميع انحاء العالم، كالقرية الهندية على سبيل المثال . ولكن هذا القول لا يعنى أن القرية لها نفس الخصائص فى كل المجتمع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة . فهذا التشابه بين جميع القرى لم يقم عليه الدليل بعد على الرغم من أن الشائع عن القرى أنها متشابهة الخصائص . وذلك أمر فى رأيى بجانبه الصواب من عدة جوانب نظرا للاختلافات التى نجدها فى

نماذج القرى تبعا للقرب أو البعد من المدينة أو المواصلات ، وتبعا للحجم والسكان ومساحة الأرض وتوزيع الملكية ، وكل ما يمكن أن نفضى به الآن أن القرية ولو أنها وحدة تنظيم المجتمع الريفى إلا أنها من حيث الخصائص تمثل منطقة محدودة لها من الظروف والشروط ما يؤدى الى تشابه خصائص القرى التى تقع فى هذه المنطقة [١] والزاوية الثانية انها جزء لا يتجزأ من مجتمع أكبر وهذا يعنى أنها ليست منعزلة أو مستقلة أو ذات ثقافة متمايزة بذاتها (٢) .

والقرية طالما أنها وحدة من تنظيم أكبر وليست منعزلة تماما عن الظروف العامة التى تعيش فيها الاجزاء الأكبر منها ، فانها ولا شك تتأثر بالإتجاهات العامة للثقافة الكلية السائدة فى المجتمع الكبير . وهذه نقطة مهمة لا بد من ايضاحها منذ البداية حتى يمكن أن نضع سكان القرية فى مكانهم من مجموع السكان على اختلافهم لأن القرية كما سنعلم فيما بعد تتأثر بعوامل داخلية وخارجية ، وقد تختلف القرى فيما بينها فى مدى تأثرها بالعوامل الداخلية بحسب ما تكون عليه هذه العوامل من قدرة على التأثير ، أما العوامل الخارجية فانها تتصل اتصالا مباشرا بطبيعة الثقافة الكلية للمجتمع الكبير ومبلغ تأثرها هى نفسها بعوامل التغير الكبرى ، وإنتشار هذه الآثار من مراكز القوة والفكر الى المجتمعات المحلية الصغيرة . وربما كان ذلك أهم ما يفرق القرية باعتبارها مجتمعا محليا عن المجتمع البدائى (٣)

1 — Bube, S.C. ; Indian Village, London, 1956 .PP. 3 — 7 and Embree ; Op cit. , P. XI,

2 — Redfield,R. , Op. cit. , PP. 23 –24.

3 — Fei H — T ; Chin — I; Earthbound China, London, 1948, pp. 12—18.

وهذا يجعلنا نتساءل عن الصفة العامة التى نطلقها على سكان القرية ، لأن السكان فى المجتمع البدائى لا يتمايزون كثيرا الا من حيث المركز الإجتماعى Social status والدور Role الذى يلعبه الفرد فى حياته العامة والذى يحدد علاقاته الخاصة والعامة بالآخرين . وقد درج كثير من الباحثين فى الحياة الريفية على اطلاق لفظ القرويين أو الفلاحين على سكان القرى دون تمييز ، كأن اللفظين يحملان نفس المعنى أو يؤديان نفس الغرض . ولكننى فى هذه الدراسة العلمية للمجتمع الريفى افترض بالضرورة وجود مجتمعات أخرى فى الجمهورية العربية المتحدة تتمايز من حيث الإصطلاح أو الصبغة العامة لها وما يمكن أن يتصف به مظاهر نشاط السكان العامة ، والقسم الرئيسى الذى يقابل المجتمع الريفى هو المجتمع الحضرى وسكانه يمثلون مجموع سكان المدن على اختلاف انواعها وعلى اختلاف درجات التخصص والتركيز فى كل منها . ودراسة للمجتمع الحضرى لا بد ان تعنى بطبيعة السكان من حيث اتجاهاتهم العامة ونوع المهن السائدة وطريقة كل منهم المميزة فى الحياة . ومثل هذه العناية بوصف طبيعة السكان تنطبق بالتالى على القرية .

وأول ما أشير اليه ، ضرورة تعريف المجتمع القروى ، واكثر التعريفات التى آراها منطقية على القرية فى الجمهورية العربية المتحدة أنها « نموذج له طريقة معينة فى الحياة تعتمد أساسا على الزراعة » . وردفيلد Redfield فى هذا المقام يعرف المجتمع القروى بانه نموذج أو طبقة غير محددة تماما ، والقرية Peasant society على هذا الأساس وكنموذج ليست محددة أو متميزة كما تتميز الطيور عن الثدييات . ويعتقد أن كل تعريف سنرتضيه سنجد فى مقابله تعريفات متناقضة ، لأن البعض قد يختار تعريفا ينطبق على عدة مجتمعات متجاورة وقد يختار هو مجتمعات متجاورة أو بعيدة وهكذا . وقد يذهب

بعضهم الآخر مثل Raymond Firth الى ان اصطـــلاح المجتمع القروى Peasant society ينطبق على كل مجتمع يتـكون من عـدد من المنتجين الصغار لغرض الاستهلاك الخاص (١). ولكن تعريف فيرث Firth هـذا يخرج المزارعين الذين يزرعون الارض عن طريق الغير لغرض الإستغلال. وهم بالضرورة موجودون فى اغلب القرى نتيجة لعدم وجود نظام معين فى توزيع الملكية وقد ينطبق هـذا التعريف على بعض المجتمعات التى تساوى فى الملكية الزراعية بين سكان القرية الواحدة ولا ينطبق على المجتمعات ذات النظام الإشتراكى أو الشيوعى.

أما التعريف الذى حاولته فانه وان كان يتفق مع الإتجاه العام لتعريف ردفيلد الا أنه اكثر منه تحديدا. وقد يرجع ذلك الى التمايز الواضح بين المجتمع القروى فى الجمهورية العربية المتحدة وغيرها من انواع المجتمعات الأخرى. ولكن سأسير مع Eric Wolf فى قسمته المجتمع القروى الى طبقتين متمايزتين الاولى « القرويين » الذين يملكون ارضا أو يزرعون ارضا عن طريق الإيجار ويعيشون وتكون طريقتهم فى الحياة معتمدة على الأرض، وليست الزراعة بالنسبة لهم عملا مربحا، والثانية أولئك «المزارعون» الذين ينظرون الى الأرض على انها مصدر من مصادر الربح وهى أيضا عبارة عن نوع من انواع رأس المال (٢). وقد توحى هـذه القسمة الطبقية فى المجتمع القروى الى قرويين ومزارعين انى اخرج هؤلاء الأخيرين من الأطار الريفى، فبعضهم يعيش فى القرية طوال حياته وبالتالى يتأثر بنظم الحياة فيها، وبعضهم يعيش فى القرية بعض الوقت، والبعض الآخر لا يعيش فى

1 — Redfield R.; Op· ,cit; PP. 26—28.
2 — Ibid., PP. 89,30.

القرية اصلا وانما يتصل بها عن طريق موظفين مقيمين اقامة دائمة فى القرية، وإخراجهم أو ابرازهم على هذا النحو يشكل صعوبة كبيرة فى الدراسة، وقد تؤدى الابحاث التى تدور عن طريقتهم فى الحياة الى نوع من الخلط والتعقيد. خصوصا وان مثل هذه الطبقة ليست موجودة فعلا فى القرى الثلاث فى عهودها القديمة، وأنما بدأت تظهر مؤخرا ولم يكن لها أثر يذكر فى الحياة الإجتماعية بعد أن بدأت عوامل التغير المتتابعة تغير من الاتجاهات العامة لهذه الحياة، وانما اذكر هذه القسمة هنا من الناحية النظرية فقط. وقد تفيد هذه القسمة فى دراسات أخرى لاجزاء من المجتمع القروى تكون ظاهرة الاثر فى حياة السكان، بحيث يمكن ان تصلح أساسا فى اختيار نموذج آخر للمجتمعات القروية تمكن معه الدراسة المقارنة بين مختلف النماذج، وهذا يتفق مع ما أشار به فى وشانج Fei & Chang فى دراستها للاقتصاد الريفى فى مقاطعة يونان Yunnan بالصين حين يعتقد أن جريا وراء تعاليم ردفيلد أن دراسة المجتمع المحلى تكون علمية عندما ندرس هذا المجتمع بالإشارة الى مسائل لها أهمية عامة. لأن أهم ما يشغل الباحث فى هذا الصدد هو اختيار النموذج على أساس بعض الظواهر المهمة التى تميز هذا المجتمع من غيره وفى نفس الوقت يكون ممثلا لعدة مجتمعات تتشابه من حيث وجود هذه الظواهر فيها. وبذلك تكون مسألة التصنيف الثقافى Cultural Taxonomy كاشفة لطبقات متمايزة من المجتمعات المحلية (١) وعلى هذا الأساس، ربما لو انتقينا طائفة اخرى من القرى تكون القسمة بين القرويين والمزارعين واضحة لاستطعنا أن نقيم نموذجا آخر من المجتمعات المحلية غير النموذج الذى يمثل القرى الثلاث موضوع الدراسة الحالية (قيطون — هلا — كفر الشيخ) وهكذا نمضى تحديد النماذج التى تمثل مختلف المناطق الثقافية كبداية لمرحلة الدراسة المقارنة الحقيقية.

(1) Fei & Chang, Op. cit, p. 15.

وخلاصة القول أن روبرت ردفيلد فى محاولته وضع « قواعد المنهج » لدراسة المجتمعات القروية نقد – كما سنرى فيما بعد – الاتجاه الأنثروبولوجى القديم فى دراسة المجتمعات البدائية الذى يعتبر أن كلا منها وحدة قائمة بذاتها دون اهتمام العلاقات الخارجيـة . وحاول أن يبين أنه فى الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة يحرص الباحثون على إدراك المجتمـع المدروس فى علاقته بالمجتمعات الأخرى القريبة والبعيدة . وعلى الأخص كلما كانت هذه العلاقة ذات أثر على النسق الإجتماعى أو السياسى ، كما هو الحال فى النوير ، التى لم يغفل إيفانز بريتشارد علاقته بالدنكا Dinka و «الحكومة البيضاء » وأثر ذلك خاصة على النسق السياسى ، المحـور الذى قامت على أساسه الدراسة . (1) وحاول أيضا أن يعقد مقارنة بين دراسته لقرية شان كوم وبين النوير على أساس أن كلا منهما مجتمع داخل عدة مجتمعات أخرى متشابهـة أو مختلفة . (2) ومن ثم استطاع أن يبرهن على أنه إذا كانت المجتمعات البدائية تدرس على النحو السابق فان الحاجة إلى تطبيق هذا الإتجاه تكون أكثر إلحاحا فى المجتمعات القروية التى تتميز بانتمائها إلى مجتمع أكبر منظم تشرف عليه حكومة واحدة تعمل على التنسيق والتوجيه خصوصا فى ميادين الإقتصاد والسياسة والدين . وهكذا كانت فكرته هذه أساسا لعدد من الدراسات القروية التى أجريت فى مناطق متعددة من العالم ،أجراها معاونيه وتلاميذه .

لكن إلى أى حد تصلح هذه الفكرة فى دراسة القرية فى الجمهورية العربية المتحدة ؟ الواقع أنه من الخطأ الآن دراسة أى مجتمع محلى مهما

1 — E. E. Evans — Pritchard, The Nuer Oxford, 1940, pp. 114, 261.

2 — R,Redfield,The Little Communiiy, Chicago, pp. 116—124

كان صغيرا فى أى جهة من العالم دون إدراك العلاقات المتعددة التى يرتبط بها بالمجتمعات الأخرى القريبة والبعيدة .

ولكن الأمر يختلف حين ندرس قرى معينة فى فترات محددة من تاريخها من وجهة نظر التغير الاجتماعى ، ولا يختلف الأمر فقط ، بل يصبح صعبا للغاية خصوصا إذا كانت هذه القرى لم تدرس من قبل ، وليست هنـاك معلومات تاريخية يمكن الإفادة منها فى رسم صورة حقيقية لها فى الفترة التى يراد مقارنتها بالفترة الحالية . إلى جانب أن الاعتماد على ذاكرة كبار السن لفترات أطول مما تعيه ذاكرتهم وتجربتهم المباشرة قد يؤدى الى الحصول على معلومات مبالغ فيها أو ذات صبغة خيالية . كما أن الاعتماد على « التطور الاقتصادى والاجتماعى » للمجتمع لن يفيد إلا فى اعطاء فكرة عامة لا تصلح فى إلقاء ضوء مميز فى دراسة محددة لقرى بذاتها اختيرت كنموذج معين . ولهذا فاننى أعتقد أن دراسة أحوال القرى فى فترة « ما قبل التغير » يمكن أن « تجرى من الداخل » باعتبار أن كل قرية كانت مجتمعا كاملا قائما بذاته ، أما دراستها الآن فانها تكون على أساس اعتبار كل منها « جزءا » أو مجتمعا داخل عدة مجتمعات أخرى قريبة أو بعيدة . ومما يعزز هذا الاتجاه أن العلاقة القديمة بين « الطبيعة والإنسان » كانت الى حد كبير عاملا هاما فى تحديد طبيعة العلاقات داخل القرية وخارجها . وخصوصا بعد تثبيت ملكية الأرض عقب صدور القانون المدنى الأهلى فى ٢٨ ديسمبر عام ١٨٨٣ ، الأمر الذى جعل اعتماد القرية أو تأثرها بالخارج فى الحد الأدنى . أما التشابه بين القرى فى هذه الفترة فانه فى واقع الأمر كان راجعا إلى العلاقة المتشابهة بين الأرض والسكان ، وهى العلاقة المتغيرة التى كانت من أهم عوامل التغير بعكس « العلاقة الدائمة » بالمجتمع الكبير وما قد يكون لها من آثار فى هذا التشابه يمكن أن يجدها البعض عاملا أول فى التفسير أكثر صدقا

من العلاقة بالأرض . ولهذا إذا أشرت الى القرية « كجزء » فيما بعد فانني أقصد « القرية الآن ».

النموذج فى المجتمعات القروية

كيف إذن يمكن دراسة المجتمعات القروية ؟ هل الطريقة المثلى أن ندرس كل قرية على حدة ؟ أم أن هناك طريقة أكثر تجريداً من هذا الاتجاه ؟ الواقع أن دراسة القرى فى كل أنحاء العالم كل على حدة أمر صعب للغاية ، بل إنه مستحيل التحقيق ، ففى الهند وحدها ما يقرب من ٥٠٠٫٠٠٠ قرية وفى الصين ما يزيد على نصف مليون قرية ، وفى الجمهورية العربية المتحدة ما ينوف على أربعة آلاف قرية . ولذلك كان على الأنثروبولوجيين الذين حولوا اهتمامهم لدراسة الحياة الريفية، حتى لا ينغمسوا فى دراسة تفصيلية للقرى أينما وجدت كما كان اتجاههم فى دراسة المجتمعات البدائية، أن يجدوا طريقة أخرى. وخيرما اهتدوا إليه طريقة النماذج الممثلة Representative types ومع صعوبة هذه الطريقة فانهم ماضون فى وضع قواعد متغيرة بحسب المنطقة محل الدراسة يختارون على أساسها النموذج . وقد تعرض دوبيه Dube لهذه الصعوبة عندما شرع فى دراسة القرية الهندية ، واقترح أن تصنف القرى الهندية على أساس عدد من المقاييس لنخرج فى النهاية بعدد من النماذج. ومن المقاييس التى أشار بها، حجم القرية وعدد السكان ومساحة الأرض الملحقة بها ، والتكوين العنصرى والطائفى ، ونظام ملكية الأرض ، ووراثة السلطة ، ودرجة العزلة ، والتقاليد المحلية . خصوصا وأنه وجد أن كل منطقة ثقافية فى الهند لها طريقة خاصة فى تصنيف القرى بحسب الحجم والسكان فاذا أدخلنا فى اعتبارنا المقاييس السالفة ، سنجد من الصعب أن نعتبر قرية واحدة ممثلة للريف الهندى ككل ، ولذلك تصبح دراسة عدد من المجتمعات

القروية فى الهند وفى أجزاء متعددة منها ضرورية لإقامة النماذج المتمايزة حتى يتيسر إبراز الخصائص العامة للحياة الريفية فى الهند عامة [1] ، ويلاحظ أن المقاييس التى وضعها دوبيه لتصنيف القرى الهندية لا يمكن أن تصلح كأساس لتصنيف القرى فى أى مكان من العالم وفى الجمهورية العربية المتحدة خاصة ، وذلك لطبيعة انقسام سكان الهند إلى عناصر وأجناس وطوائف مختلفة يكون لها أثر فى تنظيم الحياة القروية وإعطاء كل قرية طابعا خاصا على الأقل . ولا يمكننا إذا وضعنا مثل هذه المقاييس أو بعضها لتصنيف القرى فى مجتمعنا الريفى أن نضع الدين مثلا كمقياس يمكن أن نضع على أساسه القرى فى طبقات متمايزة، لأن اختلاف الدين لا يؤدى الى تغير يذكر فى الاتجاهات العامة فى القرية الواحدة أو فى المنطقة الثقافية بأسرها . وربما يصلح تقسيم دوبيه للهند وحدها . ومع ذلك يعود دوبيه Dube ليفرد للقرية الهندية أيا كان موقعها الجغرافى أو وجودها فى منطقة ثقافية بعينها خصائص متشابهة ، وطبيعى أنه من الممكن أن نعين خصائص للقرية فى أى مجتمع زراعى فى أى جزء من أنحاء العالم بناء على طبيعة التفاعل بين الأرض (المزروعة) والسكان الزراعيين ، مع ملاحظة الخصائص القومية المميزة لكل أمة عما عداها [2] .

كذلك وجد نفس الصعوبة جون امبرى J. Embree فى دراسته للقرية اليابانية وقال أن سوهى مورا Suye Mura وهى القرية التى درسها لا تمثل الريف اليابانى كله ، ولكنه رغم أنها على الأقل تمثله من عدة نواح ، لأن معظم قرى اليابان تعتمد اقتصاديا على محصول واحد ، والأساس الاقتصادى

1 . Dube, S. C. Indian Village, London, 1956, p. 3—7

2 — Handlin, Oscar, Op. cit., p. 37.

العام هو انتاج الأرز والسمك وبها عدد كبير من المحلات حول مدينة صغيرة تقع على طريق حديدى وبها عدد كبير من المحلات التجارية.[1] وربما كان زعم أمبرى هذا يكون أقرب الى الدقة لو أن قرى كثيرة فى عدد من مناطق اليابان درست ووجدت مماثلة أو مشابهة للقرية التى درسها ، ولأصبح من الممكن عن طريق مقارنة المتشابهات والاختلافات اعتبار قرية واحدة أو عدة قرى أخرى من مناطق مختلفه ممثلة للحياة الريفية اليابانية . وهذه الصعوبة تبرز عند دراسة المجتمع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة الذى يمكن قسمته الى منطقتين ثقافيتين كبيرتين هما الوجه البحرى والوجه القبلى ، وهذا لا ينفى احتمال قسمة كل منها الى مناطق فرعية ، ولهذا لا يمكن الزعم أن دراسة قرية أو عدة قرى من الوجه البحرى أو الوجه القبلى تعطى فكرة ولو عامة عن نموذج الحياة الريفية فى كل منهما ، لأن القرى تمايز أحدها عن الأخرى سواء فى شمال الجمهورية أو جنوبها لعدة اعتبارات ، منها حجم القرية وعدد السكان وتوزيع الملكية والبعد أو القرب عن طريق للمواصلات والبعد أو القرب أيضا عن المدن الصغيرة أو الكبيرة وهكذا . وهنا تنشأ صعوبة أخرى هل تكون المقارنة بين القرى لاستخراج النموذج شاملة لجميع نواحى الحياة الاجتماعية ، بحيث أن كل اختلاف مهما كان بسيطا يخرج القرية عن النموذج المقترح ؟ الواقع أن الأنثروبولوجيين المهتمين بالدراسات الريفية والبدائية معا على أساس النموذج لا يقيمون وزنا للانحرافات البسيطة التى قد تكون نتيجة لظروف محلية أو عوامل مؤقتة أو عارضة، ويلحقون المجتمع البدائى أو المحلى بالنموذج طالما كانت الخصائص الرئيسية واحدة أو متشابهة على الأكثر.

1 — Embree, J.: A Japanese Village : Suye Mura ,London, 1946. p. XI.

ويقول رادكليف براون Radcliffe — Brown أن الأشكال العديدة المختلفة للمجتمع الإنسانى لابد أن تصنف أولا وفق نظام معين وعند مقارنة المجتمعات أحدها بالآخر علينا أن نميز وأن نحدد النماذج المختلفة . وهكذا فان السكان الأصليين فى استراليا قسموا إلى ما ينوف على مائة قبيلة، كل لها لغتها وتنظيمها وعاداتها ومعتقداتها ولكن فحص عينة كافية تبين أن وراء الانحرافات المحددة تشابها عاما يمكن معه أن نؤلفها وندرجها تحت شكل واحد هو النموذج الاسترالى Australian Type .

والنموذج هو فى الحقيقة تجريد ، ولكنه تجريد يختلف قليلا عن الحقيقة المشخصة ، وعندما نحدد عددا من النماذج بدقة يمكن بدورنا أن نقارنها أحدها بالأخرى ، وعندئذ نستطيع أن نخطو خطوة أخرى نحو التجريد[1] .

وعندما نحاول تصنيف المجتمعات الإنسانية فاننا نواجه بصعوبات لا تقوم فى العلوم الأخرى مثل علم الحيوان أو الكيمياء . فقد يتشابه مجتمعان أو نموذجان فى وجه واحد من النسق الاجتماعى الكلى ويختلفان فى الآخر . ولهذا كان من الضرورى أن نقارن مجتمعات بالاشارة إلى جزء أو ناحية محددة من النسق الاجتماعى الكلى كان يشير الى النسق الاقتصادى أو السياسى أو القرابة[2] .

ولذلك فان دراسة فى المجتمع الريفى من الجمهورية العربية المتحدة على أساس رأى رادكليف براون السابق تقتضى مرحلتين : أولهما مرحلة اختيار النموذج والثانى مرحلة المقارنة بين النماذج المختارة . كما أن اختيار النموذج لا يمكن أن يتم بطريقة عشوائية ، بل ينبغى أن يقوم هو الآخر على أساس

1 — Redcliffe-Brown in, Fortes & Evans—Pritchard ;African Political Systems , London, 1955, p. XII.

2 — Radcliffe- Brown ; Op. cit. ; p. XII

من الدراسة المقارنة سواء كان الاختيار على أساس تطبيق الخصائص العامة لمجموع أجزاء البناء الاجتماعي أو بالنسبة لأجزاء منه ، وهذا ما سأعود لبحثه فيما بعد عند الكلام عن خطة الدراسة في المجتمعات القروية ، ولكن تجوز الإشارة هنا إلى أن وصف النموذج للمجتمع المحلي قد كافيا إذا استطعنا أن نحدد الخصائص التي تميز هذا النموذج وقد حاول البعض أن يصلوا الى ذلك عن طريق إبراز الخصائص أو الصيغ الرئيسية للثقافات . ولكن يبدو أن هذه المحاولات لا تزال غير ناضجة [1] . وقد يكون من الأوفق أن نبدأ التصنيف الثقافي من المستويات الدنيا ، أي نبدأ من المستويات الأقل تعقيدا إلى المستويات الأكثر تعقيداً . وهذا ما يبرر المحاولات التي يقوم بها الأنثروبولوجيون اليوم في تصنيف المجتمعات البدائية والقروية على السواء لغرض الدراسة المقارنة التي سوف تؤدي متى تضافرت الجهود وارتفع مستوى التجريد إلى إقامة علم الاجتماع المقارن على أساس سليم . ولهذا ففي دراسة اقتصادية تمايز النماذج التي نختارها على أساس النظم الاقتصادية ، كذلك إذا كنا بسبيل دراسة التغيير الاجتماعي ، فان اختيار النموذج هنا يكون على أساس تشابه آثار التغير الاجتماعي في النموذج الواحد واختلافه بالنسبة للنماذج الأخرى وهكذا . وفي اختيار النموذج في المجتمع الريفي من الجمهورية العربية المتحدة يمكن إذا سلمنا بتشابه خصائص المجتمعات القروية في جميع أنحاء العالم كما أشار إلى ذلك أوسكار هاندلن Oscar Handlin [2] أن نضع المقاييس الآتية له مع مراعاة الخصائص العامة للغالبية العظمى من القرى :

1 — Fei, Hsiao-Tung; Chang Chin—I; Earthbound China ; A Study of Rural Economy in Yaunan, London, 1848, p. 15.

2 — Handlin, Oscar ; Op. cit., p. 37.

أ - الأرض من حيث المساحة والجودة .

ب - توزيع الملكية من حيث عدد الملاك والمؤجرين للأرض أو العاملين فيها .

ج - السكان من حيث تزايدهم أو تناقصهم ومدى اعتمادهم على الأرض في حياتهم .

د - العائلة باعتبارها أو أحد أقسامها أساس التنظيم القروي .

هـ - القرية أو البعد عن المدينة أو طرق المواصلات أو المصانع .

وأغلب الظن أننا سنجد علاقة الأرض بالسكان والقرب أو البعد من المدينة أو طرق المواصلات أو المصانع من المسائل الهامة التي قد تؤدي الى وجود عدة نماذج من المجتمعات القروية يمكن تمييزها لغرض الدراسة العلمية المقارنة . ويلاحظ أننا قد نجد نماذج للقرى تختلف على أساس أحد هذه المقاييس الخمسة أو على أساسها جميعا على النحو التالي :

أ - الأرض : لا تتماثل خصوبة الأرض الزراعية في الجمهورية العربية المتحدة بأسرها ، فشمال الدقهلية مثلا أقل خصوبة من جنوبه . كذلك تقل هذه الخصوبة في المناطق المجاورة للصحراء أو القليلة المياه أو في الأراضي المستصلحة حديثا . وما من شك أن خصوبة الأرض لها أثر واضح في مبلغ اعتماد السكان عليها كأساس في حياتهم الاقتصادية . ولهذا تصلح خصوبة الأرض الزراعية كمقياس لتحديد عدد من نماذج القرى . ولكن يلاحظ أن هذه النماذج في هذه الحالة تكون قليلة نسبيا لأن الغالبية العظمى من القرى تقع وسط أرض خصبة .

ب - توزيع الملكية : الإحصاءات المتعددة لتطور الملكية في الجمهورية

العربية المتحدة تكشف عن الاختلافات الكبيرة والفوارق فى توزيع ملكية الأرض الزراعية قبل عام ١٩٥٢ . وقد ترتب على ذلك أن كانت هناك قرى بأ كملها يملك أرضها الزراعية مالك واحد ، وبعضها يملك مالك واحد أيضا نصف مساحتها ، والبعض الآخر تكون الفوارق بين « العائلات » واضحة . إلا أن هناك عددا من القرى يكون الملاك فيها فى أغلب الأحيان « من صغار الملاك » . وما من شك أن طبيعة توزيع الملكية تؤدى الى اختلافات متعددة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية بين القرى . ولهذا كانت نماذج القرى على أساس طريقة توزيع الملكية تؤدى إلى إقامة نماذج محددة مختلفة بطريقة واضحة تصلح أساسا لدراسة آثار علاقة الإنسان بالأرض كما فى دراسة فى وشانج فى الصين (١) .

جـ ـ السكان : هناك قرى يسكنها مسلمون فقط ، وأخرى يسكنها مسلمون وأقباط معا ، وقرى أيضا كانت « عزبا » وكبرت بعد ذلك نتيجــة للهجرة وأصبح تكوينها السكانى مخالفا للقرى القديمة من حيث وجود العائلات والبدنات كأساس فى البناء الاجتماعى . كل هذه الاختلافات يمكن أن تؤدى الى وجود نماذج مختلفة من القرى .

د ـ العائلة : يلاحظ أن هناك قرى صغيرة تتكون من بدنة واحدة بفروعها المختلفة من العائلات ، وهناك قرى كبيرة تتكون من عدة بدنات متمايزة لكل منها « أصل معروف » يختلف عن « الأصول » الأخرى للبدنات الأخرى . وثمة قرى أيضاً تتكون من بدنة واحدة كبيرة وعدد من العائلات المهاجرة أو مجهولة الأصل ... وهكذا . وهذه الاختلافات فى التكوين العائلى تصلح أساسا فى إقامة نماذج للقرى التى تمهد للدراسة المقارنة .

I — Fei, Chang. Op. cit . p. IX.

هـ ـ البعد النسبى عن المدن : ويلاحظ أن عددا من القرى يكون قريبا من المدن أو مراكز الصناعة أو يقع على طرق المواصلات الحديدية أو الزراعية المنظمة ، وبعضها الأخر يكون فى شبه عزلة أو بعيدا عن المدن .. وهكذا ، وما من شك أن البعد أو القرب من المدينة يصلح فى تحديد عدد من نماذج القرى المختلفة .

ومع أن كلا من المقاييس السابقة تصلح لتحديد النماذج بحسب الغرض من الدراسة إلا أننى جعلتها جميعا أساسا فى تحديد النموذج الذى درسته بغرض « تحديد » العدد الكبير من النماذج التى يمكن أن تترتب على جعل كل مقياس على حدة أساسا فى حد ذاته فى الاختيار .

القرية والطريقة الانثروبولوجية

١ ـ فى دراسة القرية المرتبطة بأحد المدنيات القديمة نواجه بصعوبة المنهج الذى يستخدم فى الدراسة خصوصاً بعد تجربة علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية الطويلة فى دراسة المجتمعات البـدائية . هل تعتبر دراسة القرية امتدادا لدراسة الشعوب البدائية وبالتالى فان طرق الأنثروبولوجيين يمكن تطبيقها بحذافيرها ؟ هـذا السؤال يثير تساؤلات كثيرة حول المنهج والموضوع معاً . فمن حيث الموضوع أعتاد الأنثروبولوجيون دراسة كل مجتمع بدائى دراسة مركزة Intensive satudy أى دراسة كل مظاهر الحياة الإجتماعية ومحاولة فهم ثقافة المجتمع باعتبارها ثقافة مستقلة غير متأثرة بثقافات أخرى ، ولهذا ظهر الإتجاه الثقافى فى دراسة هـذه المجتمعات ، حتى أن روث بندكت Ruth Benedict حاولت أن تتجـه إتجاها جشطلتيا فى الدراسة

بوضع صيغ عامة للثقافات البدائية التى درستها أو درسها غيرهـا [١] وقد كان من التبريرات التى بنى الأنثروبولوجيون عليها طريقتهم فى الدراسة أنهم يدرسون ثقافات تختلف عن ثقافتهم، ولهذا فعليهم أن يقدموا كل المضمون الثقافى فى دراستهم حتى يجعلوا ملاحظاتهم فى المجتمعات البدائية مفهومة عند الآخرين [٢] وفى هذا الصدد يعتقـد Chang, Fei أن الأنثروبولوجيين حين يتعرضون للدراسة المركزة الشاملة فإنهـا تكون فى نفس الوقت على حساب امتداد ميدانهم، ذلك لأن دراسة مجتمع دراسة كلية تقتضى من الباحث أن يحدد ميدان ملاحظته فى منطقة صغيرة حتى يستطيع أن يشارك هـو نفسه فى حياة المنطقة كلية، وعندذلك ينشأ السؤال الآتى : كيف يكون ممكنا أن ندرس كل مجتمع دراسة كلية خصوصا وأن المرء قـد يستغرق حياته كلها فى وضع سجل كامل عن سلوك فرد واحد [٣] وطبيعى أن chang, Fei يعبران عن الإتجاه العام للدراسة الأنثروبولوجية وهذا لا يعنى أن من باحثيها من لم يهتم بدراسة بعض الظواهر الاجتماعية فى بعض المجتمعات البدائية . وإذ كان مالينوسكى ورادكليف براون وإيفانز بريتشارد ينصحون بضرورة الإحاطة بكل نواحى الحياة الاجتماعيـة باعتبار أن كل جزء فيها فى علاقة تساندية (وظيفية) مع الأجزاء الأخرى، وفصل بعض الأجزاء ودراستها متصلة عن المجموع لن يؤدى إلى تمام فهمها خصوصـا فى مجتمعات صغيرة ذات ثقافة محددة . وقد كان هذا هو الإتجاه الغالب على الأنثروبولوجيين فى القرن التاسع عشر، وكان من طليعة العلماء الذين وضعوا قواعده تايلور Taylor وفريزر Frazer وماك لينان Maclenan، وسار على

---

1 — Ruth Benedict; Patterns of Culture, Londoen, 1953.

2—Fei; Chang op.cit., p. 13-14

3— Ibid, p. 14

منوالهم بعد ذلك مالينوسكى Malinowski ورادكليف براون وغيرهم ممن ذهب إلى أماكن بعيدة وعاش وسط مجتمعات صغيرة مكتفية بذاتها وسجل ملاحظاته بطريقة تؤدى إلى وصف ثقافة معينة ككل [١] ويؤيد كروبير kroeber هذه الحقيقة بقـوله «إن الوقت جاء على الأنثروبولوجيين حين كانوا يدركون ميدان دراساتهم المقارنة على أنه مكون من عدد كبير من الثقافات أو المجتمعات أو الأنساق الاجتماعية، كل منها يدرك منفصلا عن الآخـر . [٢] وقـد يكون هذا منطقيا لأن الأنثروبولوجيين قبـل أن يوسعوا ميدان دراستهم كانوا يدرسون مجتمعات صغيرة من ناحيـة عدد السكان أو المساحة أو تشعب العلاقات الاجتماعية، والتى تمتاز ببساطة الفنون الآلية والإقتصاد وقلة التخصص فى الوظيفة الإجتماعية إذا قورنت بالمجتمعات المتقدمة، إلى جانب عدم وجود تراث مكتوب وبالتالى عدم وجود أى علم أو فن أو لاهوت منهجى منظم [٣] .

وعلى الرغم من أن المجتمع البدائى يشابه المجتمـع القروى من بعض النواحى مثل أهمية روابط القرابة فى كليهما والعلاقات المباشرة بين الأفراد وصغر حجم السكان نسبيا، إلا أن هذه المتشابهات المشتركة لا يمكن أن تنهض سببا فى تطبيق الطريقة الأنثروبولوجية فى الدراسات البدائية على كل المجتمعات القروية . لأن خصائص المجتمـع البدائى التى جعلت الطريقة

---

1 — Redfield R ; op. cit., pp 6.,7

2— Kroeber, A.L ; Method and perspective in Anthropology (ed. by R. F. Spencer) univ. of Minnesota Press. I945. Quoted by Redfield, Op. cit., P.8.

٣ — الانثروبولوجيا الاجتماعية تأليف ايفنز بريتشارد وترجمة احمد ابو زيد ، الاسكندرية ١٩٥٥ ص ٢٥

السابقة صالحة ومؤدية للأغراض العلمية المطلوبة لا تصلح فى حالة المجتمع القروى الذى هو جزء من أمة كبيرة تسيطر حكومتها على الحياة الاقتصادية وتفرض القوانين وتتطلب من الأهلين أى يتعلموا فى مدارس الدولة ، ويقوم أساس الاقتصاد وفقا لمتطلبات الدولة، ويخضع القروى فى عقائده الدينية لتأثيرات خارجية قوية (١) حتى أن جلكمان Gluckman حين كان يدرس مجتمعات صغيرة وسط أفريقيا وجد أن علاقات النـــاس لا ينبغى أن تدرس داخل المجتمع الصغير ، ولـكن من المهم القاء الضوء على العلاقات التى يكونها المواطنون مع كثير من مراكز القوة التى تقع خارجه . ولهذا وجد نفسه وهو يطبق الطريقة الأنثروبولوجية التقليدية مضطرا لدراسة الدولة بأسرها، لأنه وجد تشابها بين عدد من المجتمعات الصغيرة نظرا لتفاعلهم المتشابه مع مراكز الدولة المختلفة ذات السلطة والنفوذ . (٢)

ولهذا تمثل دراسة القرية إتجاها جديدا فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية اليوم منذ أن بدأ الأنثروبولوجيون يدركون مجتمعاتهم الصغيرة التى يدرسونها على أنها أجزاء من كل اجتماعى وثقافى معقد، وأخذ أساتذة الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى انجلترا وفرنسا الذين كانوا غير معنيين بدراسة المجتمعات القـروية فى بلادهم ، يدرســون القـرى فى انجـلترا وويلز وأخذوا يبعثون بتلاميذهم الى النرويج أو غينيا البريطانية . واتجهت الدراسة الأنثروبولوجية فى أمريكا اتجاها آخر على يد Warner حين أخذوا تلاميذه يدرسون الدول القومية National States والشعوب المتحضرة بطرق مختلفة

1 — Embree, J. F; A Japanese Village : Suva Mura, London, 1946 p. XI.

2 — Redfield R. Op., cit p., 16

عن الطريقة الانثروبولوجية التقليدية . واتجه انثروبولوجيون آخرون من تلاميذ ردفيلد Redfield لدراسة المجتمعات القروية فى الهند والصين وفى الشرق الأوسط . وفى كل حالة يجد الباحث نفسه وسط مجتمع غير منعزل وغير مكتف بذاته ، ترتبط بمجتمع أكبر وثقافة أعم وإن حمل فى مظاهـره العامة بعض خصائص المجتمعات البدائية .

كل هذا اقتضى تعديلا فى موضوع الدراسة كما رأينا وفى الطريقة المتبعة فيها . فلم تعد الدراسة المركزة الشاملة ضرورية وأصبح من الممكن دراسة ناحية واحدة أو ناحيتين من الحياة الاجتماعية خصوصا إذا كان غرض الدراسة الأساسى المقارنة بين النماذج، وأبرز مثل على ذلك الدراسات التى أجريت على المجتمعات القروية فى الصين والهند .

ومن الناحية المنهجية أخذ الباحثون يعلقون أهميـة كبرى على ارتباط موضوع دراستهم بعلاقات أوسع لابد أن تكون محل نظر دائم حتى يكون تحليلهم للحياة الاجتماعية سائرا فى الاتجاه الصحيح ، كما أصبح ممكنا الاعتماد على الاحصاءات الرسمية والتاريخ اذا كان مستندا الى مصـادر موثوق بها (١) وأصبح من الملائم الاعتماد على العمل الجمعى Tea mwork كما اتبع فى دراسـة بعض قرى الهند، وكما يفعل ورنر warner فى دراسة المجتمعات المتمـدنة . ومعنى هذا اننا كلما ارتفعنا عن مســتوى الانعزال والاكتفاء الذاتى والعلاقات المباشرة اقتربت منـاهج الانثروبولوجيا الاجتماعية من المناهج السوسيولوجية فى اعتمادها على الاحصاءات والوثائق وصحائف الاستبيان وجداول الحصر وغيرها . وفى الـــكتاب الذى أشرف عليـه ماريوت (٢)

1 — Dube S C. , Indian Village, London, 1656 , pp. 9,10

2 — Marriot N. (ed.) Village India : Studies in the little Community, london, 1056

Marriot أمثلة لتعديل المناهج الانثروبولوجية عند دراسة المجتمعات القروية والتى بنيت على أساس الأفكار التى اوردها ردفيلد فى كتابه الذى صدر مؤخرا بعنوان The little community

ب — ما هى اذن التعديلات الأساسية التى يجب أن تكون فى الاعتبار عند دراسة المجتمعات القروية ؟ وماهى الفروق الاساسية التى سوف نلاحظها بينها وبين المجتمعات البدائية ؟ الانثروبولوجيا الاجتماعية كما قدمنا كانت تنظر الى المجتمعات البدائية ككل منعزل مستقل بذاته ، وهذه النظرة ادت الى دراسات عديدة لانظمة اجتماعية يختلف كل منها عن الآخر دون أن يكون بينها أساس مشترك . ففى دراسة البناء الاجتماعى يهم جدا بالدور role والمركز status الذى تعترف به تقاليد المجتمع فهناك آباء وأبناء وكهنة واهلين ورؤساء وناس آخرين . وهذه الادوار والمراكز تدوم بينما لا يدوم الافراد الذين يشغلونها او يقومون بها . ولهذا يدرك المجتمع البدائى على أنه تنظيم يشتمل على أكثر هذه الادوار والمراكز دواما وأهمها والعلاقات التقليدية بينها ، واذا كان الباحث يدرس هذه العلاقات داخل مجتمع منعزل فانه سيجد كل ما يتعلق باطار هذه الادوار والمراكز ومضمونها داخل المجتمع ولن يضطر الى تتبع علاقاتها الخارجية .. ولكن الانثروبولوجى الذى يدرس القرية عن طريق استخدام مفهومات البناء الاجتماعى فانه سيجد أجزاء مهمة من هذا البناء غير موجودة فى القرية،وذلك حين يبحث عن طبقة الحكام الاداريين الذين اذا كانوا موجودين فى القرية يكونون قسما متمايزا عن البناء الاجتماعى الاصلى للقرية . كذلك عندما تدرس الحياة الاقتصادية نجدها فى القرية تمثل جزءا مهما من حياة الأهلين بينما تكون فى المجتمع البدائى منفصلة الى حد ما عن محصلة الحياة الاجتماعية،وسنجد أيضا أن

فكرة السوق وهى تمثل حالة عقلية أو اتجاها عند القرويين ليس لها نظير فى حياة المجتمعات البدائية (١) .

هذا الى أن الانثروبولوجيا فى أوائل هذا القرن والى عهد قريب كانت تهتم بابراز الاختلافات بين الشعوب البدائية أكثر من اهتمامها بوجوه الشبه بينها ولعل دراسة فورتس Fortes وايفانز بريتشارد للنظم السياسية الافريقية تمثل اتجاها جديدا فى الانثروبوجيا باعتبارها محاولة للكشف عن وجوه التشابه بين المجتمعات البدائية الافريقية فى ناحية هامة من نواحى حياتها وهى التنظيم السياسى . ولعل العناية بالتشابه فى مجال الانثروبولوجيا لم يكن ممكنا فى أول الامر قبل أن تجرى الدراسات الحقلية على عدد كبير من المجتمعات البدائية ليتمكن العلماء بعد ذلك من ابراز عوامل التشابه والاختلاف واقامة النماذج الممثلة بعد ذلك عن طريق المقارنة (٢) فالمجتمعات البدائية وخصوصا البعيدة كانت تعرض أثناء الدراسة على أنها تكشف عن عادات متعارضة ووجهات نظر متضاربة . وعرفنا عن طريق دراسات من هذا النوع ان شعوبا لها طريقة واحدة فى الحياة قد يكون لكل منها نظاما اخلاقيا مختلفا أو نظرة متميزة الى العالم . . وهكذا . ولكن المهتمين بالدراسات الريفية من الانثروبولوجيين اتجه تفكيرهم الى أن القروية Peasantry متشابهة فى كثير من مناطق العالم على اعتبار أن الانشغال بالزراعة والاقامة فى القرى ، وقيام العائلة وحدة أساسية فى تنظيم مجتمع القرية يؤدى الى وجود خصائص عامة متشابهة تنطبق على السكان

---

1 — Fortes,M., Evans-Pritchard, E.E., African Politicel systems, London, 1b55.

8 — Redfield, Op. Cit., p. 48

القرويين فى كل مكان . ويصنف أوسكار هاندلن Oscar Handlin هذه الخصائص المتشابهة على النحو التالى (١): ارتباط بالارض ، اتصال بقرية متكاملة أو بمجتمع محلى ، أهمية مركزية للعائلة ، الزواج مسألة اقتصادية ، النسب خلال سلسلة الأب وكذلك فيما يتعلق بالسكن ، ارتباط قوى بين الالتصاق بالارض والعالم المحلى والحاجة الى زراعة محاصيل تدر النقود ... وهكذا . ويقول ردفيلد Redfield أن هذا الاتجاه أصبح عنده حقيقة واقعة عندما قرأ عن المجتمعات القروية فى عدة أماكن وفى أزمنة متعددة حتى أن ما كان يقرؤه ، يشعر بأنه معتاد عليه من تجربته الشخصية فى المجتمعات القروية عندما كان يدرس Maya Indians in Yacatan ويضيف أن القرية كانت عاملا محافظا فى التغير الاجتماعى وعقبة فى طريق اختلال التوازن أو انعدام التكامل الذى الذى يأتى عادة عقب التغير التكنولوجى السريع . ومع ذلك فان كثيرا من القرويين يتغيرون الان بسرعة جدا ، ويقول أن « القرية » ستصبح أثرا بعد عين . وأكثر مايضايق الانثروبولوجى أن ما كان ثابتا فى المجتمعات القروية أصبح غير ذلك . ففى كثير من القرى التى يقوم الانثروبولوجى بدراستها، يذهب القروى الى المدينة ليصبح عاملا فى مصنع أو حينما يتعلم يصبح عضوا فى الطبقة الوسطى بها (٢)

جـ — اذن يكون الاهتمام بدراسة المجتمعات القروية الآن ، داعيا الى اعادة النظر فى الطرق المستخدمة فى دراسة المجتمعات الحديثة أيضا . فقد وضح أن دراسة كل قرية على حدة على الطريقة الانثروبولوجية القديمة

---

1 — Handlin, Oscar, The Uprooted, Boston, 1951, p. 47 quoted by Redfield, Op.Cit., pp. 106, 107

2 — Redfield, OP. Cit., p. 137.

سيؤدى الى إضاعة جهد الباحثين فى جمع حقائق لا نهاية لها نظرا للعدد الضخم من القرى الموجود فى كل بلد زراعى او صناعى على السواء . ولهذا كان اختيار النماذج الممثلة أول خطوة فى تعميم الدراسة فى هذا الميدان ، ولا بد أن تعقبها الدراسة المقارنة لهذه النماذج لأن هذا هو الطريق الوصول الى التعميمات الضرورية لقيام علم الاجتماع المقارن الذى هو الهدف النهائى من الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية كما أشار الى ذلك حقا راد كليف براون ومن ثم كان جمع الحقائق عن المجتمعات القروية ، لا بد أن يكون موجها على أساس فروض تحقق أو تدحض أو تعدل أو تقر فى ضوء وقائع جديدة . (١) وبذلك يمكن للعلم أن يخطو خطوات هامة فى ميدان الكشوف العلمية وخصوصا فى ناحية هامة معقدة وهى الحياة الاجتماعية .

وإذا كان الاتجاه اليوم هو النظر الى كل ظاهرة اجتماعية فى علاقاتها الوظيفية بالظواهر الأخرى ، فان هذا لا ينطبق على الظواهر داخل المجتمع القروى فحسب ، بل ان هذا المجتمع نفسه لابد أن يدرس فى ضوء علاقاته المتعددة مع المجتمعات الأخرى ، وخصوصا فى الوقت الحاضر ، نظرا لتعدد المؤثرات الخارجية التى تؤثر فيه ، والصلات المتزايدة بالمدينة والحكومة على السواء . ولهذا أعتقد أن الاستفادة من الطرق المستحدثة فى الدراسات ذات الاتجاه الانثروبولوجى والدراسات ذات الاتجاه السوسيولوجى ، تكون ذات فائدة كبيرة فى امكان فهم ومقارنة المجتمعات القروية على النحو التالى :

---

١ — على أحمد عيسى . مقدمة الترجمة الكتاب المجتمع تأليف ر . م ماكيفر وشارلز . هـ . بيج . القاهرة ١٩٥٧ ص د ، هـ .

١ ـ الافادة من الطرق الانثروبولوجية فى الدراسة المركزة لبعض نواحى الحياة الاجتماعية ، على أن يكون فى الذهن دائما العلاقات الوظيفية التى تربط بها كل ناحية بالأخرى حتى لا تضيع الصورة التكاملية للمجتمع محل الدراسة .

٢ ـ الإفادة من الطرق الانثروبولوجية فى الملاحظة المباشرة والاعتماد على كبار السن فى الأحوال التى لا تكون فيها المادة التاريخية كافية أو غير ذات فائدة لأغراض البحث ، وخاصة فى حالة المجتمعات القروية .

٣ ـ امكان استخدام المادة الاثنوجرافية استخداما يتفق مع أغراض البحث ، إذا كان الهدف هو المقارنة . وقد يلزم فى هذه الحالة اتباع ما يفضله بعض الباحثين من تقديم كل التفاصيل المتعلقة بالحياة الاجتماعية لاعطاء صورة « حية » عن المجتمع محل الدراسة . أو بمعنى آخر يمكن اخضاع عرض المادة الاثنوجرافيـة للأغراض التى يتوخاها الباحث من الدراسة خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بتحقيق بعض الفروض ذات الأهمية العلمية العامة .

٤ ـ إمكان تطبيق طريقة « العمل الجمعى » والاعتماد على الاحصاء وصحائف الاستبيان والاستخبار والتاريخ كلما أمكن ذلك وكان مناسبا لأغراض الدراسة . وذلك كما قام به دوبيه فى دراسة شاميربت فى الهند وكلية الآداب بالاسكندرية فى دراسة منطقة القبارى بالاسكندرية عام ١٩٥٥ ، ١٩٦٢ [١] . وكما يفعل وورنر فى دراسة المدينة الأمريكية .

---

١ ـ نتائج هذه الدراسة لم تنشر بعد . وهى تمثل تطبيقا لامكان المزج بين الطرق السوسيولوجية والانثروبولوجية فى دراسات المدينة .

وتبدو أهمية هذا الاتجاه خصوصا فى دراسات التغير الاجتماعى فى المجتمعات القروية ، حين يلزم مقارنة القديم بالجديد ، وما يترتب على ذلك من اختلاف فى طريقة المعالجة فى الحالتين .

التغير والدراسة المقارنة للنماذج

من أهم الموضوعات التى يعنى بدراستها علماء الاجتماع اليوم ، موضوع التغير الاجتماعى فى المجتمعات المتحضرة . وقد اتخذت مذاهبهم فى الدراسة اتجاهات محددة منذ أن كتب وليام أجبرن William Ogburn كتابه عن التغير الاجتماعى Social Change لأول مرة فى عام ١٩٢٢ .[١] وكانت طريقته فى الدراسة والموضوعات التى درسها تمثل موقفا علميا جديدا فى دراسة هذه الظاهرة ، خصوصا بعد أن درج علماء الطليعة فى علم الاجتماع ومن سبقهم من الفلاسفة الاجتماعيين وعلى الأخص كارى Carey واوجست كومت Auguste Comte على رسم الخطوط العامة التى سارت فيها الإنسانية أو المجتمعات البشرية فى تطورها . وكان الاتجاه الغالب أن يكون اقتفاؤهم للتطور فى حلقات متتابعة ، لكل حلقة خصائص معينة فى الفكر والعمل ، أو اتجاها عاما له صفات خاصة . وتتابعت الدراسات بعد ذلك فى ضوء التقدم الذى تم فى مناهج الدراسات السوسيولوجية . ولكن الاتجاه الغالب على دراسات التغير كان ولا يزال ينصب على المجتمعات المتمدنة ، الأمر الذى جعل للتكنولوجيا والاختراع المكان الأول فى عوامل التغير الاجتماعى الحديث . وبالتالى لم يكن للدراسات البدائية أو القروية مكان مخصص من هذا الاتجاه ، لأن علماء الاجتماع ركزوا اهتمامهم فى المحل الأول على نوع معين من المجتمعات لا يشمل المجتمعات البدائية أو القروية .

---

1 — Ogburn W., Social Change. New York, 1952,

هذا في الوقت الذي كان الانثروبولوجيون منشغلين فيه بدراسة الشعوب البدائية كما هي في واقع الأمر . ولما تقدمت الدراسات في هذا الميدان، وجد الباحثون أن ظاهرة جديدة أخذت تنشأ جديرة بالتسجيل، وهي التغير الذي أخذ يغير بدرجات متفاوتة من الحياة التقليدية التي درجت عليها هذه الشعوب نتيجة للاحتكاك الثقافي بالمجتمعات الأوربية عن طريق الاستعمار، إلى جانب المشروعات التي كان المستعمرون ينفذونها لاستغلال المكان ومن عليه من السكان . ولهذا أخذ الانثروبولوجيون أخيرا يهتمون بظواهر التغير في المجتمعات البدائية باعتبارها حقلا خصيبا للكشف عن آثار العوامل المسببة للتغير مباشرة ، بل أصبح من الممكن أن يلاحظوا عن كثب عمليات التغير من حيث السرعة والمدى .

وقد أدت هذه الدراسات الى نظرة جديدة للبناء الاجتماعي . فالتصور القديم له على أنه ثابت أصبح مرفوضا اليوم ، اذلا ينبغي كما قال رادكليف براون (١) أن نفكر في البناء الاجتماعي على أنه ثابت Static بل نفكر فيه على أنه حالة من التوازن ، كما هو حال المجتمعات قديما قبل الغزو الاوربي، ولكن هذا التوازن يتجدد باستمرار . وقد يكون هذا التجديد طفيفا بحيث قد تفوت ملاحظته خصوصا إذا كانت الاسباب المؤدية إلى ذلك داخلية أو محلية ، أو نتيجة لاحتكاك هذه المجتمعات بعضها بالآخر . وقد يكون واضحا شديدا كما هو الحال حين تتعرض المجتمعات لتأثيرات قوية من الخارج كحالات الغزو أو الثورة أو الانتشار الثقافي عن طريق ثقافة أكبر وأكثر تقدما . وفي كل الأحوال يضطرب التوازن بطريقة ما ، ويستتبع

1 — Radcliffe-Brown, in :. Fortes, & Evans-Pritchard, African Political Systems , London, 1955, pp XXII, XXIII,

ذلك رد فعل اجتماعي وثقافي، يميل الى إعادة التوازن. وقد يظل نسق ما موجودا غير متغير نسبيا لمدة معينة من الزمن ، ولكن في بعض الأوقات يكون اضطراب التوازن ورد الفعل الذي يأتي بعد ذلك على نحو يؤدي إلى تعديل النسق ، ولذلك يحدث توازن جديد يختلف عن التوازن الذي كان موجودا. من قبل وعند حدوث حالة اضطراب عام فان عملية التوازن قد تأخذ فترة طويلة من الزمن.

ولذلك فالتغير عملية مستمرة في المجتمعات الانسانية على اختلاف أنواعها، لأن التغير بالنسبة للمجتمع كالتنفس بالنسبة للجسم الحي . ولكن هناك فترات يكون التغير فيها متتابعا واضحا بحيث تمكن ملاحظة آثاره المباشرة في المدى الزمني القصير . وإذا كان التغير على هذا النحو في المجتمعات البدائية، فانه كذلك في المجتمعات القروية . ودليل ذلك أنه في القرى الهندية التي درسها تلاميذ ردفيلد Redfield لوحظ أن أهم ما يميز القرية (الآن) هو التغير . ولهذا تفقد الخصائص المميزة للقرية الأسس التي كانت تقوم عليها باستمرار مثل الطبقة والعائلة المتصلة Joint Family والمعتقدات الدينية، وبدأت المدرسة والاحزاب السياسية والسينما وتنظيم المجتمع المحلي يصل حتى أكثر قرى الهند بعدا (١) وطبيعي أن تخضع القرى لا في الهند وحدها إلى تأثير عوامل التغير، لأنها وهي جزء من المجتمع الكبير لا بد أن تتأثر بما يتأثر به هذا المجتمع ولكن بدرجات متفاوتة بحسب السياسة العامة للدولة ، أو نتيجة لاعتبارات تتصل بخصائص القرية ذاتها كوقوعها في منطقة ثقافية معينة ، أو لبعدها أو قربها من المدن ، إلى غير ذلك من العوامل التي

1— Redfield & Singer M. (in Marriott, ed.) Village India, Chicago, 1956. p. IX

تؤدى الى الاختلافات النسبية بين القرى فى آماد التغير وسرعته . حتى أنه يمكن أن تصور التغير الاجتماعى على صورة موجات تكون قوية فى المركز وتضعف كلما اتسعت . ولا شك أن مراكز التغير المهمة تكون فى أماكن التجمعات الحضرية ، وتقع القرى بالتالى على أطراف أكثر الموجات اتساعا. ولهذا لا يمكن أن يقاس تغير الحياة القروية بتغير الحياة الحضرية .

والتغير فى المجتمعات القروية فى أنحاء العالم يحمل خصائص متساوية الى حد ما . فطالما كانت حياة القروى مرتبطة ارتباطا تاما بالأرض، وأنه على أساس العلاقة بين الأرض والإنسان يتشكل النظام الاجتماعى بأسره ويتخذ اتجاهات محددة ، فان التغير الذي يلحق هذه المجتمعات إنما ينصب أساسا على العلاقة بين القروى وبين الارض الزراعية، وتتابع التغيرات بعد ذلك مفضية الى تعديلات شتى فى نواحى الحياة الاجتماعية المختلفة . ولذلك فدراسة التغير الاجتماعى فى قرية أو فى مجموعة من القرى لا بد أن يرتكز اهتمامها أول الأمر على طبيعة العلاقات التى تربط القرويين بالأرض الزراعية والعلاقات الاجتماعية التى تقوم على هذه القاعدة وأهمها العائلة .

إن دراسة التغير الاجتماعى فى أى جزء من أجزاء العالم تعنى بالكشف عن عوامله (1) وذلك يحمل فى مضمونه مقارنة بين القديم والجديد الأمر الذى يجعل كل ما يجرى فى إطار الدراسات التغيرية مقارنة من الدرجة الاولى. فبارنس Barnes مثلا عندما كان يدرس الزواج فى مجتمع متغير كان يقارن بين

١ — عوامل التغير وموقف السوسيولوجيين والانثروبولوجيين منها فى المدى القصير أو الطويل ومناقشتها بالاضافة الى عوامل التغير التى وجدتها مؤثرة على القرى محل الدراسة ستناقش بالتفصيل فى الفقرة التالية .

الزواج القديم والزواج الجديد محاولا الكشف عن نواحى التغير التى حدثت ومظاهرها وعواملها ، فدرس نظام الزواج عند Ngoni فى « زمن السلام Time of Peace » وهو الوقت الذى سبق الاحتلال البريطانى ، ثم درس عمليات التغير والعوامل المؤدية اليها مثل الغزو الأبيض والتبشير ودخول المسيحية والمسائل الخاصة بعقاب الزنا وهجرة العمال ، ثم أخذ يدرس نظام الزواج الحديث وتفاصيله ، ثم عقد فى النهاية مقارنة تحليلية بين القديم والجديد .(1)

وكذلك فعل ردفيلد عندما درس قرية شان كوم Chan Kom فى المكسيك لأول مرة عام ١٩٣١ . ثم عاد لدراستها مرة أخرى عام ١٩٤٨ ليرى ما لحق القرية من تغير خلال المدة التى انقضت منذ دراستها الأولى (2)

ولكن المقارنة على هذا الاساس تثير صعابا كثيرة أهمها تحديد المراحل التى ستجرى بينها المقارنة ، وهذا يقتضى وضع نقط ابتداء ونقط انتهاء، ولما كان هذا غير ممكن من الناحية العملية خصوصا اننا لا يمكننا فصل العملية عن ملابستها التاريخية ، أو قطع صلتها بالماضى كلية وابرازها على أنها شىء مستقل يمكن ملاحظته على حدة ، كما أن عمليات التغير لا يمكن الجزم بأنها بدأت فى تاريخ معين أو أن عواملها بدأت تتابع فى الظهور على أساس ترتيب زمنى معين ، الأمر الذى يحول المراحل التى نتصورها لعمليات التغير

1 — Barnes, J.A ; Marriage in a Changing Socieiy: A Study in Structural Change among the Fort Jameson Ngoni, London, 1951, p.IV.

2 — Redfield R.: A Village That Chose Progress : Chan Kom reviseted, Chicago , 1957. p.X.

فرضية بصفة عامة، لهذا فخير ما يمكن أن نأخذ أنفسنا به أن ندرك المراحل المختلفة وخصوصا فى حالة القرى فى الجمهورية العربية المتحدة فى ضوء الظروف والأحداث العامة التى كانت سائدة فى الدولة حينئذ حتى يمكن أن نصور العلاقات المتبادلة بين كل مرحلة والظروف المحيطة أو التى تكون قد تدخلت فى تكييفها تكييفا خاصا . وقد لمس هذه الصعوبة الباحثون فى موضوعات التغير فى المجتمعات البدائية . فقد أشارت Richards إلى صعوبة إقامة أساس تاريخى كاف لتحديد النقطة التى تبدأ منها التغيرات أو كما سمتها «نقطة الصفر Zero Point» والتى منها نبدأ فى قياس وتقدير العوامل التى أثرت فى المجتمع محل الدراسة . وفى هذا المجال هناك بعض الاختلافات بين علماء الانثروبولوجيا فى انجلترا والولايات المتحدة . فالأمريكيون يهتمون بقياس كل المراحل التى مرت بها الثقافة باستعمال الوثائق وذاكرة كبار السن وتحديد المصادر التى استمدت منها الثقافة عناصرها المختلفة ، ويقدرون فى دراساتهم إذا كانت هذه العناصر قد تم توافقها ، أم أنها اختفت نهائيا فى الوقت الحاضر . وهكذا يعتمدون على المواد التاريخية بقدر ما تسمح به البيانات والحقائق . أما الوظيفيون فانهم يستخدمون الحقائق التاريخية الموثوق بها كلما أمكن ذلك وينظرون إلى ذاكرة كبار السن على أنها وثائق حية للتاريخ الحى الباقى والذى يؤثر فى السلوك الاجتماعى المعاصر ، ويركزون اهتمامهم على ما هو موجود فعلا ، أكثر من اهتمامهم بتتبع الاصول Origins الخاصة بالعناصر التى أقامت الثقافة على نحو معين . وتثير مسألة نقطة الصفر Zero Point موضوعا هاما يتصل بالمنهج اتصالا مباشرا فى دراسات التغير الاجتماعى . ومع أن الذين ناقشوا الموضوع كانوا من المهتمين بدراسة المجتمعات البدائية (١) ، ولهذا كانت الأضواء التى ألقيت عليه

(1: Lucy Mair . The place of history in the study of culture contact : Methods of culture contact in Africa. p. 8

مستمدة من طبيعة الدراسة فى هذه المجتمعات . ومع أن ما أثاره ردفيلد Redfield وتلاميذه من ضرورة الفصل فى المنهج بين الدراسة الانثروبولوجية البدائية ، والدراسة الانثروبولوجية القروية كما تقدم ، ومع بيانه لأهمية التاريخ فى فهم المجتمعات القروية . إلا أن كفاية التاريخ بالنسبة للمجتمع البدائى والمجتمع القروى فى دراسات التغير الاجتماعى تثير صعابا تكاد أن تكون متشابهة . لأن عدم وجود مصادر أو وثائق تاريخية فى المجتمعات البدائية من أى نوع يقابلها عدم وجود اشارات الى المجتمعات القروية وخصوصا تلك التى ندرسها فى المصادر التاريخية ان وجدت . ولا يفيد هنا القول بأن التطورات التى وقعت فى المدنية التى تكون القرية جزءا منها تكفى لإلقاء الضوء على حياة القرية فى وقت معين من الزمان، لأن هذه التطورات على فرض وقوعها لم تكن تؤثر فى القرى ، وخصوصا فى بنائها الاجتماعى أو ثقافتها التقليدية . ولهذا أعتقد أن كفاية التاريخ فى تصوير المرحلة السابقة على نقطة الصفر فى المجتمع القروى أمر لا يمكن الاعتماد عليه.

وفى هذا الصدد تقول لوسى مير Lucy Mair (١) أنه لدراسة أسباب التغير فى مجتمع ما ، يبدو ضروريا أن نشخص فورا الى نقطة بدئه لأن الاعتماد على ذاكرة المخبرين من كبار السن والثقاة، قد تضللنا فى تصوير الفترة السابقة على التغير، لأن الايام القديمة عندهم هى العصر الذهبى للانسانية ... وفى معرض دفاعها عن الاتجاه التاريخى تميز بين نوعين من المجتمعات : المجتمعات الثابتة Static والمجتمعات الواقعة تحت تأثير التغير السريع . وتقول إنه فى المجتمع الثابت حيث أصبحت النظم محددة ولها صفة الثبات تكون معرفة الماضى قليلة الاهمية لفهم وظيفى للحاضر . أما فى المجتمع المتغير حيث لا تزال التجديدات غير ثابتة الاتجاه فان مقارنة الماضى بالحاضر تصبح ذات أهمية كبرى.

1- Lucy Mair; Ibid.

ولكن مالينوفسكى (١) Malinowski يرى أن التمييز الذى فعلته مير Msir بين المراحل الثابتة والديناميكية فى تاريخ الثقافة،ثم القول عنهجين مختلفين تبعا لذلك ، الوظيفى والتاريخى لدراسة هذه المراحل المتباينة، له صدى بعيد من حيث التطبيق النظرى .. وفكرة الإزدواج فى الثقافة على على هذا النحو تعنى إختلافا من حيث المبدأ لا من حيث الدرجة . وينتهى مالينوسكى إلى رفض فكرة نقطة الصفر هذه لأنه يميز بين الماضى ، وما مات ودفن ، والعناصر الخاصة بالثقافة القديمة التى لا تزال تحتفظ بحيويتها وتؤثر فى الظروف الحالية ، وهى العناصر التى يبرزها ويهتم بها على وجه خاص .

ولكن كيف يمكن معرفة العناصر الباقية من الثقافة ما لم تكن لدينا معرفة سابقة كاملة بهذه الثقافة ؟ ومع أنه قد لا تكون لدينا وثائق تاريخية سليمة ، ومع أن التاريخ لا يقوم على تعميمات سوسيولوجية،فاننا نستطيع أن نعتمد فى دراسة المجتمع البدائى أو القرية على ذاكرة كبار السن خصوصا فى مرحلة الدراسة الحالية قبل أن تنطمس معالم القديم تماما،والتى عندها تكون لاعتراضات مالينوسكى وجاهة حقيقية . وهكذا نستطيع لغرض الدراسة أن نغفل المراحل المتوسطة بين المرحلتين : السابقة على نقطة الصفر والوضع الحاضر . وهكذا فان أحسن طريقة للمقارنة فى دراسات التغير الإجتماعى أن تكون بين مرحلتين رئيسيتين : الأولى المرحلة التى يظن أن البناء الإجتماعى للمجتمع أو القرية محل الدراسة كان متوازنا إلى حد ما وأن الذبذبات التى كانت تحدث فيه كانت قصيرة المدى لم تؤثر إلى درجة

---

1 — Malinowski, B., Dynamics of culture Change, N. York 1936, pp. 27—33

كبيرة فى العلاقة بين أجزائه المختلفة ولا يزال يتخذ على الرغم منها طابعه المميز . ولما كان من الصعب خصوصا فى المجتمعات البدائية والقروية،أن نعتمد إعتمادا كافيا على التاريخ فانه من غير الممكن خصوصا وأن المصادر التاريخية غالبا ما تغفل ذكر السكان القرويين وأحوالهم العامة أو التعرض للقرى بالتفصيل ، أن نميز مراحل مختلفة لهذه الفترة المتوازنة ويكفى أن نعين خصائص البناء الإجتماعى لنصور الوضع قبل ظهور عوامل التغير الإجتماعى الحديث . والثانية المرحلة التى نفترض أنه منذ بدايتها أخذت عوامل التغير فى الظهور،وأن عمليات التغير أخذت تتابع محدثة اضطرابات مستمرة فى البناء الإجتماعى المتوازن ، وذلك على أساس إبراز أحداث معينة وقعت أو عوامل خارجية أخذت تؤثر باستمرار وبصورة منظمة فى مجرى الحياة الإجتماعية.وحينئذ نستطيع لغرض الدراسة أن نعين مراحل للتغير بحسب سرعته وبحسب المدى الذى يذهب اليه اليوم فى تغير أنساق الحياة الإجتماعية .

وينبغى أن نلاحظ أن تحديد هذه المراحل صعب جدا،لأنه ليست لدينا خصوصا فى المجتمعات القروية المقاييس المضبوطة كما فى المجتمعات المتحضرة لقياس آثار التغير الإجتماعى فى كل فترة بالدقة . ومما يساعد على دراسة التغير الإجتماعى أن يكون المجتمع محل الدراسة قد درس من قبل فى فترات مختلفة،وهنا يكون تتبع العمليات التغيرية أكثر دقة . لأنه فى غياب الإحصاء والبيانات والسجلات الدقيقة فان الباحث مضطر للاعتماد على ذاكرة كبار السن . فبارنس مثلا حين درس الزواج فى نجونى رأى أن يقارنه فى عام ١٨٩٠ وعام ١٩٥٠ (١) ، وكانت المعلومات المرتبطة بالفترة الأولى

1- - Barnes , J . A ., Op Cit ; P; VIII.

متضمنة إلى درجة قليلة فى الوثائق المعاصرة ، وتحتوى إلى حد كبير على معلومات كبار السن من النساء والرجال كما سجلت بواسطة عدد من الكتاب فى عام ١٩٤١ وما بعدها. أما الزواج فى هذه الأيام فان المعلومات عنه تقوم على بيانات جمعت من الحقل خلال عامى ١٩٤٦ ، ١٩٤٩، هذا وقد أختار Barnes فترة عام ١٨٩٠ لتقارن بهذه الأيام بسبب التغير الخطير الذى حدث فى حياة النجونى Ngoni فترة عام ١٨٩٨ عندما هزمهم البريطانيون ولا زال معظم الرجال الذين عاصروا هذه الفترة أحياء يمكن سؤالهم، كما أن الشبان يعلمون عن هذه الفترة من الأخبار التى رواها آباؤهم .. والتغيرات التى حدثت بعد ذلك يأسف لها الأهلون، وهذا من شأنه أن يعمق الإختلاف بين الماضى والحاضر .

ودراسة التغير على النحو السابق تقودنا إلى موضوع الدراسة المقارنة سواء فى علم الإجتماع أو فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية والتى يعتبرها رادكليف براون الهدف الأساسى من دراسات المجتمعات المحددة . والمنهج المقارن فى حد ذاته هو الطريق الذى يستخدمه الباحثون فى المسائل الانسانية بدلا من التجربة فى العلوم الطبيعية ويرجع الفضل فى اكتشاف هذا المنهج إلى جون ستيوارت مل J. S. Mill ،والمنهج فى جوهره عبارة عن استخدام طريقة التغير الملازم concomitant variation فى دراسة الظواهر الاجتماعية . كالبحث مثلا فى أثر التكنولوجيا على المجتمع فكل تغير فيها يسبب تغيرا فى نسق أو فى مادة ولذلك فان اختراع طريقة «القيام الآلى » للسيارة جعل عددا كبيرا من النساء يقدن السيارات .

ومن الواضح أن هناك اعتراضا على إستخدام «السبب cause »فى وصف مثل هذا الأثر . ولكن الكلمة تستخدم عمليا فى أكثر من طريقة. ذلك لأن

طريقة التغير النسبى هذه تقوم أساسا على المقارنة بين ظاهرتين توجدان فى نفس الظروف ، وتتغيران تغيرا نسبيا ، بمعنى إن مقدار التغير الذى يطرأ على أحدهما يعادل مقدار التغير الذى يطرأ على الأخرى فى نفس الوقت . سواء كانت التغيرات التى تطرأ بالزيادة أو النقصان فى كليهما أو بالزيادة فى أحدهما و النقصان فى الأخرى أو العكس بالعكس . وتقوم هذه الطريقة على أساس الأعتراف بقانون السببية العام . وذلك لأن كل تغير يطرأ على السبب يؤدي إلى تغير مماثل فى السبب أو النتيجة . ويقول جون ستوارت ملى J.S Mill « أنه لا بد من وجود علاقة ثابتة بين كل ظاهرتين تتغيران فى نفس الوقت » وقد آثار هذا التعريف نقدا كثيرا ، فقيل،لو كان مجرد التغير كافيا فى الحكم بوجود علاقة ثابتة أو نسبة عددية مضطردة بين ظاهرتين لجاز لنا القول بان هناك علاقة أو نسبة من هذا القبيل بين أسعار الأوراق المالية وبين درجة الحرارة فى الصيف ، إذا وجدنا أن أرتفاع أحدهما يصحبه أرتفاع فى الأخرى (١)

ولكن إذا كان مفهومنا للعلية هو أنه إذا لم يكن الحدث أ وقع، فان ب لم يكن قد وقع ، فانه على هذا الأساس تكون أ علة ب . وتطبيق هذا التعريف على هذا النحو يؤدى إلى القول بأنه ما لم يخترع « القيام الآلى » للسيارة فان النساء ما كن يقدن السيارات،ولكن هذه العلاقة غير صحيحة خصوصاًوأن بعض النساء قدن السيارات قبل هذا الأختراع . وقد يمكن أن يكن النساء قد أقبلن على قيادة السيارات ولو لم يظهر هذا الأختراع . ولهذا لا يمكن بناء على فكرة العلية هذه أن نعتبر قيادة النساء للسيارات نتيجة لأختراع « القيام الآلى » . ولكن هناك أستخداما آخر لكلمة « السبب cause »

---

(١) محمود قاسم . المنطق الحديث ومناهج البحث . القاهرة ١٩٤٩ ص ٩٣ .

يقوم على أساس طريقة التغير العلى النسبى (المصاحب) فالجلوس فى تيار يقال إنه يسبب البرد ، ومع ذلك قد يصاب الإنسان بالبرد دون أن يجلس فى تيار ، ولو لم تكن هناك تيارات لكان هناك اصابات بالبرد على الرغم من ذلك . ولكن المقصود هنا أنه إذا كان هناك الف من الناس معرضين لحركة الهواء فى بعض اجزاء مكشوفة من أجسامهم ، فسوف تكون هناك زيادة فى عدد الأصابات بالبرد . فاذا كان التغير فى أ مصحوبا بتغير فى ب ، وهذا الأرتباط ليس نتيجة لأى عامل آخر يؤثر فى كل من أ ، ب عندئذ يمكن أن يقال إن وجود أ يؤدى إلى ب . وعلى ذلك لما كان استخدام «القيام الآلى » أدى إلى زيادة فى عدد النساء اللائى يقدن السيارات ، فانه عندئذ يقال إن « القيام الآلى » كان سببا فى زيادة عدد النساء عامة اللائى يقدن السيارات (١) .

ومع ذلك فالمثل السابق الذى يصور الأرتباط بين القيام الآلى للسيارة كعامل أدى إلى كثرة عدد النساء اللائى يقدن السيارات انما هو فى حقيقة الأمر تبسيط لأثر عامل معين فى إحداث تغيرات اجتماعية معينة . لأن اقبال النساء على قيادة السيارات لا يمكن أن نعزوها إلى سبب واحد ، لأنه كما سيتبين فيما بعد ، تتآزر عوامل التغير الاجتماعية فى احداث نتائج معينة، ومن الصعوبة بمكان أن نرجع لعامل واحد آثارا محددة . ولما كانت الدراسة التى نقدمها هنا ، دراسة للتغير الإجتماعى ، فسوف تكون موجهة فى الدرجة الاولى لهذه الاعتبارات المنهجية وأخصها طريقة التغير النسبى أو المصاحب، وسأضع فى تقديرى دائما تعدد العوامل التى تفضى إلى التغير

1 — Ogburn & Nimkoff; Handbook of Sociology ; pp. 20-21

وتعقدها فى نفس الامر . ولسوف يكون فصلها راجعا الى الاهمية النسبية لكل منها من ناحية ولسهولة المقارنة من جهة أخرى .

وثمة صعوبة أخرى تتصل بالمقارنة على أساس التغير النسبى وهى التى تتصل بالتعقيد الذى ينشأ عند تصنيف المجتمعات (١) وهى التى لا توجد فى علوم أخرى مثل علم الحيوان والكيمياء ، فقد يتشابه مجتمعان أو نموذجان فى ناحية واحدة من النظام الاجتماعى الكلى ويختلفان فى ناحية أخرى. ولهذا كان من الضرورى أن نقارن المجتمعات بالإشارة إلى ناحية واحدة من البناء الإجتماعى، كالإشارة الى النسق الإقتصادى والسياسى وهكذا .. وهذا هو الذى جعلنى اختار النموذج موضع الدراسة على أساس دراسة عوامل التغير ونتائجها فى النسق العائلى والحياة الإقتصادية ثم فى الثقافة المادية . كما أن المقارنة لابد أن تتم على مستوى من التجريد تفرضه طبيعة المقارنة والصعوبات التى تكتنفها فى المجتمعات الإنسانية ، فالباحث فى مثل هذه الدراسات لايقارن الاشياء فى ذاتها وانما يقارن بعض خصائصها ومشخصاتها البارزة « فحين يريد الباحث القيام بمقارنة اجتماعية لنظم عبادة الاسلاف فى عدد من المجتمعات المختلفة فان الذى يقارنه، فى الواقع هو مجموعة من العلاقات البنائية التى تقوم بين الاشخاص ، ولهذا كان لابد أن يبدأ بتجريد هذه العلاقات أولا فى كل مجتمع على حدة لتخليصها من احوال ومظاهر التعبير الثقافى الجزئى ، وبغير ذلك لا يمكن المقارنة، فكأن مايفعله الباحث هو اختيار مسائل من نوع معين من اجل أغراض البحث . وهو لا يميز

1 — Radcliffe — Brown, in, Evans - Pritchard & Fortes ; African Political Systems. PP.XII, XIII.

ذلك الفصل بين أنواع مختلفة من الاستدلال الوصفي، فالاثنان المجتمع والثقافة ليسا موجودين حقيقة بذاتها وانما هي أنواع مختلفة من التجريد .(1)

ولكن إذا كنا بصدد دراسة التغير الاجتماعي لبيان مظاهره والعوامل التي أدت إليه في المجتمع الريفي أو في جزء كبير منه فإن تطبيق الخطوات السابقة يقتضي اختيار مسائل معينة على مستوى من التجريد يمكننا من إجراء المقارنات بين عوامل التغير ونتائجها في عدد من النتائج المدروسة فيه فالباحث يستطيع أن يدرك مدى التشابه والاختلاف من حيث العوامل والنتائج خصوصا إذا كانت هذه النتائج مختلفة من حيث الخصائص العامة . ولكن في غياب هذه الدراسات السابقة فإننا نكتفي بدراسة عدد من القرى على أن يتبعها وعمره قصيرة دراسة مقارنة لعوامل التغير ونتائجه وبالتالي يمكن إذا أدت هذه الدراسة إلى التشابه في اتجاهات العوامل والنتائج أن نحكم بأن هذه القرى نموذج واحد وبالتالي نستطيع أن نطبق نتائج الدراسة على كل قرية لها خصائص وظروف النموذج . واعتقد أن هذا هو الذي جعلني أقوم بدراستي على القرى الثلاث على مستوى التشابه لا على مستوى الاختلاف .

هذا وقد أبرز دور كايم أهمية هذا الاتجاه في دراسة الوقائع الاجتماعية لأول مرة في كتابه عن قواعد المنهج في علم الاجتماع ولكن التغير النسبي عنده لا يخفى على النبيه عند دور كايم ، فهو عنده على بديل التصنيف الكمي الثقافة في المناهج التجريبية الأخرى ولكن دور كايم يضمنه

1 — E. E. Evans-pritchard, Op. cit., p.

تغيرات موضوع آخر من التغيرات المكانية والزمانية خصوصا وأن دور كايم في دراسته بالنسبة لهذا كما في أوائل الأمر ويتضح أنه الكيفيات والنتائج الأخيرة لهذه الدراسات . وبدراسته للانتحار وتوزيعه على ذلك . ويتبع التغير النسبي بدلا من نتيجة أخيرة . أنواعه العوامل الموضوعية الثابتة والعلاقة فيما يتصل بنوع الارتباط الذي تربطه مجموعة من العلاقات والتغيرات النسبية التي تحدثها قد تتفق أو لا تتفق بعضها ببعض بالوظائف ونتائجها أن المنهج يقتضي التسليم بأن الوقائع الاجتماعية ليست مكونة من عناصر متجانسة مكونة من عناصر أو بسيطة بل إنها تحتوي عناصر وثانيا أنها مرتبطة ببعضها من الفكرة والعلاقات التي لا بد أن يكون هناك ثم اتفاق على وجودها .

ويرجع الفضل إلى دور كايم في أنه وضع هذا المنهج موضع التطبيق وأبان عن الامكانيات العملية لتطبيقه على الدراسات الاجتماعية على ثلاث مستويات : الأول الاهتمام بمجتمع واحد في وقت معين وتحليل التغيرات المتكررة التي تحدث في مجتمع المعتمد أو العلاقات في هذا المجتمع ، والثاني مقارنة عدة مجتمعات مختلفة تشترك في بعض الظواهر المتشابهة ، والثالث مقارنة مجتمعات متشابهة وتختلف مع ذلك في بعض نتائج العمل أو مقارنة العلاقات أيا كان من الممكن مقارنة مجتمعات معاصرة أو غير معاصرة أو مقارنة نفس المجتمع في فترات مختلفة إذا كشفت هذه المقارنات عن تغيرات كافية محددة .(1)

وقد يكون المستوى الثالث في تطبيق طريقة التغير النسبي هو المناسب

1 — Nadel S. F., Foundations of Social Anthropology, London, 1951, pp. [illegible]

للوضع الراهن للدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية فى مجتمعنا نظرا لإن مادة المقارنة بين عدة مجتمعات قروية نموذجية ليست فى متناول اليد الآن . ويقول رادكليف براون إن استخدام المقارنة أمر لا يمكن الاستغناء عنه،ودراسة مجتمع واحد يمكن أن تقدم المادة للدراسة المقارنة اذ أن هذه الدراسة تصلح فقط لاقامة الفروض التى تحتاج الى الفحص بالاشارة الى مجتمعات أخرى (٢) . ومن الطبيعى أن الدراسة على هذا النحو ـ خصوصا فى دراسات التغير ـ لابد أن تعتمد فى المحل الأول على الدراسات المقارنة لاختيار نموذج لمنطقة معينة أو لعدد معين من القرى فى تأثرها بعوامل تغير واحدة . وهذا عمل معقد وصعب ويحتاج لتعاون عدد من الباحثين (١) .

وعندما قارن فورتس وايفانز بريتشارد النظام السياسية الافريقية فى مجتمعات درست من قبل اختارا نموذجا من كل منطقة يمثل التنظيم السياسى المتشابه فى جميع المجتمعات الواقعة فيها . فكان لديهما ثمانى نماذج وبمقارنتها تبين أنها جميعا تقع فى نموذجين كبيرين : الأول النموذج الذى يمثل المجتمعات ذات السلطة المركزية،والثانى النموذج الذى يمثل المجتمعات غير ذات السلطة المركزية . (٣) كذلك عندما قارن ماندلبوم القرى الثمان الهندية جعل القرية التى درسها بنفسه نقطة البدء فى المقارنة . وكان يشير دائما فى أثناء المقارنة الى الاختلافات والمتشابهات التى وجدها بين هذه القرى ، ووصل من ذلك الى عدد من النتائج الهامة مثل العلاقة الوثيقة بين ملكية الأرض والبناء

1 — Radciffe-Brown, A. R., Structure and Function in Primitive Society, London,1956, p, 194

2 — Ibid p. 195

3 — Fortes,M ; Evans-Pritchard, E. E.; African Political Svstems London, 1955. pp. 3-6

الاجتماعى والآثار المترتبة على التغير الاجتماعى كاستخدام النقود وغير ذلك (١) وقد كانت مثل هذه المقارنات ممكنة فى الحالتين السابقتين نظرا لوجود المادة التى استخدمت فى المقارنة . ففى الحالة الأولى اعتمد فورتس وإيفانز بريتشارد على عدد كبير من المجتمعات الافريقية التى درسها عدد كبير من الانثروبولوجيين ، وكذلك فعل ماندلبوم فى حالة القرى الهندية . ولكنى وأنا أقدم دراسة للتغير، أحاول أن أسهم فى الدراسة المقارنة باختيار ثلاث قرى فى منطقة معينة من المجتمع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة، افترض أنها تمثل نموذجا لعدد كبير من القرى التى لها نفس الظروف . لهذا فان دراستى ستكون ذات هدفين من حيث المنهج : الأول اجراء دراسة مقارنة بين القديم والجديد فى قرية مصرية فى محاولة للكشف عن التغيرات الاجتماعية التى وقعت خلال الفترة المحددة والعوامل المسؤولة عن ذلك . والثانى دراسة مقارنة بين القرى الثلاث المختارة فى هذا الاتجاه للتحقق من صحة النتائج التى وصلت إليها بغرض الوصول من هذه المقارنة إلى إقامة نموذج يمثل عددا كبيرا من القرى ذات الظروف المتشابهة،متخذا من قرية القيطون نقطة للبدء فى المقارنة ، وسأعنى بجانب نواحى الشبه بين هذه القرى ببيان الاختلافات والعوامل المؤدية الى إليها .

وقد كانت الطريقة المثالية فى الدراسة أن أمضى إلى بحث مجموعة أخرى من القرى فى منطقة أخرى للكشف عن مدى تشابه أو اختلاف النتائج التى وصلت إليها من دراسة القرى الثلاث، حتى يمكن الجزم فى حالة التشابه بنوع من التعميمات التى تنطبق على المجتمعات القروية فى الجمهورية العربية المتحدة عامة .

I - Mandelboum in (Studies in little community) (ed,) by Marriott, Chicago. 1956.

وفى حالة الاختلاف قد نكتشف نموذجا آخر يمكن أن يصلح أساسا للمقارنة بين نماذج مختلفة . وقد كان من الممكن فى هذا المجال أن أعقد مقارنة بين قرية القيطون وقرية سلوا التى درسها حامد عمار لولا أن المادة التى اعتمد عليها كانت ذات غرض محدد ، هو دراسة الطرق الاجتماعية للتربية والعوامل التى تؤثر فيها وخصوصا فى تتبع مراحل النمو المختلفة وفى الطفولة خاصة (١) . والمادة من الناحية الموضوعية تختلف عن الأغراض التى توخيتها فى دراستى . ولهذا قد تصلح دراسة سلوا للمقارنة على أساس تحليل نظم التربية فى المجتمع القروى فى الجمهورية العربية المتحدة .

التغير الاجتماعى والمجتمع القروى

وتثير المقارنة صعوبات أخري غير اختيار النماذج ومستوى المقارنة والأجزاء التى ستكون الأساس فيها ، وأهم هذه الصعوبات خصوصا إذا كان موضوع الدراسة هو التغير الاجتماعى : أن هناك عدة فروق بين اصطلاح التغير الاجتماعى باعتباره تغيرا فى المجتمع ، واصطلاح التغير الثقافى باعتباره تغيرا فى الثقافة ، وتستند هذه الفروق على التفرقة التى يراها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بين الثقافة والمجتمع . وهذه الصعوبة تؤدى الى صعوبة أخرى تتصل بالمنهج مباشرة ، خصوصا وان الدراسات التى أجريت على موضوعات التغير الثقافى أو الاجتماعى كانت تتجه فى أغلبها إلى محاولة الوصول الى نظريات بعيدة المدى تنطبق على المجتمع الإنسانى بأسره ، وعلى هذا الأساس

1 — Ammar , H. , Growing up in an Egyptian Village; Silwa province of Aswan . London, 1954. pp. 1,14 (This is an attempt to study childhoob in an Egyptian Village community. p. 14)

اختلفت طريقتهم فى النظر إلى العوامل والعمليات والاتجاهات وطرق التفسير عامة . واختلافهم هذا لا يتصل بدراسة موضوعات التغير وحدها وإنما يتصل بأفكارهم الأساسية فى النظر الى المجتمع وطريقة دراسته ، مع العلم أن ظروف المجتمعات الحديثة والقروية والبدائية المختلفة تفترض تعديلا فى الخطط والموضوعات التى يمكن على أساسها دراسة التغير فى كل منها . وتزداد هذه الصعوبة وضوحا نظرا لقلة الدراسات من هذا النوع التى أجريت على المجتمعين القروى والبدائى خاصة .

١ ـ أما فيما يختص بالصعوبة الأولى وهى الاختلاف بين التغير الثقافى والتغير الاجتماعى ، فهى تقوم على أساس أن الثقافة فى رأى بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا مثل ميكفر Maciver مختلفة عن المجتمع من حيث أن البناء الاجتماعى الذى يكون لب الدراسة فى علم الاجتماع له خصائص مختلفة عن الثقافة وأهمها أن عناصر البناء الاجتماعى لا تدوم إلا كسياق زمنى فقط time-sequence كما يرى مكيفر Maciver (١) أو أنها تدوم بغض النظر عن مظاهر النشاط الزمنية الزائلة التى يقوم بها الأفراد كما يرى ايفانز بريشارد Evans-Pritchard (٢) . ومع أن ايفانز بريتشارد يقول إن موضوع دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية ، هو الثقافة والمجتمع معا ، إلا أنه يقرر أن دراسة البناء الاجتماعى لابد أن تأتى أولا ، ويعلم أن التمييز بين الثقافة والمجتمع لا يبدو جليا واضحا ، لأن الانثروبولوجى يتناول فى وصفه الواقع أو السلوك الظاهر الشخصى الذى يحوى الاثنين معا . ولهذا كانت مشكلة التمييز هذه فى رأيه من أصعب المشكلات وأكثرها

1— Maciver, Page, Society, London, 1953, p. 511.

2— E. E Evans-Pritchard ; Op. cit. p. 15

تعقيدا . (١) لكن الثقافة تدوم وتنتقل عبر الأجيال كنتاج Product تجميع تفاصيلها . ولهذا تكون دراسة التغير الثقافي أدق وأسهل بكثير من دراسة التغير الاجتماعي ، لأن البناء الاجتماعي لا يمكن وضعه في متحف حتى يمكن الرجوع اليه وفحصه بينما يمكن ذلك بالنسبة للثقافة .

ومكيفر Maciver الذي يمثل اتجاها معينا في النظر الى الثقافة منفصلة عن المجتمع ، يرى أن دراسة التغير الاجتماعي إنما تنصب أساسا على بحث العلاقات الاجتماعية التي تكون متوازنا متغيرا منفصلا عن الثقافة التي تجسم نفسها في المنتجات الباقية لمجتمع تتغير علاقاته الاجتماعية باستمرار (٢).

لكن هناك طائفة أخرى من العلماء ينظرون الى هذا الموضوع من زاوية أخرى ، مثل Ogburn ، فلكل مجتمع ثقافة ، والثقافة نفسها هي الخاصية الكبرى للانسان . ولهذا كانت دراسة الثقافة دراسة للمجتمع بالضرورة . وعلى هذا الأساس عندما يعرف اجبرن الثقافة يمزج بين الثقافة والمجتمع في مفهوم الآخرين من العلماء، الذين تكون الثقافة عندهم مشتملة فقط على المنتجات المادية التي تبقى للمجتمعات المتغيرة ؛ وإذن يكون المجتمع عبارة عن العلاقات الاجتماعية التي تكون البناء الاجتماعي مهما اختلفت النظرة إلى مفهوم العلاقة أو البناء . وقد بنى أجبرن فكرته هذه على أساس المزج بين تعريف تيلور Tylor للثقافة على أنها « ذلك الكل المعقد الذي يشتمل على المعرفة ، والعقيدة ، والفن ، والأخلاق ، والقانون والعادة ، والامكانيات

1 — Maciv-r, Page , Op. cit , 511.

2 — E. E. Evans — Pritchard . Op. cit , p. 16

الأخرى التي يكتسبها الانسان كعضو في المجتمع » وبين تعريف ردفيلد Redfield للثقافة على أنها « المجموعة المنظمة من المفاهيم التقليدية التي تظهر في الفن والحرف . والتي عن طريق دراستها خلال التقاليد تميز الجماعة الانسانية » (١) . ولذلك فالثقافة عنده كل له وجهان : مادي وغير مادي، ففي العائلة مثلا تكون المساكن والأثاث والطعام عبارة عن الجانب المادي ، ويكون الزواج والسلطة الأبوية أو تعدد الزوجات أو الوحدانية عبارة عن الجانب اللامادي ، والجانبان لا يمكن فصلها عمليا أو لغرض الدراسة لأنها يكونان نظام العائلة: وهكذا يكون الحال إذا امتد بحثنا إلى أي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية (٢) وبالتالي كانت دراسته للتغير الاجتماعي شاملة للناحيتين المادية وغير المادية من الثقافة (٣) وكان هذا الفصل بين هاتين الناحيتين أساس نظريته عن التخلف الثقافي Cultural Lag التي ضمنها كتابه عن التغير الاجتماعي . (٤)

ولا يقبل هذه القسمة خصوصا في دراسات التغير كثيرون مثل سوروكين (٥) وقبلها آخرون مثل مالينوسكي (٦) فالتغير الثقافي عنده هو

1— Ogburn, Nimkoff; Handbook of sociology , London 1955. pp. 15—16.

2— Ibid, pp. 24,25.

3 — Ibid, pp. 517—524

4 — Ogburn, Social chang, 2nd printing. N. York 1952 pp. 220—213.

5 — Sorokin, Society, Culture and personality, N. York 1947. pp. 580 -581.

6 — Malinowski, Dynamics of Culture Change, N. York 1936. p. 1.

أي نواحيه الاجتماعية
العملية التى يتغير بواسطتها نظام المجتمع الحالى - ولهذا يواجه التغير الثقافى دراسة
والسياسية والمادية من شكل الى آخر ، والمادية والمعتقدات
العمليات التى تعدل من النظم الاجتماعية الدستورية ، والمادية والمعتقدات
ونظام المعرفة واستهلاك السلع التى يقوم عليه اقتصاده الاجتماعى . ولكن
هذا لا يعنى أن الباحثين فى التغير - كما سنرى فيما بعد - يتفقون على عوامله
ونتائجه .

والواقع أنه إذا كان الفصل بين المظاهر المادية فى المجتمع المكونة للثقافة
المحسوسة وبين العلاقات الاجتماعية التى بقياسها على نحو معين تكون البناء
الاجتماعى ،أمراً له وجاهته فى الدراسات المتزامنة Synchronic إلا انه فى
الدراسات التغيرية dischronic لا يمكن فصلهما نظراً لأن المظهرين المادى
وغير المادى مرتبطان أشد الارتباط . ومن الضرورى أن نبحث عن تأثير
أحدهما فى الآخر خصوصاً إذا كنا نبحث عن عوامل التغير ونتائجه وعملياته
المختلفة . كما أنه من الصعوبة بمكان أن نفرد عوامل خاصة بالتغير فى الجانب
المادي وعوامل أخرى خاصة بالتغير فى الجانب اللامادى . لأن القاعدة
المعترف بها الآن هى ارتباط العوامل لا فصلها . والتغير اللامادى مضلل وغير
على خصوصاً وأن من التغيرات فى الجانب المادى ما فرضته مطالب اجتماعية
بحتة ولم يكن راجعاً للتجمع Accumulation فى الجانب المادى الذى يؤدى
إلى مزيد من الاختراعات . وسوف يبدو هذا الترابط واضحاً بين العائلة
والثقافة المادية ، والحياة الاقتصادية فى الموضوع الذى نعالجه فى هذا
الكتاب .

ب - وقد ترتب على الفصل بين الثقافة والمجتمع عند ماكيفر Maciver
وبين الجانب المادى واللامادى من الثقافة عند أجبرن Ogburn أن تلونت

دراستهما ومن نحا نحوهما للتغير الاجتماعى عامة فى المجتمع الانسانى والمتحضر منه خاصة بلون خاص . ذلك أنهم يعتقدون أن المظاهر المادية للثقافة كالتكنولوجيا والاقتصاد تسبق فى التغيرات أى تكون لها مركز القيادة بينما تتخلف المظاهر غير المادية ولا يختلف عنهم كارل ماركس K. Marx خصوصاً وأنه يرى أن درجة النمو التكنولوجى تحكم شكل الانتاج والعلاقات والنظم التى تحكم النسق الاقتصادى . وهذه المجموعة من العلاقات بدورها صاحبة الكلمة الفاصلة فى النظام الاجتماعى باسره . أو كما يقول ماركس « ان مجموع هذه العلاقات الخاصة بالانتاج تكون البناء الاقتصادى فى المجتمع الاساس الحقيقى الذى تقوم عليه الأنساق الاجتماعية الاخرى، فالحياة الاجتماعية للانسان ، افكاره ، حياته الجمالية والروحية ، فلسفته وعقيدته ، والصور الاجتماعية التى تنتقل خلالها عبارة عن انعكاس للنسق الاقتصادى » (١) فكأن ماركس يعطى الأولوية للنسق الاقتصادى ، وهو فى رأيه مادى فى جوهره ، لأنه يعتمد فى المحل الأول على أشكال الإنتاج المادية ، وكل تغير فيه يؤدى بالضرورة إلى تغير فى بقية أجزاء البناء الإجتماعى المعتمدة عليه . وكان أساس بحثه قائماً على التخلف القائم بين اشكال الإنتاج والتنظيمات الاجتماعية ، الأمر الذى يؤدى الى الثورة للتغلب على هذا التخلف وإعادة المجتمع إلى حالة من التوازن بين أجزاء المادية واللامادية . ولذلك تعتبر نظرية كارل ماركس هذه أساس نظريات التخلف الثقافى ، وان اختلفت عنها فى بعض مظاهرها أو نتائجها .

أما لماذا يكون التغير فى الجانب المادى أسرع منه فى الجانب اللامادى .

1— Maciver, Page; Society, London, 1953. pp.559.

فهذا يرجع إلى أن الاختراعات فى الثقافة المادية كثيرة جدا إذا قورنت بالجانب اللامادى من هذه الثقافة . كما أن العوائق التى تقف فى سبيل التغير اللامادى أكثر منها فى حالة التغير المادى . وقد عدد أجبرن Ogburn هذه العوائق وحصرها فيما يلى :

١ ـ هناك ميل فى كل ثقافة للابقاء على القديم وبقاء القديم على هذا النحو عقبة كبرى أمام التغير .

٢ ـ كثير من التغيرات تحدث نتيجة لتنظيم وتخطيط المجهودات الاصلاحية . وهذه بدورها تتطلب تكاليفا كثيرة . ولذلك كانت التكاليف الاقتصادية فى بعض الأحيان عقبة فى التغير .

٣ ـ الجهل وعدم معرفة حقيقة التجديد أو الاختراع أو طريقة استخدامه يؤدى الى رفضه .

٤ ـ ويضاف الى ذلك النزعة المحافظة عند كبار السن .

٥ ـ العادات العقلية المستقرة على نحو ما والعقبات الطبيعية فى تغيير العادات .

واذا انضمت هذه العقبات إلى الاتجاهات المعادية للتغير كالخوف من الجديد،لأن كثيرا من الناس يشعرون أنهم لا يعرفون كيف ستكون نتيجة التجربة ، ولذا لا يحبون المخاطرة وكتقديس الماضى ، وكالمصالح الخاصة التى قد تضار نتيجة لتغيير الأساس الذى قامت عليه . كل ذلك يؤدى إلى مزيد من المعوقات أمام سهولة التغير اللامادى [1] . هذا إلى أن من طبيعة

1— Ogburn & Nimkoff, Handbook of Sociology, London, 1955. pp. 557—560.

الثقافة المادية التجمع Accumulation بعكس الحال فى الثقافة اللامادية . كذلك تنتشر الماديات على نحو يتخطى حدود المجتمعات ، بينما يظل البناء الاجتماعى مميزا لمكانه المحلى ، ومثال ذلك أن الثقافة المادية فى الغرب تغيرت بشكل ملحوظ جدا فى السنين الأخيرة . بينما ظلت العائلة والنظام السياسى وبقية اللاماديات على ما كانت عليه منذ مدة طويلة [1] .

ويقف دى روبرتى De Roberty فى طرف آخر فالثقافة عنده تتكون من أربع أشكال رئيسية من الفكر أو الأنساق، التفكير التحليلى أو العلم، التفكير التركيبى أو الفلسفة والدين ،التفكير الرمزى أو الفنون الجميلة ، التفكير التطبيقى او جميع أنواع التكنولوجيا التى تمثل التطبيق العملى للأشكال الثلاثة الأولى ، وعند التغير الثقافى ، فان هذه النظم أو الأنساق الأربعة تتغير ابتداء من العلم ثم الفلسفة أو الدين ، ثم الفنون الجميلة وأخيرا تتغير التكنولوجيا . ومن حيث أن كل واحد من هذه الأنساق تقوم على ما قبلها فان التخلف يأخذ نفس النظام ، فالفلسفة تتخلف وراء العلم ، حتى نصل إلى التكنولوجيا التى تتخلف وراء ما قبلها جميعاً . فاذا تغير العلم مثلا تغيرا أساسيا فى مبادئه ومحتوياته ، فان الفلسفة والدين تتغيران أيضا ، ويقول روبرتى De Roberty « إنه بدون معرفة الدين والفلسفة المصرية الفرعونية فان الفنون الجميلة من الاهرامات حتى النحت لا يمكن فهمها » .

وموقف دى روبرتى De Roberty يكاد أن يكون عكس الاتجاه الأول، فالتكنولوجيا آخر ما يتغير ، ولتغيرها لابد أن تسبق بتغير فى الجوانب

1— Sorokin, Society, Culture and Personality, N York. 1947. p. 668.

اللامادية من الثقافة . وهو فى نهاية الأمر يأخذ بفكرة التخلف الثقافى Cultural lag ولكن بطريقة مختلفة . وكلا الاتجاهين يفترض من حيث عوامل التغير الاجتماعى — نتيجة للتحليل السابق — أن هناك عاملا هاما يترتب عليه نتائج فى الحياة الاجتماعية ، فروبرتى مثلا يعتقد أن تقدم العلم سبب أول Cause فى كل النتائج Effects التى من مظاهرها تغير الفلسفة والدين والفنون الجميلة والتكنولوجيا . وهذا أمر لا يمكن التسليم به لأنه ليس كقاعدة أن يكون التغير بالضرورة على هذا النمط فقد تتغير المبادىء العلمية ولا تتغير النظرة إلى الفلسفة أو الدين . وقد يكون التغير فى التكنولوجيا مفضيا إلى التغيرات فى الأسس العلية ذاتها . ومهما يكن من أمر ، فهذه النظرية تمثل فرعا من النظريات بعيدة المدى التى تحاول أن تضع نظاما عاما للتغير ينطبق على المجتمع الإنسانى بأسره ، وعموميتها لا تختلف فى كثير عن عمومية نظريات سبنجلر Spengler » كارى Carey واوجست كومت A. Comt ، بل أنها تسير فى اتجاهها العام . كما أن الدراسات الواقعية للتغير الاجتماعى سواء فى المجتمعات الحديثة أو القروية أو البدائية لم تؤيد حتى الآن صدق هذا الاتجاه التغيرى لمختلف أجزاء الثقافة الواحدة .

وأجبرن Ogburn ومن سبقه مثل كوست Coste ، وفيبر Weber وكارل ماركس K. Marx يفترضون أيضا أن الجانب المادى من الثقافة أسبق فى التغير ، ومن ثم فهو عامل أول فى كل التغيرات التى تحدث فى البناء الاجتماعى بعد ذلك . أما ماكيفر Maciver فانه يرى أن هناك ظروفا دائمة تعتبر عوامل هامة فى التغير الاجتماعى . وهى نظام الطبيعة أو العلية الخارجية المستقلة عن نشاط الإنسان ويمكن إدراج

الظروف البيولوجية تحت هذا النظام ، والمنفعة وتشتمل على الأخص على النظام التكنولوجى ثم النظام الثقافى . والنظامان الأخيران يمثلان عوامل التغير المتصلة بنشاط الانسان [1] . فهو اذن يرجع عوامل التغير إلى عاملين : أحدهما دائم Constant وهو نظام الطبيعة ، ودوامه كما سنبين ذلك فيما بعد لا يجعله صالحا لأن يكون سببا Cause فى التغير الاجتماعى ، لأنه كان كذلك على مر الزمان . وثانيهما يتصل بنشاط الإنسان المتغير كالثقافة والتكنولوجيا . ومع ذلك فانه تغلب عليه نزعة إبراز العامل التكنولوجى وما يتصل به كسبب أول فى التغيرات الاجتماعية وما يترتب على ذلك بناء على نظرية أجبرن من تخلف ثقافى .

إلا أن أجبرن يمثل بوضوح موقف الذين يرون أن الثقافة المادية أو التكنولوجيا هى السبب الأول فى كل التغيرات الاجتماعية ، على الرغم من أنه يعترف بأثر العوامل الأخرى وتفاعلها وتساندها . فيقول «ان التكنولوجيا تسبب التغير الاجتماعى ، ولذلك تكون الاختراعات الميكانيكية عوامل علية فى التغير الاجتماعى .» [2] وينبغى هنا أن نشير إلى أن أجبرن يركز — خاصة — على أثر التكنولوجيا والاختراعات التى تحدد مجالها فى المجتمعات المتحضرة فى ميادين الزراعة والتجارة والسكن والعائلة ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية . والاختراع لا يقتصر تأثيره فى رأيه على ناحية واحدة ، ففى بعض الأحيان يؤدى إلى تأثيرات عديدة تنتشر فى كل الاتجاهات ... ويستمر التأثير حتى يمكن تصويره بسلسلة متصلة الحلقات [3].

---

1 — R. M. Maciver, Ch. Page; Society, London, 1953. pp. 512—518.

2 — Ogburn, Nimkoff. Op. Cit. p. 577.

3 — Ibid pp. 564—569

ومع أن سوروكين Sorokin يعترض على قسمة الثقافة الى جزئين إلا أنه يقول إنه لو سلمنا جدلا بهذه القسمة لما وجدنا الجزء المادى ينتشر أولا ، أو أسرع من الجزء « الايديولوجى » بل العكس هو الصحيح « فالعناصر الايديولوجية » تميل الى الانتشار أولا ، أسرع وأسهل من العناصر المادية ، لأنه مهما كانت المظاهر ثقافية أو دينية أو علمية أو فنية أو اقتصادية ، فان فكرتها أو معناها لابد أن تصل أو توصل الى الآخرين أولا . وعندئذ تبدأ فى التأثير على السلوك وعلى الثقافة المادية ، والعناصر الثقافية أيا كان نوعها حين تتحرك من مكان الى آخر أو من شخص إلى شخص فانها لا تتخذ إتجاها واحدا ، بل يكون اتجاهها ثنائيا غالبا ، من أ إلى ب ، ومن ب الى أ ، أى من المدينة الى القرية ، ومن القرية الى المدينة . فالمدينة والمناطق الصناعية ترسل منتجاتها الصناعية إلى المناطق الريفية وتستقبل منها بدورهـا المادة الخام والمنتجات الزراعية . وفى أثناء التفاعل تنتقل بعض العناصر من الثقافة الأقل إلى الثقافة الأكبر ، ولا تكون القاعدة فقط ، أن تنتقل الثقافة الأكبر إلى الأصغر دون ما تأثير عليها .(١)

والذى يهمنا هنا أن سوروكين Sorokin ولو أنه يضغط فى كل آرائه على الجوانب المعنوية من الثقافة ، وبالتالى يعطيها أهمية كبرى ، من حيث كونها عاملا رئيسيا فى التغير الاجتماعى ، إلا أنه يؤمن بتساند أجزاء الثقافة وعدم امكان فصلها فى عملية التغير ، لأن نسبية التغير فى أجزائها لا تنهض سببا كافيا فى هذه القسمة الحاسمة وما يترتب عليها من إبراز عـوامل معينة لها الاسبقية والأهمية ، وبالتالى يتعين أن يأخذ اتجاه التغير الاجتماعى طابعـا

1-P. Sorokin, Society, Culture and Personality, N. York, 1947, p. 580.

معينا واحدا . ولهذا اذا كانت الثقافة Culture متكاملة ، فانها عـند التغير تتغير ككل أو فى معية Togetherness ذلك أن أى تغير فى أحد اجزائها يؤدى الى تغير فى الأجزاء الأخرى وفى الكـل ، كما أن التغير فى الكل يؤدى الى تغير فى الاجزاء . وكلما كان التكامل كبيرا ، كانت المعية فى التغير كبيرة أيضا (١) ، وهذا بالتالى ينفى فكرة التخلف lag بين أجـزاء الثقافة الواحدة . والتخلف أساسا يفترض حالة معينة كانت الثقافة فيها متوازنة واختل هذا التوازن بفعـل عوامل التغير الاجتماعى الأمر الذى أدى إلى انفصال بعض الأجزاء عن الأخرى والواقع أن هذا الانفصـال فرضى أو تصورى بحت لأنه إذا أمكن قياس التغيرات فى الجانب المادى بطريقة كمية ، فانه من الصعب أن نطبق مثل هذه الطريقة على الجوانب اللامادية ، وبالتالى فاننا نقع فى أخطاء تتصل بالتقييم . ولهـذا يغلب على ظنى أن مسألة التخلف الثقافى تتصل اتصالا مباشرا باحكام قيمية ، ولهـذا فانها تخـرج عن نطاق البحث العلمى فى التغير لاجتماعى . ومرد ذلك إلى خطأ فى النظرة الأساسية للتغير فى الجانب المـادى والجانب اللامادى . فاجبرن مثـلا يرى أن من خصائص الثقافة المادية التجمع بمعنى أن الاختراع فى هذا الميدان لا يظهر فجأة ، وإنما تسنده سلسلة طويلة من التراث الانسانى المادى ، وقبل ظهوره تعرض لمحاولات عديدة حتى تم ، منها ما فشل ، ومنها ما نجـح ، ثم مر على مرحلة تجريب للتأكد من إمكان استخدامه فى الأغراض العملية .

فاذا كان هذا أمر الاختراع وعناصر التكنولوجيا كـلها ، فان من الخطأ أن نتطلب تعديلا لا مباشرا بمجرد تغير الجانب المادى فى الجانب اللامادى

1— P. Sorokin: Social and Cultural Dynamics, Vol. IV, N. York, 1941, p. 145

لأنه بالصـــورة التى يكون عليها يكون مناسبا أى فى حالة تكامل مع بقية أجزاء الثقافة ، ويقتضى توافقه مع التغيرات الجديدة وقتا لا يناظر الوقت الذى استغرقه الإختراع فى الظهور . وهو الوقت الذى يستغرق فى الاقتناع والتعلم ومع ذلك فان السرعة التى تترى على أساسها التغيرات التكنولوجية الآن فى المجتمعات المتحضرة تقابلها سرعة نسبية من الحيـاة الاجتماعية فى التوافق . وهناك من الأمثلة على سرعة تغير الجانب اللامادى من الثقافة بحيث اقتضى تغييرا وتعديلا فى الجانب المادى . وهذا يؤكد أن مسألة التخلف مسألة نسبية، وبالتالى فان دراسة للتغير الاجتماعى لابد أن تستنير بتعـدد عوامل التغير وتساندها وانتظامها فى سلسلة مترابطة من ناحية وتساند أجزاء الثقافة نفسها أيضا أثناء عملية التغير . ومهما يكن الأمر سواء حدثت التغيرات فى وقت واحد أم لا ، فان هذا لا يعنى شيئا بالاضافة إلى ترابطها . وذلك لأن مقياس الحدوث فى وقت واحد نسبى لأنه قد يعنى نفس اللحظة أو خلال دورة طولها مئات السنين، وهذا يتوقف على المقياس الذى اختاره الباحث . والحدوث فى وقت واحد ليس دليلا على العلية . والإرتباط العلى والزمنى يقتضى أن نؤكد أمرين : الأسباب المختلفة أو المتطابقة التى تعمل تحت ظروف مختلفة تتطلب مقادير مختلفة من الزمن لتظهر آثارها . وآثار أى تغير مهم فى جزء من الثقافة قد يصل الى الاجزاء الأخرى أو بعضها بسرعة ، وقد يصل بعضها الأخرى بعد فترة من الزمن . فحالة الكائن الحى مثلا قد تعمل على الإسراع أو التأخير فى نمو المرض ، حتى أن المدة التى يستغرقها السبب (السل أو السرطان) ليصل إلى أقصى أثر (الموت) تختلف باختلاف الكائنات . كما أنه فى داخل الكائن الواحد ، تظهر أجزاء مختلفة درجات متفاوتة من المقاومة أو الاستسلام ... والأمر كذلك بالنسبة للثقافة فى أجزائها المختلفة . فالتغير فى جزء منها قد يصل الى الأجزاء الأخرى ولابد أن يصل ــ ولكن فى لحظات مختلفة .

لذلك كان أخذ ظاهرة اجتماعية كالثقافة المادية تمثل متغيرا مستقلا ، وظاهرة أخرى كالثقافة اللامادية تمثل المتغير ، ودراسة العلاقة بينهما أمر يؤدى إلى الخلط ، لاننا بذلك قد انتزعنا هاتين الظاهرتين من إطارهما العام حيث يمكن فهمهما على حقيقتها ، وعزلها بهذه الطريقة ــ وهذا ينطبق على أى ظاهرتين ــ يجعلنا نفعل كما يفعل البيولوجى إذا توهم أنه يستطيع أن يفصل القلب والجهاز الهضمى مثلا ليدرس العلاقة بينهما بعيدا عن عمل الكائن الحى الذين هما جزئين منه. (١)

هذه النظريات سواء منها ما انبعث عن فكرة فلسفية أو نظام منطقى معين كنظرية De Roberty أو التى قامت على أساس دراسات عامة مثل نظريات أوجبرن ومكيفر وسوروكين ، انما تصور الاتجاهات العامة فى دراســة التغير الاجتماعى، فى محاولة لتقصى عوامله الرئيسية وعملياته واتجاهاته والنتائج المترتبة على ذلك كله فى الثقافة والمجتمع على السواء. وهى كما سبق تركز اهتمامها الاول على المجتمعات المتحضرة والصناعية على وجه خاص . ولم تنل المجتمعات القروية أو البدائية أدنى اهتمام. وهذا واضح لأن الطريقة السوسيولوجية المتبعة فى هذه الدراسات تفترض الوصول الى تعميمات سوسيولوجية تنطبق بالضرورة على المجتمعات الصناعية . ومع أن هذه النظريات « بعيدة المدى Long - term » تصادف من حيث الدقة عقبات كثيرة مثل موضوعية الحقائق التى اعتمدت عليها إلى جانب صدق التحليل العلمى . (٢) إلا أنها أفادت كثيرا من من حيث المنهج والموضوع . فمن

---

1 — P. Sorokin, Society, Culture and Personality, New York, 1947, pp. 636 ,637,644

2 — Sprott, Sociology, London, 1956, pp. 170-171.

حيث المنهج وضعت خططا لدراسة التغير عن طريق البحث عن الأسباب والنتائج مع تقدير أهمية العوامل والنظر اليها نظرة ترابط وتساند ، ومن حيث الموضوع كشفت عن عوامل كبري للتغير عامة يمكن اعتبارها فروضا لاختبار صحتها وأثرها فى تفسير التغير الاجتماعى على أساس محدود ، مثل ملاحظتها فى أجزاء متعددة من الحياة الاجتماعية فى تأثرها بظروف محددة.[1] خصوصا وأن الاتجاه العلمى الآن هو تجنب شرح أى عملية جارية فى الواقع المادى – كعمليات التغير – على نطاق واسع ، بل ينبغى أن نأخذ عينات أو نماذج أو ما يمكن أن يسمى الأنساق المغلقة Closed Systems لنتمكن من تفسير التغيرات فيها بطريقة محددة وواضحة[2] . وأهم ما يمكن أن نستخلصه من الدراسات السابقة للتغير الاجتماعى العام جملة حقائق نسترشد بها فى دراسة محددة هى :

١ – أن التغير الاجتماعى حقيقة واقعة فى كل المجتمعات على اختلاف أنواعها . ولا تختلف المجتمعات من هذه الزاوية إلا من حيث الدرجة فقط .

٢ – أن التقدم التكنولوجى وتعدد وسائل الاتصال الحديثة أدى الى سرعة نسبية فى عمليات التغير وما يترتب عليها من نتائج فى كل مجتمع على حدة ، وفى المجتمع الإنسانى عامة .

٣ – إن عوامل التغير عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات مترابطة متساندة وأنه من الممكن قسمتها من حيث النوع إلى عوامل داخلية فى المجتمع محل الدراسة وعوامل خارجية .

---

1 — Ibid, p.e171.

2 — Znaniecki, The Method of Sociology. New York. 1934, pp. 17, 18.

٤ – إن عوامل التغير لا تحدث نفس الآثار فى كل المجتمعات ، بل قد تختلف نتائجها من مجتمع لآخر بسبب ظروف هذا المجتمع الخاصة وتاريخه .

٥ – أن عمليات اختلال وإعادة التوازن – كالهدم والبناء فى الكائن الحى – تتم الآن فى فترات متعاقبة قصيرة المدى ، لها من الوضوح والآثار مالم يكن لها من قبل.

جـ – اذن فعوامل التغير ونتائجها كما صورها علماء مثل سوروكين وماكيفر وأجبرن وغيرهم انما تنطبق بالضرورة على مجتمعات لها من الاتساع وتعدد الظروف التى تعيش فيها ما يسمح بدراسات لها هذه الصفة العمومية . وبمعنى آخر فالعوامل والنتائج تمثل بطبيعة الحال اتجاها عاما لا ينطبق على حالات متعددة محددة . فقد يبدو أثر العوامل التكنولوجية واضحاً فى مدينة كبيرة مثل شيكاغو ونيويورك ولندن وموسكو حتى أن الباحث يمكن أن يعمم فيقول إن التكنولوجيا هى العامل المسيطر على التغير فى الثقافة المادية وغير المادية ، لأنه يفرض على كل أجزاء الحياة الاجتماعية أن تتوافق مع كل اختراع يتم فى هذا الميدان . ولذلك كان البحث فى التكنولوجيا وما ينشأ عنها فى المجال الاجتماعى من صراع أو توافق من أهم المباحث التى يعنى بها علم الاجتماع فى الولايات المتحدة خاصة . وكان الباعث الأول الذى دعى أوجبرن Ogburn إلى صياغة نظريته فى التخلف الثقافى Cultural lag والتى أثارت ولا تزال تثير حتى اليوم المناقشات فى الدوائر الأكاديمية وغير الأكاديمية . ولهذا كان البحث فى التكنولوجيا والاختراعات التى تتم فى حدودها من المباحث التى تميز البحث السوسيولوجى على مستوى حضرى على وجه الخصوص . كذلك كان

الاهتمام بالتكنولوجيا يمثل الاتجاه الكمى quantitative فى الدراسات السوسيولوجية . لأن التغير فى هذه الناحية وآثاره يمكن قياسها وحدها بسهولة أكثر من التغير الذى يرجع الى عوامل يصعب تطبيق المنهج الكمى عليها ، لأن هذا النوع من الثقافة المادية من طبيعته التجمع والدوام بحيث يمكن أن يظل ميدانا للدراسة الموضوعية باستمرار . (١)

كذلك يمكن أن تظهر آثار العوامل البيولوجية والجغرافية فى نفس هذه المجتمعات الكبيرة نظراً لاتساع رقعتها وتمايز السكان، الأمر الذى يمكن معه البحث فى أثر المناطق الجغرافية المختلفة وتوزيع السكان وانقسامهم إلى طبقات أو فئات مختلفة فى عمليات التغير الاجتماعى ونتائجها .

ويكاد الأمر يختلف تماما اذا كان بحث التغير الاجتماعى يتم فى منطقة قروية أو فى مجتمع بدائى ، فبغض النظر عن زيادة السكان وما قد يكون لها من آثار على الحياة الاجتماعية ، فان بحث العوامل البيولوجية الاخرى

---

(١) اجبرن نتيجة لاقتناعه بالدور الكبير الذى تلعبه التكنولوجيا فى حياة الانسان الحديثة يرى أن تفسير التغير الثقافى لابد ان يتم فى ضوء التكنولوجيا وما تفرضه على الحياة الاجتماعية من تعديلات ، ولهذا كان التغير يتم على أساس البحث عن الاختراعات وما يسبقها من وضع معين للثقافة المادية ، والبحث عن الطريق والمدى الذى تتجمع على أساسه عناصر الثقافة المختلفة ، لأن هذا التجمع Accumulation فى حد ذاته يؤدى الى كثرة الاختراعات ، والتى تتناسب تناسبا طرديا مع عمليات التجمع هذه ، ثم تتبع انتشار هذه الاختراعات من منطقة الى أخرى وتقدير سرعة هذا الانتشار عن طريق سهولة المواصلات ووسائل الاتصال ، وأخيرا ملاحظة التوافقات التى تتم فى المجال الاجتماعى مع تغير التكنولوجيا خصوصا فى ميادين الحكومة والاقتصاد والعائلة والتربية .

Ogburn, Nimkoff, Handbook of Sociology, London 1955, pp. 377—391.

كالانتخاب الطبيعى والتغيرات الهامة فى مضمون content السكان والتغيرات القومية أو الانحرافات[1] لا مناسبة له لأن هذين النوعين من الحياة الاجتماعية لا تظهر فيهما هذه العوامل، وبالتالى فان الاهتمام بها فى دراسة للتغير الاجتماعى لا داعى لها مطلقا . الا فى أحوال خاصة يمكن أن نجد فيها أثرا لعوامل من هذا النوع .

كذلك يختلف الأمر اذا كان البحث يتم فى قرية هى مجتمع جزئى وثقافة جزئية وتتأثر بما يتأثر به المجتمع الكلى والثقافة الكلية، أو اذا كان البحث فى مجتمع بدائى منعزل ومستقل ومكتف بذاته ولا يتأثر الا بطريقة مباشرة كالاتصال الثقافى cultural contact بالمستعمرين الاوربيين . وهذه الاعتبارات تقتضى نظرة منهجية مختلفة . ففى المجتمع القروى لابد من النظر الى العوامل التى تؤثر فى المجتمع ككل والنتائج التى ترتب عليها ثم ملاحظة هذه العوامل فى انتشارها الى القرية ومدى تأثيرها فيها . وهنا نلاحظ أن درجة التأثير تختلف باختلاف نماذج القرى . فالقرى القريبة من المدن أو المناطق الصناعية تتأثر بطريقة تختلف عن القرى البعيدة التى تكون فى شبه عزلة عن طريق المواصلات أو القرب من المدينة . أما فى المجتمع البدائى فان الاهتمام ينصب أساسا على الطريقة التى يتصل بها هذا المجتمع بالمستعمرين الذين يمثلون ثقافة من نوع مختلف، والطريقة التى يتصل بها المستعمرون بدورهم بهذا المجتمع . أى أن الاهتمام يتركز على طريقة التفاعل ودرجته بين الثقافتين البدائية والأوربية والآثار المترتبة على ذلك . ولهذا

---

1 — Maciver, Page, Society, London, 1955, pp. 513—517

كان العامل الأول فى التغير الاجتماعى كما صوره الانثربولوجيون فى الشعوب البدائية هو الاتصال الثقافى .(١)

ومع ذلك فالاتصـال الثقافى cultural contact سواء كان عن طريق الاوربيين فى المجتمعات البدائية أو عن طريق المدينة فى المجتمعات القروية فانه عامل هام فى التغير الاجتماعى فى كليهما . وفى هذا الصـدد يكون التغـير الثقافى الناتج عن الاتصال contact شاملا لعمليات acculturation والانتشار كما أشـار الى ذلك ردفيلد ولنتن وهرسـكوفيتش Herskovits (٢) . فال acculturation هى كل الظواهر التى تنتج عندما يدخل مجموعـة من الأفراد لهم ثقافات مختلفة فى صلات مباشرة أو مستمرة وما يترتب على ذلك من تغيرات فى الانماط الثقافية الاصلية لمجموعتين أو لواحدة منها. وهكذا نميز بين الـ acculturation وبين التغير الثقافى ، لأن الأول عبـارة عن ناحيـة واحدة من الثانى أى أن التغير الثقافى يتضمن الـ acculturation بالضرورة ، والتمثيل أى هضم العناصر الجديدة على أي نحو، نحو مرحلة من مراحـل الـ acculturation شأنه فى ذلك شأن الانتشار diffusion وهكذا يكون التغير الثقافى culture change شاملا لعمليات الـ acculturation والتمثيل والانتشار ، على أنه يمكن النظر الى الانتشار باعتباره ذلك المظهر من التغير الثقافى الذى يشمل انتقال الوسائل الفنية والاتجاهات والأفـكار ووجهات النظر من شعب إلى آخر بغض النظر اذا تم ذلك عن طريق فرد واحد أو جماعة وبغض النظر اذا كـان الاتصال مؤقتا أو دائما .

I — M.J. Herskovits, Acculturation: A study of culture contact, New York, 1938. pp. 10—14.

2 — P.M- kaberry in his introduuoitn of Malinowski, Dynamics of Culture Change, p. VIII

وعلى هذا يكون التغير الثقافى عن طريق الاتصال إما فرديا أو جماعيا وإما مؤقتا أو دائما . وبالتالى تكون عملياته المختلفة تتجه اتجاهات عامة أو خاصة بحسب الأحوال وعلى حسب طريقة الاتصال وهذا يفترض بالضرورة وجود أفراد أو جماعات فى منطقة واحدة من ثقافتين مختلفتين ، الأمر الذى يؤدى إلى سهولة عمليات النقل الثقافى ، ولا يتعين بالضرورة أن يكون الانتقال من الثقافة الأعلى إلى الثقافة الأقل ، بل قـد يكون الانتقال فى الاتجاهين . أى أن سمات الثقافة الاوربية الأعلى تنتقل الى الثقافـة البدائية ، كما تنتقل بعض سمـات الأخيرة الى الأولى. (١) ولا يعنى هـذا مطلقا أن الثقافتين على درجة واحدة من القوة وهذا ينطبق على طريقـة الاتصـال بين القـرية والمدينـة خصوصاً فى الوقت الذى يعيش فيـه فى المدينـة أفراد من القرى نشأوا أولا نشأة ريفية .

وعلى الرغم من أن مالينوسكى Malinowski يتفق مع ردفيـلد ولنتن وهوسكوفيتز فى تعريف التغير الثقافى وفى أهميته ، وفى أنه عامل دائم فى مدنية الانسان ، إلا انه يرفض استخدام كلمة الـ Acculturation خصوصاً إذا كانت تعنى أن التغير الذى يتم على أساسها يمكن أن يـكون عـلى أساس فردى أو جماعى ، وهذا يتفق مع فـكرته عن الثقافة فى أنها أنساق Systems وليست نمطا من السمات Traits أو مركبات منهـا . ولذلك فالتغير الثقافى عنده تغير فى وحدات Units وفى أثناء التغير تتخذ هـذه الوحدات أشكالا جديدة ويكون لها وظائف جـديدة استجابة للظـروف الجديدة الناتجة عن الاحتكاك أو الاتصال ، ولهذا فان الانتشار الذى يتم عن

1 — P. Sorokin, Society. Culture and Personality, N.Y,1947, pp. 566—567.

طريق الاتصال هو « عملية إعادة تنظيم على أسس جديدة كـلية »(١) .

ولكن إذا دققنا فى الأمر خصوصا فى دراسات التغير فى مجتمعات محددة نجد أن الفرد فى كل مجتمع بدائى أو قروى يحمل سمات الثقافة السائدة فى مجتمعه وبصفة عامة لا نجد اختلافات ذات بال بين الأفراد فى هذه الناحية ، ولهذا إذا كان التغير يتم على مستوى فردى أو جمعى ، فان النتيجة واحدة لأن سمات الفرد لن تتغير منفصلة عن تغير الجماعة أو النسق الذى يمثل نوعا من أنواع النشاط الثقافى أو الاجتماعى . كما أن عمليات التغير نفسها لا تأخذ طريقها فجأة ، وإنما تمر على مراحل من الصراع والتوافق يكون الفرد والجماعة ككل غير منفصلين تماما فى كل مرحلة منها . ولهذا كان الاختلاف بين ردفيلد مثلا وبين مالينوسكى اختلافا فى مفهوم الفرد ومفهوم الجماعة . وقد يكون هذا الاختلاف له ما يبرره فى المجتمعات الحديثة ، ولكنه فى مثل هذه المجتمعات الصغيرة تضيق شقة الخلاف كثيرا . كما أن النظر إلى الثقافة على أنها مجموعة من السمات خصوصاً فى المجتمعات الصغيرة محاولة لإعطاء كل ثقافة صيغة عامة ، كما فعلت روث بندكت R. Benedict فى دراستها لأنماط الثقافة (٢) وذلك بحسب الاتجاه السائد المميز للحياة الاجتماعية فيها والذى ينصب أساسا على القيم الأساسية فى سلوك الأفراد . وهذه النظرة لا تتغافل عن أن الثقافة كوحدة لها عدة وجوه ، ولكن ترابط هذه الوجوه على نحو معين هو الذى يعين اتجاه السمة أو السمات

1 — B. Malinowski, Dynamics of Culture Change, New York 1936. p. 1—7.

2 — R. Benedict, Patterns of Culture, London, 1952.

الرئيسية التى تغلب على اتجاهها العام . أما النظر إلى الثقافة ، كما يرى مالينوسكى على أنها مكونة من وحدات أو نساق تتغير كل منها متخذة صورة جديدة ذات وظائف جديدة ، فقد يعنى ذلك أن تغيرها لا يكون فى اتجاه واحد ، أو قد يكون هناك اختلاف فى التغير ، فبعضها يتغير كلية والبعض الآخر يظل محتفظاً ببعض العناصر القديمة التى لا تزال تحتفظ بحيويتها وتؤثر فى الحياة الاجتماعية (١) ومن هنا كان الخلاف بين مالينوسكى وغيره ، وجوهره ينصب على أن وحدات الثقافة لها وظائف Functions وليست سمات traits والتغير يكون فى الوظيفة لا فى السمة . والفرق بين الوظيفة وبين السمة هو موضع الاختلاف :

وسواء كان التغير فى الوظيفة أو السمة ، فالثابت أنه عملية اطرادية Process ، وهو بذلك يتضمن معنى الاستمرار Continuity . والعملية بهذا المفهوم عبارة عن تغير مستمر يحدث بطريقة محددة خلال تأثير القوى أو العوامل الموجودة من قبل فى الموقف Situation وعلى ذلك يمكن ان نتحدث عن العمليات التى تؤدى الى تغير جماعة Group معينة أى الصورة التى تكسب علاقات الجماعة طابعا خاصا .

وفى دراسة التغير عن طريق العمليات نلاحظ سلسلة من التغيرات من حالة معينة إلى أخرى . بذلك يمكننا أن نلاحظ التغير الذى يطرأ على وظيفة معينة لنسق ما خلال فترات مختلفة من الزمان ، كما يمكن أن نلاحظ بنفس الدرجة مثل هذه التغيرات على السمات أو الطوابع التى يمر عليها نفس النسق خلال نفس الفترات . وبهذا لا يكون هناك اختلاف إلا الاختلاف فى

1 — Malinowski, Op. Cit., pp. 27—33.

النظرة . وليس فى استخدام كلمة العملية – كما يفهم من معناها الأدبى – أى اشارة للكيفية Quality بين المرحلتين أو الفترتين أو للاتجاه الذى تسير إليه . وكل ما نعنيه بالعملية هنا ، الطريقة التدرجية التى تسير فيها من مرحلة إلى أخرى (١) . واستخدام فكرة العملية على هذا النحو لا ينفى ارتباطها بفكرة البناء الاجتماعى والوظيفة فالعملية والوظيفة والبناء مراحل ثلاث لفكرة واحدة يمكن استخدامها فى تفسير الحياة الاجتماعية . وإذا فهمنا الوظيفة على أنها نتيجة للعلاقة المتبادلة بين البناء والعملية فانه يمكن تطبيقها فى دراسة الدوام فى أشكال الحياة الاجتماعية وكذلك فى عمليات التغير فيها (٢) . ومن هنا كانت التغيرات التى تحدث فى العمليات مرتبطة بالتغيرات التى تحدث فى الوظائف طالما أنهما مرتبطان ارتباطا منطقياً .

ويتضح مما سبق أن دراسات التغير فى المجتمعات البدائية اقتصرت على نوع واحد من عمليات التغير وهو التعديل الذى تم أو لا زال فى الطريق فى الحياة الاجتماعية تحت تأثير غزو الأوربيين . وبذلك كان الاتصال الثقافى هو العامل الأول فى إحداث هذه التغيرات ، أى أن المجتمعات البدائية على هذا الأساس تتغير فى الدرجة الأولى بفعل عوامل خارجية فقد كانت قبل الغزو الأوربى فى حالة من التوازن والتوافق اقتضتها عزلتهم النسبية واستقلالهم واكتفائهم الذاتى ، وكل تغير أساسى يعتبر انحرافا عن حالة التوازن الأصلية تؤدى بالضرورة إلى تعديلات متعددة . ولهذا أعتبر الأنثروبولوجيون حالة

1— Maciver, Page, Society, London, 1953, pp. 521-522

2— Radcliffe—Brown, Structure and Function in Primitive Society, Londou , 1956, p. 12

هذه المجتمعات البدائية قبل الغزو الأوربى (نقطة الصفر Zero Point) متوازنة أو ثابتة Static نوعا بحيث يمكن اعتبارها الحالة التى كانت سائدة لفترة غير محددة من الزمان ، والتغير الحقيقى الذى حدث هو الذى أخذ فى الظهور نتيجة للاتصال الثقافى بثقافات جد مختلفة . ولهذا كان من الممكن دراسة التغير على أساس المقارنة بين الأوضاع القديمة المتوازنة وبين الأوضاع الجديدة المتغيرة، وقد صور رادكليف براون Radcliffe—Brown امكان ذلك ، لأن بين مجموعة من الناس قد يظل نموذج واحد من الحياة الاجتماعية هو نفسه تقريباً على مدى فترة معينة ، ولكن فى مدى كاف من الزمن تمر الحياة الاجتماعية على تغيرات أو تعديلات ، وعلى ذلك فانه بينما يمكن أن ننظر لحوادث الحياة الاجتماعية كمكونة لعملية ، فانها فوق هذا وذاك عملية تغير فى شكل الحياة الاجتماعية، وفى وصف متزامن Synchronic ، نقدم تقريراً عن الحياة الاجتماعية كما هو موجود فى وقت معين مجرداً ما أمكن ذلك من التغيرات التى قد تكون جارية فى مظاهره ، وفى وصف للتغير Diachronic من ناحية أخرى نقدم تقريراً لمثل هذه التغيرات فى مدى فترة معينة . (١)

ولكن الاقتصار على تناول التغير الثقافى فى ضوء الاتصال الثقافى وحده كما جرت عادة الأنثروبولوجيين أخيرا يؤدى إلى عدم تمام فهم عمليات التغير التى تحدث فى المجتمعات البدائية نفسها ، خصوصا وأنه وإن كان هذا الاتصال هو الباعث الرئيسى فى التغير ، إلا أنه بعد ذلك لا يظل كذلك ، فالتغيرات الاجتماعية سلسلة متصلة الحلقات ، وعن طريق التفاعل بين الثقافة

1— Radcliffe--Brown; Op. Cit.; p. 9

البدائية والثقافة الأوروبية يمكن أن تنشأ ظروف جديدة تؤدى الى مزيد من التغير داخل المجتمعات البدائية نفسها ، خصوصا وأن المجتمع البدائى لا يظل فى حالة سلبية مطلقة إزاء التأثيرات الأوربية . ولذلك كانت دراسة التغير على أساس الاتصال الثقافى وحده أمر يؤدى الى صعوبات متعددة من حيث المنهج والموضوع معا . (١)

حقيقة إن دور الاتصال الثقافى فى التغير على جانب كبير من الأهمية سواء فى المجتمع البدائى أو القروى ، ولكن قصر عمليات التغير عليه مجافى للحقيقة العلمية من ان الظاهرة الواحدة لها أكثر من سبب واحد ، كما أن هذه الأسباب بدورها مترابطة بحيث لا يمكن أن نفصلها ولو لغرض الدراسة فمثلا قد يكون فى استقرار البدائيين فى مكان واحد ، أو قيامهم بأعمال جديدة معينة له من التأثير على حياتهم الاجتماعية ، بحيث لا يمكن أن نظل نرجع كل تغير إلى عامل واحد . وفى القرية أيضا ، لا يمكن أن نرجع مظاهر التغير فيها إلى أثر المدينة وحدها . وقد يكون صحيحا فى حالة القرية والمجتمع البدائى ، أن نقول إن المدينة أو الاتصال الثقافى كانا نقطة البدء فى التغير ، ويظل كل منهما عاملا فى هذا التغير طالما كانت لهما آثار واضحة ، وطالما كان من الممكن أن تربط التغيرات عليا بهما ، إلا أن التفاعل الداخلى بين مختلف الأنساق الاجتماعية يؤدى بدوره إلى تغيرات قد تكون أبعد أثراً من أثر العوامل الخارجية ، بحيث يمكن أن نتتبع سلسلة من العلية لا تتصل مباشرة بالخارج ، ومع ذلك فانه من الصعب فى البحث عن الأسباب فى دراسات التغير الاجتماعى ، أن نفصل فصلا تاما بين العوامل الداخلية

1 — Ibid. pp. 201-202.

والخارجية ، وذلك لصعوبة تتبع أثر كل فئة منها على حدة وتعيين تغيرات يقال إنها راجعة لعوامل فى الداخل ، وتغييرات يمكن نسبتها إلى آثار من الخارج . فعمليات التغير فى المجتمع الواحد متداخلة ومنتشرة فى كل الأجزاء وان تكن بنسب متفاوتة ، إلا أنها حقيقة واقعة لا يمكن أن تنسب إلى مجموعة من العوامل دون غيرها .

ولهذا فان مالينوسكى فى نسبته التغير إلى عاملين : التلقائى الداخلى الذى يؤدى إلى ما سماه التطور المستقل ، والخارجى فى صورة الانتشار عن طريق الاتصال الثقافى .(١) نسبة غير صحيحة ، إلا من الناحية التصنيفية البحتة ، لأنه لا توجد مجتمعات فى حقيقة الأمر تتغير من الداخل فقط ، أو من الخارج فقط . والعوامل الكبرى للتغير : البيئة الطبيعية ، والظروف البيولوجية ، والنظام التكنولوجى ، والنظام الثقافى ، وإن كانت قد فصلت لغرض التصنيف إلا أنها أيضاً يمكن قسمتها إلى عوامل خارجية وداخلية .(٢) ومع ذلك فاحدها على حدة لا يمكن أن يصلح أساساً لتفسير التغيرات مهما كان نوعها . فالسليم أنها مترابطة وإن اختلفت آثارها من حيث الأهمية والمدى الذى يمكن أن نذهب إليه فى سرعة عمليات التغير أو فى اتجاهها . ولذلك كان أهم ما وجه إلى أجبرن ومدرسته ، أنه يعطى أهمية كبرى لعامل واحد وهو التكنولوجيا فى أثرها على المجتمعات المتحضرة ، وهذا ينطبق أيضا على الاتصال الثقافى كعامل أول أو وحيد فى التغير فى المجتمعات البدائية .

ونتيجة لذلك لا يلزم نتيجة للاتصال الثقافى فى المجتمعات البدائية أو القروية

1 — B. Malinowski, Dynamics of Culture Change; N. Y. 1936. p 1.

2 — Maciver & Page, Op. Cit., pp. 513-517.

أن تكون هناك حتمية فى دخول عناصر معينة فى الطليعة دون العناصر الأخرى. وأعنى بذلك أن تدخل العناصر المادية أولا ثم تليها فى الدخول العناصر اللامادية، فليست هناك قاعدة ضرورية لعمليات النقل أو الانتشار الثقافى. وهذا موقف مخالف لأجبرن Ogburn حين يقول « عندما تبدأ الثقافة الثابتة (المتوازنة أو المتوافقة) فى التغير لا يكون هناك اتفاق فى جميع أجزائها فى التغير فى نفس الوقت ـ والتغير فى بعض الأجزاء بصورة أسرع ـ الثقافة المادية ـ من الأجزاء الأخرى يؤدى الى الاختلال، ويزداد الاختلال كلما كانت أجزاء الثقافة مرتبطة من قبل بشدة. والاختلاف الذى قد يكون بين جزئين مرتبطين من الثقافة المتغيرة فى درجات السرعة غير المتساوية يمكن تفسيره بأنه تخلف Lag بالنسبة للجزء الذى يتغير بدرجة أقل لأن هذا يعنى أن أحد الأجزاء يتخلف وراء الآخر (١)

وأجبرن هنا يفترض أن العناصر التى تتغير أولا هى العناصر المادية، ولذلك عند الاتصال الثقافى أو عن طريق تأثير المدينة تدخل العناصر المادية أولا وتتخلف وراءها العناصر اللامادية، وهذا يؤدى الى الاختلال، وإذا سلمنا جدلا بحتمية أسبقية الانتشار للعناصر المادية، فان ذلك يعنى حدوث اختلال بالضرورة. لأن هذه العناصر لا تتجمع فجأة، وإنما تكون بالتدريج، وقد يكون تواردها أسرع من التوافقات الاجتماعية، إلا أن فكرة الاختلال أو التخلف تحمل عند أجبرن معنى الاضطراب. وهذا مالا يحدث فى واقع الأمر. كذلك يكون إمكان قياس وعد العناصر المادية بسهولة أكثر من العناصر غير المادية من الأسباب التى تجعل البعض يتوهم ضآلة التوافق أو السرعة فيه، مع أن أجبرن نفسه يقول أن الاختراع وهو

1 — Ogburn & Nimkoff, Op. Cit., p. 592.

لب التقدم التكنولوجى عنده لا يقتصر على الناحية المادية، بل إنه يمتد إلى الناحية اللامادية، الأمر الذى يجعل الجانب المادي يتوافق ويتعدل نتيجة للحاجات الاجتماعية الجديدة. كذلك إذا كان الاختراع نتيجة للأساس الثقافى الضرورى من المادة الخام والمعرفة، والقدرة العقلية، والحاجة الاجتماعية (١). فان التقدم التكنولوجى يصبح فى نهاية الأمر معبرا عن حاجات الجماعة المتزايدة، وبالتالى لا يكون هناك محل لفكرة التخلف أو الاختلال، وما يترتب من انتشار العناصر المادية أولا، ولو كانت هى السابقة مع ذلك فلأنها أسرع بطبيعتها، ولأنها تعبر عن حاجات الجماعة المباشرة.

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن انتشار العناصر المادية قد يكون جبريا خصوصا فى المجتمعات البدائية، وقد يترتب عليه نتائج بعيدة المدى قد تصل الى درجة التصدع فى الكيان الاجتماعى، وقد يكون اختياريا، كما هو الحال فى المجتمع القروى ـ فى الجمهورية العربية المتحدة ـ فلا تنتشر العناصر المادية للثقافة إلا بقدر الحاجة إليها. ويدخل فى الاختيار عنصر المقارنة بين القديم والجديد من حيث مدى وفائه بالأغراض المطلوبة بأقل التكاليف. ولهذا فان التوافق الذي يتم فى القرية لكل عنصر مادي جديد يكون سريعاً لا يؤدى إلى أى نوع من أنواع الاختلال بعيد المدى.

هذا وينبغى أن نميز فى نمو الثقافة المادية بين نوعين: النمو الكمى والنمو الكيفى (٢). فالأول يعنى زيادة فى العناصر المادية دون تحسن

1 — G. Lundberg, Foundations of Sociology N. Y. 1939, p. 507.

2 — P. Sorokin, Society, Culture and Personality N. Y. 1947, p. 579.

ملموس فى كيفيتها ، أى أن الزيادة تكون كماً لا كيفاً . والثانى يعنى زيادة
فى قدرة العناصر على تحقيق ايديولوجيتها ، أى الوفاء بالأغراض المتنوعة
بها . ولذلك قد ينتشر استخدام الراديو فى القرية دون أن يحقق الغرض
منه ، اذا اقتصر القرويون على سماع اذاعات معينة كالقرآن والأغانى . دون
الأحاديث والتوجيهات ، وقد ينتشر استخدام المواقد البترولية دون تعديل
فى شكل المنزل القديم القائم على تخصيص مكان معين - الكانون - لطهى
الطعام ، كذلك قد ينتشر استخدام السيارة والقطار فى تنقلات القرويين دون
تغيير فى شكل الملابس لتساعدهم على سهولة الحركة بالنسبة لوسائل
المواصلات الجديدة . ومعنى ذلك أن الانتشار الكمى لا يقتضى بالضرورة
تعديلا كيفيا مساويا . وعدم الارتباط هذا بين الكم والكيف فى العناصر
المادية ، هو الذى يؤدى الى عدم الاتصال . أما إذا ارتبط النمو الكمى
بالضرورة بالنمو الكيفى لانطواء العناصر المادية على هذا الارتباط وعلى
القرويين مثلا عن حالتهم السابقة ، فقد يكون التخلف فى هذه الحالة
وجوداً . ونلاحظ أنه فى المجتمع القروى يرتبط النمو الكمى للعناصر
المادية بالمستوى الاقتصادى والتعليمى . أما النمو الكيفى ، فانه يرتبط
بزيادة الانتشار الثقافى العام .

ويلزم الآن مزيد من الايضاح فيما يتصل بفكرة الاتصال الثقافى التى
تعتبر الباعث الأول فى المجتمعات البدائية لسلسلة التغيرات التى تحدث فى
الحياة الاجتماعية والثقافية .

ففى المجتمعات الصناعية يكون هناك ارتباط بين التكنولوجيا والانساق
الثقافية بحيث أن كل تغير فى أحدهما يؤدى الى تغير فى الأخرى . ولكن
اذا حدث انتشار التكنولوجيا من أحد هذه المجتمعات إلى مجتمع آخر ،

فلا يلزم أن تتغير الأنساق الثقافية فى المجتمع الأخير فى صورة موازية للتغير فى
المجتمع الأول . ولذلك فان اليابان وأمريكا وروسيا قد يكون لهم نفس
النظام التكنولوجى . ولكن نظرة كل منها للحياة مختلفة ، فالثقافة فى
وجه منها تقييم Evaluation وفى الوجه الآخر تعبير Expression
والتقييم يتغير بتغير التجربة إذا أدت الى اشباع الحاجات أو العكس ، وكل
عنصر له قيمة ، بل إنه فى المجتمع الواحد نجد اختلافا كبيرا فى الاهتمامات
أو المصالح الثقافية [1] .

ويلاحظ أن التكنولوجيا والأنساق الثقافية فى المجتمع الصناعى تتغير فى
الدرجة الأولى من الداخل لوجود المادة الخام والمعرفة
اللازمة إلى جانب القدرة العقلية اللازمة للاختراع والحاجة الاجتماعية التى
تؤدى إلى مزيد من التقدم فى هذا الميدان . ولهذا يكون الانتشار الثقافى
بالنسبة لهذه المجتمعات إضافة غير جوهرية لما هو موجود فعلا ولا يكون
بذلك عاملا له خطره ، مثل الانتشار فى المجتمعات الأقل ، وهى المجتمعات
القروية والبدائية . ونعمم هذا القول على كل المجتمع الصناعى على الرغم
من انطوائه على وحدات اجتماعية تتأثر بالتكنولوجيا والأنساق الثقافية فى
المدينة ويكون مركزها فى التغير مماثلا الى حد كبير لمركز القرية فى المجتمع
غير الصناعى حين تتأثر بالمدينة . والذى دعانا الى هذا القول ، الاختلافات
الواضحة بين الحياة القروية فيها ، وفى المجتمعات الأخرى التى لم تتقدم
الصناعة فيها الى درجة تؤثر فى الانتاج الزراعى والتنظيم القروى بصفة عامة ،
فامريكا فى مرحلة الاستعمار مختلفة تماما عن أمريكا الصناعية اليوم ، وأهم

1 — Maciver; Page, Society London, 1933. pp. 512-518.

ما نلاحظه علينا أن القرية أصبحت غير مهمة ولم تعد العائلة تقوم بالأدوار التى كانت تقوم بها من قبل (١) . أى أن الحياة القروية أصبحت ثانوية لا تقوم فى وحداتها الأساسية على القرية ، وإنما تقوم على المزرعة التى تكاد أن تأخذ بكل أسباب الحياة الحضرية فى المدينة . ولهذا كانت دراسة الحياة الريفية فى مجتمع صناعى كالمجتمع الأمريكى مختلفة إلى درجة كبيرة عن دراستها فى أنواع أخرى من المجتمعات كالمجتمع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة (٢).

إذن فالانتشار الثقافى بالنسبة للمجتمع الصناعى من طبيعة مختلفة عن الانتشار فى المجتمعات الأخرى . فهو إما انتشار من هذا المجتمع الى الخارج - إلى المجتمعات الأخرى - أو انتشار من مراكز الصناعة والفكر إلى الأجزاء الأخرى فى نفس المجتمع . فهو إذن لا يكون انتشاراً نتيجة لتقابل ثقافتين مختلفتين .

ويكاد الأمر بالنسبة للمجتمع البدائى يكون فى الطرف الآخر . فالانتشار الثقافى من حيث هو اصطلاح وضع خصيصا ليصور الآثار التى تترتب على تقابل الثقافة الأوربية بالثقافة البدائية ، وكل منهما مختلف تماما عن الآخر ، وليشرح العمليات التى تغير من الحياة الاجتماعية والثقافية عند البدائيين فى الأحوال التى يتصلون فيها بالاوربيين المستعمرين . والانتشار على هذا

---

1 — Ogburn, Nimkoff, Handbook of Sociology, London, 1955, pp. 587-590.

2 — Ch. Loomis, A. Beegle; Rural Social Systems N. Y. 1951.

النحو يتضمن أثر التكنولوجيا والأنساق الثقافية الاوربية ، لأن الاوربيين فى كل مجتمع بدائى يمثلون ثقافة معينة ، لها نظامها التكنولوجى المرتبط بالمظاهر الثقافية . ولهذا تتفاعل الثقافتان كل منها ككل ، ولا يجوز لنا القول إن التفاعل يكون أولا عن طريق العناصر المادية ثم العناصر اللامادية ، فلا محل هنا إذن للقول بأنه عندما تتقابل ثقافتان مختلفتان ، تدخل العناصر المادية أو الإقتصادية أو التكنولوجية أولا ، ثم يتبعها العناصر السياسية والإيديولوجية ، كما يتجه الى ذلك أجبرن ورالف لنتن وتوينبى وما كيفر ، لأن مثل هذا الرأى يفترض أن صراعا حادا ينشأ بين العناصر اللامادية للثقافتين الأمر الذى يؤخر دخولها ، والرأى السابق تكذبه الحقائق المنطقية والأدلة الواقعية ، فليست هناك قاعدة لدخول العناصر التكنولوجية أو الدينية أو الأخلاقية ، فقد تدخل احداها أولا . لأنه إذا تقابل فردان يوميا فليس من الضرورى أن يأخذ أحدهما عن الآخر الافعال والتكنولوجيا والاخلاق بالترتيب ، وكذلك الأمر بالنسبة لثقافتين . فالمكسيكيون فى Tepoztlan كما يقول ردفيلد Redfield استعاروا من الأسبان العناصر اللامادية أولا ، وكما يقول Cheng, Wang إنه عندما اتصلت الصين بالغرب لم يكن التغير الاجتماعى الذى حدث يحمل فى مظهره استعارة العناصر المادية واللامادية بالترتيب ، بل العكس كانت الاستعارة فى مجال الإيديولوجيات سابقة على الماديات (١) . ومع التسليم بعدم حتمية دخول عناصر بالذات أولا عند إلتقاء الثقافة الأوربية بالثقافة البدائية إلا أنه من الصعب أن نحدد بدقة الطريقة التى تدخل بها العناصر على اختلاف أنواعها ، وتزداد الصعوبة خصوصا إذا كان البحث فى مجال اللاماديات .

---

1 - Sorokin, Society, Culture and personality, N. Y. 1947, pp. 578—579.

وقد أدرك هذه الصعوبة علماء الأنثروبولوجيا الأمريكان حين كانوا يدرسون الهنود الحمر ، ولذلك كانوا يفضلون دراسة الثقافة على البناء الاجتماعي (١) .

ويصور التعريف الذى وضعه مالينوسكى Malinowski للتغير الثقافى الذى ينطبق خاصة على المجتمعات البدائية « التغير الثقافى هو العملية التى يتغير بواسطتها نظام المجتمع الحالى فى نواحيه الاجتماعية والسياسية والمادية من شكل الى آخر » طبيعة الانتشار الذى يتم عن طريق الاتصال Contact مع ثقافة أعلى Higher فهو لا يشمل العناصر المادية وحدها ، وإنما يشمل أيضا العناصر اللامادية خصوصا إذا عرفنا أن الأوربيين فى المجتمعات البدائية كانوا يدخلونها وهم مزودون بالعناصر التكنولوجية المميزة لثقافتهم مع العناصر اللامادية وأخصها بعثات التبشير ، وكان هدفهم الأساسى القضاء على الأسس الرئيسية التى تقوم عليها الحياة البدائية سواء من حيث البناء الاجتماعى أو العناصر المادية الوثيقة الارتباط به . ولكن طبيعة إلتقاء الثقافتين البدائية والأوربية والتأثيرات التى تتم عن هذا الطريق لها نموذج يختلف عن القرية مثلا ، فالأوربيون يعيشون وسط المجتمع البدائى الذى يصبح فى هذه الحالة مجتمعا مركبا Composite Society (٢) ولذلك يكون الإتصال الثقافى والنتائج المترتبة عليه غاية فى الصعوبة من حيث التفسير ، ولهذا فان راد كليف براون ينقد مالينوسكى فى اتجاهه إلى تفسير التغير فى المجتمع البدائى عن طريق الانتشار ، وعن طريق الاتصال الثقافى

1 — E. E. Evans-Pritchard ; Op. Cit., pp. 16-20

1 — Radcliffe-Brown; Structure and function in primitive Society, London, 1956, pp. 201-202

بالأوربيين ، لأن ذلك يعنى أن التأثير من جانب واحد أى من الثقافة الأكثر قوة ، بينما تكون هى بمعزل عن التأثر وهو أمر مجاف للحقيقة تماما . ومع تسليمنا بأن الانتشار الثقافى لا يمكن أن يكون من جانب واحد ، بل هو بالضرورة ذو اتجاهين كما سبق أن أوضحنا ، إلا أن الذى يعنينا هو أن نبرز الاختلاف بين المجتمع البدائى والمجتمع القروى فى هذا الصدد . فالبدائيون يدخلون فى علاقات مباشرة مع الأوربيين ، وهؤلاء من ناحية أخرى يقيمون فى المجتمع إقامة دائمة ، الأمر الذى يخلق حالة من الصراع القوى . كما أن اتجاه الأوربيين يكون الى فرض التغييرات ، إما عن طريق الوسائل التكنولوجية ، أو عن طريق خلخلة البناء الاجتماعى بوسائل مقصودة وهذا وضع لا تتعرض له القرية على هذا النحو . ذلك لأن تأثير المدينة لا يكون فى أغلب الأحيان مباشرا ، ولا يتصل سكان المدينة بالقرية إلا بطرق محددة . ولهذا يكون الانتشار الثقافى من المدينة الى القرية لا يحمل طابع القسر ، بل إنه يسير فى مجراه الطبيعى ، يتعرض لكثير من العقبات حتى يتم له التأثير فى حياة القرويين . هذا الى أن القوانين التى تصدرها الدولة تحمل طابع التنظيم لا طابع الخلخلة ولا تصدر فى سرعة كبيرة وإنما على فترات قد تطول أو تقصر .

والقروى فيما عدا ما يتعلق بالقانون تكون لديه الحرية للمقارنة بين القديم والجديد ، واعتناق الجديد أو استخدامه إذا لم يحدث قلقلة فى القواعد التى يبنى عليها حياته الخاصة والعامة ، كما أن التغيير الذى يتم عن طريق تأثيرات المدينة ينصب فى الدرجة الاولى على المظاهر المادية . وهنا تتدخل عوامل كثيرة مثل ، المستوى الاقتصادى وملاءمة الظروف المحلية. كذلك تصبح المدينة منطقة جذب كلما زاد ظهورها فى حياة القروى كمكان ملائم لإشباع حاجاته المتزايدة خصوصا فى الميدان الاقتصادى وسوف نرى

فيما بعد أن التغيرات الداخلية فى القرية وخاصة فى مجال التنظيم العائلى وما صاحبها من نمو القرية تؤدى إلى ظهور وحدات أكبر من العائلة فى توجيه السلوك كمجتمع القرية ككل والمدنية ، ونتيجة ذلك أن الإنتشار الثقافى من المدينة الى القرية لا يجعل هذا الاتجاه دائماً ، بل إن ازدياد صلات القروى بالمدينة تؤدى بدورها الى اتجاه عكسى من حيث الانتشار . وعلى كل حال يكون الإنتشار الثقافى من حيث السرعة ودرجة التأثير والعمليات التى تحدث نتيجة له فى القرية مرتهنا بعوامل كثيرة تتصل بطبيعة القرية نفسها من حيث سهولة المواصلات وتوزيع الملكية والقرب أو البعد عن المدن بصفة عامة . الأمر الذى جعلنى أضع القرى الثلاث فى نموذج واحد لتشابهها فى هذا الصدد . وقد أشرت من قبل إلى احتمال وجود نماذج أخرى من المجتمعات القروية على أساس التشابه فى نواح أخرى .

والانتشار عن طريق الاتصال الثقافى بين ثقافتين فى حالة المجتمع البدائى والمجتمع الأوربى (ممثلا فى المستعمرين) يعنى أن كلا منها ثقافة مستقلة بذاتها ومتكاملة الأجزاء ، إلا انه يفترض فى هذه الحالة أن أحد الثقافتين أعلى أو أكبر — الثقافة الاوربية — والأخرى أقل أو أصغر — الثقافة البدائية — وأن التفاعل — على عكس الإتجاه السائد بين الأنثروبولوجيين — يكون بين الثقافتين ، بغض النظر عن درجة تأثر كل منها فى عمليات التفاعل . أما بالنسبة للقرية فانه من الممكن أن نستعير اصطلاح الاتصال الثقافى وواسطة تأثيره ، وهو الانتشار فى وصف العلاقة بين المدينة والقرية وما يترتب على هذه العلاقة من عمليات تغيرية متبادلة ، ولكن طرفى العلاقة فى هذه الحالة غير مستقلين بذاتهما ، فالقرية مجتمع جزئى Part Society وثقافتها ثقافة جزئية Part-Culture وهذا هو شأن المدينة أيضا : ولذلك تكون

العلاقة بين القرية والمدينة علاقة بين متغيرين Variables لأن التغير فى إحدها يؤدى إلى تغير فى الأخرى ، وفى الدراسة التى أقدمها أعنى — من حيث عوامل التغير وعملياتها — بأثر التغير — المدينة — فى المتغير الآخر — القرية — ولا أدرس العلاقة العكسية لأن ذلك يتصل بموضوع آخر ليس هنا مجال بحثه .

والدراسة على هذا النحو تشير على أساس منطقى لأن الانتشار الثقافى عن طريق الإتصال تتأثر به الثقافة الكلية أولا وتهبط التأثيرات فى سلسلة متصلة الحلقات حتى أصغر الوحدات المكونة لها وهى القرية ، وبالتالى تكون قد مرت قبل ذلك بالمدينة ، إذن فالمدينة من ناحية العلية تمثل السبب Cause والقرية تمثل النتيجة Effect واستخدامى لاصطلاح الاتصال الثقافى مساوياً لأثر المدينة لا يختلف فى كثير عن فكرة ردفيلد Redfield من أن المدينة تمثل من حيث التغير التقاليد العليا أو الكبرى High Traditions والقرية تمثل التقاليد الدنيا أو الصغرى Little Traditions والتفاعل بينهما يؤدى الى تغيرات فى أحدهما أو فى كليهما [1] .

وخلاصة الموقف أنه لا يمكن دراسة القرية فى حالة الثبات أو التوازن Synchronic أو فى حالة التغير Diachronic دون أن نفطن أو أن نضع فى تقديرنا علاقتها واعتمادها الدائم على المدينة حيث مراكز القوة والفكر والتقاليد الكبرى .

---

1 — Redfield, Peasant Society and Culture, Chicago, 1956, pp. 91—92.

وهذا ينطبق أيضا على القوانين التى تصدرها الحكومة والتى قد تنظم الانتاج الزراعى أو الحياة الاجتماعية، فهى لاتنفذ فى القرية إلا عن طريق المدينة . فالقرية كما علمنا وحدة من تنظيم إدارى مركزه مدينة معينة، والمدينة وحدة من تنظيم أكبر متصل بالحكومة المركزية مباشرة . ولذلك فان تأثير الدولة ككل يصل القرية عن طريق المدينة . ولهذا تكون المدينة مركز الانتشار الادارى والمادى والاصلاحى والاجتماعى جميعا . ولهذا يكون تأثيرها فى القرية أوضح من تأثير أى وحدة أكبر منها ، وعندما تمايز المدن من حيث خصائصها العامة كأن تكون مركزا تجاريا أو صناعيا أو علميا ، فان هذا يطبع عمليات الانتشار الثقافى منها إلى القرى بطابع خاص . وقد يكون هذا التمايز بين المدن من العوامل الأساسية التى نختار على أساسها النموذج فى دراسة المجتمع القروى فى الجمهورية العربية المتحدة . ومثال ذلك أن مدينة ميت غمر التى تتبعها القرى الثلاث إداريا . كانت من أوائل المدن التى ظهر فيها الاتجاه إلى انشاء الجمعيات التعاونية الزراعية ، وبالتالى كانت القرى الثلاث من أوائل القرى التى أخذت بهذا النظام . وعلى ذلك فالاتصال الثقافى بين القرية والمدينة وما يؤدى إليه من التغيرات التى تحدث فى القرية عن طريق عمليات الانتشار له الخصائص التالية :

١ ـ أنه يؤثر بطريقة مباشرة وغير مباشرة بعكس الحال فى المجتمع البدائى الذى يكون تأثيره مباشرا . فهو فى القرية يؤثر مباشرة عن طريق القوانين والاصلاحات الحكومية ، وبطريقة غير مباشرة فى النواحى الأخرى وخصوصا ما تعلق بالثقافة المادية .

٢ ـ أنه ليس العامل الوحيد أو الأهم فى التغير الاجتماعى والثقافى فى

القرية ، بل إنه أحد العوامل فقط بعكس الحال فى المجتمع البدائى الذى يكون هناك أهم العوامل جميعا .

٣ ـ لا يؤثر مستقلا وتختلف سرعة تأثيره من حالة لاخرى . فكلما زادت التغيرات فى البناء الاجتماعى فى القرية وعلى الاخص فى العائلة نتيجة العوامل الداخلية ، زاد أثره . ولذلك فسرعته واتجاه عملياته مرتبط بأثر التغيرات الداخلية .

٥ ـ فى دراسة محددة كالتى اقدمها عن التغير فى القري الثلاث يكون الباعث الاول الكشف عن عوامل التغير وعملياته واتجاهاته ، وليس محاولة الوصول الى « قوانين » و « تعميمات » ذات صفة عامة . فعن طريق اجراء عدة دراسات من هذا النوع فى مناطق مختلفة من المجتمع القروى فى الجمهورية العربية المتحدة الى جانب الدراسات التى اجريت وتجرى الآن فى مختلف المجتمعات الريفية فى أنحاء العالم، يمكن عن طريق المقارنة الوصول الى تعميمات مع ما يكتنف هذه التعميمات من صعوبات بالغة لاختلاف الظروف التى تعيش فيها المجتمعات ولتعدد العوامل وتداخلها واختلاف آثارها، الامر الذى يجعل « سن قانون » يحمل فى كلمات قليلة تحديدا لسير ظاهرة معينة امرا بالغ الخطورة من ناحية الدقة العلمية . وتبدو هذه الصعوبة أكثر فى دراسات التغير حين تكون فرصة التنبؤ بسير الظاهرة قليلة جدا الا اذا وضعنا سلسلة لا تنتهى من الشروط ، ولعل التغير المستمر الذى يميز الظاهرة الاجتماعية عن الظاهرة الطبيعية هو الذى يميز القانون الاجتماعى عن القانون الطبيعى من حيث الدقة والشروط المحددة ، ومهما قيل من أن القانون السوسيولوجى يمكن وضعه اذا كان متصلا بأشكال الظواهر دون مضموناتها، لأن الشكل لا يتغير

الا قليلا وفى حـالة تفسيره يمكن قياسه موضـوعيا (احصـائيا)[1] فان الصعوبة مع هذا التفسير «السلوكى» لا تزال قائمة . ولهذا كانت محاولات اقامة «قوانين للتغير Laws of change» مثل «الدافع للتغير قـد يأتى من خارج أو داخل المجتمع» أو «ان التغيرات الاولية التى تدخل المجتمعات عن طريق تغيرات فى البيئة الخارجية قد تتضمن أما زيادة أو نقصان فى الدرجة scale أى عدد الافراد الذين يكونون فى علاقة مع التغيرات ودرجة الشدة فيها»[2] امرا فيه مخاطرة كبيرة ، ولهذا تتعرض مثل هذه القوانين لنقد شديد جـدا ، أولا لان المادة التى بنيت عليها هذه القوانين ناقصة الى درجة كبيرة وثانيا لان التحليل العلمى الذى أدى اليها متناقض ، من حيث أن افـتراض وجود منهج خاص لدراسة التغير الاجتماعى منفصـل عن مناهج الدراسـة الاخرى للظواهر الاجتماعية كما هى موجودة الان مثلا مغالطـة منطقية ، لانه سواء كـنا ندرس مواقـف اجتماعية كما لو كـانت ثابتة متـكررة أو لكشف النمو أو التغير فيها، فاننا نطبق نفس التحليل الاجـتماعى الذى يقوم على أساس التساند بين الظواهر ، ففى التغير عندما تبـدأ ظاهرة فى التغير فانها تؤدى الى تغيرات مصـاحبة co-variations فى الظواهر الاخرى[2]

ووضع القوانين الخاصة بالتغير هو فى جوهره محاولة للارتفاع من مسـتوى الدراسات الجزئية للتغير ، وما يترتب على ذلك من عوامل وعمليات ونتائج

1 — Lundberg, Foundations of sociology, N. Y. 1939 pp. 133—151 .

2 — J. & M. Wilson, The Analysis of Social Change, 1945, pp. 131-135.

3 — S. P. Nadel, The Poundations of Social Anthropology. London, 1953, pp. 100-104.

واتجاهات جزئيـة ، الى مستوى التجـريد الخالص ، ويمثل سـوروكين P. Sorokin هذه النزعة خصوصا فى الدراسات السوسيولوجية وكـتابه الضخم Social & Cultural Dynamics محاولة لتقنين التغير معتمدا على دراسات متعددة مختلفة ، حتى أن نتيجة محاولته يصفها كثير من علماء الاجتماع بأنها خرجت من نطاق البحث العلمى فى علم الاجتماع الى نوع من فلسفة التاريخ . ولهذا توضع نظرياته فى مصاف نظـريات أوجست كومت وسبنطر وتوينبى .

إننا نقنع هنا ـ بسبب الأغراض المحددة لهذه الدراسة ـ بتفسير التغير الاجتماعى فى القرى الثلاث على أساس العلية بين المتغـيرات . فالبحث عن الأسباب يؤدي إلى تحديد العلاقة بين المتغيرات ، والخطوة الأولى أن نتأكد أن هناك تغيرا مصاحبا بين متغيرين ، لأن التغير المصاحب لا يعنى بالضرورة أن المتغيرين مرتبطين عليا ، لأنه من الممكن أن يكونا مستقلين أحدهما عن الآخر ، وأن التغير المصاحب قد يكون راجعا إلى عوامل أخرى ، وأبعد من ذلك اننا عندما نظن أن هناك علاقة علية بين متغيرين ، فان مجرد التـغير المصاحب لا يدلنا فى ذاته أى المتغيرين السبب ، وأيهما النتيجة والأثر . فلو ربطنا مثلا زيادة السكان والهجرة باعتبارهما متغيرين ، والأول أدى الثانى الى لتدخلت عوامل أخـــرى مثل زيادة الفرص الاقتصادية الخارجيـــة أو الاضطهاد الدينى أو سهولة المواصلات أو طبيعة دورة العمل [1] . وكل منها يمكن أن يكون سببا فى الهجرة ، والمهم هنا أن نحدد الارتباط الوثيق بين المتغيرين بحيث أن عدم وجود أحدهما لا يؤدي الى ظهور الثانى .. وهكذا .

1 - Ogburn, & Nimkoff, Handbook of Sociology, London 1953 p, XIX.

وإذا كان التغير لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء تغير آخر ، فان التغـير إذن لا يمكن تفسيره فى ضوء عامل دائم Constant أى عامل لا يتغير . ولذلك لا يمكن تفسير تغير فى منطقـة معينة بأثر المناخ ، لأن المناخ عامل دائم ووجوده من قبل لم يفض الى التغير ولكن إذا كانت هناك مقارنة بين منطقتين مختلفتى المناخ ، على أساس وجود تغيرات يمكن ارجاعها الى أثر المنـاخ ، فان المناخ فى هذه الحالة يمكن أن يكون « متغيرا Variable » لأنه لا يكون دائما ـ أى متشابه الأثر فى هذا النوع من المقارنة . ومن أن العـامل الدائم لا يمكن أن يكون سببا فى تغير فى شئ متغير ، فانه مع ذلك يمكن أن أن يكون عاملا فى التغير ، ولذلك فان غريزة العدوان لا يمكن أن تكون سببا فى الحرب ، لأن هذه الغريزة لم تتغير فى السكان فى زمن الحـرب أو زمن السلم ، ومع ذلك فهذه الغريزة عامل من عوامل الحرب ، لأن عـدم وجودها قد يؤدى إلى حالة لا تنشب فيها الحرب ، وعلى هذا الأساس قـد يكون للظاهرة عدد من العوامل المسببة للتغير .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن كل نسق اجتماعى يعتمـد على ظروف معينة ، فاذا تغيرت هذه الظروف تغير النسق ، ولذلك كان التغير الاجتماعى فى واقع الأمر استجابة لظروف متغيرة [1] . كما أن كل تغـير فى علاقة الانسان بالبيئة يعنى بالضرورة بعض التغير فى علاقته بأقرانه ، لأن العلاقات التى كانت قائمة فى حالة ـ فرضية ـ من التوازن بين الأفـراد أو الجماعات كانت تمثل اتجاها معينا لهذه العلاقة المتبادلة ، وكلما تغير الاتجاه تغيرت صور التوازن وهكذا .

1 - R. M. Maciver & Page, Society, London 1958, p. 512

ولذلك كان أسباب التغير فى أى نسق اجتماعى متضمنة فيه بذاته أى أن التغير فى النسق تغير داخلى Immanent [1] ، ومثل هذا التغـير يؤدى الى نتائج تعين بدورها اتجاه المتغير التالى ، ولهذا فان تقسيم ملكيـة العائلة يؤدى الى سلسلة من النتائج تعمل على احداث تغيرات أخرى فى العـائلة ، ويعنى هذا القول بطريقة أخرى أن العـائلة تحتوى على بذور تغيراتها المستقبلة . وليس معنى هذا أن التغير فى أى نسق لا بد أن يكون بالضرورة داخليا ، بل ان أثر العوامل الخارجية يظهر فى عمليات التغير ، ولـكن دورها يشمل الاسراع أو التأخير فى التغير الملازم أو الداخلى ، أو تسهيل أو تعويق تحقيق النسق لامكانياته ، أو فى تعـديل لبعض سماته الثانوية . وتـكون العوامل الخارجية الاجتماعية والثقافية أكثر أثرا خصوصا ـ فى حالة القرية مثلا ـ إذا اصبح النسق جزءا من نسق أكبر وبدأ هذا الأخير فى التغير. كما أن أجزاء النسق أو القرية تميل الى التغير فى وقت واحد أو فى معية Togetherness ولـكن بنسب متفاوتة . ومعنى ذلك أنه فى الظروف العادية ـ كحالة القرى الثلاث ـ تتغير العائلة مثلا من الداخل لتغير الظروف التى كانت تعتمد عليها ، وهذا التغير فى العـائلة يؤدى بدوره الى سلسلة من التغيرات فى المظاهر الاجتماعية والثقافية التى كانت مرتبطة بها فى حالتها السـابقة . وتستمر التغيرات تنتشر فى كل اتجاه ، وسيكون دور العـوامل الخارجية ـ الاجتماعية والثقافية ـ معجلا أو معوقا لاتجاهات التغير بحسب الاحوال ، ويزداد أثر هذه العوامل كلما زادت صلة العائلة كوحدة بوحدات

1 — P. Sorokin, Society, Culture and Personality, N. Y. 1947, pp. 696-701

أكبر منها كمجتمع القرية والمدينة ، وخصوصا اذا كانت هذه الوحدات الأكبر تتغير هى الأخرى .

...

ومع إدراكى لصعوبة التغير من حيث تعيين عوامل التغير بين الداخل والخارج وخصوصا فى تحديد آثار كل منهما على وجه الدقة ، إلا أننى افترضت أن المبادأة فى التغير Initiative change كانت من الداخل . ومن ثم تمهد السبيل أمام العوامل الخارجية — أثر المدينة أو الاتصال الثقافى — لتؤثر هى بدورها فى عمليات التغير الاجتماعى ، ومعنى ذلك أن متغيرا داخليا أدى إلى تغير مصاحب فى متغير آخر ثم ترتب على ذلك سلسلة من التغيرات ، ثم بدأت المتغيرات تترابط لاحداث تغيرات فى متغيرات أخرى ، والمتغيرات المترابطة هذه كانت تتضمن أساسا متغيرا داخليا واحدا مع عدة متغيرات من الخارج ، أو متغيرا خارجا واحدا مع عدة متغيرات داخلية .

فالقرية — والكلام ينطبق على القرى الثلاث — كانت فى حالة توازن قبل نقطة الصفر التى اتخذتها حداً فاصلا بين الفترتين ، الفترة السابقة على التغير ، والفترة المتغيرة . بمعنى ان اعتماد السكان على الزراعة فى مساحة محددة من الأرض الزراعية ، وقيام العائلة داخل البدنة كوحدة أساسية اجتماعية واقتصادية فى تنظيم القرية ، وكفاية الأرض الزراعية لحاجات العائلات والسكان فى مجموعهم ، أدى الى نوع من الاستقرار أو التوازن . ومن هنا اتخذت العائلة طابعا معينا يقوم على السلطة الأبوية ووحدة المعيشة والعمل .

وبمرور الزمن يزداد السكان ، ولكن زيادتهم لم تؤدى الى اختلال هذا

التوازن ، وظلت العائلة تقوم بوظائفها الاجتماعية والاقتصادية . الى أن أصبحت كل زيادة فى السكان تحدث اختلالا فى التوازن ظل يزداد مع مرور الزمن حتى أصبح واضحا . وطبيعى أن ينصب هذا الاختلال على الوحدة الأساسية فى القرية وهى العائلة ، فبدأت ملامح التفكك تظهر عليها على صورة صراع يزداد دون توافق حقيقى ، وكلما زاد تفكك العائلة تأثرت المظاهر الأخرى المرتبطة بها ، كوحدة المعيشة والعمل والمسؤولية الجمعية والسلطة الابوية . ويكون هذا فى الوقت الذى تزداد فيه الدولة إلتفاتا للريف بصفة عامة عن طريق التنظيم والاصلاح ، وبالتالى يزداد تأثير المدينة عن طريق الاتصال الثقافى على القرية ، فتعمل العناصر الثقافية المنقولة على الاسراع فى التفكك وظهور اتجاه جديد .

ولما كانت الثقافة المادية والحياة الاقتصادية تكون جزءاً متكاملا من التنظيم العائلى القديم ، فانهما يتأثران بالتفكك العائلى ، ويزداد هذا التأثر عن طريق الاتصال الثقافى فيتخذ كل منهما كما اتخذت العائلة مظاهر جديدة. وبمرور الزمن تزداد المتغيرات الداخلية والخارجية ، وتزداد تبعا لذلك التغيرات المصاحبة لها . وهكذا يأخذ التغير فى المجتمع القروى اتجاهات معينة قد يكون التنبؤ بسيرها تحت شروط معينة ولا ينبغى أن يفهم من ذلك اننى أعزل النواحى الثلاث العائلة والثقافة المادية والحياة الاقتصادية عن الحياة الاجتماعية ككل ، وأبحث عن تغيرات خاصة بها ، ولكن فصلها كان لغرض الدراسة فقط ، وكان فى ذهنى دائما ترابط جميع أجزاء الحياة الاجتماعية . وهذا ما حرصت على بيانه عامة فى الفصل الثانى .

وهذا يعنى أن عوامل التغير فى القرى الثلاث تنقسم الى طائفتين ، الطائفة

الأولى داخلية ، ويعتبر التغير فى حجم السكان أهمها ، والطائفة الثانية خارجية ويعتبر تأثير المدينة والقانون أهمها .

قد تبين من الدراسة أن القرى قبل نقطة الصفر كانت تعتمد على الزراعة كمهنة أساسية وكطريقة فى الحياة ، وكان توزيع الملكية لا يكشف عن فروق جوهرية ، خصوصا وانه لم تكن هناك « اقطاعيات » أو « عزب » يملكها أفراد . ولذلك كان السكان يكونون فى مجموعهم طبقة من الملاك الصغار وكانت العائلة كما قدمنا تمثل الوحدة الاساسية فى بناء القرية الاجتماعى فهى التى تملك الأرض ، ويحمل النشاط الاجتماعى والاقتصادى طابعها ، ولذلك كانت الاساس الذى تدور فيه حياة الفرد . وظل مظهر الاكتفاء الذاتى النسبى يميز العائلة والقرية فترة طويلة ، طالما ظل الارتباط بين الحياتين الاقتصادية والاجتماعية قائما . وهذا كان يعتمد على كفاية الأرض الزراعية للوفاء بمطالب العائلة المتعددة كوحدة مسؤولة ككل عن كل الأفراد الذين ينتمون إليها . ولكن ثبات مساحة الأرض الزراعية ، واستمرار النمو فى السكان ، مع نظام وراثة الأرض الاسلامى أدى بالتدريج الى ضآلة المساحة التى تملكها العائلة من الأرض ، وبالتالى بدأ التوازن القديم لوظائف العائلة يختل بالتدريج أيضا . ويزداد مع زيادة السكان بصفة عامة ، إلى أن ظهرت حالات متعددة ، عجزت العائلة فيها عن الوفاء بالمطالب الضرورية للأفراد الأمر الذى جعل الأفراد ، إما مستقلين أو عن طريق استمرار انتمائهم للعائلة يلتمسون مظاهر جديدة من النشاط الاقتصادى بعيدة عن النطاق العائلى كتأجير الأرض أو العمل للغير .

وهكذا أصبحت وحدة العائلة موضع للمناقشة . وسارت عمليات التغير

بعد ذلك على النحو الذى سيأتى تفصيله فيما بعد . حقيقة أنه فى المراحل الأولى للفترة المتغيرة ظهرت عوامل جديدة كانشاء المدرسة الالزامية والجمعية التعاونية ، وتنظيم الضرائب والعوائد والاجراءات الصحية ـ أى تزايد لأثر المدينة والقانون فى حياة القرية ، إلا أن التغير فى العائلة نتيجة لذلك كان طفيفا غير واضح فى كثير من الحالات ، ففى العائلات التى ظل توازنها ثابتا نسبيا لم تؤثر هذه المظاهر فى اتجاهاتها العامة القديمة . أما فى العائلات التى ظهر الاختلال على توازنها ، فكانت عاملا مساعدا . لذلك كان التغير فى حجم السكان وأثر ذلك على الوحدة العائلية أوضح العوامل جميعا التى مهدت السبيل للتغيرات التى حدثت تدريجيا والتى تحدث بسرعة الآن . فالإرتباط بين التغير فى حجم السكان والتغيرات الاجتماعية [1] ارتباط واضح جدا فى القرى الثلاث .

إذن فالأرض الزراعية من حيث أنها عامل دائم Constant فى حياة القرى الثلاث فى الماضى والحاضر ـ خصوصا وأنه لم يطرأ تغيير عليها من حيث الخصوبة أو المساحة ، تدخل فى حسابنا عند البحث عن أسباب التغير الاجتماعى ، كما أن اعتماد الحياة الاقتصادية عليها كلية فى الماضى ، وظهور مصادر جديدة الآن ، لم يغير من الأمر شيئا . خصوصا وأن مظاهر الحياة الاقتصادية اليوم تعتمد أيضا ، إما مباشرة أو غير مباشرة على الانتاج الزراعى . أما المتغير فهو السكان الذين يعتمدون عليها ، وكل تغير فى حجمهم من حيث الزيادة أو النقصان يؤدى الى تغيرات مصاحبة فى العائلة ، لأنه يؤثر مباشرة على الرابطة التى تربطهم بالأرض والعائلة بدورها كمتغير ،

---

1 - R. M Maciver, Op. Cit, pp. 556-537.

لأن تغيرها يؤدى إلى تغيرات مصاحبة فى المتغيرات الأخرى كالسلطة الأبوية والمسؤولية الجمعية وهكذا . وكذلك تمثل العلاقة بين المدينة والقرية متغيرا ، فاذا حدث فيها تغير كزيادة هذه العلاقة ، فان هذا يؤدى الى تغيرات مصاحبة فى متغيرات معينة فى القرية كالثقافة المادية . وينبغى أن نشير هنا إلى ان تأثير المدينة يزداد كلما زاد اشرافها على القرية خصوصا من النواحى التنظيمية عن طريق القانون والنواحى الاصلاحية عن طريق المشروعات التى تقوم بها الدولة ، وكلما زادت حاجات القرية الى المدينة نتيجة للتغيرات المستمرة فيها فى العائلة المتغيرة والحياة الاقتصادية المتغيرة . ولهذا يكون تأثير المدينة عاملا فى تعدد التغيرات المصاحبة لمتغير واحد ، أو مثلا للتغير أو مؤديا لتغيرات مستقلة .

و ـ وعلى الرغم من تشابة المجتمعات القروية فى كثير من أجزاء العالم على نحو ما أشار إليه ردفيلد Redfield (١) وأوسكار هاندلين Oscar Handlin (٢) . إلا أن عوامل التغير وعملياته تختلف من مكان الى آخر ، بل انها قد تختلف فى المجتمع الواحد باختلاف المجتمعات القروية نفسها من حيث انتمائها الى نماذج مختلفة . ولكنها جميعا تتغير بفعل عوامل خارجية أو داخلية أو بفعلهما معا . وقد تكون نتائج التغير متشابهة ، إلا أنها تختلف من حيث المدى باختلاف ظروف كل مجتمع . وإذا سلمنا بفكرة ردفيلد من أن القرية وثقافتها جزء من ثقافة أكبر ، تكون عوامل التغير والتغيرات التى حدثت نتيجة لذلك تلقى أضواء على التغير فى القرية . ولهذا

1 — R. Redfield, Peasant Society, and Culture, Chicago 1956

2 — G Handlin, The Uprooted, Boston, 1951. p. 7

كان تاريخ الثقافة الكبرى من الأصول التى يرجع إليها الباحث فى المجتمعات القروية ليقدر الظروف التى مرت عليها القرية فى مراحلها المختلفة ، ومع ذلك فان ردفيلد يعترف بصعوبة هذا المنهج ، نظرا لأن المؤرخين غالبا ما يغفلون عند التأريخ الاشارة الى الحياة الريفية ، وان أشاروا فبطريقة لا تفيد الباحث الأنثروبولوجى كثيرا . (١)

وقد حاول حامد عمار تمشيا مع فكرة ردفيلد السابقة فى الفصل الذى عقده عن التغير الاجتماعى فى قرية « سلوا » أن يبرز العوامل التى تعرضت لها « مصر » وأدت إلى تغيرات يمكن أن تلقى أضواء على التغير فى القرية ، فنتيجة لإتصال «مصر» بالغرب عن طريق الغزو الفرنسى فالبريطانى والاصلاحات التى قام بها « محمد على » وحركات التحرر الدينى التى قادها « الافغانى » و « محمد عبده » ظهرت اتجاهات جديدة على الحياة « المصرية » مثل زيادة التصنيع وانتشار المدارس وقيام النظام النيابى ، ونمو الطبقة الوسطى المثقفة وطبقة العمال ، ويقظة الوعى القومى وحركات الاستقلال وانتشار الوعى الطبى ، والاهتمام بالصحافة ووسائل الاتصال الأخرى كالإذاعة ، ثم أشار الى الاختلاف بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية فى درجة التأثر بهذه الاتجاهات النامية . (٢) بطريقة عامة لا تكشف عن اتجاهات عمليات التغير وخصائصها فى كل منطقة ، أو انتقالها من منطقة الى أخرى ، والتعديلات والانحرافات التى تحدث لها فى أثناء ذلك . كما أنه لا يستطع أن يربط بين هذه العوامل وبين طبيعة الحياة الاجتماعية فى القرية بقوله « إن سلوا

1 — Redfield, Op. Cit., p 80

2 — H. Ammar, Growing up in an Egyptian Village : Silwa Province of Aswan, London, 1954, pp. 67—71

لم تتأثر إلا قليلا بالعوامل السابقة فلا تزال تحتفظ بطابعها الريفي القديم.(1)
وكان التحليل التاريخي السليم يقتضيه أن يذهب إلى أبعد من العوامل المدينة تمشيا مع فكرة ردفيلد Redfield ليكشف عن العلاقة بين حالة المجتمع ككل آنذاك، وحالة القرية التي لا تزال تحتفظ حتى الآن بما كانت عليه من قبل.

ولكن الصعوبة التي أشار إليها ردفيلد تواجهه في هذه الحالة، ولهذا يكون الامعان في تتبع التاريخ أمرا مفضيا إلى الغموض ولن يفيد البحث الأنثروبولوجي. ومع هذا عاد عمار مرة أخرى ليحدد تأثر القرية المباشر لا بعوامل التغير الكبرى في المجتمع «المصري» بأسره، بل بالمدينة – والمدينة القريبة – حين يشير الى الاتجاه العام للتغير هو محاولة تقليد نماذج الحياة في المدينة وخصوصاً في النواحي المادية (٢)، وفي بعض المظاهر المرتبطة بالنظرة إلى المرض والعلاج والسلطة المحلية في القرية (٣)، ومع أنه لم يشر الى العوامل التي أثرت في القرية مباشرة، إلا أن تحليله لمظاهر التغير وأسبابها خصوصا في النواحي المادية وظاهرة «الكرم والضيافة»(٤) ينصب على أن التأثر في الحالة الأولى كان عن طريق عامل خارجي وهو المدينة، والتأثر في الحالة الثانية كان عن طريق عامل داخلي هو انخفاض المستوى الاقتصادي في القرية. وهذا يثبت ان أهم ما يجب أن يلتفت إليه الباحث في دراسات التغير الاجتماعي في المجتمعات القروية، هو ان يركز على أثر العوامل

1 — Ibid, p. 71
2 — Ibid. p. 76
3 — Ibid, p. 78—80
4 — Ibid, p 82

المباشرة سواء كانت داخلية تتصل بالبناء الاجتماعي في القرية أو الثقافة المادية أو الحياة الاقتصادية، أو خارجية تتصل بتأثير المدينة التي تمثل مراكز الانتشار الثقافي والتي عن طريقها تتم الاصلاحات كتمهيد طرق المواصلات أو المشروعات الاجتماعية والصحية المختلفة، وعن طريقها أيضا باعتبارها مركزاً إداريا تتخذ القوانين طريقها إلى التنفيذ في الوحدات القروية التابعة لها، وسوف يتبين من دراسات أخرى في جهات متعددة من العالم أن التاريخ العام للثقافة الكلية لا يمكن الاعتماد عليه في تفسير التغير الاجتماعي أو حتى في وصف الحياة الاجتماعية في القرية قبل الفترات التي أخذت التغيرات فيها تتخذ اتجاها واضحا. بل ان تاريخ القرية نفسه يكون غامضا لا يمكن الرجوع إليه إلى أبعد من ذاكرة كبار السن، لأنه كلما أوغلنا في تاريخها لا نحصل من كبار السن إلا على صورة خيالية تمثل القرية في عهودها الذهبية، كما أن الوثائق أو الاحصاءات التي يمكن العثور عليها إن وجدت لا يمكن التأكد من صدقها لأنها في الغالب جمعت بطريقة ظنية وعن طريق أشخاص غير مدربين.

وقد تنتفي هذه الصعوبات في دراسات التغير في المدينة أو في المجتمعات الصناعية لاحتمال وجود مصادر معتمدة يمكن الرجوع إليها. ففي نامهالي Namhalli وهي قرية من أعمال ولاية ميسور Mysore بالهند، وجد آلان بيلز Allan Beals أنه في دراسته للتغير الاجتماعي في القرية، اكتشف أن المادة التاريخية ناقصة جداً بحيث لا يمكن الاعتماد عليها، لأن الاحصاءات وسجلات الأراضي التي كانت تعمل الى خمسين عاما لا يمكن الرجوع إليها، ولهذا لا يمكن الاعتماد عليها أو ارجاع أي ظواهر إلى أسباب معينة بناء على هذه المعلومات، ولكن في عام ١٩٥٣ استطاع أن يحصل على معلومات لم تكن قاصرة على ما أدلى

به كبار السن ، وقد قسم المعلومات التى حصل عليها إلى ثلاث مراحل الأولى من ١٨٠٠ _ ١٨٧٦ وهى معلومات خرافية تماما ، والثانية من ١٨٧٦ _ ١٩١٤ وهى ليست فى ذاكرة كبار السن تماما ، أما المعلومات ابتداء من عام ١٩١٤ حتى وقت اعداد البحث فانها كانت متضمنة فى ذاكرة الكبار ويمكن الرجوع اليها والاعتماد عليها (١) . ولا يخالجنى شك فى التشابه الكبير بين ناماهالى وبين القرى الثلاث التى أبحث التغير الاجتماعى فيها فى هذا الصدد .

والآن بيلز يعتقد أن التغييرات التى حدثت فى القرية « فرضت » عليها من الخارج ، ولهذا تكون دراسة العوامل الخارجية وخصوصا التأثيرات الحضرية والعلاقات المتبادلة بينها كاشفة للتغير فى القرية ودرجته واتجاهاته (٢) . ومعنى ذلك أن البواعث الأولى لتغير القرية جاءت من الخارج . وهذا موقف يخالف الموقف الذى اتخذته فى هذا البحث ، بل هو عكسه تماما ، فالبواعث الأولى للتغير كانت موجودة ومتضمنة فى البناء الاجتماعى للقرية نفسها . وكانت العوامل الخارجية كالتأثيرات الحضارية عوامل منشطة أو مسرعة Accelerating والذى جعل بيلز يأخذ هذا الموقف ان قرية ناماهالى بعيدة عن المراكز الحضرية ، ولهذا ظلت محتفظة بطابعها القديم حتى اقتربت منها المؤثرات الحضرية وخصوصا عن طريق الحكومة التى فرضت عدة تنظيمات وتعديلات فى مجتمع القرية . وقد يكون هذا صحيحا ، إلا أنه لم يلاحظ بدقة أثر زيادة السكان على مستوى المعيشة

---

1 — Alan Beals, in Village Iadia, ed. by N. Marriot, Chicago, 1955. p. 79.

2 — Ibid, p. 100

وما يترتب عليه من تغيرات داخلية ، الأمر الذى جعله يركز على التغيرات الثقافية أكثر من التغيرات الاجتماعية . ولهذا كانت أهم العوامل فى التغير هى ، النظام الادارى بالإضافة إلى المؤثرات الغربية ، وقد ترتب عليهما ان استمرت سلطة الحكومة تعتمد على السلطات المحلية ، وإن تحسنت طرق المواصلات ، ونمت الصناعات الحضرية ، وانتشرت النظم الأوربية فى التعليم والصحة والخدمات العامة ، كل هذا إلى جانب زيادة السكان السريعة والاهتمام بالاقتصاد النقدى . (١) ويقول عن الأربع مظاهر الاولى إنها عوامل النمو Growth Factors وزيادة السكان والاقتصاد النقدى موازين للمظاهر الأخرى ومعنى ذلك عنده أن النمو فى العوامل الأولى أو عوامل النمو أدى الى نمو مصاحب فى السكان والاقتصاد النقدى واعتقد أن هذا التقسيم خاطىء ، لأن الاقتصاد النقدى لا يختلف عن المظاهر الأربع الأولى ولهذا كان لا بد أن يوضع فى طبقة واحدة معها . أما زيادة السكان فهى وان كانت نامية إلا أن نموها يرتبط مباشرة بنمو العوامل السابقة .

ولهذا لا يمكن أن نستخلص من تحليل بيلز Beals أن الزيادة فى عدد السكان كانت راجعة فى المحل الأول لاثر العوامل السابقة ، لأن السكان كانوا يزدادون قبل ذلك وقد يكون التحسن فى الاجراءات الصحية أدى إلى التقليل من نسبة الوفيات ، إلا أن الزيادة المترتبة على ذلك لا يمكن مع هذا أن تنسب إلى زيادة المؤثرات الحضرية ، لأنها فى الواقع لم تؤثر على درجة الحضرية . مثلا وهو يعترف بأن ثم تغيرات حدثت فى العائلة وفى العلاقات الداخلية فى القرية (٢) ، ولكنه ينسبها جميعا إلى أثر العوامل الخارجية أيضا مع أنها

---

1 — Ibid, p. 80

2 — Alan Beals, Op. Cit., pp. 93-95

قد تكون راجعة الى التغير التدريجى فى الأسس القديمة التى كانت تقوم عليها نتيجة لزيادة حجم السكان وازدياد انخفـاض المستوى الاقتصادى الذى قد يؤثر فى وحدة العائلة الاجتماعية والاقتصادية وفى العلاقات المترتبة على هذه الوحدة .

ومصدر الخطأ الذى وقع فيه بيلز أنه ينسب التغيرات بطريقة حتمية إلى عامل واحد ، وافترض أن ظاهـــرة « النمو Growth » إنما تقتصر فقط على المؤثرات الخارجية ، بينما لا يمكن أن ننكر النمو من ناحية أخرى على المؤثرات الداخلية . إذن فالنتيجة التى انتهى إليها بيلز Beals من أن البعد النسبى للقرى يؤدى الى تغيرها إذا وقعت تحت تأثير عوامل التغير الحضرية وحدها وافتراضـه ان هذا ينطبق فى كل حالة [1] . نتيجة خاطئة وافتراض لا تؤيده الوقائع المادية .

ومثل آخر مختلف عن قرية نامهاللى فى الهند ، هـــو قرية شان كوم Chan Kom التى درسها ردفيلد عام ١٩٢١ ثم عاد لدراستها بعد ١٧ سنة ليكشف عن مظاهر التغير التى حدثت فيها خلال هذه المدة ، ومع ملاحظة اختلاف القريتين من حيث الظروف كالحجم والبعد عن طرق المواصـلات أو المدن ، نجد أن التأثيرات الحضرية كانت بالغة الأثر فى قرية شان كوم . إلا أن الاختلافات فى التأثر واضح جدا ، فأثر المدينة فى نامهاللى يتخـذ شكل « الفرض » وموقف القرية سلبى إزاء التغيرات ، أما فى القرية الأخرى فان السكان « قرروا أن يصطنعوا كثيرا من خصائص سكان المدينة وكانوا يعملون على أن تأخذ مساكنهم شكل مساكن المدينة » . ومن أهم التغيرات التى

1 — Ibid, p. 100

حدثت إقامة بلدية وملعب ومدرسة ومكتب بريد [1] ولهذا لا يكون التغير راجعا الى المؤثرات الحضرية الخارجية وحدها والمفروضة على القرية ، بل راجعة أيضاً وبنفس الدرجة الى عامل داخلى وهو الارادة الحرة للسكان. ومع أن الرغبة الايجابية من سكان القرية للتغير قد تكون مميزة لشان كوم وحدها أو لقرى المكسيك بصفة عامة ، إلا أنها غير ظاهرة فى أغلب القرى فى جميع أنحاء العالم . أو على الأقل فى القرى الثلاث التى أدرس التغير فيها ، بل قد يكون العكس هو الظاهر تماما . حين يعرض القرويون عن مظاهر التغير ، ويقـاومون بطريقة سلبية الاصلاحات والمشروعات التى تقوم بها الدولة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وتجربة « المركز الاجتماعى Social Center » وما آلها خير دليل على السلبية التى تميز السكان . وعلى أى حال فدراسة ردفيلد للتغير الاجتماعى فى شان كوم خاصة وفى ياكـتان Yucatan جملته يقرر أن التغير يـكون من حالة العـزلة والتجـانس والارتباط الجمعى إلى حالة من الاتصال واللاتجانس والفردية . [2] وطبيعى أن تختلف درجة التغير أو سرعته باختـــلاف المجتمعات وبحسب اختلاف ظروفها .

ويكاد يتفق دوبيه Dube مع آلان بيلز A. Beals فى المؤثرات التى ترتب عليها التغير الاجتماعى والثقافى فى قرية شاميربت Shamirpet مـن

1 — Redfield, A Village that Chose Progress, Chan Kom Revisited, Chicago, 1957.

2 — Redfield, The Folk Cultu.e of Yucatan. Chicago, 1941 pp. 360 — 362, and "The Folk Society," American Journal of Sociology L II. No. 4 (January, 1947), 293—308

أعمال ولاية حيدر أباد بالهند . فالقرية لمـــدة عشرات من السنين ظلت كما هي محافظة على النموذج الذى كان لها منذ القدم ، ولم تتغير إلا نتيجة لنشوء ظروف خارجية لم تتعرض لها من قبل . والمـدى الزمنى الذى لاحظ فيه دوبيه Dube ما طرأ على القرية من تغيرات يمتـد الى خمسين عاما قبل عام ١٩٤٨ ، أما بعد هذا العام فالتغيرات التى حدثت كانت نتيجة لأسباب مختلفة نسبيا ، فهو إذن يفصل بين مرحلتين من التغير وكذلك بين نوعين من العوامل . ومرد هذه القسمة حدث تاريخى هام وهو قسمة الهند فى عام ١٩٤٨ إلى قسمين « الهند وباكستان » ووقعت حيدر أباد التى تتبعها القرية فى نطاق دولة الهند الجديدة . فقبل القسمة كان تأثير العوامل الخـارجية يختلف عنه بعدها نظرا لاهتمام الدولة المباشر بالولاية بعد ذلك وعـوامل ما قبل عام ١٩٤٨ تنحصر فى : الاتصالات مع صاحب الأرض الاقطاعى وموظفى الدولة والحاكم ، وتأثير المدينة والتعليم ، ونشاط الحـكومة العام وخصوصا فى الاتجاه الى الاصلاح الاجتماعى والإقتصـادى والسياسى فى الهند عامة وبصورة أقل فى ولاية حيدر أباد .

أما عوامل ما بعد هذا التاريخ وأهمها النشاط البوليسى Police action الذى يرى دوبيه أنه نقطـة جوهرية فى حياة القـرية الى جانب الاهـتمام بالاصلاحات الادارية والقضاء على الاقطاع ، وتدعيم وتركيز الاصلاح الحكومى ، والنشاط السياسى « والديمقراطى » بوجه عام (١) ومـع أنه ليس هنـاك اختـلاف كبير بين هـذين النـوعين من العـوامل ، فقـد كان مـن غير الضرورى قسمتها على هذا النحو . فكل ما يريد دوبيه أن يشير إليه أن

1 — S. C. Dube, Indian Village, London 1955, pp. 215-217

تأثير المدينة والقانون ـ ممثلا فى نشاط الدولة ـ أخذ يزداد بعد عام ١٩٤٨ الأمر الذى ترتب عليه سرعة فى عمليات التغير الاجتماعى والثقافى ، وطبيعى أنه كلما ازدادت العوامل الخارجية « الضغط Pressure » على القرية كلما ازدادت التغيرات الاجتماعية تبعا لذلك . والواقـع أن اختـلاف التغير فى شاميربت Shapirpet كما سجله دوبيه Dube بين الفترتين يشابه قريتين أحدهما بعيدة عن المدينة والأخرى قريبة منهـا ، وطبيعى أنه كلما إزدادت القرية قربا من المدينة ، إزداد تأثرها بنموذج الحياة الحضـرية والعكس . ولذلك فاختلاف العوامل عند دوبيه لا يمثل اختلافا فى النوع وإنما اختلافا فى الدرجة وهذا لا يغير من جوهر الموضوع ، وهو نسبة التغير فى القرية الى قوى خارجية .

وإذا كان التغير الذى حـدث فى مجال الثقافة المادية والحياة الاقتصادية يمـكن نسبته مباشرة إلى أثر المدينة والقانون ، فالتغير الذى حدث فى البناء الاجتماعى وخصوصا فى العائلة ـ على الرغم من أنه يقول أنها لا تزال الوحدة الاجتماعية التى تقوم عليها الحياة فى القرية ـ لا يمكن نسبته بنفس الطريقة إلى أثر العوامل الخارجية وحدها ، خصوصا وأن نمـو السكان فى القرية لم يتوقف أو يقل بفعل الأوبئة أو المجاعات أو الفيضانات .

ولا يختلف جون أمبرى John Embree فى دراسته للتغـــير فى قرية Suye Mura باليابان عن دوبيه . فهو يركـز على التغـيرات فى الميـدان الثقافى المادى ، لأن التغيرات فى البناء الاجتماعى تغيرات لا نعرفها فى المدى الزمنى الطويل فقد تكون راجعـة الى الاتصال ببناء اجتماعى معقـد . (١)

1 — John F. Embree, A Japanese Village, Suye Mura, London, 1946. pp. 223 - 227.

ولهذا وجد أن التغيرات التى حدثت فى القرية كانت من نوعين ، أحدهما تقوم به الحكومة كأنشاء المدارس والجمعيات الزراعية وادخال الصحافة والاذاعة ، وتغيرات أخرى تتم دون توجيه من الدولة . ومع ذلك يجد أمبرى أن التغيرات التى تكون الحكومة عاملا أول فيها هى التغيرات الهامة .

إذن فعوامل التغيرات أيضا فى القرية اليابانية عوامل خارجية من الدرجة الأولى . ومع أن يانج Martin C Yang فى دراسته للتغير فى قرية تايتو Taitou بولاية شانتونج Shantung بالصين كان أكثر إلتفاتا لعوامل التغير المتعددة الداخلية والخارجية خصوصا عند نسبة التغيرات التى تحدث فى القرية التى تأثير المدينة والمهاجرين الذين لا يقطعون صلتهم بالقرية ، ونظام العمل وملكية الأرض (١) . إلا أنه لم يكن واضحا ، خصوصا فى ادراكه لعلاقة هذه العوامل بعضها بالبعض ومبلغ أثر كل منها أو كلها فى المجال الثقافى المادى والبناء الاجتماعى .

ولعل الاتجاه فى أغلب الأمثلة السابقة الى ابراز العوامل الخارجية وخصوصا تأثيرات المدينة والقانون يرجع الى ما يلى :

١ ـ أغلب هذه الدراسات لم تكن معنية فى جوهرها ببحث التغير الاجتماعى ، وانما جاءت الاشارة الى التغيرات الاجتماعية لإلقاء نظرة سريعة على الوضع المتغير للقري المدروسة . وكان التركيز على إدراك التغيرات

---

1 — Martin C. Yang, A Chinese Village, Taitou, Shantung Province, London, 1946, pp 229-270

فى الثقافة المادية مبعثه أمرين ، الأول أن ملاحظة « العرف » والثقافة المادية أسهل بكثير من ملاحظة العلاقات الاجتماعية (١) ، خصوصا وأن أغلب الباحثين لهذه القرى متأثرون بالمدرسة الأمريكية الانثروبولوجية التى تنحو هذا النحو ، والثانى أنهم كانوا مقتنعين بأن البناء الاجتماعى دائم من حيث الشكل على الأقل ، وانه لا ينطوى على عوامل تغيره ، وإنه يتغير فقط عن طريق التفاعل الاجتماعى مع قوى خارجية . ومثال ذلك أن دوبيه عندما حاول أن يعالج التغير فى قرية شاميربت Shamirpet سار وراء ريموند فيرث Raymond Eirth فى قوله « ان التغير البنائى نتيجة للتفاعل الاجتماعى » ولكنه فهم التفاعل على أنه ضغط أو فرض Compulsion من الخارج على القرية تستجيب له القرية حينا وتقاومه حينا آخر ، فتحدث تغيرات هامة فى الثقافة المادية وفى الاتجاهات العامة ، بينما يظل البناء الاجتماعى كما هو مع تغيرات طفيفة . (٢)

ولست أنكر أثر تفاعل القوى الخارجية مع البناء الاجتماعى والنتائج البعيدة المدى التى تترتب على ذلك فى البناء نفسه خصوصا إذا كانت هذه القوي فى تزايد مستمر ، ولكن التفاعل بين القوى الداخلية مهم أيضا ، ولا يمكن أن نفهم حقيقة التغير ، عوامله وعملياته ونتائجه ، ما لم نهتم بنفس الدرجة بالبحث عن عوامل التغير الداخلية : فنمو الفردية والهجرة من القرية مثلا ، وهى نتائج مباشرة لتغير هام فى العائلة لا يمكن أن تكون تأثيرات

---

1 — E. E. Evans—Pritchard, Social Anthropology, London Cohen & West, 1950, p. 16-20

2 — Dube, Op. Cit., pp. 222,227,228,229

المدينة وحدها هى السبب فيها ، ولا بد أن هناك من الأسباب الداخليـة ماساعد إلى درجة كبيرة على ذلك . وقد يكون فى تحديد العوامل الخارجية والداخلية للتغير اتجاها الى الفصل بينهما ، ولـكن هذا ليس هو الهدف ، وإنما هذا الفصل يساعد فى فهم الظروف التى مهدت للتغير ، خصوصا وأن كل انحراف أو اختلال للتوازن لا يتم فجأة ، وإنما يتخذ مظهر التدرج . وتزداد آثار عوامل التغير كلما ازداد ظهور الظروف المناسبة .

كـذلك لم يلتفت هؤلاء الباحثين الى بعض المسائل الهامة خصوصا فى دراسات التغير الاجتماعى وعلى الأخص عامل الزمان والمكان Time & Space فالتمييز بينهما خصوصا إذا ارتبط بفكرة البناء الاجتماعى أو قرنهما معا يؤدى الى نظـرة منهجية معينة وفهم آخر لعمليات التغير . ويبدو أن أغلبهم متأثر بالدراسات الأنثروبولوجية فى المجتمعات البدائية فى هذا الصـدد من ناحيتين : الأولى إن دراسة التغير كانت ولا تزال تتجه الى معرفة أثر الثقافة الأوربية (الاتصال الثقافى) على البدائيين وعلى الأخص فى حياتهم المادية والاجتماعية ، وبمعنى آخــر إن التغيرات التى فرضت على البدائيين سببت اختلالا فى توازن حياتهم الاجتماعية واستمراراً فى عدم التكامل كلما زاد تفكك وحدة ثقافتهم الأصلية المترابطة الأجزاء المادى منها واللامادى ، ولهذا كان أهم ماشغل به هؤلاء الباحثين تتبع التغيرات فى الحياة المادية ، وماتركته من آثار على البناء الاجتماعى للقرية ، نتيجة لآثار الاتصال الثقـافى — أما اختيارا أو جبرا عن طريق الدولة — بالمدينة — والثانية أن البنـاء الاجتماعى للمجتمعات « المحددة » الصغيرة ثابت Static نسبيا ولا تتغير مكوناته إلا بفعل قوى خارجية ، وبدونها يظل محافظا على « شكله Form ».

ولـكن سواء كان البناء الاجتماعى يقوم على العلاقات الاجتماعية المعقدة فى مجموعها والتى تـكون وحدتها العلاقات الثنائية Diadic Relations بـين « شخصين » (١) ، أو يقوم على الجماعات الاجتماعية الدائمة ، كالأمم والقبائل والعشائر التى تحتفظ بهويتها كجماعات بالرغم من تغـير أعضائها . (٢) فان فكرة الاستمرار خـلال الزمن Continuity متضمنة . ومـع أن فورتس Fortes (٣) نقد تمييز راد كليف براون بين البناء الاجتماعى الذى يتغـير ويتجدد باستمرار ، وبين الشكل البنائى Structural Form الذى تكـون له صفة الاستمرار فى مجتمع ثابت نسبيا ، على أساس أن عامل الزمن واحد فى الحالتين ، وإن هذا التمييز تجريد غير واقعى . إلا أنه لم يقف موقفا واضحا إزاء استمرار البناء أو شكله فى الزمان ، بل إنه أضاف الى ذلك أن عامل المسافة والمـكان لا يختلف بالنسبة للبناء الاجتماعى عن عامل الزمان ولـكن النقطة الأساسية هنا ليست أن راد كليف براون ميز فى البناء الاجتماعى بين المضمون المتغير والشكل الثابت ، وإنما تتصل بناحية هامة وهى الفرق بين المجتمع البدائى والمجتمع القروى من حيث الامتداد الزمنى والمكانى . إذ يبدو أن الامتدادين مرتبطان عـكسيا فى الحالة الثانية ، وطرديا فى الحالة الاولى . والارتباط العكسى والطردى هنا يؤدى إلى نتائج مختلفـة بفرض عدم تدخل عوامل أخرى كالغزو الاوربى للمجتمع البـدائى وزيادة تأثير

1 — A. R. Radcliffe—Brown; Structure and Function in primitive Society, London, 1956, pp. 191-192

٢ — ايفانز بريتشارد ؟ الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ ترجمة أحمد ابوزيد . الاسكـندرية ١٩٥٨ ص ٣٠ وما بعدها

3 — M. Fortes, Time and Social Structure, an Ashanti case Study; in Social Structure ed. by himself, Oxford, 1949, pp. 54-55

المدينة فى مجتمع القرية . فالامتداد الزمنى فى حالة المجتمع البـدائى يعنى استمرار البناء الاجتماعى . فالزمن مرتبط بالتغير فى إطار من الاستمرار . والتغير هنا هو النمو فى الأنساق المكونة للبناء بمعنى أن زيادة السكان مثلا لا تؤدى الى تغيير ما فى « صورة البناء » ولذلك فالنمو هنا نمو كمى لا كيفى أما ارتباط الامتداد الزمنى بالامتداد المكانى فرجعـه أن المكان الذى توجد فيه المجتمعات البدائية غير محدد، فكل مجتمع بدائى له منطقة قد تضيق أو تتسع يتحرك فيها . ولهذا يكون ممكننا دائما أن يصاحب النمو الناجم عن الامتداد الزمنى نموا فى « شغل » المكان . إذن لم يكن هناك مجـال للتغير الذى قد يترتب على العلاقة العكسية بين الامتدادين : وهذا فى أغلب الظن الذى جعل الشعوب البدائية لفترة طويلة قبل الغزو الأوربى « منعزلة ومكتفية بذاتها ، ولـكل منها ثقافة متمايزة » ومحافظة على « الاستمرار» فى بنائها الاجتماعى .

أما الامتداد الزمنى للقرية فانه ظل يسير طرديا مع الامتداد المكانى ، ومع ملاحظة أن القرية خصوصا الجمهورية العربية المتحدة عامة تمارس حياتها الاقتصادية على مساحة محددة من الأرض الزراعية لا يمكن أن تتعداها، نظرا لوجود حكومة مركزية تشرف على تنظيم صلات القرى بعضها ببعض، فان النمو ـ نمو السكان ـ فى وقت معين يصبح فى حالة تنعكس معها علاقته الطردية مع المكان ، الأمر الذى يؤدى الى استمرار الضغط على البناء الاجتماعى من الداخل كلما زاد النمو . وهذا الضغط خليق بأن يغير من شكله Form التقليدى لتغير العلاقات المكونة لكل نسق من أنساقه. ومعنى هذا ان النمو السكانى خلال الزمان فى القرية مع تحديد المكان يؤدى الى نتائج هامة فى البناء الاجتماعى. قد تشابه النتائج على مثل هذا البناء فى المجتمع البدائى ، ولـكن مع اختلاف كبير فى العوامل المسببة .

ولهذا كان التغير فى حجم السكان فى المجتمع القروى مضافا إليه التأثيرات الحضرية، الباعثين الأساسيين فى التغير الثقافى والاجتماعى ، وكـان الاتصال الثقافى عن طريق الاوربيين الباعث الأساسى للتغير فى المجتمع البدائى . ومن هنا جاء نقدى للباحثين المتقدمين فى أنهم يهتموا بدراسة أثر التغير السكانى على التغيرات البعيدة المدى او القصيرة المدى فى المجتمع القروى .

وقد عنيت بابراز الاختلافات بين القرية والمجتمع البدائى وعلى الأخص فيما يتصل بعوامل التغير لأسباب منهجية ، مع أننى أعتقـد أنه فى مدى يطول أو يقصر من الزمن ستكون التأثيرات الحضرية فى القرية والتأثيرات الاوربية فى الشعوب البدائية ، هى التأثيرات ذات الأهميـة الكبرى فى التغير الاجتماعى والثقافى فى كل منهما . وإذا كان التحليل قد اتخذ فى بعض الأحيان صفة العمومية ، إلا اننى أحدد هنا أن الاختلافات السابقة إنما تنطبق فى الدرجة الاولى على المجتمع البدائى بصفة عامة والنموذج القروى الذى اخترته للدراسة ، وإذا كان هناك تشابه بين هذا النموذج ونماذج أخرى فى أنحاء العالم . فقد يرجع ذلك الى تشابه الظروف خصوصا وأن المجتمعات الزراعية بصفة عامة تتشابه فى كثير من المظاهر التى ترجع قبـل كل شىء الى اعتماد السكان على الزراعة ، وكطريقة فى الحياة . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى، كان طول خبرة علماء الانثروبولوجيا بالمجتمعات البدائية المنعزلة والمكتفية بذاتها وذات الثقافة المحددة (١) عاملا من العوامل التى جعلتهم ينمون مناهجهم فى دراستها ، وتتخذ طابعا محدداً ، بعكس الحال فى المجتمعات القروية الحديثة العهد بالدراسة الانثروبولوجية ، والأبعاد Dimensions

1 — Redfield, Peasant Society and Culture, Chicago 1946, pp. 6—7

المختلفة لها وأهمها انتمائها لثقافة أكبر ووقوعها فى مجتمع تشرف عليه حكومة مركزية ، تنظم العلاقات وتفرض القوانين الواجبة التنفيذ ، وهذا الى جانب علاقتها الوثيقة بأرض زراعية محددة، كل هذه الظروف جعلت من اليسير على الانثروبولوجى أن يحدد فى دقة كافة العوامل المغيرة للمجتمع البدائى وأن يتتبع آثارها على الثقافة المادية والبناء الاجتماعى باعتبارهما مظهران لكل متكامل ، وكانت المقارنة بين القديم والجديد أيسر بكثير منها فى المجتمع القروي ، لأن أغلب هذه المجتمعات البدائية سبقت دراستها فى فترات مختلفة ، ولهذا كان من الممكن العودة الى دراستها بعد فترة من الاتصال الثقافى حتى يمكن تحديد العوامل بدقة والآثار والعمليات المترتبة على ذلك . فايفانز بريتشارد مثلا لو عاد لدراسة النوير أو الازاندى فى جنوب السودان بعد عشر سنوات مثلا ، فانه لن يتردد فى عقد مقارنة لأحوال هذين المجتمعين فى الوقت الذى درسهما فيه ، وبين أحوالهما فى الوقت الذى قد يدرسهما فيه مرة أخرى ، وستكون دراسته تجريبية مقارنة من الدرجة الأولى ولن تعوزه الدقة أو اليقين لأنه لن يواجه بتاريخ ظنى أو يضطر لاعادة تصوير حالة المجتمع لفترات تمتد فى المدى الزمنى الطويل ، وما فيها مخاطر الوقوع فى أخطاء عديدة . قد تؤثر على التحليل والاستنتاج برمتهما .

خاتمة

ولا يعنى ذلك أن المناهج الانثروبولوجية فى دراسة المجتمعات «المحددة» تفقد صلاحيتها عند دراسة المجتمعات القروية ، بل إن الأمر هو كما صوره كروبر Kroeber حين يتساءل عن التعديل الذى ستتخذه هذه المناهج فى دراسة « عينات » Samples ليس لها خصائص المجتمع البدائى تماما ، خصوصاً وإن الانثروبولوجيين اعتادوا دراسة « كائنات عضوية Organisms» أى « مجتمعات قائمة بذاتها Societies by Themselves » وهم الآن — وهو يشير الى اتجاه مدرسة شيكاجو ـ يدرسون مجتمعات هى أجزاء من مجتمعات أكبر Organs (١) . والنقطة الأساسية ، هل الطريقة المتبعة فى دراسة الكل تصلح لدراسة الجزء ؟

وسأعرض هنا « وجهة نظرى » فى إيجاز فأشير أولا أن الفرق بين المجتمعات الانسانية البدائى والقروى والمتحضر لا يمثل فرقا فى النوع ، وإنما يمثل فى جوهره فرقا فى الدرجة ، ولذلك إذا حددنا نماذج Types للجماعات أو المجتمعات المحلية فى إطار كل من هذه المجتمعات فلا يعنى ذلك اختلافهما نوعا . فالمدينة والقرية القريبة منها ، والقرية التى تقع على طرف الصحراء ، وتجمعات البدو ، والقرية التى تقع فى أعماق الريف ، كل منها عبارة عن حياة اجتماعية ، ولا خلاف على ذلك ، وإنما تفترق الواحدة عن الأخرى فى التنظيم الاجتماعى ونوع الثقافة المادية والنظرة الى الحياة وغير ذلك ، وينطبق ذلك أيضا على الوحدات الأكبر حتى نصل الى المجتمع الانسانى بأسره . أو أن

1 — A. L. Kroeber, Anthropology, N. Y. 1948, p. 301.

وذلك كما لاحظ « Scale » الاختلاف بين مجتمع وآخر هو اختلاف فى الـ Scale ، وذلك كما لاحظ جودفرى ومونيكا ويلسون G. & M. Wilson فى مجتمعات وسط افريقيا التقليدية والحديثة (١). وعلى هذا الأساس إذا كان موضوع علم الاجتماع – بصفة عامة – هو دراسة المجتمعات الحديثة (الكبيرة) وموضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية – بصورة مبدئية – هو دراسة المجتمعات الصغيرة المحددة ، فان موضوعيهما واحد وهو دراســـة الحياة الاجتماعية على أى مستوى . ولهذا لم يكن انحرافا عن الموضوع ما اتجهت إليه الانثروبولوجيا الاجتماعية الى دراسة المجتمعات القروية والمجتمعات الصناعية الآن معتمدة فى « طرقها » على خبرتها العملية فى دراسة المجتمعات البدائيـة وهذا هـو الاتجاه الذى اتبعه الباحثون فى دراسة Yankee City .

ومن المسلم به أن « العلوم الاجتماعية » تطبق فى دراستها قواعـد الميثودولوجيا العامة فى « العلم » مهما كان حجم « المـادة » ولا تختلف عن

---

(١) يرى جودفرى ومونيكا ويلسون أن « ظاهرة » المجتمع عامة فى كل مكان ، وان الاختلافات بين المجتمعات يقع فى المدى الذى تذهب اليه علاقات كل المعاصرة والتاريخية ، وهذا المدى هو الـ Scale الذى يعبر عن عدد الأفراد أو الجماعات الذين يدخلون فى علاقات متبادلة وشدة او كثافة هذه العلاقات . كما أنه يقاس عن طريق شدة أو كثافة التعاون والاتصال العاطفى والعقلى تاريخيا ومعاصرا . وقد جعلاه مقياسا لدراسة التغير الاجتماعى . ولهذا فان المجتمعات المنعزلة أو البدائية تقع فى أسفل سلم شدة التعاون وكثافتــه ، والذى يزداد كلما صعدنا السلم حتى نصل الى المجتمعات المتحضرة .

C. & M. Wilson, The Analysis of Social Change, based on Observations in Central Africa, Cambridge, 1954, pp. 25—30.

« العلوم الطبيعية » إلا « نوع » هذه المادة . وقد كان الاختلاف فى النوع بين مادة العلوم الطبيعية ومادة العلوم الاجتماعية مثـار مناقشات كـثيرة لا تزال قائمة حتى اليوم حول مدى امكان تطبيق الطرق المضبوطة للعـد والقياس فى العلوم الطبيعية على « مادة » العلوم الاجتماعية التى ليس لها خصـائص المادة الأخرى . ولـكن الذى يهمنا هنا أنه لا اختلاف من وجهة نظـر الميثودولوجيا بين دراسة مجتمع صغير مستقـل كالمجتمع البـدائى ، ومجتمع صغير غير مستقل كالقرية أو مجتمع حديث كالمدينة ، كما أن هـناك الآن شبه تسليم من حيث الاتجاه العام للدراسة ، وهو اعتبار « المادة » محل الدراسة « كـلا » متساند الأجزاء بحيث لا يمكن عزل جزء منه وبحثه منفصلا عن بقية الأجزاء ، بل يجب أن يكـون فى الاعتبار دائما العـلاقات البنائية والوظيفية المتبادلة بين الجزء والـكل ، وبين الـكل والاجـزاء المكونة له وسواء استخدمنا اصطلاحات العلوم البيولوجية كما يفعـل راد كليف براون أو اصطلاحات العلوم الطبيعية كما يفعل جورج لندبرج G. Lundberg فى التحليل الاجتماعى ، أو استخدمنا اصطلاحات خاصة كما يفعل كثير غيرهما من العلماء ، فان إطار الدراسة لا بد أن يعمم فى ضوء الميثودولوجيا العامة وفـكرة التـكامل أو التساند البنائى الوظيفى .

إذن فالاختلاف يقع فى المحل الأول فى الطرق المستخـدمة فى البحث وضرورة تطويرها عند الانتقال من درجة الى درجة مختلفة عن مستويات الحياة الاجتماعية ، كالانتقال من دراسة المجتمع البدائى الى دراسـة المجتمع القروى ، ومع أن كروبر Kroeber وردفيلد R. Redfield أشـارا الى ضرورة هذا التطـوير إلا أنهما وعلى الأخص الأخير – لم يقدما إلا وجهات نظر عامه تنصب أساسا على الفروق فى « الأبعـــاد Dimensions » لا على

الطريقة ومثال ذلك أن ردفيلد ينقد ايفانز بريتشارد فى ربطه بين الطبيعة Nature والنشاط الإنسانى والحياة الاجتماعية عند دراسته للنوير باعتبار أن هذه الطريقة إن صلحت فى دراسة المجتمعات البدائية فلا تصلح لدراسة القرية ـ لأن المهم فى رأيه أن نفهم القرية ككل من خلال علاقة الإنسان بالإنسان ، لا من خلال علاقة الانسان بالطبيعة ، ولأن القرية ـ وهى مجتمع تاريخى ـ تكون علاقات الناس فيه متعددة ومختلفة ومرتبطة بدورها كل بالأخرى ، فاذا أدركنا نسقا System قد يكون له ارتباط بالنسق الايكولوجى فى نقطة معينة ، فانه فى نفس الوقت يكون مختلفا عنه (١) . ويعنى ردفيلد بذلك أن العامل الايكولوجى مهما كان أثره لا يصلح أساسا لتفسير العلاقات الاجتماعية ، خصوصا فى المجتمعات القروية ، الذى تكون فيه هذه العلاقات ذات طابع تاريخى ، والقرية نفسها عليها علائم تفاعل القرون (٢) .

ولهذا كان التاريخ فى نظر ردفيلد عاملا يفوق فى أهميته العامل الايكولوجى وخصوصا فى تفسير العلاقات التى تربط الأفراد والجماعات فى المجتمع القروى ، مع أن ردفيلد يعترف بصعوبة تتبع العوامل التاريخية فى تشكيلها لهذه العلاقات (٣) وعدم جدوى الاعتماد عليها فى دراسات محددة كالمجتمعات القروية . وأغلب الظن أن موقفه هذا يمثل « فرضا » حتى

1 — Redfield, The Little Community, Viewpoints for the Study of a human Whole, Chicago, 1956, pp. 32 — 33.

2 — Redfield, Peasant Society and Culture, Chicago 1956, p. 79

3 — Ibid, p. 80

الآن ، إلا أنه لا يمكن التسليم مع ردفيلد ـ من حيث الاتجاه العام ـ بأن أهمية دراسة علاقة الإنسان بالإنسان فى المجتمع القروى تفوق أهمية دراسه علاقة الانسان بالبيئة ، ففى نقص المصادر التاريخية عن القرى وعدم امكان الاعتماد عليها ، يكون التفاعل بين سكان القرية الواحدة والأرض الزراعية مفسراً هاما لمظاهر حياتهم الاجتماعية والاقتصادية كما سنرى فى الفصول الآتية :

أما الفروق الأساسية فانها تتلخص فى المسائل الآتية :

١ ـ العينة : اهتم الانثروبولوجيون بالمجتمعات البدائية ، وهى بطبيعتها مجتمعات صغيرة . ومن حيث العينة أهم شرط فيها أن تكون محددة على أى مستوى من مستويات الحياة الاجتماعية . ولهذا فالمجتمع ككل يمثل فى هذه الناحية مجتمعا محددا ينطبق عليه شروط العينة ، ولا يختلف فى هذا الصدد عن المجتمع القروى ـ القرية كوحدة للدراسة ـ أو منطقة فى مدينة ، أو ظاهرة كالهجرة أو الانتحار . ومع ذلك فان هناك فرقا بين المجتمع البدائى كعينة والهجرة أو الانتحار ، فالأول يمثل كلا والأخرى تمثل جزءا . والأنثروبولوجيون كانوا يتجهون فى بادىء الأمر الى دراسة المجتمع دراسة مركزة شاملة Intensive Study تهدف الى الاحاطة بكل شىء ، أما فى دراسة ظاهرة الهجرة فانها تقتصر على الظاهرة كما هى مع إدراك علاقاتها بالظواهر الأخرى دون بحثها . ولكن الأمر لم يكن هكذا دائما فى الانثروبولوجيا ، فقد غلب اتجاه دراسة نسق معينة من المجتمع حسب ما يرى الباحث من أهميتها وذلك كدراسة النسق السياسية فى المجتمعات الافريقية البدائية .

والمهم هنا أنه فى اختيار العينة لدراستها أو دراسة أجزاء منها ، لا نجد فرقا أساسيا بين المجتمع البدائى والمجتمع القروى ، كما أنه لا فرق أيضا فى اختيار العينة الممثلة أو النموذج من حيث المقاييس ، لأن القاعدة فى ذلك قد تتغير بالنسبة للمجتمعات البدائية أو المجتمعات القروية باختلاف الظروف أو باختلاف النواحى المراد الاهتمام بدراستها . لذلك كان القول بعدم إمكان تطبيق الطريقة الانثروبولوجية فى الدراسة الشاملة المركزة للمجتمعات البدائية المنعزلة والمستقلة والمكتفية بذاتها كعينة على المجتمعات القروية ذات الخصائص المغايرة أمراً يجانبه الصواب ، فاختلاف الخصائص لا يؤدى فى كل الأحوال إلى اختلاف الطريقة .

٢ ـ جمع الحقائق : المجتمع البدائى ليس له تاريخ مكتوب ، ولا توجد فيه احصاءات أو وثائق من أي نوع وتراثه الاجتماعى ينتقل شفاهة ،والمجتمع القروى له بطريقة ما تاريخ مكتوب ـ هو على الاقل تاريخ مدنية المجتمع الكبير الذى يكون جزءا منه ، وتوجد احصاءات ووثائق على دراسات متفاوة من الدقة ، وتراثه الاجتماعى ينتقل شفاهة بالاضافة الى ما يحفظ ماديا، والمجتمع المتحضر له تاريخ مدون بدقة ، وتوجد احصاءات ووثائق قد تبلغ فى بعض الأحيان درجة عالية من التنوع والدقة ، والتراث الاجتماعى والثقافى محفوظ ومدون فى الكتب وغيرها . ولهذا يعتمد الانثروبولوجى على المخبرين Informants وكبار السن والملاحظة الشخصية أو طريقة الملاحظ المشارك Participant Observer ، وإذا امتد بحثه الى المجتمع القروى عليه أن يعدل من الطرق السابقة فى الاعتماد الى درجة معينة على التاريخ والاحصاءات والوثائق ، وإذا انتقل الى المجتمع المتحضر ـ مستخدما الطريقة السوسيولوجية ،فعليه ان يعتمد أكثر ، إن لم يكن كلية على المصادر

التاريخية والمدونات الاحصائية والوثائق من كل نوع . ولو كان ذلك جزءا من التعديل الذى يراه البعض ضروريا فى الطرق الانثروبولوجية التقليدية ، لكان الرد بسيطا ، وهو إن هذه الطرق فى اعتمادها على الوسائل السابقة لا يعد عيبا فيها ، وإنما يعتبر ملاءمة منهجية للحصول على الحقائق بأدق الطرق الممكنة .

ولعل دراسات التغير الاجتماعى عامة ودراسات ورنر Warner فى أمريكا تبين كيف يمكن تطبيق الطرق الانثروبولوجية العامة على كل مستوى من مستويات الحياة الاجتماعية ، دون حاجة الى تعديل الأساس الذى تقوم عليه وهو استخدام كل الحقائق الممكن الحصول عليها من أى مصدر موثوق به وبأي طريقة ملاءمة لفهم العلاقات أو النسق الاجتماعية فى تساندها ككل . ولذلك يكون التعديل عند دراسة القرية تعديلا يتصل بالشكل لا بالمضمون .

٣ ـ أبعاد المجتمع Dimensions of Society : ولعل أهم نقطة فى نقد الطرق الانثروبولوجية القديمة ، هى أن الاتجاه كان ينصب على اعتبار المجتمع البدائى وحدة مستقلة للدراسة ، ولهذا تمخضت الدراسات الأنثروبولوجية عن أبحاث لمجتمعات مستقلة وثقافات مستقلة،وكان الباحث لا يعنى بما قد يكون هناك من ارتباط بين هذا المجتمع أو ذاك مما قد يكون له أثر فى العلاقات الاجتماعية ، فكل شىء يفسر الحياة الاجتماعية والثقافة المادية يقع داخل حدود المجتمع . ولكن إذا انتقلنا إلى مجتمعات كالقرى تكون بالضرورة على علاقات من القرى المجاورة والمدينة والحكومة ، فان تفسير العلاقات الاجتماعية لا يكمن داخل القرية وحدها ، وإنما يتعين على الباحث أن يدرس تأثير الإرتباطات بين الداخل والخارج على مظاهر الحياة

الاجتماعية ، ومن هنا كان لا بد من تعديل الطريقة التقليدية . ومع ذلك فهذا التعديل ليس جوهريا ، وإنما يتصل أساسا بابعاد المجتمع محل الدراسة. وهنا استخدم نظرية ستيوارت دود Stuart Dodd عن أبعاد المجتمع (S. Theory) (١) . فى خطوطها الرئيسية دون مضامينها التى تتصل أساسا بوجهة نظر معينة فى النظر الى « المادة » الاجتماعية ، وطريقة معالجتها بطريقة تشابه معالجة « العلوم الطبيعية » لمواد دراستها ، وما يترتب على ذلك من استخدام اصطلاحات مثل « الطاقة » و « الحركة » و « الشدة » و التعبير « الرمزي » للعلاقات الاجتماعية فى مختلف أبعادها (٢) .

وملخص النظرية أن المجتمع له أبعاد أوسع هى : الانسان أو السكان Population ويرمز لها بالرمز (P) ، والبيئة الجغرافية أو الاتساع المكانى الذى يعيش عليه السكان ويرمز لها بالرمز (L) ونشاط السكان الاجتماعى والتكنولوجى وظواهر النمو Growth واتجاهاتها ، أو بمعنى آخر خصائص السكان ويرمز لها بالرمز (I) ، والزمنى ويرمز له بالرمز (T) ، ثم يلخص النظرية على النحو الآتى (S = P.I.T.L) . ويقول إنه فى ضوء هذه الأبعاد أو العوامل يمكن فهم أى موقف يتصل بالمجتمع Societal لأن كل موقف Situation اجتماعى يتضمن بالضرورة « ناسا People » من نوع معين أو من عدة أنواع ، منشغلين فى سلوك Behaviour من أى نوع أو من عدة أنواع ، فى مكان Space أو زمان Time معين . ولهذا يكون أى « تقرير » سليم للعلاقات الوظيفية المتبادلة لواحد من هذه الابعاد أو العوامل أو لها كلها يؤدى الى فهم أى موقف فى المجتمع .

---

1 — Stuart Dood, Dimensions of Society, N. Y. 1940, ch. 5

2 — G. Lundberg, Op. Cit., pp. 103—115

وأغلب الظن أن هذه الأبعاد تنطبق على كل المجتمعات على اختلاف درجاتها كما تنطبق على أجزاء منها أو ظواهر فيها . ولهذا يمكن اعتبارها مقاييسا موضوعية صالحة للتطبيق عند اجراء أى دراسة أنثروبولوجية أو سوسيولوجية فقد نهتم بعامل أو بعد واحد وندرس علاقته بالعوامل الأخرى ، أو قد نهتم بها جميعا فى وقت واحد ، والنتيجة فى الحالتين واحدة وهى « الفهم الكلى » للموضوع . وإذا استثنينا عامل « الزمن » فان المجتمعات أو أجزاء منها تختلف كل منها عن الآخر فى « حدود Limits » هذه الأبعاد . فاذا سلمنا مع ردفيلد من أن المجتمع البدائى كل « Whole » والمجتمع القروى «القرية» جزء « Part » لترتب على ذلك أن أبعاد الأول منفصلة، وأبعاد الثانى متصلة ، ولذلك تكون الدراسة فى الحالة الأولى قائمة على أساس الانفصال، وفى الحالة الثانية قائمة على أساس الإتصال ، أى أن تفسير الحياة الاجتماعية يكون من الداخل ، أو من الداخل والخارج معا .

وإذا كان مالينوسكى قد وصل الى فكرة الوظيفة والنظرة الوظيفية على أساس تجربته فى مجتمعات من الداخل ، فلا يستنتج من ذلك على أنها مقصورة على طريقة الدراسة من الداخل فقط ، بل إنها تنطبق بنفس الدرجة على الطبقة الأخرى ، لأن إدراك العلاقة الوظيفية لظاهرة معينة يمكن أن يتم فى ضوء ارتباطاتها الداخلية والخارجية معا .

ولهذا فالمطلوب ليس تعديل أو تغيير الطريقة الانثروبولوجية ، وإنما تعديل الاتجاه النظرى عند الانتقال من دراسة الكل الى الجزء وخاصة فى إدراك أثر الكل على الجزء . ويظل مضمون الطريقة نفسها من حيث الاتجاه إلى الدراسة المركزة والفهم المتكامل لكل علاقة أو ظاهرة قائما

خصوصا وأن هناك كثيرا من أوجه الشبه بين المجتمع البدائى والقرية قديما وفى حالات الاتصال الثقافى الحديث ، والنتائج المترتبة عليه والتى جعلت خاصة الكلية فى المجتمعات البدائية تختفى بالتدريج (١) .

ويتمثل هذا التعديل فى الاتجاه النظرى ـ لا فى الطريقة ـ فى دراسات التغير الاجتماعى، وهو تعديل تقتضيه طبيعة الموضوع . فالتغيرات التى تحدث الآن فى المجتمعات البدائية تتم عن طريق ظهور عوامل خارجية . وامتداد أبعاد المجتمع البدائى على نحو لم يكن موجودا من قبل . ولذلك يهتم الانثروبولوجيون الذين يدرسون التغير الاجتماعى والثقافى بابراز أثر الثقافة الأوربية والنتائج التى ترتبت على الاستعمار الاوربى . كما أن هذه المجتمعات لم تعد مستقلة مكتفية بذاتها ، بل أصبحت أجزاء من كل نتيجة للتنظيمات الإدارية الأوربية . ولهذا تغير الاتجاه النظرى بتغير هذه الظروف .

وما يقال عن المجتمع البدائى يقال الآن على القرية بوجه عام . ولكن ذلك لا يجعلنا فى دراسات التغير الاجتماعى نلتفت الى المؤثرات الحضرية الحديثة وحدها ، بل إن المؤثرات « المحلية » أو الأحوال لابد أن تدخل كعامل هام فى تحليل التغيرات . ومثال ذلك ـ مع اختلاف فى الدرجة بينه وبين القرى الثلاث ـ إن أهم ما يميز القرية الهندية الآن هو التغير والتغيرات الموجودة مهمة من حيث الدرجة ، ولكنها لا ترجع جميعا الى المؤثرات الغربية (الحضرية) لأن هناك تغيرات كانت جارية حتى قبل أن تبدأ

1 — Redfield Peasant Society and Culture, Chicago 1956, p. 16–17

المؤثرات السابقة فى الظهور ، وهذا ما يفسر اختلاف التغير واتجاهاته فى عدد من القرى التى درست حتى الآن (١) .

وخلاصة القول أن فكرة ردفيلد عن الـ Folk Society تمخضت عن نتيجتين هامتين . أحدهما اعتبار القرية على وجه خاص مجتمعا جزئيا Part—Society فى مقابل المجتمع البدائى الذى هو مجتمع كلى Whole—Society والأخرى أن دراسة القرية على هذا النحو تقتضى تعديلا فى الطريقة الانثروبولوجية القديمة فى دراسة المجتمعات البدائية ، على أن تظل الطريقة تتضمن الاتجاه الكلى فى الدراسة ، وإنما يكون الاهتمام بادراك آثار المدينة التى تعتبر القرية جزءا منها ، ومن ثم نما هذا الاتجاه الى إجراء دراسات مقارنة على المدنيات بوجه عام .

والأساس النظرى الذى بنى عليه ردفيلد اتجاهاته السابقة هو نظرية فى التغير الثقافى من ثقافة الفولك Folk الى المدينة ، وحاول أن يثبت ذلك عن طريق الدراسات الحقلية التى أجراها على الحياة الريفية فى Yucatan (٢) وفى تيبوزلان Tepoztlan (شيكاجو ١٩٣٠) وشان كوم Chan Kom (شيكاجو ١٩٣٤ ، ١٩٥٠) . وفى كل هذه الدراسات كان يدرك التغير من الخارج ، أى إنه كان يهتم قبل كل شىء بأثر المدينة على الأفراد والثقافة والتنظيم الاجتماعى وعلى الاخص فى نواحيها المباشرة (٣) . والثنائية

1 — Mcim Marriott (ed) Village India, Studies in the Little Community, Chicago, 1956.

2 — R. Redfield, The Folk Culture of Yucatan, Chicago 1941.

3 — Everett C. Hughes, The Cultural Aspect of Urban Research, in the State of the Social Sciences ed. by Leonard D. White, Chicago 1956, pp. 269–270

Dichotomy واضحة فى أعمال ردفيلد . فالمجتمعات أما كل Whole أوجزء Part ، والتغير من الـ Folk إلى المدينة Civilisation . وأغلب الظـن أن اهتمامه بالمدنيات هو الذى جعله ينظر اليها على مستوى تاريخى ، وبالـتالى لابد فى دراسة القرية أن نرجع الى التاريخ – الذى هو تاريخ المدينة التابعة لها القرية – لفهم بنائها الاجتماعى وثقافتها . وهذا هو جوهر تأكيـده المستمر ، على أن تغير الانثروبولوجيا الاجتماعية طرقها فى الدراسة عـند دراسة مجتمع قروى .

وعلى ذلك فان دراسته الحقلية – السابق الاشارة اليهـا – لم يظهر فيها العامل التاريخى بصورة واضحة ، وإنما كان الاهتمام الأول ينصب على دراسة تأثيرات المدينة والخصائص التى تنمو فى المجتمعـات القـروية باستمرار فتحـولها من الـ Folk الى المدنية ، أى الى نموذج يشبه المدينة .

وقد ظهر من التحليل السابق أن التغير فى الطريقة عند دراسـة القرية لا يعد تغيرا جوهريا خصوصا وأن المصادر التاريخية أو الحوادث التاريخية لا تفيد كـثيرا فى تصوير حالة القرية فى الفترة – الفرضية – قبل التغير . إلا إذا كانت هناك أحداث هامة تركت تغيرات كبرى على نمط الحياة الاجتماعية فى المجتمع بأسره خاصة ، وفى القرية عامة . وفى هذا المجال لا يعتبر الغزو الفرنسى أو البريطانى مثلا « لمصر » مشابها للغزو « الأبيض » لمجتمع النجونى Ngoni فى عام ١٨٩٨ . وما ترتب عليه من تغيرات هامة فى الحياة الاجتماعية ، والتى درس منها بارنس Barnes التغير فى ميدان الزواج [1]

1 — J. A. Barnes, Marriage in a Changing Society, London 1951, pp. VIII

فالحياة الاجتماعية فى القرية كانت الى فترة غير محددة قبل التغير الاجتماعى والثقافة ثابتة نسبيا ، ولم تشهد تغيرا ذات بال بتوالى الاحـداث التى مر عليها « المجتمع المصرى » . ومثال ذلك أن حامد عمـار حاول أن يربط التغيرات الـكبرى بأحوال قرية « سلوا » ولـكنه لم يستطع أن يدرك علاقتها بأي ناحية من نواحى الحياة الاجتماعيـة ، كما سبقت الاشـارة الى ذلك .

ولذلك يكون « اعادة تصوير الحياة الاجتماعية » فى الفترة السابقـة على التغير متفقا مع الطريقة الانثروبولوجية التقليـدية من حيث الاعتماد أساسا على المخبرين من كبار السن للمدى الذى تسمح لهم ذاكرتهم بذكر معلومات صحيحة . وهذا لا يمنع فى حالة القرى فى الجمهـورية العربية المتحدة من الإفادة بالنظم القديمة فى ملكية الارض مثلا أو السلطة الادارية أو اجراءات الزواج وتسجيل المواليـد والوفيات وغير ذلك مما يساعد على فهم وربط أجزاء الحياة الاجتماعية . أما فى فترة التغير الممتدة الى الآن ، فان الطريقة لا تختلف عما هو متبع فى دراسة التغير فى المجتمعات البدائية الآن مـع اختلاف العوامل المسببة للتغير .

ففى المجتمع البدائى يكون الاهتمام بالاتصال الثقافى الاوربى وفى القرية يكون الاهتمام – إذا كان الاتجـاه إلى تتبع آثار المدينة فقط – بالتأثيرات الحضرية فى ضوء التغيرات العامة فى المجتمع كـكل وخصوصا فى ميـدان القوانين التنظيمية أو الاصلاحية . أما إذا كان الهدف دراسـة المدنيات ومقارنتها ، فانالطريقة فى هذه الحالة تختلف خصوصا اذا دخلت المجتمعات الـكبيرة والمدن الـكبرى كأطراف فى المقارنة .

وإذا كان اتجاه ردفيلد الأساسي في دراساته الحقلية السابقة إلى تتبع آثر عامل واحد، وهو المدينة في التغير الاجتماعي، ومع أن هذا يرجع أساسا إلى الغرض من الدراسة وما يحاول من اثباته من فروض، إلا أن فهم التغير يقتضي إدراك العوامل جميعا وأهمية كل منها في كل مرحلة من مراحل التغير، خصوصا إذا كان سير التغير « طبيعيا » لم تعترضه عوامل مفاجئة كثورة تؤدي إلى انقلاب في طريق الحياة الاجتماعية. كما أن التغير لا ينبغي أن يسير بالضرورة في الاتجاه الذي رسمه ردفيلد من « القروية الى الحضرية »، إذ لا يجب أن نستنتج من ظهور بعض الخصائص الحضرية في القرية كالفردية والاقتصاد النقدي ... الخ أن مظاهر « القروية » تختفي تدريجيا ثم تزول نهائيا (١). فطالما وجدت الزراعة فان المشتغلين بها ستظل لهم خصائص تفرقهم عن سكان المدينة مهما زاد تشابهم معهم في بعض نواحي الحياة الاجتماعية أو المادية. والمجتمع الامريكي في هذه الحالة لا يعد نموذجا تسير على نمط تغيره خصوصا في الأجزاء القروية منه كل المجتمعات. هذا الى أن « الخصائص الحضرية » نفسها كما صورها كثيرون من العاملين في الحقل الحضري لا تنطبق بالضرورة على كل أقسام المدينة. بل نجد تمايزا واضحا على أساس الفروق في المهنة والثقافة والمركز الاجتماعي والاقتصادي والمناطق السكنية والأقليات والأديان ... وهكذا.

والقرى مع ذلك تختلف من حيث درجة الأخذ « بالخصائص الحضرية » ومن حيث مدى تأثيرها فيها، وذلك باختلاف ظروف كل منها. فاذا قسمنا

1 — Redfiele, Peasant Society and Culture, Chicago, 1956, p. 137.

القرى في الجمهورية العربية المتحدة الى عدة نماذج على أساس مقاييس معينة تبرز فيها خاصة الحجم ووسائل المواصلات وتوزيع الملكية والقرب من المدينة أو مراكز الصناعة، لوجدنا عدة فروق هامة، وعلى أساس خصائص « نموذج » القرى الثلاث فانها تمثل موقفا يكون التأثر بالمدينة في أدنى درجاته. ولهذا كانت عوامل التغير فيها خاصة بها، واتجاه التغير ومداه لا يتفق مع نظرية ردفيلد Redfield لأن تأثيرات التغير وماترتب عليه من « فردية واقتصاد سوق ونظرة مختلفة للحياة ... الخ » لا يماثل تماما ما هو موجود في المدينة. ومثال ذلك أن الفردية لم يصحبها تغير في شكل العلاقات المباشرة، كما هو الحال في المدينة، واقتصاد السوق لم يصحبه تخصص في العمل يماثل التخصص في المدينة أو يقترب منه وهكذا.

وليس لنا أن نستنتج من « وجود نقطة بوليس أو مركز اجتماعي أو جمعية تعاونية أو ملعب أو مجلس بلدي محلي » وهي مظاهر حضرية، إن القرية ستصبح بزيادة هذه المظاهر والنتائج اللاحقة لها في المدى القصير أو الطويل منطقة حضرية، تختفي فيها الخصائص القروية. ومرد ذلك إلى أن القرية مكان يسكنه قوم يعملون في عمل متشابه — أو غالبيتهم — وهو الزراعة، وقيام حياتهم على الزراعة جعل لهم طريقة معينة في الحياة. وطالما أن التأثيرات لا تنصب أساسا على نوع العينة، فستظل القرية محافظة على « القروية » وإن تغيرت بعض المظاهر الماديه والاجتماعية. وفي البناء الاجتماعي خاصة لا يؤدي التغير فيه الى شيء جديد، لأنه ينطوي على عناصر تغيره وامتداده. فاذا تغيرت العائلة الى أسر فلأن العائلة في تكوينها تنطوي على هذه القسمة، وإن تغيرت السلطة فلأن السلطة في تكوينها تحمل بذور إمتدادها أو انقسامها. فالنسق الاجتماعي لا يتفتت إلى أجزاء مبعثرة،

وإنما ينقسم الى أجزاء متكاملة ، كل جزء يحمل خصائص الكل الذى انفصل عنه . فالسلطة فى الأسرة الفردية تشبه السلطة فى العائلة ، وعلاقة سلطة الأسرة بسلطة القرية (العمدة) تشبه علاقة سلطة العائلة بسلطة القرية فيما مضى . فشكل النسق لم يتغير وإنما الذى يتغير هو المضمون .

والأساس الذى يفرق مجتمع القرية – المتغير – عن مجتمع المدينة هو تقسيم العمل . وهنا أجد أن فكرة دوركايم عن الآلية والعضوية وتقسيم العمل صالحة فى إطارها العام لاثبات وجهة نظرى . فزيادة العناصر الحضرية فى القرية لا تجعلها تتغير نحو « المدينة » كما قال ردفيلد ، لأن المدنية الحديثة تقوم فى المحل الأول على تقسيم العمل الذى أدى الى ما وصلت اليه فى ميادين التكنولوجيا والعلاقات الاجتماعية . انما الذى يمكن أن يتغير فى الاتجاه الذى افترضه ردفيلد هو تقسيم العمل فى القرية ووضوحه . فاذا ظلت غالبية السكان تعمل بالزراعة – والعمل فيها غير متخصص – ظلت القرية « محافظة على القروية » مهما أخذت بأسباب الحياة الحضرية فى النطاق المادى ومهما كان تأثير ذلك فى العلاقات الاجتماعية . كما تظل كذلك طالما كانت نسبة العمل المتخصص فيها قليلة ، لان القرية فى الحالتين ستظل آلية لا « مدنية » ، وستتوافق العناصر المادية وغير المادية الناجمة عن تأثير المدينة مع ثقافة القرية . وستكون نتيجة التوافق ليست حضرية تماما . بل نموذج آخر من الحياة يقع بين النموذج القديم والنموذج الحضرى للمدينة .

كذلك لم يكن تأثير المدينة هو العامل الأول الظاهر فى التغير الاجتماعى حقيقة ان نتائجه المادية الملموسة يمكن ادراكها بسهولة ، ولكن الوضع فى القرى الثلاث يختلف عن ذلك . فقد كان التغير فى حجم السكان إلى

الزيادة المستمرة الباعث الأول فى التغير . وظهرت آثاره واضحة فى البناء الاجتماعى وخصوصا فى العائلة . لأن هذه الزيادة عملت على خفض المستوى الاقتصادى باستمرار ، الأمر الذى جعل الارتباط بين الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العائلة يتفكك . وما ترتب على ذلك من مظاهر مختلفة كما سنفصله فيما بعد . ثم كان تأثير المدينة والقانون عاملا مساعدا بعد ذلك فى مزيد من التغيرات أو فى تدعيم التغيرات التى أخذت تظهر قبل ذلك . وابراز العامل الداخلى أولا كان لأهميته فى تتبع مراحل التغير لأنه كان أكثر ظهوراً ودافعا عن العامل الثانى وأبعد أثراً منه . والآن نظرا لاستمرار النمو فى العاملين ، فانه من الصعب من الآن فصاعدا فصل تأثيرهما كل عن الآخر ، أو جعل أحدهما أهم من الآخر . وتأثير العاملين الداخلى والخارجى فى الحياة القروية مشاهد فى كثير من أنحاء العالم فى النماذج المشابهة فكوهن Cohn فى دراسة التغير الاجتماعى فى قرية مادهبير Madhopur بالهند وجد أن ارتباط القرية بالمدينة عن طريق السكة الحديد الى جانب زيادة السكان باستمرار والتصدعات التى حدثت فى اقتصاد القرية من أهم العوامل التى أخذت تغير فى العائلة والمركز الطائفى والعادات الدينية (١) .

التغير أساسه هو انحراف عن وضع قديم ودخول فى وضع جديد كلية . ومن اجل ذلك كانت دراسة التغير مقارنة بين اوضاع قديمة بدأت تتغير وبين اوضاع جديدة تحل محلها . هذا يجعلنا نرى أهمية المراحل المختلفة فى دراسة المجتمعات المحلية بصفة خاصة .

1 — Bernard S. Cohn, The Changing Status of a Depressed Caste In Marriot's, ed Village India, Studies in the Little Community Chicago, 1956, p. 67

الفصل الثانى

القرية المتغيرة

الفصل الثانى

القرية المتغيرة

القرى الثلاث : قيطون ـ كفر الشيخ ـ هـــلا ، التى أختيرت لهـذه الدراسة تقع فى أقصى الجنوب من مديرية الدقهلية . التى تقع بأسرها شرقى فرع دمياط . ولما كانت المديرية مقسمة الى أقسام إدارية كل منها يسمى مركزا ، فالقرى من الناحية الادراية من أعمال مركز ميت غمر الذى يقع فى جنوب الدقهلية . وتقسيم الجمهورية العربية المتحـــدة الى مديريات أو مناطق لم يكن لخصائص معينة فى كل منطقـــة ، وإنما جاء لسهولة الأشراف الادارى . فالملاحظ أن شمال الأقليم باسره عـبارة عن منطقـة ثقافية وجغرافية وزراعية واحدة ، لأن مديرياته أما أنها واقعة وسط دلتا النيل أو فرع دمياط أو فى غرب فرع رشيد ، وجميعها تـكاد تـكون مماثلة الخصوبة تقريبا ، لأن تربتها تـكونت فى المدى الزمنى الطويل من الطمى الذى يأتى به النيل سنويا من هضبة الحبشة . كما أن نشاط السكان يقوم على الزراعة وما يتصل بها ، وينقسم السكان بدورهم الى مجموعات مستقرة لرعاية الأرض الزراعية فى قرى تختلف بعدا أو قربا بعضها من الآخـر ، الا أن كلا منها عبارة عن وحدة اجتماعية وإدارية مستقلة . كما أن جنوب الأقليم الذى يطلق علـيه اسم الصعيد ينقسم بدوره الى مديريات تقـع جميعا فى الوادى الخصيب على طول ضفتى النيل . وقد يظهر الاختلاف بين هـــذه المديريات من ناحيتين الأولى : المناخ نظرا لامتداد هذه المديريات الجنوبية الى مسافات طويلة من القاهرة حتى اسوان وهى تقـدر بنحو ألف كيلو متر ، وعلى هذا الامتداد تظهر بعض الفـروق المناخية حيث تشـتد

الحرارة ويميل الجو الى « القارية » كلما أمعنا فى الجنوب والثانية البيئة حيث تختلف المديريات من حيث المساحة الزراعية بحسب اتساع الوادى أو ضيقه وقرب الهضاب أو بعدها . ومع ذلك يمكن من الناحية النظرية اعتبار المديريات الجنوبية منطقة زراعية وثقافية وجغرافية واحدة .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفترض مبدئيا وجود نموذجين من القرى. الأول : قرى شمال مصر التى تقع بين فرعى النيل وعلى جانبى الفرعين فى الأرض المنبسطة ذات الأحوال البيئية والمناخية المتشابهة ، والثانى قرى جنوب مصر تقع على جانبى النيل فى امتداده من القاهرة حتى اسوان والتى يظن أنها تتشابه من حيث الخصائص العامة . وهنا لا ينبغى أن يفهم أننا بافتراض هذين النموذجين للقرية فى الجمهورية العربية المتحدة تنتقل الفروق التى يحتمل أن توجد بين القرى الممثلة للنموذج الواحد والتى قد ترجع الى عدة عوامل ، منها كثافة السكان وطريقة توزيع الملكية وخصوبة الأرض الزراعية ، والبعد أو القرب عن المدينة ، أو طرق المواصلات أو مناطق التجمع الصناعى . ولكن مع ما يمكن أن يترتب على هذه الاعتبارات من اختلافات بين القرى فى المنطقتين ، إلا أنها جميعا فى كل حالة تحمل خصائص عامة متشابهة.

ولهذا كانت دراسة مجموعة من القرى فى شمال الجمهورية وفى جنوبها يمكن أن تعطى فكرة عامة عن طبيعة الحياة الاجتماعية فى المجتمع القروى بأسره . ولن يكون أمر دراسة هذا المجتمع على أساس النموذج بالتعقيد الذى يواجه الباحثون فى الهند والصين مثلا (١) نظرا لاتساع رقعة

1 — S. C. Dube, Indian Village, London, 1956. p. 3

هاتين الدولتين وتباين الظروف الجغرافية والعنصرية والدينية الأمر الذى يجعل الدراسة فيهما صعبة للاختلاف البين بين أقاليم كل منها سواء كان أساس الفصل بين الأقاليم من الناحية الجغرافية أو الإدارية أو الثقافية .(١)

ومع أن القرى الثلاث لم تختر لنموذجيتها ، إلا أنها تشابه الغالبية العظمى من القرى التى تقع فى جنوب الدلتا عامة وتشابه بصورة أعم القرى التى تعتمد على زراعة الأرض فى شمال الاقليم بأسره واست أنكر أن زياراتى لعدد كبير من القرى فى عدد من المديريات الشمالية هى التى أعطتنى هذه الفكرة وجعلتنى أزعم وجود عناصر كثيرة من عناصر التشابه بينها جميعا .

ولا يفصل القرى الثلاث أحدها عن الأخرى مصارف أو ترع ، بل إنها ترتبط مباشرة بالأرض الزراعية حتى أن « زمام » كل منها يتداخل فى زمام الأخرى . ومثال ذلك أن أرضا زراعية من الناحية الزراعية والادارية تدخل فى زمام قرية هلا مثلا ولكنها مملوكة لبعض أفراد من قرية القيطون . ولهذا كان الزمام المخصص لكل قرية حسب الاحصاءات الرسمية لا يمثل فى واقع الأمر الأرض الزراعية المملوكة فعلا لسكان القرية . كما أن الترع والمصارف التى تمر بهذه القرى تنتفع بها جميعا دون تميز حتى أن انخفاض منسوب المياه فى الترعة تتأثر به فوراً الزراعات فى المنطقة بأسرها . والأرض الزراعية مماثلة الخصوبة تقريبا ، ولذلك كان ثمن الفدان فى كل الفترات فى كل قرية واحد تقريبا .

ومع أن القرى الثلاث متجاورة لا يفصل الواحدة عن الأخرى إلا مايقرب

Ibid, p. 3—7.

طرق المواصلات البرية فى جنوب الدقهلية ومركز ميت غمر

من كيلو مترين فقط ، إلا أنها مع ذلك تختلف الواحدة عن الأخرى فى القرب من المواصلات . ويمكن تمثيل مواقعها بمثلث يقع كفر الشيخ وهلا على طرفى قاعدته . والقيطون فى رأسه . كما هو واضح من الخريطة المقابلة ، ولذلك كانت هلا وكفر الشيخ أقرب من القيطون من طرق المواصلات لقربهما من الرياح التوفيقى الذى تجرى على أحد ضفتيه السكك الحديدية الضيقة ، وعلى الضفة الاخرى الطريق الزراعى الذى يربط مدينة المنصورة بمدينة بنها مارا بمدن ميت غمر وأجا . والرياح التوفيقى بالنسبة لهاتين القريتين يقع على مسيرة كيلو متر واحد منهما ، بينما يكون بالنسبة للقيطون على ثلاث كيلو مترات أو أكثر ، ولهذا اختلفت نسبة تردد سكان القرى الثلاث على المدن لهذه الاعتبارات . ويلاحظ أن سكان القيطون كانوا لا يغفلون مع بعدهم عن هذا الطريق سلوكه لتجنب المرور بأحد القريتين ، ويفضلون سلوك طريق آخر يقع فى الجانب الآخر ليصلوا الى السكة الزراعية والحديدية الضيقة التى تربط منيا القمح بمدينة ميت غمر . وقد نتج عن ذلك أن اتصال القرى بالمدن لم يكن متشابها . فسكان هلا وكفر الشيخ يتصلون بميت غمر باعتبارها المركز الذى يتبعونه ومدينة بنها ، بينما يتصل سكان القيطون بميت غمر لنفس السبب ومدينة منيا القمح لوقوعها على الطريق الزراعى المفضل عندهم . وسوف أتعرض لهذه الاختلافات النسبية بين القرى فيما يتعلق بطرق المواصلات فيما بعد والآثار التى ترتبت عليها .

وقد ترتب على انبساط الأرض الزراعية دون عوائق طبيعية كصحراء أو جبال أو هضاب أو مرتفعات من أى نوع أن جاء تجمع السكان فى كل قرية فى شكل دائرة . وعندما تكبر القرية تظل محافظة على الشكل المستدير . وقد كان من خطة السكان أن يقيموا « الجبانة » المخصصة لدفن الموتى خارج

القرية : ولكن نمو القرى الثلاث على مر السنين جعل هذه الجبانة تجاور المساكن . ولهذا استغنت كل قرية عن الجبانات القديمة وهدمت وأقيمت جبانات أخرى خارج كل قرية . على مسافة أبعد من المسافة التى كانت تبعد بها القديمة . لأن السكان استفادوا من التجربة السابقة ودخل فى حسابهم هذه المرة امكانيات امتداد القرية المستقبلة . وقد يكون هذا الشكل المستدير للقرية من المظاهر الشكلية التى تميز القرى فى شمال الجمهورية العربية المتحدة حيث نجد أغلب قرى الجنوب مستطيلة الشكل أو غير ذات شكل مميز .

ويقع جامع القرية الذى يؤمه المصلون من جميع أقسامها فى الوسط تقريبا ، ولكن وجود « الجامع الكبير » كما يسمى هناك لم يمنع البدنات من انشاء « زوايا » خاصة بها كبرت مع الأيام حتى أصبحت أكثر بدنات القرية تستغنى عن الجامع العام . ولا يعنى هذا المظهر أن القرية كانت قديما وحدة مترابطة وتشعبت الآن وزادت الفواصل الاجتماعية التى تباعد بين البدنات . ولكن هذا المظهر كان مبعثه التقليد والمفاخرة عندما بدأت بدنة واحدة فى انشاء مكان يخصص للصلاة اليومية وكان مبعث انشائه الأول القرب من الحقل والسكن مع إبقاء صلاة الجمعة لتؤدى فى « الجامع الكبير » وسرعان ما أخذت معظم البدنات فى القرية تميل الى الأخذ بهذا النظام حتى قل المترددون على جامع القرية بمرور السنين . وهكذا يوجد بالقيطون جامعان وثلاث زوايا وبهلا جامعان وزاويتان ، وبكفر الشيخ جامع واحد وزاويتان . وجدير بالذكر أنه فى الوقت الذى كان بقريتى هلا والقيطون عدد من المسيحيين كما سنذكر ذلك فيما بعد كانوا يؤدون شعائر الدين فى كنيسة خاصة بهم ، واندثرت كنيسة القيطون بهجرة المسيحيين منها ولاتزال

كنيسة هلا موجودة حتى الان نظرا لوجود عدد من المسيحيين لا زال يعيش فى القرية حتى الآن .

والغالبية العظمى من مساكن القرى الثلاث مبنية على نمط واحد سواء من حيث مواد البناء أو الشكل الخارجى أو التنظيم الداخلى وتفصيل ذلك وارد فى الفصل الرابع من الرسالة ، ولكن الملاحظ أن القرية من حيث المساكن مقسمة الى مناطق تسكن كل منطقة بدنة بعينها ويحافظ الافراد على استمرار انتمائهم الى المنطقة السكنية التى تقع فيها بدنتهم وأن كان هذا الحرص بدأ أخيرا فى الزوال . وهذه المنطقة غالبا ما تكون متصلة بالأرض الزراعية التى تملكها البدنة الأمر الذى كان يجعل القروى لا يخترق القرية فى ذهابه للحقل . بل كان يتوجه من مسكنه اليه مباشرة . وقد كان هذا الارتباط بين السكن والارض الزراعية من الامور التى تشعر القروى بالأمن وانتمائه الشديد لبدنته أكثر من انتمائه الى مجتمع القرية ككل . وقد روى لى أحد المخبرين أنه فى الماضى كان يوجد عدد كبير من الافراد لم يشاهدوا الأجزاء الاخرى عن القرية طوال حياتهم ، لأن حياتهم الخاصة والعامة داخل العائلة والبدنة كانت لا تبعث فيهم حاجة الى الاتصال بالسكان فى بقية مناطق القرية المخصصة للبدنات الأخرى . وكان الاتصال قاصرا على رئيس البدنة أو رؤساء العائلات المكونة لها أو كبار السن من غير هؤلاء فى أحوال قليلة . وقد روى لى مخبر آخر أن كثيرا من الافراد لم يشاهد شارع « داير الناحية » وهو الشارع الدائرى الرئيسى فى القرية الذى يخترقها فى شبه حلقة مستديرة الا عند زواجهم وكانت العادة أن يمر العريس مع عدد من رفقائه حول القرية وكذلك تفعل العروس راكبة جملا أو حصانا أو مترجلة داخل اطار ذى أربع قوائم مغطى بقماش رقيق .

كان المـــكان المخصص « للتليفون » المتصل بالمركز وهو عبـارة عن حجرة صغيرة بجانبهـا حجرة اخرى لحفظ بنادق الخفراء والاسـتراحة المخصصة لرجال الإدارة الذين يزورون القرية بين وقت وآخر ـ هو المظاهر الوحيد للدولة فى القرية لوقت قريب وهو تابع للعمدة مباشرة ويعتبر ملكا له ، حتى أنه اذا انتقل منصب « العمودية » الى شخص آخر فانه يعد مكانا آخر للتليفون والبنادق واستقبال الزائرين . ولهذا كان من بين مفاخر البدنة التى يكون العمدة أحد أفرادها ان هذا المكان يقع داخل نطاقهـــا السكنى . ولم يكن بالقرية من المظاهر الحديثة غير ذلك .

ومنذ عام ١٩٣٣ عندما انشئت المدرسة الالزامية بدأت القرية تشاهد عددا من المظاهر الحديثة لم تكن مألوفة من قبـل كانشاء بناء خاص للمدرسة على نمط يخالف مساكنهم ، واقتضى التنظيم الادارى أن تنشأ نقطة للبوليس كانت هلا مقرا لها . وكانت المنطقة من أوائل المناطق التى انشىء فيها مركز اجتماعى مقره الرئيسى قرية هـلا أيضـا ويشـمل قريتى القيطون وكفر الشيـخ . وقد كـان من المأمول أن يكون انشاء هذا المركز الاجتماعى نقطة تحول فى حياة القرويين فى القرى الثلاث الزراعية والثقافية والاجتماعية . الا أن القرويين وهم يميلون الى الشـك دائما فى كـل ما تقوم به الدولة من مشروعات قابلوا الجهود التى كـانت تبذل فى أول الأمر لتنفيذ خطة المركز بعدم اهتمام شديد ، حتى انتهى الأمر الى أن أصبح المركـز الاجتماعى مجرد بناء فيه عدد من الموظفين . وكل ما أفاد به القرويين كـان يتصـل بالناحية الصحية فى الأوقات التى كـان أحد الأطباء يقبل الاقامة فى هـذه المنطقة . والخطأ الأكبر الذي وقع فيه المشرفون على انشاء هذه المراكـز ـ على أساس تجربة المركز الاجتماعى فى هذه المنطقة ـ إن اقامته لم تـكن نتيجة لدراسة

حقلية للحياة الاجتماعية ، الأمر الذى أدى حـين التطبيق إلى مفـارقات عديدة . ومن أبرز هذه المفارقات ما اعتقده المنفذون أن السلطة فى القرية لا تزال كما كـانت قديما فى يد كبـار السن ورؤساء العـائلات والبدنات ، ولهذا كان اتصالهم يتم مباشرة بهم ، فى حين أن هذه السلطة كما سنبرهن على ذلك فيما بعد ، أخذت فى التفكك وازداد ظهور الفردية ، وأصبح الأفـراد لا يهابون كـثيرا سلطة الـكبار أو يؤمنون إيمانا مطلقا بتوجيهاتهم . هذا الى جانب أن هؤلاء الرؤساء وكبار السن محافظون بطبعهم وكانوا ضـد كل تغيير ، خصوصا اذا كلفهم هذا التغير مالا أو تعديلا فى المناهج التى درجوا عليها فى طريقة التفكير والعمل . ومع ذلك فقـد كان للمركـز الاجتماعى آثار غير مباشرة على حياة القرويين . فلأول مرة فى حياتهم أو خبراتهم أو ذكريات الماضى التى يرويها لهم الـكبار اطلعوا على طرق جديدة للحياة الاجتماعية أو للعمليات الزراعية أو الاجراءات الصحية بعـد أن كانوا يعتقدون أن طرقهم التقليدية هى الصالحة تماما المؤدية للأغراض المطلوبة من الحياة والعمل .

ولم يكن نصيب الجمعية التعاونية أوفر حظا من المركـز الاجتماعى . فقد وصلت آثار الحركـة التعاونية التى بدأت عام ١٩٣٠ فى مصر القرى الثلاث فى وقت مبكر ، وانشئت هذه الجمعيات ويمكن أن نميز موقف القرية ازاءها على مرحلتين : الأولى منذ إنشـائها عام ١٩٣١ ، ١٩٣٢ حتى عام ١٩٤٢ ، والمرحلة الثانية منذ عام ١٩٤٢ حتى اليوم .

ففى المرحلة الأولى كانت لاتزال البدنات والعائلات المـكونة لها متماسكة بمعنى أن السلطة الداخلية كانت لها المظاهر القديمة بوجه عام . ولهـذا فان عضوية الجمعـية كانت قاصرة على كبار السن ورؤساء العائلات ، وعلى هذا

الأساس ونتيجة للخدمات المادية التى كانت تؤديها للأعضاء أظهرت نجاحا نسبياً . وفى المرحلة الثانية نتيجة لزيادة العضوية فيها ورغبة الرؤساء وكبار السن الاحتفاظ بما كان لهم من سلطة داخل الجمعية ، فقد أخذت فى التفكك حتى وصلت الى حالة من التوقف التام . وقد كان لظهور الفردية والقدرة من جانب الأفراد على المعارضة والنقد والاحتجاج أثر كبير على تدهور أحوال هذه الجمعيات التعاونية . ويمكننا أن نقول أن هذه الجمعيات قامت فى بادىء الأمر على تمثيل السلطة الأبوية ولحقها ما لحق هذه السلطة فى الفترة الأخيرة من تفكك . كما أن هناك عاملين آخرين كان لهما أثر مباشر على هذا التفكك، وهما زيادة الاتصال بالمدينة فى الفترة الأخيرة ، الأمر الذى جعل القروى يفضل الذهاب إلى المدينة لشراء ما يلزمه ، أو يكون تعامله رأسا مع بنك التسليف الزراعى الموجود فى المدينة دون وساطة من الجمعية . والعامل الثانى ظهور التجارة الداخلية فى القرى وافتتاح بعض المحلات التجارية التى يجد فيها القروى ما يمكن أن يستغنى به عن التعامل مع الجمعيه التعاونية .

ويلاحظ أن القروى يفضل التعامل مع فرد أكثر من أن يتعامل مع هيئة ، سواء كانت هيئة أهلية أو حكومية ، لأنه يحس انه سيضمن عدم الجور عليه ، أو المساس بحقوقه التى يتمسك بها خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بالمال .

ومن مظاهر المدنية التى انتقلت الى القرية « المقهى » وكان اقبال القرويين عليه قليلا فى أول الأمر ، ولكنه زاد فى الفترة الأخيرة خصوصا إذا كان بالمقهى جهاز « راديو » . والقرويون شغوفون الآن بالاستماع الى الأغانى والأخبار حتى أن الغالبية العظمى منهم تتبع آخر الأنباء العالمية والمحلية.

ومن الملاحظات التى شاهدتها بنفسى أثناء العدوان الثلاثى على الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٦ اشتداد رغبة السكان فى معرفة آخر تفاصيل المعركة الداخلية والمعركة الخارجية فى هيئة الأمم المتحدة ، وكانوا يعرفون الخطوط العريضة التى كانت تجرى عليها مناقشة الموضوع سواء فى مجلس الأمن ، أو فى الجمعية العمومية . ولم يكن لهم حديث فى هذه الفترة أو ما بعدها إلا الكلام فى هذه الموضوعات . وهذا وحده يكشف عن المدى الذى اتسعت إليه آفاق القرويين ، ومدى إحساسهم بالارتباط بالدولة وبالعالم ، الأمر الذى لم يكن موجودا من قبل .

وقد جاء التغير على القرى الثلاث فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، انتشرت فيها أجهزة الاستقبال الإذاعى التى توضع على الأذن الى الحد الذى كانوا يصنعونه محليا بالاستعانة ببعض مخلفات جيش الاحتلال ، وقد أخبرنى أحد المخبرين أنه كان بقرية القيطون وحدها ما يقرب من ١٥٠٠ جهاز ، ولكن سلطات الأمن أخذت فى مصادرة هذه الأجهزة تطبيقاً لقانون رخص الراديو . وطبيعى أن القرويين رفضوا أن يعتبروا هذه « السماعة » التى يضعونها على آذانهم جهازا يستحق دفع الضريبة . ومع ذلك انتشرت فى الفترة الأخيرة أجهزة الراديو . ويوجد بقرية القيطون ١٧ جهازاً وبكفر الشيخ ٤٦ وبهلا ٣٤ جهازاً . وسوف يظهر بعد ذلك أثر هذه الأجهزة الإذاعية فى عمليات الانتشار الثقافى كعامل من عوامل التغير الاجتماعى الحديث .

وقد كان نمو السكان فى القرى الثلاث يسير مع نمو السكان عامة فى الجمهورية والجدول الآتى يوضح هذا القول .

السنة	القرية	مجموع السكان	مسلمون	مسيحيون	أجانب	عربان
	قيطون	١٨٥٧	٢٨٣٨	١٩	—	٧
١٩٠٧	هلا	٣٩١٥	٣٧٥٢	١٦٢	١ اسرائيلى	١٤٢
	كفر الشيخ	٢٠٥٠	٢٠٤٧	٣	—	—
	قيطون	٣٣٣٤	٣٣١٠	٢٤	—	—
١٩١٧	هلا	٤٢٣٠	٤٠٥٢	١٧٨	—	—
	كفر الشيخ	٢٤٤٠	٢٤٣٧	٣		—
	قيطون	٣٥٨٧	٣٥٧١	١٦	—	—
١٩٢٧	هلا	٤٤٨٠	٤٣٥٣	١٢٦	١	—
	كفر الشيخ	٢٣٢٨	٢٣٢٧	١	—	—
	قيطمن	٣٩٥٤	٣٩٥٤	—	—	—
١٩٣٧	هلا	٤٥٧٨	٤٤٧١	١٠٧	—	—
	كفر الشيخ	٢٦٥٧	٢٦٥٦	١	—	—
	قيطون	٣٨٧٦	٣٨٧٦	—	—	—
١٩٤٧	هلا	٤٤٨٩	٤٣٩٣	٩٦	—	-
	كفر الشيخ	٢٧٧٥	٢٧٧٥	—	—	—

« جـدول يبين نمو السكان وانقسامهم الى جماعات »

مستمد من نتائج التعـداد العـام — كراسة مديرية الدقهلية

(دار الكتب ـ القاهرة)

وبدراسة هذا الجدول وبالرجوع الى المخبرين وصلت إلى عدة ملاحظـات : أولها أن العربان الذين الحقهم التعداد بقرية هـلا لم يكونوا يقيمون داخل القرية نفسها ، بل كانوا يقيمون على « زرعة الخزان » المشتركـة بينها وبين القيطون ، وفى منطقة تتوسط القريتين ، ونظرا لقربهم النسبى من هلا فقد ألحقوا بها عند اجراء التعداد ، وقد أغفل التعداد ذكرهم فى عام ١٩١٧ مع أنهم ظلوا باقين بالمنطقة الى حوالى عام ١٩٣٠ حينما أجبرتهم الدولة على مغادرة المكان نتيجة للحوادث المستمرة التى كانوا يتسببون فيها . وكان وجودهم فى خيام يرعون الماعز والأغنام والابل وينتقلون من مكان لآخر مع قطعانهم من الأسباب التى جعلتهم يحتكون دائما بالقرويين . ويقـول أحد المخبرين من كبار السن فى قرية هلا أنهم كانوا عامل تضامن ، أى أن القرية فى فترة وجودهم كانت تتحد دائما لمواجهتهم ، ويقول أنه بجانب الرعى والسرقة كانت نساؤهم يعملن فى الشعـوذة (كقراءة البخت والعلاج عن طريق الكى بالنار) . ولـكن الفكرة السائدة عنهم عند كبـار السن أنهم لا ينتسبون للعرب لا من قريب أو بعيد ، بل هم طائفة من الغجر ، ولذلك كان التفاهم معهم صعبا ، ولا يبقون على اتفاق أو يقبلون « مجالس العرب » التحكيم أو الصلح . والجيل المعاصر لا يـذكر عنهم شيئا اللهم إلا عن طريق الروايات المشوهة التى تحكى بين الحين والآخر .

والذى لا شك فيه أن وجودهم لهذه الفترة الطويلة ـ وهم قوم يعتمدون على المغامرة فى حياتهم ـ كان عاملا من عوامل التساند فى هذه الفترة بين البدنات خصوصا وأن القـروى المستقر فى مسكنه وأرضه الزراعية والذى تقوم حياته على نمط واحد تقريبا ، يزعجه جدا أن يتعرض لمفاجآت هؤلاء العربان ، وكان دائما يحترس منهم ويميل الى التآخى مع غيره ممن لا يمتون

بصلة القرابة . ونظرا لقلة عددهم فانهم لم يؤثروا فى الحياة الاجتماعية للقرويين ، الذين كانوا يكونون بالنسبة لهم طبقة أدنى . لأن مهنة الزراعة كانت هى المهنة الشريفة التى لها القيمة العليا ، وطالما أن هؤلاء لا يعملون بالزراعة فانهم كباقى أصحاب الحرف القروية الذين كانوا يصنفون من وجهة النظر القروية فى مرتبة أقل ، ولهذا كانوا لا يتزاوجون ويحرصون دائما على أن تكون الأبعاد الاجتماعية بينهم واضحة المعالم .

ومع أن كثيرا من البدنات فى القرى الثلاث تفاخر بطريقة غير معلومة بأصلها العربى ، فانهم لم يعترفوا مطلقا بأن هؤلاء « العربان » قد ينتسبون إلى العرب بطريق ما . وعندما يجلس القرويون من القيطون الى بعضهم ويتسامرون ، فانهم يصرحون بأن سكان هلا قد اكتسبوا من هؤلاء « الغير » بعض صفاتهم أو أنهم تزاوجوا سراً عن طريق الخطف . ولم تكن علاقة القرويين بهؤلاء العربان صراعا على طول الخط ، بل إنهم كانوا يتعاونون أحيانا عن طريق التبادل ، فيعطونهم الحبوب فى مقابل الجمال والماعز والصوف . وكان هذا التبادل يتم خارج حدود القرية ، لأن القرويين لا يسمحون لهم بدخول القرية وكان هذا المنع قاصرا على الرجال ، اما النساء فكان مسموحا لهن بالتجول داخل القرى ، إلا فى حالات الصراع فيمنعن خوفا من أن يخطفن الأطفال. ومع هذا كان للقرويين ميل للاعتقاد فى قدرة العربان على السحر والشعوذة وشفاء الأمراض، ولهذا كانوا يلجأون إليهم فى بعض الأمراض المستعصية أو فى حالات العقم .

وأغلب الظن أن استخدام الجمال فى هذه المنطقة جاء عن طريق هؤلاء العربان . ومن الملاحظات الهامة هنا أنهم كانوا فى حالة مقاطعة

أهل القرى لهم كانوا يلجأون لزراعة مساحات من الأرض يؤجرونها من أرض يملكها « أفلاطون باشا » فى هذا الوقت وتقع فى زمام قرية أخرى « الزمرونية » وكانت طريقة زراعتهم لها مجالا للتندر بين القرويين لعدم اتقانهم العمليات الزراعية المختلفة . وغالبا ما كان القرويون ينتظرون نضج المحاصيل وينتقمون من العربان بحرقها . وقد روى لى أحد المخبرين بقرية القيطون أن الطريقة المتقنة بتوجيه الانتقام نحو الحيوان بتسميمه ، إنما جاءتهم عن طريق هؤلاء . ومع ذلك فاننى كما قلت سابقا لا أستطيع التحقق من آثار هؤلاء العربان فى حياة القرويين الاجتماعية خصوصا فيما يتعلق باقتباسهم منهم بعض مظاهر ثقافتهم المادية . لأنه على افتراض وجود الاقتباس فانه كان يتكيف بسرعة ليلائم طبيعة حياة القرويين المعتمدة على زراعة الأرض بصفة عامة .

وثانى هذه الملاحظات أن الغالبية العظمى من السكان كانوا ولا يزالون من المسلمين ، ووجود القلة من المسيحيين لم يؤثر فى طبيعة الحياة الاجتماعية لأنهم كانوا يعتمدون فى المحل الأول على زراعة الأرض وكانت طريقتهم فى الحياة . وعاشوا ولا زالوا يعيشون نظرا لقلة عددهم فى تآخ مع الغالبية من المسلمين . وهم مع ذلك يميلون الى الهجرة الى المدن أو الى القرى القريبة التى تكون فيها نسبة عالية من السكان المسيحيين . وذلك كما يتضح من تناقصهم المستمر فى هلا واختفاؤهم كلية فى قريتى كفر الشيخ والقيطون . ويلاحظ أنهم من حيث السكن لم يتجمعوا فى مكان واحد ، كما تفعل البدنات ، أى أنه لم تكن هناك قاعدة معروفة لاقامتهم فى هذا المكان أو ذاك . ووجودهم فى القرى لا يماثل فى قليل أو كثير وجود الطبقات المتمايزة

فى القرية الهندية كما لاحظ ذلك دوبيه Dube[1] إذ ليست لهم طريقة متميزة فى الحياة أو العمل تختلف عن بقية سكان القرية ، كما أن علاقاتهم بالغير لا يلحظ فيها آثار من فواصل أو أبعاد طبقية اجتماعية أو دينيه . بل العكس تبدو الآثار المتبادلة بينهم وبين غالبيه المسلمين فى مظهر مهم وهو «التسمية» فالكثير من المسيحيين يحملون أسماء غير مسيحية ، كما أن بعض المسلمين يسمون أبناءهم بأسماء مسيحية . فهناك فى قرية القيطون سيدتان أحدهما تسمى « هيلانه » والأخرى تسمى « إلين » وهما مسلمتان .

وخلاصة القول أن المسيحى كان يشعر أكثر من المسلم بانتمائه الى القرية أكثر من انتمائه إلى طائفة معينة على عكس المسلم الذى كان شعوره بالانتماء إلى البدنة والعائلة فى المرتبة الأولى ويأتى شعوره بانتمائه للقرية فى المرتبة الثانية . ومن النتائج الهامة لهذا الشعور إنه لما كانت العائلة والأرض مظهران لشئ واحد هو قوة الرابطة التى تربط الإنسان بالأرض ، فقد كان إلتصاق المسلم بالعائلة والأرض الزراعية أشد من إلتصاق المسيحى ، لهذا – وفى وقت مبكر – كان المسيحى يغتنم أى فرصة للتجارة أو التعليم أو الهجرة ولا يتركها ، ولهذا نجد تباينا واسعا بين نسب التعليم والنشاط التجارى والهجرة إذا أجرينا مقارنة نسبية بين المسيحيين والمسلمين فى هذا المضمار . وبناء على ما رواه لى أكثر من مخبر فى القرى الثلاث أن المسيحيين على الرغم من عدم قيام صلات قوية بينهم إلا أنهم كانوا يشعرون بالانتماء أحدهما للآخر شعورا يماثل شعور الانتماء إلى العائلة الواحدة إن لم يزد . وربما يرجع ذلك إلى شعور الأقلية فى كل مكان من العالم .

1 — Dnbe, S. Co, Indian Village, London, 1956, p. 5.

ومن مظاهر هذه الوحدة وهذا التآلف الذى كان يجمعهم أنهم كانوا يشتركون كجماعة فى الاحتفالات العامة للقرية أو فى مشاركة القرويين أحزانهم وافراحهم ، وكانوا يمتنعون كجماعة فى التدخل فى الخلافات التى تقوم بين العائلات أو البدنات . ولم يذكر لى مخبر واحد أن ثم خلافا واحدا حدث بينهم عميق الجذور ، اللهم إلا الخلافات اليومية البسيطة التى كان يحسمها كبار السن بينهم أو رجال الدين منهم . ولم يحدث أن عومل أحد من المسيحيين كطائفة Caste إلا على أساس فردي وفى كل حالة كانت تزال أسبابها وتقمع مظاهرها خصوصا فى قرية هلا . وعلى الرغم من عدم وجود مسيحيين بقريتى قيطون وكفر الشيخ منذ عام ١٩٣٠ واستمرار وجودهم بقرية هلا إلا أن وجودهم هناك لم يؤد فى نهاية الأمر إلى وجود اختلاف بينها وبين القريتين السابقتين يمكن أن يعول عليه خصوصا إذا لاحظنا أن عددهم حسب ما أحصيتهم فى عام ١٩٥٧ انخفض الى أكثر من نصف ما كان عليه فى احصاء عام عام ١٩٤٧ .

ومن المهم هنا أن أسجل بعض الاختلافات فى مظاهر حياة المسيحيين العامة وأسبابها ومدي تأثر القرى بها . المسيحيون كانوا أكثر من بقية السكان رغبة فى الحركة والتنقل لأسباب تتعلق بحاجاتهم الدينية إلى الاتصال بالكنائس فى القرى القريبة أو بالمدن ولانشغال بعضهم بجوار الزراعة بنشاط تجاري معين يقتضيه ايضا الاتصال بالمدينة وكثرة السفر ، كما أنهم كانوا يرسلون أبناءهم لتلقى العلم فى مدرسة الارسالية الأمريكية بميت يعيش وهى قرية تبعد عن القرى الثلاث بنحو خمسة كيلو مترات ، أو يبعثون بهم للاقامة عند أقاربهم فى جهات مختلفة يكون فيها التعليم متيسرا خصوصا إذا لاحظنا أنه فى الفترة الأولى كان مظهر التعليم الوحيد فى القرية هـــو

« الكتاب » الذى كان يقوم أساسا على حفظ القرآن مع تعليم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب . ومع هذا كان اقبال السكان على الكتاب قليلا . ولم يتأثر بالمسيحيين فى القرية إلا قلة يمثلون الطبقة العليا الذين كان دخلهم يسمح لهم بارسال ابنائهم الى الأزهر أو الى مدارس المدينة ، وظل بقية السكان بمعزل عن التأثر بحركة التجارة والتعليم .

وقد ترتب على الاتصال بالمدينة أن نقلت الى حياتهم الخاصة بعض مظاهرها ، وأولها الطريقة التى كانت تبنى بها منازلهم . فقد كان يراعى فيها شىء من التنظيم مع العناية بفصل الحيوان عن الانسان وفصل الذكور عن الإناث فى سن مبكرة إلى جانب أنهم – والميسرون منهم – يبنون مساكنهم من الطوب الأحمر ، وثانيها أثاث المنزل فهم أول من استخدم موقد الغاز والأطباق والملاعق والكراسى وغير ذلك ، وكان تقليدهم يقتصر على الطبقة العليا من القريتين فى حدود ضيقة جداً ، وثالثهما الأزياء ويلاحظ أنهم كانوا يعتنون بمظهرهم بعكس بقية السكان الذين كان ملبسهم بسيطا يؤدى الأغراض المحدودة المطلوبة كما سيأتى تفصيله فيما بعد. ولم تكن دوافعهم للعمل قاصرة على الوفاء بالمطالب المباشرة البسيطة أو توفير فائض لشراء أرض جديدة ، بل كانوا يتجهون الى الارتفاع بمستوى معيشتهم فتتعدد بذلك مطالبهم ويزداد تبعاً لذلك مظاهر نشاطهم فى العمل والانتاج وبصفة عامة كانت ثقافتهم المادية مختلفة نسبيا عن ثقافة غالبية السكان ، أما حياتهم العائلية فلم تكن فى مظاهرها العامة قائمة على السلطة الأبوية المطلقة ، أو على العلاقة الوثيقة بين طبيعة الحياة العائلية والحياة الاقتصادية ، وكما أجمع المخبرون ، لم يتأثر سكان القرى بهم لسبب يتعلق

بمعتقداتهم الدينية وخلاصتها ، أنه عمل غير دينى أن يقلد المسلم المسيحى فى ملبسه أو فى مسكنه أو فى طبعه » . واريد أن الفت النظر الا يجب أن يفهم من التحليل السابق أن مظاهر حياة المسيحيين كانت بارزة بحيث تكون ثقافة بجانب ثقافة أخرى نظرا لقلة عددهم من ناحية ولعدم تركزهم السكنى فى منطقة واحدة من جهة أخرى ، كما أن بعض المسلمين من السكان وخصوصا كبار الملاك ، منهم كانوا لا يختلفون كثيراً عن المسيحيين فى تطوير ثقافتهم المادية . ومع ذلك كانوا بمعزل عن التأثير فى مجموع السكان . أما فى فترة التغير الممتدة الى اليوم ، فأنه نظرا للمؤثرات الثقافية المختلفة التى جاءت عن المدينة أو على طريق القانون أو العوامل التى سيأتى ذكرها فيما بعد ، فلم يكن هناك تمايز بين أقسام السكان المختلفة ، والاختلاف نسبى يعود أساسا الى اختلاف مستويات المعيشة .

وثمة مفارقة فى قرية كفر الشيخ بين تعداد عام ١٩١٧ ، وعام ١٩٢٧ . فالتعداد الرسمى لعام ١٩١٧ يقدر السكان بـ ٢٤٤٠ نسمة بينما يقدرهم تعداد ١٩٢٧ بـ ٢٣٢٨ . ولم استطع أن استدل على سبب معقول لهذا النقص وخصوصا وأن المخبرين الذين سألتهم عن سبب هذا النقص لم يجدوا له سببا ، كما أنهم لا يذكرون أن هجرة من القرية الى خارجها حدثت فى هذه الفترة أو أن وباء ظهر قبل التعداد فادى الى وفيات كثيرة ، أو أن نسب الزواج والخصوبة والزيادة الطبيعية للسكان فى هذه القرية كان لها وضع خاص يخالف القريتين هلا وقيطون . ويغلب على الظن أن هناك خطأ فى التعداد على نحو ما أدى الى هذه النتيجة . خصوصا اذا قارنا بين تعداد ١٩٣٧ ، ١٩٤٧ فنجد أن كفر الشيخ زاد سكانها بينما نقص سكان القريتين الاخريين . ولكن فى هذه الحالة نجد أن لهذه الظاهرة أسبابا فبجانب ما يمكن أن

يكون فى طريقة التعداد نفسها من نقائص الا أن تطبيقها عن القرى الثلاث بطريقة واحدة يؤدى الى افتراض الصدق فى الاحصاء خصوصا اذا كان المجال مجال مقارنة . فقرية كفر الشيخ فى العشرين سنة الأخيرة لم تؤد الاحوال فيها الى كثرة هجرة الافراد والعائلات منها الى المدينة للعمل بها نظرا لقلة عدد السكان النسبية اذا قورنت بقريتى هلا وقيطون بالاضافة الى أن عدد الأفراد الذين لا يملكون شيئا فيها ليس كبيرا . ولهذا ونظرا لقيمة الارض الزراعية التى لا تزال كبيرة عند القرويين فانهم لا يجدون دافعا قويا لمغادرة القرية على الرغم من انخفاض مستوى معيشتهم . ولكن الأفراد والعائلات فى قريتى هلا وقيطون أظهروا فى نفس المدة السابقة استعدادا كبيرا للهجرة كما يتضح من الجدول الآتى : [١]

القرية	١٩٣٩	١٩٤٠	١٩٤١	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤	١٩٤٥	١٩٤٦	١٩٤٧	١٩٤٨	٤٩
قيطون	٤٨	٦٠	٥١	٧٠	٤٠	٣٢	١٦	١٤	٥	٦	—
ـفرالشيخ	١٢	١٧	٢١	١٩	١٥	١٦	٣	١	—		—
هلا	٥٨	٦٨	١١٧	١٣٠	٧٠	٢١	—	—	—	—	٢
		١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	
قيطون		—	—	—	١٧	١٢	٢٥	٤٣	١١	٢٦	
ـفرالشيخ		—	—	—	—	٥	٦	١٣	٦	١٦	
هلا		٣	٦	—	٥٨	—	—	٣٢	٢٥	٢٣	

(١) هذا الجدول تقريبى ولا يمثل عدد المهاجرين بالضبط وقد يكون ناقصا أو زائدا ولكنه فى الغالب يعطى الفكرة العامة . وقد وصلت الى هذه الاعداد من سؤال المخبرين واحصاء عدد الذين تركوا القرية خصوصا وانهم يقصدون أماكن معروفة كالزاوية الحمراء فى القاهرة ومنطقة كفر سعد بشمال الدقهلية .

وسوف يظهر فى الابواب التالية أن المهاجرين الى القرى [١] ـ كان البحث عن عمل هو السبب الرئيسى فى مغادرتهم القرية سواء أكانت هذه الهجرة بسبب الحصول على مؤهل دراسى أو بسبب الفقر . والأمر الجدير بالملاحظة هنا أن أغلب الذين يتركون القرية فى هلا والقيطون هم من القرويين الذين يريدون العمل فى المدينة كعمال ، أما أغلب الذين يتركون كفر الشيخ فان غالبيتهم من المتعلمين الذين يعملون بحكم مؤهلاتهم العلمية فى المدن ويظهر هذا على الاخص فى السنين الأخيرة كما يأتى بيان ذلك فيما بعد . ويلاحظ على حركة الهجرة أنها مرت على ثلاث مراحل كما هو واضح من الجدول السابق . المرحلة الأولى ما قبل عام ١٩٣٩ ، كان عدد المهاجرين قليلا على الرغم من مظاهر القلق الاقتصادى التى كانت بادية خصوصا أبان الازمة الاقتصادية العالمية فى عام ١٩٣٠ وما بعدها ، وعلى الرغم من أن مظاهر الرابطة الشديدة بين الأرض والقرويين بدأت تتفكك خصوصا بعد أن زاد عدد الذين لا يملكون أرضا زراعية خاصة بهم ، الا انهم كانوا لا زالوا مشدودين بالارض بقوة التقاليد والقيم القديمة التى كانت تمهد العمل الزراعى ، وكانت تنقص الافراد البداءة والقدرة على المغامرة وتغيير الأسس القديمة التى قامت عليها حياتهم والخوف من الفشل عند الذهاب الى المدينة . والمرحلة الثانية بدأت بقيام الحرب العالمية الثانية عند احتياج جيش الاحتلال السابق الى مزيد من الايدى العاملة . وترامى الى القرية أنباء عن سهولة الالتحاق بالعمل فى المعسكرات أو فى المصانع وخصوصا فى منطقة القنال . فبدأت اعداد متزايدة تغادر القرية عاما بعد عام أبان سنوات الحرب . وقد شملت

(١) ـ المهاجر ـ كما استخدم الكلمة هو الذى يترك القرية أما مؤقتا أو بصفة دائمة سواء كان يعود بين الحين والحين أو لا يعود مطلقا ، وسواء كان سبب الهجرة الحاجة الى عمل بسبب الفقر أو الحصول على مؤهل دراسى يجعل المهاجر يلتحق بعمل فى مدينة ما .

الهجرة أولئك الذين لا يملكون أرضا زراعية والذين يملكون مساحات ضئيلة جدا لا تكفى وحدها لسد حاجة الفرد الضرورية وعائلته . كما ذهب عدد من الأفراد من عائلات تملك أرضا زراعية تسد حاجة جميع أفرادها وقد تزيد . وكان الدافع لهؤلاء أن العمل الزراعى لا يحتاجهم ويكفى الباقون فى القرية للنهوض به ، الى جانب الرغبة فى الحصول على مزيد من المال وكان هؤلاء على عكس الآخرين يذهبون الى أماكن العمل الجديدة وليس فى نيتهم البقاء . وقد كانت عودتهم بعد أن قضوا عدة سنوات فى المدينة من العوامل التى أثرت فى طريقة الحياة الاجتماعية التقليدية من حيث « التخلق بأخلاق المدينة » فى الملبس والمسكن والكلام وطريقة المعيشة . وظهر أثرهم بوجه خاص فى النواحى الخاصة بالثقافة المادية . وقد كان هذا المظهر من المسائل الهامة التى لاحظها Yang فى دراسته لقرية Taitou فى مقاطعة شانتونج Shantung فى الصين[1] فيقول « أن القرويين عندما يعودون ، يحملون معهم طرقا جديدة وأفكارا جديدة وثروة جديدة للقرية » وهذا من شأنه الاسهام فى عمليات التغيير الاجتماعى التى تحدث فى المجتمع القروى.

ولا يعنى أن تأثير المهاجرين فى القرية اقتصر على هؤلاء ، بل أن الغالبية العظمى منهم من جميع الفئات تعود بين الحين والآخر للقرية فتحدث نفس الآثار . وقد قلت الهجرة فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية حتى أنها أنعدمت فى بعض السنين خصوصا السنوات الواقعة بين ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢ ولم يكن هذا مرجعه عدم الرغبة فى مغادرة القرية بل لأن الحاجة الى العمل أصبحت أقل من ذى قبل وأصبح الحصول على عمل فى المدينة صعبا ، خصوصا وأنه بانتهاء الحرب بدأت المعسكرات والمصانع التى كانت تغذيها بما تحتاجه من حاجيات أخذت تستغنى عن اعداد متزايدة من العمال . وقد عاد بعض من هاجر من القرويين الى القرى نتيجة لذلك . ولكن الاتجاه

الى الهجرة زاد مرة أخرى ودخل مرحلته الثالثة ابتداء من عام ١٩٥٢ ولا زال الاتجاه العام ثابتا حتى اليوم حيث وجد كثير من القرويين فرصا كثيرة للعمل فى المصانع الجديدة والمشروعات التى تقوم بها الدولة الآن .

وقد تكون القرى الثلاث مختلفة الى حد ما عن قرى أخرى فى ثبات الاتجاه الى الهجرة نظرا لان قوانين الاصلاح الزراعى وأهمها نزع ملكية ما يزيد على ٢٠٠ فدان لم تستفد بها هذه القرى لعدم وجود ملاك تزيد ملكياتهم على هذا الحد . ولذلك فالرغبة فى الهجرة لا تزال قائمة . واغلب الظن أنه لو أجرينا مقارنة على قرية استفادت من قوانين نزع الملكية لوجدنا أن الاتجاه للهجرة انخفض الان نظرا لتمليك كثير من « المؤجرين للأرض » أو الذين لا ملكية لديهم قبل ذلك . وهذا يدل على إن قيمة الأرض الزراعية فى نظر القرويين لا تزال فى المحل الأول . ومما يؤيد ذلك أننى سألت كثيرا من « المعدمين » عن دوافعهم فى مغادرة القرية ، فكان الرد واحداً دائما ، انهم لا يريدون البقاء لانهم لا يملكون أرضا ولا يجدون أرضا يؤجرونها ، أما اذا وجدت الأرض فانهم يفضلون الاقامة والعمل بها على العمل فى المدينة، لأن هذا فى نظرهم أدعى للاستقرار وأكثر أمنا لمستقبلهم فالأرض هى المصدر الثابت للرزق الحلال .

ويمكن ملاحظة الخصائص الآتية لحركة الهجرة من القرى الثلاث :

أولا أن المهاجر يذهب أولا للبحث عن عمل فاذا وفق فى ذلك فانه يعود لأخذ زوجته وأولاده ومن يعولهم إذا كان متزوجا أو يبقى وحده حيث يعمل إذا كان غير متزوج . هذا على عكس الاتجاه فى الصين ، فالمهاجر

(I) Yang; Martin, A Chinese Village, Taitou, Chantung Province, London, 1947. p. 229

الصينى يذهب الى المدينة ويترك عائلته فى القرية لا لأنه يشعر أن حياة الريف أفضل لها من حياة الأحياء الفقيرة فى المدينة ، بل لانه مرتبط بسلسلة من التقاليد القديمة [١] وربما كان للمجتمع الصينى وخصوصا المجتمع القروي فيه ظروف خاصة ليست موجودة فى مجتمعنا القروى . فالروابط القديمة كما سيظهر ذلك فيما بعد لم تعد تجعل القروى مغلول الحرية، بل العكس أن الاتجاه العام الآن يسير نحو الفردية ، ولهذا لا يتردد القروى فى اصطحاب عائلته معه حيث يقيم الآن .

وقد تكون القرية الهندية التى درسها دوبيه أكثر تشابها للقرى الثلاث هلا ـ قيطون ـ كفر الشيخ من هذه الزاوية [٢] ومع هذا الاختلاف فالاتجاه الغالب فى المجتمعات القروية الآن ـ بناء على ذلك ـ هو الرغبة فى الهجرة . ثانيا أن المهاجرين يحاولون دائما أن يقتفوا اثر من سبقهم ولهذا يذهبون الى نفس المدن أو المناطق ، بل ويعيشون فى مكان واحد من هذه المدن أو المناطق .

ومن الملاحظات المهمة ، أن هؤلاء المهاجرين ينتمون الى عائلات أو بدنات متباينة فى القرية التى خرجوا منها وكان من المنتظر أن تظل معهم الفوارق الاجتماعية التى كانت تفصلهم فى موطنهم الاصلى ، الا أنهم وهم يعيشون فى بلد غريب عليهم تآلفوا وقامت علاقاتهم على أساس المصلحة لا على أساس القرابة أو العصبية أو المركز الاجتماعى الذى كان لكل واحد منهم فى القرية .

(1) Yang, Martin. Op. Cit., p. 230.

(2) Dube, S.C., Indian Village, London, 1956, p. 222

ومن المظاهر المميزة لهم أيضا أنهم يكونون جماعة تحس بشعور الانتماء الى القرية الواحدة . ومعنى هذا أن القرية أصبحت فى حياتهم فى أماكن عملهم الجديدة هى الرابط الأساسى الذى يربطهم بعد أن كانت تأتى فى المحل الثانى عند وجودهم بها بعد انتمائهم إلى عائلات وبدنات متمايزة . ومع أن مجتمع القرية ككل بدأ فى الظهور كعامل مهم فى حياة الأفراد فى القرى ، إلا أنه أصبح العامل الأهم فى حياة هؤلاء المهاجرين . ثالثا أن المهاجرين عموما لا يفتقدون صلتهم بموطنهم الأصلى ، بل إنهم يعودون بين الحين والآخر ، وهم كما هو الحال فى القرية الصينية يحتفظون بعلاقات وثيقة مع أقاربهم ويبعثون إليهم بفائض كسبهم ليستخدم فى شراء أرض جديدة [١] . إلا أنهم يختلفون عن القرويين الصينيين فى أنهم يميلون الآن عند الزواج الى الزواج من المنطقة التى يعيشون فيها خصوصا إذا طالت مدة إقامتهم فيها وأصبحت لهم علاقات متعددة مع بقية السكان . وقد سألت عددا من هؤلاء المهاجرين فى منطقة « الزاوية الحمراء » التى تقع بمنطقة غمرة بالقاهرة عن السبب الذى من أجله يميلون الآن الى الزواج من غير القرية فقالوا لى « من عاشر القوم أربعين يوم بقى منهم » وكانوا يعنون بذلك أنهم طالما قرروا الإقامة بصفة دائمة بحسب ظروف عملهم فى هذا المكان فعليهم أن يوثقوا صلتهم بالناس ، وعلاقة المصاهرة فى رأيهم تؤدى الى تدعيم مركزهم حيث يقيمون . رابعا أن الهجرة من القيطون كانت فى اتجاهها العام هجرة للعمل فى المصانع أو المصالح الحكومية ، ولكن هلا كانت للعمل فى الزراعة فى منطقة كفر سعد المستصلحة حديثا والتى تقع فى شمال الدقهلية، ومن كفر الشيخ أتخذت الهجرة طابعا آخر . ذلك أنه نظرا لزيادة حركة

1 — Yang, Martin. Op. Cit., p. 229

التعليم فى هذه القرية كان الاتجاه العام هو الذهاب الى المـدن للاقامة بها نظرا للحصول على مؤهل دراسى ، وطبيعة الوظيفة الجـديدة تفرض على أصحابها الإقامة الدائمة فى مكان العمل ، ومهما اختلفت دوافـع الهجرة وأهدافها ، فترك القرية فى اعداد متزايدة حقيقة واقعة تكشف عن عوامل مهمة سنأتى على ذكرها وتحليلها فى الأبواب التالية .

...

كانت نظرة القروى الى التعليم فيما مضى تتأثر بعاملين : أولهما مجموعة القيم التى توجه حياته ويسعى الى تحقيقـها ، وثانيهما حاجاته الرئيسية على أساس أن الزراعة هى مهنته الأولى والأخيرة . هذا الى جانب العزلة النسبية التى كانت تعيش فيها القرى وما ترتب عليها من سيادة نمط واحـد من التفكير وضيق أفق القروى . وما صاحب هذا كله من وجود العائلة كوحدة تامة يعيش فى إطارها الفرد ، تنظم له مظاهر نشاطه وتحدد علاقاته وبالتالى تتحكم فى مستقبله وطريقة حياته . ومطالب العائلة الرئيسية لم يكن للتعليم بينها مكان . ويلاحظ هنا أن ارتباط العمل بقيمته المباشرة أو نتائجه الملموسة كـان له أثر على الاهتمام بالتعليم أو اهماله كلية . فطالما كـانت معرفة القراءة والكتابة مثلا لا شأن لها بالعمل الزراعى من حيث المهارة فيه ، فهى غير ضرورية وبالتالى فان تعلمها مضيعة للوقت الذى يمكن استغـلاله فى عمل يتصل بالزراعة .

أما من حيث القيم الأساسية فى حيـاة القرويين فكانت تتلخص فى قيمتين رئيسيتين : المهارة فى العمل الزراعى ، والقدرة على الانجاب، وإنجاب الذكور خاصة . وهما قيمتان مرتبطتان ارتباطا وثيقا بالمظهر العـائلى

للحياة الاجتماعية والاقتصادية . فالرجل يرتفع قدره فى العائلة أو ينخفض تبعا لتفانيه فى العمل الزراعى ، وقدرته على اتقان جميع عملياته ، وفى انجابه عند زواجه أكبر عدد من الذكور . لأن الارض والأولاد هما المظهران المميزان لقوة العائلة وثرائها ونفوذها بين العائلات ، ولهذا كانت معرفة القراءة والكتابة لا تعتبر هدفا يسعى إليه الفرد ، أو تضعه العائلة فى حسابها وفى تنظيمها لحياتها العامة . ومن حيث حاجات العائلة فقد كانت تحتاج الى اليد العاملة أكثر من حاجتها الى تعليم . وليس معنى ذلك أن التعليم على أى صورة لم يكن له وجود فى القرى الثلاث . ولكن طريقة معيشة القرويين وسيادة المهنة الواحدة على نشاطهم جعلهم يدورون فى إطـارها ، وكـانت اهتماماتهم موجهة إليها .

أما إذا ارتبط التعليم بحاجة دينية ، فانه يكون فى هذه الحالة مرغوبا وفى أضيق الحدود . ولهذا لعب « كتاب القرية » دورا مهما فى حركة التعليم فى هذه القرى . فقد كـان يقوم أساسا على تحفيظ القرآن ، وطبيعى أن يسبق ذلك تعريف بالقراءة والكتابة ، وإن كـان هذا غير ضرورى فى كل الحالات ، كحالات العمى الذين كـانوا يحفظون القرآن سماعا فقط ، ولكنه فى مراحله المتأخرة كـان يعلم مبادىء الحساب والمعلومات العامة بجانب هدفه الأصلى . ويلاحظ أن « الكتاب » لم يكن بمثابة مدرسـة عامة يذهب إليها جميع الأطفال . بل يجب أن نعلم أولا أن الذكور فقط هم الذين كـان يسمح لهم بالتردد عليه دون الإناث .

وفى هذا الصدد سألت أحد المخبرين عن السبب فى عـدم ارسال الاناث خصوصا الصغار إلى الكتاب فقال « كيف نرسلهن وهن ناقصات عقل ودين

ليتعلمن الدين» وهذا يعنى فى ذهنه أن مسائل الدين تخص الرجال وحدهم دون النساء ، ولما كان « الكتاب » هو المكان الوحيد للتعليم فى القرى فقد كانت النساء جميعهن بلا استثناء لا تعرف واحدة منهن القراءة والكتابة . ثانيا أن الذين كانوا يذهبون للكتاب فئتين : الأولى بعض أبناء العائلات ، والثانية بعض أبناء الفقراء الذين يهدفون الى حفظ القرآن واستخدامه كطريقة فى الحياة سواء بترتيله كما جرت العادة وقتذاك صباحا فى كل منزل تقريبا أو فى الشعائر الجنائزية كما جرت بذلك التقاليد ، وثالثا أن القاعدة فى ارسال أبناء العائلات الى الكتاب كانت ان رئيس العائلة يقرر أنه من المناسب أن يكون بين أفراد العائلة واحد يعرف شيئا عن أمور الدين « تبركا » ، ولهذا يختار أحدهم ليذهب للكتاب فترة من النهار يعود بعدها للمشاركة فى العمليات الزراعية بحسب سنه ، وعندما يتم حفظه للقرآن ، يعود الى الزراعة كبقية أفراد العائلة .

وفى الغالب يكون له مركز خاص ، اذ يعفى من بعض الأعمال كامتياز له باعتباره من حفظة القرآن ، وكانت العائلة فى مجموعها تقر ذلك ولا يكون ذلك محل اعتراض من أحد . كما انه اذا حدث وولد لعائلة طفل أعمى أو معوق بطريقة ما تمنعه عن زراعة الأرض ، فانه يرسل « للكتاب » فالأزهر بعد ذلك . وقد يحدث أن بعض أبناء العائلات ممن حفظوا القرآن ، يظهرون بعد ذلك تراخيا أو عدم قدرة على العمل الزراعى ، فانهم كانوا يرسلون الى الأزهر ليستمروا فى التعليم الدينى . ورابعا ان الكتاب فى مراحله المتأخرة وقبل إلغائه اتخذ فى تعليمه مظهرا مدنيا أكثر منه دينيا ولهذا لم يحفظ كل من ذهب اليه القران بل كان الاتجاه الى تعليم القراءه

والكتابة والحساب والمعلومات العامة ، بل أن « اللوح الصفيح » الذى كانت تكتب عليه الآيات القرآنية بمداد خاص تغير الى « لوح اردواز » يكتب عليه بطباشير خاص . واخذ يذهب اليه عدد أكبر من الاطفال الذكور . وقد كان هذا الاتجاه الذى اتجة اليه الكتاب مصاحبا لزيادة الاتصال بالمدينة وبداية ظهور عوامل التغير الاجتماعى فى القرى الثلاث ، هذا فى الوقت الذى قلت فيه مشاركة الاطفال فى العمليات الزراعية أما لضآلة مساحة الأرض الزراعية بالنسبة للعائلة الواحدة ، أو لكفاية الأفراد البالغين لهذه العمليات دون حاجة الى مساعدة الأطفال . ولهذا أصبح لديهم فراغا من الوقت استغلته بعض العائلات فى ارسالهم للكتاب . ويلاحظ أن ارسالهم على هذا النحو بدأ فى حوالى عام ١٩٢٧ ولم يكن الهدف منه اعدادهم لمرحلة تالية من التعليم . ولهذا كان من استمر من هؤلاء الاطفال فى التعليم بعد ذلك مرجعه اعتبارات خاصة . ومع ذلك يمكن اعتبار هذه الفترة هى القاعدة الأولى التى انتشر فيها التعليم بعد ذلك عندما بدأت النظرة الى التعليم فى التغير . والجدول الآتى يوضح مدى انتشار التعليم منذ عام ١٨٩٧

السنة	القرية	القيطون	كفر الشيخ	هلا
١٨٩٧	ذكور	٦٥	٦٦	١١٨
	اناث	—	—	—
١٩٠٧	ذكور	٤٤	٧٢	١٠٩
	اناث	—	—	—
١٩١٧	ذكور	١٤٦	١١٤	٢٧٦
	اناث	—	٢	٤
١٩٢٧	ذكور	٣١١	٢٦٦	٤٠٢
	اناث	٣٠	٢٨	٢٦
١٩٣٧	ذكور	٥٧٦	٥٣٧	٤٩٤
	اناث	٢٣٧	٢٤٥	١٩٤
١٩٤٧	ذكور	٦٢٥	٦٠٤	٧٣١
	اناث	٢١٥	٢١٦	١٥٤

« جدول يبين الملمين بالقراءة والكتابة فى القرى الثلاث »
مستمد من نتائج التعداد العام _ كراسة مديرية الدقهلية
(دار الكتب _ القاهرة)

وأهم ما نلاحظه على الجدول السابق أن الاحصاء لم يكن دقيقا فى أعوام ١٨٩٧ ، ١٩٠٧ ، ١٩١٧ خصوصا فى عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة من الذكور ، فبينما زاد العدد فيما يتعلق بقرية كفر الشيخ بين عامى ١٨٩٧ ، ١٩٠٧ نقص بالنسبة لقريتى هلا والقيطون ، وليس هناك سبب معقول لهذا النقص . كما أن الاعداد مبالغ فيها بحسب ما رواه المخبرين . والملاحظة الثانية أن ظهور الاناث بين الملمين بالقراءة والكتابة بدأ عام ١٩٢٧ عندما

انشئت المدارس الالزامية وذهبت اليها البنات . وتمثل المدرسة الالزامية حلقة من حلقات التطور فى القرى الثلاث خصوصا بعد أن أصبح ارسال الاطفال اليها اجباريا . وقد كان الموقف ازاءها يمثل اعراض القرويين عن التعليم باعتباره حاجة غير مطلوبة وأنه معطل للعمل الزراعى خصوصا عند العائلات التى يعمل فيها الاطفال فى بعض العمليات الزراعية لحراسة الماشية أو نقل الاسمدة أو تنقية المزروعات من الأعشاب الضارة الأمر الذى جعل الدولة تصدر قانون الالزام وتفرض عقابا للمخالفين .

ولهذا كان القرويون يرسلون أبناءهم خوفا من العقاب وهكذا ظلت النسبة للقارئين والكاتبين فى ارتفاع مستمر بين الذكور والاناث على السواء والملاحظة الثالثة أن مقارنة نسب القرى الثلاث بعدد سكان كل منها يكشف عن ارتفاع هذه النسبة فى قرية كفر الشيخ باستمرار والواقع أن هذه القرية كانت أسبق للأخذ باسباب التعليم على مستوياته المختلفة وهذا يتضح من الجدول الآتى [1]

القرية	النوع	القراءة والكتابة	التعليم الابتدائى	التعليم المتوسط	التعليم العالى
القيطون	ذكور	٩٤٣	٥٦	١٣	٢١
	اناث	٤١٠	١٢	٤	١
كفر الشيخ	ذكور	٩٧٨	٨٧	٤٤	٧٦
	اناث	٥٩٣	٢٣	٩	٣
هلا	ذكور	٩١٦	٣٣	١٦	١٤
	اناث	٣٢٥	٧	٢	١

(١) الجدول السابق يمثل حالة التعليم فى القرى الثلاث فى عام ١٩٥٨ والاعداد المثبتة فيه جمعتها بنفسى ، وهى وان لم تكن دقيقة تماما الا انها تمثل الى حد كبير الاتجاه العام ، وتكفى للاغراض الحالية من هذه الدراسة .

ولم أستطع أن اهتدى من المخبرين أو من تاريخ القرية نفسها عن السبب الذى من أجله تمثل قرية كفر الشيخ مركز القيادة فى الحركة التعليمية فى المنطقة خصوصا وانها من حيث القرب من المواصلات أو من المدينة على مستوى واحد مع قرية هلا ، وقد يرجع ذلك الى قلة عدد سكانها بالنسبة للقيطون وهلا ، والى عوامل التقاليد خصوصا وأن أول من ذهب للمدينة للتعلم فى مدارس غير الأزهر كان من قرية كفر الشيخ . ومع ذلك فالاختلافات النسبية بين القرى الثلاث لا تهمنا كثيرا ، وانما الذى نثبته هنا أن الاتجاه الى التعليم اتجاه نام يزداد باستمرار وسيكون له فى المدى الطويل آثار هامة على الحياة الاجتماعية فى القرية . أما لماذا تغيرت النظرة الى التعليم ولماذا تغيرت النظرة الى التعليم ولماذا أقبل القرويين على ارسال أبناءهم للمدارس فى مراحلها المختلفة فهذا هو المهم لانه يمثل فى واقع الامر تغيرا ملموسا فى طريقة حياة القرية وفى القيم التى يضعونها لحياتهم وفى نظرتهم اليها .

وأثر هذا كله على العائلة باعتبارها وحدة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى القرية وقبل أن نتعمق هذه الاسباب نشير الى أن الجدول السابق يكشف ظاهرة مهمة وهى أن تعليم البنات القراءة والكتابة وارتفاع نسبتهن المستمرة فى هذا الصدد إنما يرجع الى طبيعة قانون التعليم الالزامى ، ولكن ما أن تنتهى البنت من هذا النوع من التعليم حتى تقف عند هذا الحد . ويظل التعليم بمراحله المختلفة مقصورا الى حد كبير على الذكور، وهذا فى حقيقة الأمر يمثل النظرة القديمة فى الاتجاه الى ارسال الولد دون البنت الى « الكتاب » لحفظ القرآن فى المراحل الأولى ولتعلم مبادىء الحساب والمعلومات العامة فى المراحل المتأخرة . فلا زال القرويون ينظرون الى التعليم على أنه مناسب

للذكر دون الانثى وهذا الاتجاه يحمل بين طياته حقيقة النظرة الى الانثى على انها فى مرتبة أقل من الذكر « فالرجال قوامون على النساء » كما أن تعليم البنت واشتغالها وزواجها فى نهاية الامر معناه فى نظر القروى أن يعطى مصدرا للثروة ـ كالارض تماما ـ الى رجل غريب فكأن مجهودة والمال الذى صرفه على تعليمها ـ كما قال أحد المخبرين ـ ذهب هباء . والقروى لا يستطيع أن يفاخر بابنته المتعلمة كما يفاخر بابنه .

ومع ذلك فقد شاهدت بنفسى فى القرى الثلاث تغييرا سيتضح بالتدريج لتعليم البنت خصوصا اذا كان لها اشقاء يذهبون للمدارس أيضا ـ فيحافظون عليها كما يعتقدون . وقد صور أحد المخبرين موقف القرويين من تعليم البنات بقوله ، « أن البنات خلقوا ليتزوجوا وينجبوا أطفالا لا ليتعلموا ، أما الاولاد فقد خلقوا ليعملوا ويقيموا اسرا » ولعل هذا الموقف ليس خاصا بالقرية وحدها بل قد يكون اتجاها عاما فى الجمهورية العربية المتحدة بأسرها .

والاتجاه الى التعليم فى القرى الثلاث لا يرتبط بالمستوى الاقتصادى بمعنى أن « العائلات المقتدرة » كما يسمونها فى القرية ـ هى التى ترسل أبناءها للمدارس بل الظاهرة الجديدة بالتسجيل أن نسبة كبيرة من الذين يتعلمون فى المدارس فى مراحلها المختلفة حتى التعليم العالى من عائلات لا تملك الا ما يكاد يكفى حاجاتها الضرورية ، بل أن بعض العائلات التى لا تملك شيئا على الاطلاق أخذت ترسل الآن ابناءها للمدن القريبة للتعليم. وكان من بين الدوافع لهذه العائلات لتعليم ابنائها مجانية التعليم فى مراحله الاولى ، وهذا الاتجاه يحمل بين طياته مظاهر الحياة الاجتماعية القديمة من أن مركز الفرد الاجتماعى انما يعتمد أولا وقبل كل شىء على انتمائه لعائلة

أو بدنة معينة ، وجميع الأفراد من بدنة واحدة يعتبرون جميعا فى مركز واحد بغض النظر عن مستواهم الاقتصادى . فلما تفككت الروابط العائلية الى حد ما وظهرت الفردية وأخذ مجتمع القرية ككل يظهر فى التأثير على مجريات حياة الأفراد وأصبح المركز اجتماعيا واقتصاديا معا ، بقيت رواسب المساواة عالقة بأذهان الكثيرين وتحقيقا لها بصورة عملية يقلدون العائلات ذات المستوى الاقتصادى الذى يسمح لها بارسال أبنائها ليتعلموا فى المدينة ، فانهم يفعلون المثل ويتكبدون المشاق الكبيرة لهذا ، ويلجأون فى كثير من الأحيان الى بيع الأرض ليتمكن أبنائهم من الاستمرار فى التعليم ، وهم اذ يفعلون ذلك لا تطرأ على أذهانهم فكرة استقلال أبنائهم عنهم بعد انتهائهم من التعليم ، بل لا تزال لديهم فكرة مسئولية الافراد ككل عن العائلة ، ولهذا فان الابن المتعلم الذى يتقاضى ماهية شهرية مفروض أن يظل يساعد أهله اقتصاديا حتى لو كانوا غير محتاجين للمال باعتبار أنه لازال وسيظل عضوا مسئولا عن عائلته فى القرية . وعند زواجه لا بد أن يتبع التقاليد القديمة فى الاختيار .

ويقاس مركز المتعلم الاجتماعى فى القرية بمدى خضوعه لعائلته واستمرار اتصاله بهم فى كل شئونه الاقتصادية والاجتماعية ويتندر القرويين ساخرين فى مجالسهم الخاصة بالمتعلمين الذين يخرجون على الأنماط المتوقعة منهم فى القرية من حيث علاقاتهم بالعائلة أو بالقرية عامة . ومع هذا نجد فرقا بين المتعلم الذى يعمل فى المدينة وبين العامل الذى هاجر من القرية واستقر أيضا فى أحد المدن . فبينما نجد اتجاها الى اللامبالاة عند المتعلمين بالقرية وما يجرى فيها وبعدا عن الاندماج فى حياتها الاجتماعية أو قلة فى التردد عليها نجد أن العمال يكونون أشد إلتصاقا بعائلاتهم وتتبعا ومشاركة فى أحوال

القرية العامة ، ويرجع ذلك الى أن المتعلم يندمج فى مظاهر الحياة الحضرية أكثر من اندماج العامل خصوصا وان الأول يظل طوال حياته تقريبا بعيدا عن جو القرية إلا فى فترات متباعدة بينما الثانى ظل فى القرية حتى تخلق بعاداتها وتقاليدها ثم تركها بعد ان صاغته على شكل معين ، لأن الغالبية العظمى من العمال المهاجرين يتركون القرية بين سن ٢٠ ـ ٤٠ ، ولهذا السبب كان تأثير العمال المهاجرين على القرية أكثر وأبعد نتاجا من تأثير المتعلمين خصوصا وان القرويين يميلون الى تقليد أقرانهم الذين لم ينالوا حظا من التعليم ، وإنما هاجروا فى طلب الرزق ويكون تقليدهم فى مقدورهم ، أما المتعلمين فانه فوق طاقتهم ولا يناسب طبيعة فى الحياة القرية . ويظهر هذا واضحا فى العائلة الواحدة التى يكون أحد أبنائها متعلما ويعمل بالمدينة والاخر غير متعلم ويعمل فى زراعة الأرض ، فغير المتعلم هذا يقلد أقرانه سواء فى حياته الخاصة أو العامة ، ولا يلجأ الى تقليد أخيه .

ولا يمكن أن نفصل الاتجاه الى التعليم فى الفترة الأخيرة كمظهر من مظاهر التغير الاجتماعى عن غيره ، فالحياة الاجتماعية فى القرية مترابطة الاجزاء ولا يمكن أن نفهم التغير فى جزء منها الا فى ضوء التغير فى بقية الاجزاء . ولهذا فان التغير فى النظرة الى التعليم كان متفقا مع الاتجاهات العامة للتغير فى القرى الثلاث ككل ، وانما فصلناه فى هذا الجزء باعتباره مظهرا متكاملا مع مظاهر التغير التى سندرسها بالتفصيل فى بقية الرسالة لا بد أن نلقى عليه الضوء لنعطى فكرة عامة عن العناصر المختلفة المكونة لمظاهر ونتائج التغير الاجتماعى ولهذا كانت عوامله أما متفقة مع عوامل التغير فى القرية عامة أو أنها نتيجة مباشرة لأثر العوامل الرئيسية فى بعض أجزاء البناء الاجتماعى . وهكذا نستطيع أن نلقى نظرة سريعة على أسباب التغير فى الاتجاه الى التعليم ،

أولا : الانتشار الثقافى العام فى المجتمع بأسره والذى تكون فيه المدينة مركز الأشعاع بالنسبة للقرى ولا شك أن أزدياد صلات القرية بالمدينة فى الفترة الأخيرة كان له أثر فى أطلاع القرويين على نماذج أخرى من الحياة وجعلهم يحسون بقيمة التعليم عن طريق احتكاكهم بالموظفين لقضاء مصالحهم ثم تصورهم أنه يمكن أن يجعلوا من أبنائهم مثل هـؤلاء بمجرد أرسالهم الى المدارس ثانيا : قوانين التعليم الألزامى والمجانى التى أصدرتها الدولة جعلت القرويين يرسلون ابناءهم قسرا فى أول الأمر ثم طواعية بعد ذلك ، ثالثا : تغير النظرة الى قيمة العمل الزراعى وظهور مصادر جديدة للثروة غيره كالتجارة ، وقد أخذ التعليم فى القرية أول الأمر ولا زالت النظرة الغالبة اليه على أنه مصدر ربح للقرويين وأبنائهم على السواء خصوصا اذا وصل الأبن الى مرحلة من التعليم يمكن معها أن يجد عملا محترما يدر دخلا محترما من وجهة نظرهم وبحسب خبرتهم فى اتصالهم بالمدينة يفضلون أن يذهب ابناؤهم الى كليتى الحقوق والطب لأن المحاماة والطب فى نظرهم تدر على أصحابها مبالغ طائلة من المال . رابعا : تغير النظرة الى المركز الاجتماعى الذى لم يعد مرتبطا تماما بالمركز العائلى فالأولاد المتعلمون يكسبون عائلاتهم مركزا اجتماعيا بجانب المركز الاجتماعى الذى يكون لهم بحكم ارتباطهم بعائلات معينة . خامسا : الاتجاه الى الفردية والتقليد ، فقد ترتبت على تفكك العائلات أن أصبح كل أب حرا فى توجيه ابنائه ، ونظرا لعدم حاجة البعض اليهم فى الأعمال الزراعية خصوصا اذا كانت مساحة الأرض الزراعية لا تستلزم قدرا كبيرا من المجهود ، فانهم يبعثون بهم أما تقليدا أو لغرض اقتصادى الى المدارس .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن التعليم لا يمكن أن نضعه فى مصاف العوامل التى

عملت على أحداث تغيرات اجتماعية ملموسة فى القرى ، فمع أن الدولة أدخلت المدارس فى القرى وأصدرت قانون التعليم الألزامى وفرضت الجزاء على مخالفيه فى القرى ، إلا أن القرويين كانوا يتهيبون من ارسال أبنائهم أو بناتهم الى المدرسة بشتى الطرق . وما كانوا يرسلونهم إلا خوفا من « الغرامة » ولهذا من الخطأ أن نسير معدوبيه Dube عندما اعتبر التعليم عاملا من عوامل التغير الاجتماعى فى قرية شاميربت Shamirpet فى الهند قبل عام ١٩٤٨ ثم اغفله عند ذكره لعوامل التغير بعد عام ١٩٤٨ (١) بل الوضع عكس ذلك فى القرى الثلاث ، لأننى اعتبر التعليم حتى تاريخ اجراء هـذا البحث نتيجة لا سببا فى التغير الاجتماعى ، ربما سيكون بعد ذلك بعد انتشار التعليم لدرجة كافية عاملا مهما ، ولكنه حتى الآن ليس كذلك . لأن التعليم والاتجاه اليه فى هـذه المرحلة من تغير القرى يعتبر عملية Process [1] وليس عاملا factor (٢) . فهو نتيجة لتأثيرات المدينة والقانون من ناحية ، وتفكك العائلة القديمة من ناحية أخرى . اما انه لا يعد حتى الآن عاملا فى التغير الاجتماعى فلأن من الملاحظ ان الذين يتعلمون فى مدارس خارج القرية ، يستمرون فى دراساتهم خارجها باستمرار وبعضهم قد لا يعود أثناء مرحلة التعليم الى القرية أو قد يعود البعض الآخر فى فترات متباعدة ، ولا يؤثر وجودهم على الاتجاهات العامة فى القرية . اما فى حالة اتمام التعليم فانهم يعيشون بصفة

---

1 — Dude, S.C. ; Indian Village, London , 1956, PP.215-216

2 — Any change inwhich an observer could see a consistent quality or direction. Dictionary of sociology P, 234

3 — A cause , determinant or neceasary condition of an event-or change . Dict. of Sociology P. 113

مستمرة فى المدينة تقريبا وقد يقطع الكثيرون منهم صلتهم بالقرية نهائيا .

هذا الى ان الجيل الثانى من المتعلمين من ابناء هؤلاء فانهم فى اغلب الاحيان لا يعرفون عن القرية شيئا، وربما يصلون سن الثلاثين دون ان يروها . وهذا هو السبب الذى من اجله قلت فيما سبق أن تأثير المهاجرين فى القرية اوضح وابعد اثرا من تأثير المتعلمين وقد نتساءل عن اثر المدرسة الإلزامية (الاولية أو الابتدائية) الموجودة فى القرية نفسها . فمع ان الحكومة تطبيقا للمادة ١٦ من دستور عام ١٩٢٣ الذى نص فيها على ان يكون التعليم حرا وإلزاميا للأولاد والبنات جميعا ، شرعت فى انشاء المدارس والغت الكتاتيب بالتعاون مع مجالس المديريات ، وكان الهدف العام هو ، « محو الامية » ، الا ان المدرسة « لم تستقبل استقبالا حماسيا (كما هو الحال فى قرية سلوا)[١]

وكان من أسباب فشلها انها كانت منفصلة عن الحياة الريفية الحقيقية للسكان، كما انها لم تكن مشابهة المدارس « المحترمة » فى نظر القرويين التى تؤهل لوظائف الحكومة . وظل الوضع على هذا على الرغم من تعدد تغيير اسم المدرسة إلى الأولية[٢] أو الابتدائية . ولهذا فالذين يذهبون الى المدرسة الآن طائفتين : الاولى تذهب تفاديا للعقوبات المادية وهم يكونون غالبية البنات والأولاد، والثانية تذهب لا خوف من العقاب ولكن باعتبار مدرسة القرية مرحلة يتعلم فيها التلميذ أو التلميذة مبادىء القراءة والكتابة والمعلومات العامة تمهيدا لانتقاله الى مرحلة من مراحل التعليم فى مدارس المدينة . وهنا نلاحظ أن « كتاب » القرية ظل قائما بعد تنفيذ قانون الالزام ، ولكن بصورة غير رسمية خصوصا بعد أن قطعت عنه الإعانة التى

1 — H. Ammar, Growing up in an Egyptian Village, London 1954, PP. 219-227

2 — H. Ammar, Op. cit., P. 218

كان يتقاضاها القائمون عليه من مجلس المديرية . ولهذا ظل الإتجاه الى التعليم الدينى قائما فترة من الزمن حتى اختفى تماما منذ عشر سنوات ونتيجة لذلك لا يوجد الآن من ابناء القرى الثلاث احد فى المعاهد الدينية فى المرحلة الابتدائية . و«الكتاب» نفسه لم يعد له وجود كمكان منظم ودائم لتحفيظ القرآن ، وأصبح الإتجاه الأول فى التعليم هو الإتجاه المدنى ، الذى يمثل فى جوهره تغيرا أساسيا فى نظرة السكان الى القيم الدينية ورجال الدين بوجه عام لأن مصالحه المباشرة والمتغيرة تتصل الآن بالأطباء والمدرسين والمحامين والضباط ورجال القضاء ، ومن ثم كانت القيم التى تشملهم هى القيم الاولى ومن ثم يتجه التعليم الآن الى تحقيق هذه القيم الجديدة عن طريق تعليم الابناء فى هذا الاتجاه .

وكان من العوامل التى جعلت مدرسة القرية قليلة الاهمية فى التغير الاجتماعى ، إن الحكومة تتجه الى نقل « المعلمين » للعمل فى مدارس قراهم كلما أمكن ذلك . وعندما يقيم المعلم فى قريته يتوافق فورا مع الحياة القروية ، ولهذا يصبح مجموع المعلمين طائفة غير محددة لا أثر لها فى تعديل أى قيمة من القيم السائدة أو المتغيرة . ويصبح المعلم مرتبطا بعائلته أكثر من ارتباطه بالمدرسة ، بل أن القرية تقف منهم موقفا « عدائيا » فى أغلب الأحيان ، فهم « أولئك الذين يأخذون مرتبات من الحكومة » ولا يفعلون شيئا . وقد لاحظت أن القرية تتأثر بالمعلمين « الغرباء » أكثر من تأثرها بأبنائها المعلمين الذين هم فى نفس الدرجة . وغالبا ماتحدث المشاكل بسبب هؤلاء بسبب مواقفهم إزاء الأولاد أو البنات من العائلات المختلفة خصوصا عندما يستخدمون « الضرب » فى حملهم على استذكار الدروس . ففى هذه الحالة تنفى عنه فى نظر القروى صفة المعلم . ولا يكون إلا « فلان »

الذى ينتمى إلى العائلة « كـذا » ، إذن فالمدرسة من حيث أهدافها العـامة ومن حيث هيئة التدريس فيها لم تـكن ذات أثر يذكر فى التغير .

...

ومع أن القرية الآن وقبل فترة التغير ـ كما سلمنا بذلك ـ جزء من كل الا أن علاقتها بهذا « الكل » تختلف اختلافا كبيرا فى الفترتين ، فاذا سلمنا من الناحية النظرية أن القرية تعتمد على « الدولة » سياسيا واقتصاديا وأن القروى يحس بساكن المدينة ، وأن مركزه فى العـــالم ـ من وجهة نظره ـ تدخل فيه هذه الاعتبارات (١) ، إلا أن هذه العلاقات وهذه الاحساسات فى فترة ما قبل التغير كانت غير محدودة وغير واضحة فى ذهن أغلب القرويين .

حقيقة أن القروى كان يسمع عن « القاهرة » مثلا ولكنها ترتبط بفكرة خيالية ، وبمظهر القوة « الغاشمة » التى يمثلها رجال « الادارة » عندما يؤخذ القروى قسرا « للعمل فى السخرة » أو « ليجند » بعيدا وقد يعـود أو لا يعود . ولهذا فان الذى يغادر القرية لهذين السببين كان يعتبر مفقودا يتلقى أهله فيه « التعازى » . « فالخارج ؟ » أى خارج القـرية وجوارها من القري ، كان منطقة مجهولة ، ليس للقروى خبرة واقعية بها ، والذهاب إليه «مخاطرة» . و «القدر» هو الذى يلعب الدور الأول هناك . و «الذاهب هناك مفقود والعائد مولود» . ومع هذا فان نظرتهم هذه لم تـكن على غير أساس ، فمن مجـربتهم والقصص والأخبار التى يرويها كبار السن ، كانوا

---

1 — R. Redfield & Alfonso Villa; Chan Kom. A Maya Village, Washington, 1934, p. 1

يعلمون عن أفراد من القرى خرجوا لأسباب متعددة ولم يعـــودوا أبدا . وطبيعى أنهم لا يسألون عن ظروف عدم عودتهم ، وإنما يربطون بين الذهاب الى المجهول والفقدان . حتى أنهم فى حالة تعيين المكان والهدف مثلا ، فى حالة التجنيد ، كالذهاب للحرب للدفاع عن الاســلام ، لم يكـن يقنعهم أو يحفزهم . لأن امتداد آفاقهم لم تـكن تشمل غير المنطقة التى يعيشون فيها . والدفاع عن الاسلام كان أمرا « منوطا بالحـكومة » لا يهم . وكل ما يتصل بالحـكومة « مجهول وغامض Uncertain » ولذلك كانت صلاتهم بأجهزة الدولة تشوبها هذه النظرة . فالمستشفى « داخلها مفقود والخـــارج منها مولود » لأن ما يجرى فيها وقيمته من وجهة نظرهم « مجهول وغامض » وتجربتهم معها غالبا هى « عدم العودة » حيا . ولذلك يرتبط « القصر » (مستشفى القصر العينى) بالموت .

أما معرفتهم « بأقطار أخرى » فهى مقصورة على ما يرد ضمن الروايات والقصص » كالسودان وتركيا والحبشة والحجاز (الحج) والافـرنج كالانجليز وغيرهم ، أو التى يأتى منها أشياء يستخدمونها كاليمن التى يأتى منها البن . وفى كل الأحـوال كانت أفكارهم مشوبة بالخرافة والمعلومات غير الصحيحة .

هكذا كان الوضع بالنسبة لأغلب القرويين فى القرى الثلاث ، ولـكن يلاحظ أنه كلما كان القروى مشاركا على نحـو ما فى السلطة الاجتماعية أو الادارية فى القرية كلما كانت معلوماته وآفاقه أو سع نظرا لتعدد صلاته الخارجية ، فالعمدة ومشايخ البلد ورجال الدين ورؤســاء العائلات وهم يمثلون حلقة الاتصال بين القرية ككل والقرى المجاورة أو المدينة أو الحكومة

كانوا أكثر دراية بحقيقة الأحوال فى غير نطاق القرية .

ولكن علاقة القرية بالقرى المجاورة ـ أو علاقتهم المحلية Local بصفة عامة فانها كانت مختلفة . فالقرى الثلاث متقاربة حتى أن الاراضى الزراعية لكل منها متداخلة . ونظرا لهذا القرب فكثيرا ما يدخل القرويين بعضهم مع بعض أثناء العمل الزراعى فى علاقات متعددة ، ولكنها مع ذلك كانت ذات طابع محدود . ونظرا لتشابههم فانهم لا يحسون إزاء بعضهم البعض باحساس الغرباء ، كما يحسونه إزاء القرويين من القرى البعيدة ، فهم بصفة عامة يكونون جماعة داخلية In—group والقرويون من القرى الأكثر بعدا والذين لايعرفون كثيراً عن أحوالهم يكونون جماعة خارجية Out—group وكل قرية بدورها تكون جماعة داخلية بطريقة ما إزاء القريتين الأخريين. والعلاقات التى كانت تنشأ بين القرى الثلاث كانت ذات طابع تعاونى (الرى وآلات الزراعة) أحيانا ، وطابع عدوانى أحيانا أخرى .

والقروى فى علاقته بقروى آخر من قرية أخرى ،هو فرد من عائلة معينة وبدنة معينة ومن قرية معينة معا . فالقرية بصفة عامة فى علاقاتها مع القرى الأخرى كانت تكون « كلا » ويظهر هذا خاصه عند « التقاتل » أو الاختلاف . وبصفة عامة يتعصب القروى فى علاقته مع غيره بقريته أكثر مما يتعصب لبدنته ، بل ان القرية لا تكون وحدة إزاء القرى الأخرى ، بل تكون وحدة أيضا إزاء الدولة ويظهر هذا خاصة فى « اعطاء الحماية لمجرم أو قاطع طريق ، الحماية والامن طالما انه يرتكب جرائمه خارجها وطالما أن اخفاءه ليس فيه مخاطرة كبيرة [1] . وهذا هو السبب الذى

1 — M.N. Srinivas, The Social System of a Mysore Village in Village India ed. by Marriot, Chicago, 1956, p. 32

من أجله تفشل جهود رجال الأمن فى البحث عن المجرمين فى القرى عامة. بل قد يكون المجرم العاتى من أسباب مفاخر القرية من ناحية ، وأمنها من ناحية أخرى ، لأنه يتولى « أخذ الثأر » نيابة عنها فى حالة اعتداء الغرباء عليها . ولهذا تكون القرية مهيبة الجانب إذا كان عدد هؤلاء المجرمين كبيرا ، الأمر الذى يجعل القرويين الغرباء يخافون الدخول فى علاقات من أى نوع مع أهلها . أما اذا تحول المجرم الى ارتكاب جرائمه داخل القرية ، فان الأمر يختلف ـ مع ابقاء رجال الأمن بعيدا أيضا ـ إذ تتولى البدنة المعتدى عليها أخذ الثأر من المجرم أو بدنته . وعندئذ يكون هذا إيذانا بصراع داخلى يمتد الى آماد طويلة .

ولكن الملاحظ فى القرى الثلاث أن المجرم لا يفكر فى الاعتداء على فرد من بدنة كبيرة ، وإنما قد يعتدى أو يفرض اتاوة على فرد منعزل أو تكون بدنته قليلة العدد قليلة الشأن فى القرية ، وعند ذلك قد يفلت المجرم وبدنته من أخذ الثأر إلا اذا لجأ المعتدى عليهم إلى بدنة كبيرة . فمثلا قد يعتدى لص أو قاتل على « مزين » يزاول أكثر عمله فى بدنة معينة ، الامر الذى يعتبر إهانة للبدنة نفسها ، فتهب للدفاع عن هذا « المزين » وهكذا . والتماس الأمن فى فترة ما قبل التغير جعل اصحاب الحرف والمهن الصغيرة يعلنون ولاءهم لبدنات كبيرة التماسا لحمايتهم ، وقد يفضلون أن تقع مساكنهم فى نطاق البدنة المختارة .

واحساس القروى بانتمائه الى قريته فى علاقات الجوار مع القرى الأخرى جعله يجانب التعصب يحس بأنه ينتمى الى مجموعة من الناس مختلفة عن أى مجموعة أخرى ، ولهذا يخلع القرويين صفات معينة على القرى الأخرى ،

فهذه قرية « حرامية » وتلك قرية « مسالمة » وهكذا . وبناء على ذلك نستطيع أن نفسر « الفكرة الشائعة » عن القرى الثلاث : فكفر الشيخ قرية « مسالمة » ، وهلا والقيطون « يسرقون الحمير » . هلا تسرق والقيطون تخفى وتغير المعالم عن طريق الصبغ . والقرويون فى هذه القرى ينكرون بالطبع هذه الصفات ويخلعون بدورهم صفات أخرى على القرى الصادرة منها هذه النعوت .

وعلاقات الجوار داخل القرية الواحدة تسير فى نفس الخطوط العامة لعلاقات الجوار الخارجية . فالبدنات وحدات متميزة من حيث رابطة الدم والقرابة ومنطقة الإقامة ومكان الأرض الزراعية . والأفراد فى كل بدنة يحسون بانتمائهم الشديد إليها . وغالبا ما تكون العلاقات بين البدنات علاقات تنافس أو صراع فى العمل الزراعى أو فى السلطة خصوصا اذا كان الأمر يتعلق بمنصب « العمدة » . ولكن العلاقات داخل البدنة الواحدة ذاتها تتسم بطابع التعاون فى أغلب الاحيان ، وإذا حدث صراع فان سلطة البدنة تعمل على تلافيه .

وخلاصة القول أن القرية وحدة أو كل إزاء العالم الخارجى ، ووحدات ـ بدنات ـ إذا نظرنا إليها من الداخل ، أى أن القروى يحس « بكليته » على مستويين خارجى وداخلى ، ولا يحس بالتناقض أو الثنائية ، ويفسرها على نحو مماثل « أنا واخويا على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » ، ومعنى هذا بطريقة أخرى أن القروى يميل الى الارتكاز على وحدات أكبر كلما امتدت علاقاته . فهو فى القرية يرتكز على البدنة ، ومع قرية أخرى يرتكز على قريته ، ومع المديرية يرتكز على « المركز ـ ميت غمر » ، وإذا ذهب الى

العاصمة فانه يرتكز على انتمائه لمديرية الدقهلية ، ولهذا يشترك فى الاتحادات الإقليمية التى تنشأ فى المدن الكبرى والتى تقوم أساسا على الانتماء لمنطقة اقليمية (إدارية) واحدة وهى المديرية . وفى كل هذه الحالات يكون احساس « المشابهة » هو الدافع الأول . وهو احساس لا يقوم على المركز الاجتماعى أو الاقتصادى ، وإنما يقوم على أساس ايكولوجى بحت .

لكن علاقة الانتماء الأولى عند القروى خصوصا فى فترة ما قبل التغير كانت الى « البدنة » وبصورة أقل الى « مجتمع القرية » ولذلك فشخصية القروى الاجتماعية ـ أى المركب المكون من كل علاقاته الاجتماعية مع الآخرين [1] متفقة مع شخصية « بدنته » . ولهذا كانت لها مركزها الاجتماعى والاقتصادى ، وهو « كشخص » يمثل عائلته أو بدنته عندما يدخل فى علاقة من أى نوع مع الآخرين . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقيم نظام المسؤولية وعلاقات التعاون والصراع التى يكونها وما يترتب عليها من نتائج ، كما يمكننا أن نفهم علاقة « الأشخاص » فى كل بدنة على حدة وعلى أساس المساواة النظرية ، ونفهم أن الاختلاف بينهم إنما يقع أساسا لاختلاف فى المهارة الزراعية أو فى تحقيق القيم التى يؤمن بها القرويون عامة وهكذا يكون الاختلاف بين الاشخاص اختلاف يتصل بالقيم لا بالمركزين الاجتماعى والاقتصادى .

ما هى إذن القيم القروية ؟ وهل هى مختلفة عن قيم المجتمع البدائى أو الصناعى ؟ ثم كيف نستنتج القيم الاساسية فى القرى الثلاث من طريقتهم

1 — A. R. Redclife-Brown, Structure and Function in Primitive Society, London, 1956. p. 194.

الحياة ؟ يقول ردفيلد فى معرض التدليل على التشابه بين القرويين فى جميع أنحاء العالم اننا « لو نقلنا قرويا من مكان الى مكان آخر بعيدا عن مجتمعه وكان مزودا بمعرفة لغة هذا المكان (القرية) فانه سيشعر بالألفة وقد يكون ذلك راجعا الى أن أسس موجهات الحياة غير مختلفة (١) . وطبيعى أن ردفيلد يزعم هذا على أساس أن هناك وجوه شبه عامة مشتركة فى الحياة القروية فى جميع أنحاء العالم طالما أنهم يعملون بالزراعة وهى فى نفس الوقت طريقتهم فى الحياة .

وقد تناول كثير من الكتاب موضوع القيم القروية بطرق مختلفة ودللوا على أهمية هذا الموضوع فى الدراسات الانثروبولوجية القروية ، فردفيلد يعقد فصلا فى كتابه Peasant Society and Culture عن « النظرة للحياة الطيبة Viow of Good Life ، وفريدمان Friedman يعبر عن نفس الموضوع « بطريقة الحياة والنظرة اليها Way and View of Life ، وكلا من ردفيلد وفريدمان يستخدمان عبارتيهما بالمعنى الذى يستخدمه الانثروبولوجيون للتعبير عن نفس الموضوع عندما يطلقون عليه عبارة Value Orientation أو ethos (٢) .

وقبل أن أبرز طريقة الحياة أو التوجيه القيمى فى القرى الثلاث أعرض فى نقد لبعض وجهات النظر الأخرى حتى ألقى الضوء على هذا الموضوع . فردفيلد يعتقد أنه وجد مجموعة مرتبطة من الاتجاهات والقيم فى المجتمعات

1 — R. Redfield, Peasant Society and Culture, Chicago, 1956, p. 109

2 — Ibid, pp. 110—115

القروية القديمة والحديثة ، وتتلخص فى أن القرويين يرتبطون بالأرض ارتباطا وثيقا يصل إلى حد القداسة ، كما أنهم يميلون الى طرق القدماء وخصوصا فى تقديس مساكنهم ، والعزوف عن المصلحة الشخصية فى سبيل العائلة والمجتمع الى جانب بعض مظاهر الشك والريبة خاصة بالنسبة لسكان المدينة . ويضيف الى أن العمل الزراعى فى نظرهم هو أهم الأعمال وأجلها قدرا لأنه مرتبط بنوع من الشعور الدينى يعلم القروى أن العمل بجد فى الأرض يرضى الله ويضمن المماش ، وفى ريف مايا Rural Maya ينظر الاهالى باحتقار الى سكان المدن باعتبارهم مخلوقات يتعبون بسهولة وغير قادرين على مزاولة العمل الشاق فى الزراعة الذى هو مصدر زهو القروى ، وطبيعى أن يمتد هذا الاحتقار الى الأعمال التجارية (١) . وقد بنى ردفيلد هذه النتائج على دراساته الحقلية لمدة مجتمعات ريفية وعلى دراسات غيره لمجتمعات مشابهة بالإضافة إلى ما جاء بالكتب التاريخية مثل كتب هزيود Hesiod من وصف للحياة الريفية والفلاح بصفة عامة . ومعنى هذا أنه يميل الى القول بأن هناك « عقلية ريفية » متميزة يمكن عن طريق الدراسة المقارنة أن نجدها متحققة فى كل مجتمع زراعى . ولهذا كان ما يقرره سوروكين Sorokin من « أن هناك أدلة قليلة على وجود عقلية ريفية نموذجية » (٢) لا يمكن التسليم به ذلك لأن الدراسات التاريخية حول هذا الموضوع تؤيد وجود هذه العقلية . وفرانسيس E.K.L Francis من خلال دراسته للأيام والاعمال لهزيود Hesiod (٣) حاول أن يبحث عن نموذج

1 — Redfield, Op. Cit., pp. 112,113,114,140,141.

2 — P. Sorokin, C. Zimmerman; Principles of Rural-Urban Sociology, N.Y. 1929, p. 332

3 — R. K. L. Francis, The personality type of the peasant according to Hesiod's Work and Days, Rural Sociology (Sept. 1945) pp. 275-295.

لشخصية القـــروى أو « النمط المتكامل للاتجاهات الرئيسية » للقروى ـ أى أسلوب الحياة ـ وفى كتاب هزيود يجد فرانسيس عطا لاتجاهات رئيسية تؤكد اتجاها محليا ونفعيا ازاء الطبيعة ، ومع هذا التقييم الإيجابى للعمل ، الا أنه ليس لغرض الانتاج المادى فقط ، بل للوفاء بمطالب مقدسة . كما أن القروى يهتم بالامان Security أكثر من المخاطرة ويقدر انجاب الأطفال والرغبة فى الشراء ، ويربط بين العدالة الاجتماعية والعمل من ناحية خلقية أساسية . ويقول ردفيلد أن نموذج التفكير والشعور الذى ينبثق يبدو ممكن التطبيق فى أكثر تقدير على القروى البولندى والصينى والكرديشى Kurdish والقروى فى مايا Maya (١) فالقروى يبدو على أنه نموذج انسانى متعارف عليه منتشر ودائم .

ومع أن ردفيلد نقد سوروكين فى قوله بعدم وجود أدلة كافية تجعلنا نقرر وجود عقلية ريفية نموذجية ، إلا أنه عاد يشك فى وجـود مثل هذه العقلية عندما وجدت أن سمات معينة منها تنطبق فى مكان ولا تنطبق فى مكان آخر وعلى الاخص فيما يتعلق بالنظـرة الى الارض والعمل الزراعى فيقول إنه بناء على ما ذكره بتكن Pitkin فى دراساته الريفية فى جنوب إيطاليا إن الرجل لا يعمل ـ ليس لأن الارض بالنسبة له مقدســة والعمـل الزراعى هو أجل الأعمال وأكثرها قدرا إذا قورن بأعمال أخرى كأعمال سكان المدينة فى التجارة والصناعة والخدمات العامة ـ بل لأنه كى يعيش لا بد أن يعمل ومن الأفضـل ألا يعمـل إطلاقا ، ومما يؤيد رأى بتكن هذا أن فريدمان Friedman لم يلاحظ هذه القداسة المتعلقة بالأرض

1— R. Redfield, The Primitive Mind and its Tranaforma tions (Great Sea's Books) Gornell Univ. Press. 1957. pp. 38-39

فى جنـوب إيطاليا أيضـــا (١) .

كما أن هذه النظرة لا تنقص الفلاح أو القروى فى جنوب ايطاليا وحده ، بل تنقص الفلاح السورى أيضا ـ ، فالفلاح يزرع ـ ولكنه يعمل لنفسه وليس للأرض ، ولا يحس أن الارض امتداد لذاته على عكس الانجـــليز والفرنسيين ـ القرويين الكلاسيكيين (٢) . وقد استنتج Pit—Rivers من أن هذا الاتجاه يميز الشعوب الواقعة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط(٣) . وعلى ذلك فليست هناك عقلية ريفية موحدة ، وإنما من الممكن وجود عدة نماذج منها ، على فرض صدق الدراسات السابقة ، ويفسر ردفيلد هـــذا الاختلاف فى النموذج الأخير ، بأنه من الممكن أن يكون نفوذ المدن Polis حول البحر الأبيض المتوسط قد أدى فى وقت مبكـر الى عدم استساغة القروى للحياة الزراعية (٤) .

ومع أن هناك وجه شبه كبير بين النموذج الأول وبين القرى الثلاث ، كما سنبين ذلك فيما بعد ، إلا أن هناك كلمة لا بد من قولها خاصا بالنموذج الثانى . فبت ريفرز استنتج من دراسات بتكن وفريدمان فى جنـوب

1— R. Redfiled, Peasant Society and Culture, Chicago 1956, p. 115.

2 — J. Wenlersse, Paysans de Syrde et Proche—orient. 1946, p. 137.

3 — J. A. Pit—Rivers. The people of the Sierra, N.Y. 1954, p. 47, quoted by Redfield, Op Cit., p.

4 — Redfield. Op. Cit., p. 117.

ايطاليا ، ومن دراسات الكاتب الفرنسى فى سوريا ، نتيجة طبقها على شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وحاول ردفيلد أن يجد لها أسبابا . إلا اننى ـ وفى ذهنى دراساتى للقرى الثلاث ـ أرى أن الموضوع يستحق مزيدا من الدراسة . فقد تكون هناك أسبابا تاريخية أو سياسية أو ايكولوجية أو اقتصادية أدت الى هذا الاختلاف فى النظرة الى الأرض والعمل الزراعى فمن ناحية هناك فرق بين أن يملك القروى أرضا وبين أن يعمل فيها اجيرا أو مؤجرا لهذا يكون ارتباط القروى بالأرض التى يملكها له نفس المظاهر التى فى النموذج الأول من الإلتصاق بها والنظر اليها نظرة « قداسة » أما ارتباط القروي بأرض لا يملكها وإنما يعتبرها وسيلة لكسب المعاش ، فان ارتباطه بها يكون « ضعيفا » ولهذا ينتقل من أرض الى أخرى حسب ظروفه . وكان هذا الفرق فى ملكية الارض وعدم ملكيتها من الأسباب الرئيسية التى عملت على التغير الاجتماعى ، وكان من أول مظاهر « الهجرة » والمهاجر هو القروى الذى لا يجد بأن ثمة شيئا قويا يربطه ـ خلاف أسرته وعلاقاته المتعددة ـ بالأرض وانه سيجد مصدرا آخر « للرزق » فى جهة أخرى أو فى عمل آخر .

ومن ناحية أخرى لابد من البحث فى تطور الملكية فى المجتمع القروى لأن ذلك يلقى ضوءا على نظرة القروى الى الأرض . ففى بعض الاحيان تكون ملكيته للأرض لها غير مستقرة ولهذا لا يكون ازاءها علاقات عاطفية ثابتة أو دائمة . أما إذا كانت للقروى « ملكية » محددة ، دائمة وثابتة ويشعر هو بذلك ، فانه ولا شك وبمرور السنين يكون ازاءها المشاعر التى وصفها ردفيلد ، وتنتقل هذه المشاعر عبر الأجيال .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن الظروف التى مرت عليها ملكية الأرض فى المجتمع المصرى ـ على الأقل ـ منذ عهد محمد على حتى مطلع القرن العشرين ، كانت من شأنها الا تجعل القروى يرتبط بالأرض كثيرا . فتارة تنزع ملكية الاراضى ثم توزع بلا قاعدة ، وتارة تملك الفلاحين ثم تنزع منهم بعد ذلك . وفى كل حالة كانت ملكية الارض عبئا ثقيلا فى ظل نظام « الملتزمين » ويرى كبار السن فى قرية القيطون كيف أن الدولة كانت تعرض ملكية اراضى شاسعة على بعض الأفراد فيتهربون منها خوفا من الالتزامات التى تقع على كاهلهم وكاهل اسرهم نتيجة لذلك . ومع هذا فليس لنا ان نفسر ظروف الفلاح عن ملكية الأرض بانه موقف استخفاف. فقد كان يعلم قيمتها دائما بالنسبة له ، ولكنه كان يخشى الظروف المتقلبة المرتبطة بملكيتها . ودليل ذلك انه ما ان استقرت الملكية حتى بدأ القرويون يتخذون الأرض موقفا يماثل تصوير ردفيلد ويقدرون العمل فيها باعتباره أجل الأعمال شأنا وهذا ما وجده أيضا حامد عمار فى قرية (سلوا) فالفلاح هناك يرتبط بالأرض ارتباطا عاطفيا قويا ، كما أن الجد والمهارة فى العمل الزراعى من المؤهلات ذات القيمة عند الزواج مثلا ، وهذا الى جانب أن العمل الزراعى له قيمة كبرى إذا قيس بانواع أخرى من العمل (1) .

إذن فتعميم بت ريفرز Pit-Rivers على نموذج القيم القروية فى جنوب ايطاليا وسوريا على شعوب البحر الابيض المتوسط ، تعميم يجانبه الصواب . وأغلب الظن أنه إذا انطبق هذا على العمال الزراعيين فى هذه الشعوب فانه لا

---

1 — Hamed Ammar, Growing up in an Egyptien Village, London, 1954 . Pp. 35 — 39 .

ينطبق على الملاك ، ذلك أنه كما سوف نرى فيما بعد أنه كلما ازدادت نسبة الذين لا يملكون شيئا في القرية كلما زادت نسبة الهجرة . والهجرة في جوهرها تغير في النظرة الى الارض والعمل الزراعي فالاعتماد عليهما « في وجود لا شيء » أمر يؤدي الى الاملاق .

على أنه من المناسب في بحث عن القيم القروية ، أن نسأل أسئلة ثلاث ، والاجابة عليها في الدراسات المختلفة للمجتمعات القروية قد تظهر اختلافا أو تشابها فيما يتعلق بطريقة الحياة ومجموعة القيم التي توجهها : ماذا يرغب هؤلاء الناس ؟ ما الصفات التي يحاولون أن يغرسوها في اطفالهم ؟ إلى أي نوع من الحياة يعلقون عليه أهمية ونظرة عظمى بغض النظر إذا كانوا يتنبأون به لأنفسهم أو أنه يتضمن رغباتهم ؟ .

والملاحظ أن القيم أو النظرة الى الحياة في « الفترة السابقة على التغير » كان لها طابع مميز . لأنه نظرا لقيام الحياة الإجتماعية والإقتصادية على أساس التنظيم العائلي . فقد كانت هذه القيم ذات طابع « جمعي » ومعنى هذا أن قيم « الشخص » لم تكن منفصلة عن قيم الجماعة ، ولهذا إذا تحدثنا عن القيم الأساسية فانها تنصب في الدرجة الأولى على القيم العائلية . وبناء على الاسئلة السابقة نصنف هذه القيم على النحو الآتي :

أولا — القيم الأساسية : وهي تدور حول الأرض والأولاد . فالارض لها قيمة عظمى لأنها « مصدر الحياة » والعمل فيها هو النشاط الأول والقيمة العليا في الحياة العامة . ولذلك يقاس مركز العائلة بما تملك من ارض ومقدار ما يبذل فيها من عمل ، وكلما ازداد انشغال القروي بالعمل الزراعي كلما ازدادت قيمته في العائلة وفي مجتمع القرية بأسره . أما قداسة الأرض بالنسبة للقروي فمصدرها تقليدي فهي تراث الأجداد ولكن انتاجية الارض

« وثمرة » العمل الزراعي فيرتبطان ببعض المفاهيم الدينية المتصلة « بالبركة » و « كله من عند الله » وكلما ازداد « صلاح » القروي كلما « بارك » الله في أرضه وعمله والعكس بالعكس . كما ان العمل في الزراعة هو أجل الأعمال وأكثرها قدرا . ولذلك يعتبر التخصص في حرفة معينة أقل درجة من العمل الزراعي ، ولهذا لا يعمل في حرفة أو مهنة معينة افراد ينتمون الى العائلات . وبالتالي يكون للمشتغلين فيها مركز اجتماعي أدنى من مركز القروي ، وما يترتب على ذلك من أبعاد اجتماعية تظهر في العلاقات العامة كالمعاملات والزواج وغير ذلك . بل إن القرويين لا يخفون شعور الاستخفاف بهم واحساسهم أنهم عالة عليهم وأنهم مصدر رزقهم .

أما الاولاد فانهم يمثلون القوة الانتاجية والقوة الاجتماعية على السواء ولهذا يحرص القروي أن يكون له أكبر عدد ممكن من الاولاد الذكور خاصة ولهذا ترتفع قيمة المرأة « الولود » التي تنجب ذكورا أكثر مما تنجب اناثا . والرجل « العقيم » مع أنه لا يعترف بذلك وينسب ذلك الى المرأة ، ينظر إليه على أنه « مصاب » ويظلون يدعون له في كل مناسبة أن يكرمه الله « بالانجاب » وبسبب العقم الطبيعي عند الرجال والنساء أو انجاب أكثرية من الاناث ، ظهرت كثير من الخرافات المتعلقة بهذه الموضوعات تمتد من الطب الشعبي الى الدجل والشعوذة .

ونظرا لارتباط هذه القيم الوثيق بحياتهم ، فان الصراع حولها يتخذ طابع العنف والقسوة البالغة في كثير من الأحيان . فالاعتداء على الأرض مهما كانت صورة هذا الاعتداء هو اعتداء على القروي لأنه لا ينفصل بين ذاته وبين الارض ، كذلك الحال فيما يتعلق بالأولاد . فالارض والأولاد مسألة حياة

أو موت فى نظر القرويين. ولهذا إذا باع قروى أو «اشترى جزءا من الارض» فان ذلك يعتبر «حادثا مهما» يشغل أذهان القرويين ويظل موضع حديثهم فترة طويلة . ويرتبط المسكن من حيث سعته واستقراره والمحصول الجيد وفائض الانتاج بقيمتى الأرض والأولاد معا .

ثانيا ـ القيم الفرعية أو السلوكية : وإذا تركنا مسألة الارض والأولاد نجد أن القروى فى حياته العامة . وهى محدودة جدا ـ يبجل «الصلاح والتدين» ويجعلهما مقياسا مهما فى الحكم على الآخرين، وقد لا يكون القروى فى أعماقه متدينا ، ولكنه يحرص أن يظهر بهذا المظهر حتى لا يفقد مركزه القيمى فى نظر الآخرين . وكلما ازداد تعبد القروى واقامته للشعائر الدينية كلما زادت قيمته . وفى هذا الصدد نذكر حقيقة هامة وهى أن أمور الدين كانت مختلطة فى الفترة السابقة على التغير بكثير من الخرافات لا تمت الى جوهر الدين بصلة . ولذلك كانوا يخلطون بين الشعائر الوثنية (لقدماء المصريين) ، وبين الشعائر الاسلامية ولا يدركون الفرق بينهما . كما ان التدين كان مقصورا فى أغلب الاحيان على الرجال ، ولا يقدرون فى المرأة أن تكون متدينة . ولهذا لا تدخل هذه القيم فى مركزها الخاص .

ولكن يلاحظ أنه فى الوقت الذي كانت العائلة ككل تحرص على تدريب «الاطفال الذكور» على التدين كانت تهمل «البنات» ، وتظل البنت حتى بعد زواجها على هذا النحو ، ولا يقدرون تدينها إلا فى مراحل عمرها المتأخرة عندما تصبح «جدة» مثلا . وعند ذلك قد يصاحبها زوجها أو أكبر اولادها سنا للحج . وقد تحرص هى من ناحية أخرى على التعبد فى داخل المنزل .

وهناك حالات من نساء أدمن فى التعبد حتى أخذت القرية تنظر اليهن نظرة خاصة باعتبارهن «مصدرا» للبركة . وفى كل الاحوال تكون السيدة «ارملا ذات أولاد» ونظرة الجد والقيمة المهمة التى يضعها القرويين فى التدين لم تكن روحية خالصة بل تشوبها نظرة نفعية . فالتدين عامة طريق للنجاح . والنجاح القروى يتصل بالقيمتين الاساسيتين وهما الارض وانتاجيتها والاولاد الذكور و «طرح البركة فيهم» كما أن قراءة القرآن فى المنزل لها نزعة روحية وناحية نفعية ، فهى تطرد «الشياطين» من المنزل . ولذلك كان الجزاء «الميسانية» الموسمى الذى يقدم لحفظة القرآن لا يماثل ما يعطى لاصحاب الحرف والمهن ، فهو مختلف كما وكيفا . فمن ناحية الكم كان ينالهم نصيب أكبر ، ومن ناحية الكيف لم يكن «ثمنا» لخدمة أو عمل معين ، وانما كان مختلطا بفكرة «الثواب» ، خصوصا وأن القرية لم تكن تنظر لهؤلاء نظرتها للتجار أو المزين أو «الحصرى» ، فلانهم يمثلون السلطة الروحية كان من الممكن أن تكون لافراد منهم علاقات وثيقة ببعض البدنات ، تطورت فى بعض الاحيان إلى الزواج .

ولم يكن مقياس التدين هو التعبد وحده بل درجة الاشتراك فى أحياء الشعائر الدينية ، ونظرا لحالة الرواج الإقتصادى ، وطبيعة التنظيم العائلى ، وجدت الطرق الصوفية مجالا خصيبا فى القرى الثلاث . لأن القائمين على هذه الطرق كانوا يأتون إلى القرية فى اعداد كبيرة ويقيمون فيها مدة تطول أو تقصر وتتنافس البدنات فى «ضيافتهم» ، وتقديم الهدايا لهم عند رحيلهم . ومن مفاخر البدنات أن يكون فيها ممثلون لهذه الطرق ، يكونون حلقة الاتصال بينها وبينهم . وكان القرويون بصفة عامة يقدرون أصحاب هذه الطرق تقديرا يفوق تقديرهم لرجال الدين المحليين لانهم المتصلون بالمشايخ

الكبار الذين يعرفون أكثر وبركتهم أدق وأعم . ويلاحظ أن المواسم التى يزور اصحاب الطرق فيها القرية مواسم الجنى والحصاد والتخزين كانت من المناسبات القليلة التى تظهر فيها القرية كوحدة . ويشعر الفرد فيها بانتمائه الى مجتمع القرية من ناحية ، وإلى سلطة تفوق سلطة العائلة أو البدنة أو القرية من ناحية أخرى .

ويعلم الطفل أن يخضع دائما لرأى من هو أكبر سنا ، ولذلك كان توقير الكبار من الامور التى تدخل فى تقدير الشخص . كما أن مجهوده ونشاطه بصفة عامة لا ينبغى أن يتخذ طابعا فرديا . فالفرد يعمل منذ طفولته حتى مماته لمصلحة العائلة . كما يلقن التعصب للعائلة والبدنة أى أن تدريبه الاجتماعى Scialisation ، كان يتخذ طابعا جميعا ، عن طريق كبت الدوافع الفردية ، واذكاء الدوافع الجمعية . وهذا الاتجاه الجمعى فى التربية هو الذى ساعد على وجود البدنات وحدات تكاد أن تكون مستقلة . وكلما زاد هذا الاتجاه كلما زاد التضامن الآلى داخل العائلة والبدنة . وفى التدريب الاجتماعى يفرقون بين الذكور والاناث ، فيعلون من شأن الرجولة ويؤكدون الدوافع الايجابية ، ويؤكدون فى الاناث الدوافع السلبية ، فيضربون الولد إذا بكى أو تألم أو هرب من مواجهة اقرانه ، ولا يفعلون ذلك بالنسبة للاناث ، ويؤمنون بالسيادة المطلقة للرجل على المرأة ، فالرجال قوامون على النساء ولا يعتدون برأيهن من الناحية النظرية ـ لأنهن ناقصات عقل ودين . «وأن كان أخذ « رأى الجماعة » عبارة مشهورة ، خصوصا اذا كانت للمرأة ملكية خاصة » وبصفة عامة كانت أهداف التدريب الاجتماعى تتجه الى خلق « الشخصية البدنية » فى مقابل الشخصية القروية ، بالتأكيد على الولاء والتعصب وتوقير الكبار والسلطة والاخلاص للبدنة ككل ولاعضائها .

وهذه القيم والنظرة للحياة ليست مقصورة على بدنة بعينها فى القرية ، ولكنها سائدة فى المجتمع القروى باسره ولهذا اذا تكلمنا عن بدنة واحدة فانه نظرا لتشابه تنظيم البدنات فان الكلام ينطبق عليها جميعا خصوصا وان البدنة هى الوحده الكبيرة فى التنظيم الاجتماعى فى القرية أو هى الأساس الذى يقوم فيه البناء الاجتماعى . واذا كان ايفانز بريتشارد يستخدم البناء الاجتماعى ليشير الى النسق الدائمة فى المجتمع [1] فان البدنة بهذه المثابة هى أكثر النسق دواما فى القرية ، وهى تنقسم الى نسق فرعية بدورها تمثل كل منها عائلة واحدة . أما فكرة رادكليف براون فى الفصل بين البناء الاجتماعى الذى يكون للافراد فيه مواضع Positions وبين التنظيم الاجتماعى الذى يكون لهم فيه Roles [2] ، فان الفصل بين الوضع والدور فى حالة الهدنة لا يؤدى إلى فهم يختلف عن الفهم السابق . وقد استخدم حامد عمار اصطلاح التنظيم الاجتماعى Social organisation بمعنى العلاقات الاجتماعية بين الجماعات التى لها نظاما معينا فى المجتمع بصورة لا تختلف عن فكرة البناء الاجتماعى . [3] وجعل العائلة family الوحدة الاجتماعية الاساسية التى تدور فيها حياة الفرد . أى أن العلاقات الاجتماعية فى القرية هى علاقات بين عائلات فى المحل الأول .

وأخيرا هل هناك قيم تتعلق بالزمان والمكان Space & Time عند القرويين ؟ . هل هناك وجه شبه بينهم وبين النوير Nuer كما أشار الى ذلك

---

1 — E. E. Evans-Pritchard, Op. Cit. , p.

2 — Radcliffe-Brown, Structure and function in Primitive Society, London. 1951. p. 188

3 — H. Ammar, Crowing up in an Egyptian village, London. 1954. p. 42.

ايفانز بريتشارد Evans—Pritchard ؟ فقد تعرض لهذا الموضوع عند النوير فى الفصل الذى عقده عن الزمان والمكان ، وميز بين أفكارهم التى تعتبر انعكاسا لعلاقاتهم بالبيئة والتى سماها Cecological time وبين أفكارهم التى تعتبر انعكاسا لعلاقاتهم بعضهم ببعض فى البناء الاجتماعى والتى سماها الزمن البنائى Structural time وكلاهما عبارة عن تتابع الحوادث .

فالزمن الاول مرتبط بالتغير فى الطبيعة واستجابة الانسان لها أما الزمن الثانى البنائى فانه يعنى البعد البنائى Structural distance وهو متأثر مع ذلك بالزمن الأول ، والبعد البنائى نفسه معناه البعد بين الجماعات أو الاشخاص فى نسق اجتماعى معبرا عنه فى ضوء اصطلاحات القيم . ولهذا تختلف نظرة البدنات أو اتصالها بعضها بالآخر باختلاف بعدكل منها عن الاخرى ، وقد استخدم ايفانز بريتشارد هذه الفكرة فى وصف الاقسام السياسة عند النوير (١) . واذا كان هناك وجه شبه بين القريين وبين النوير فيما يتعلق بالزمن الاويكولوجى كتتابع الفصول وما يتبع ذلك من ربط مظاهر نشاطهم فى العمل الزراعى والانتاج بدورة هذه الفصول خلال عام كامل . فان الزمن البنائى كما عرفة بريتشارد لا نظير له هنا خصوصا وأن وجود البدنات شبه مستقلة داخل القرية الواحدة ، لا يماثل البدنات أو العشائر أو القبائل فى مجتمع النوير . ولكن بعد القرويين البنائى يكون بالاضافة الى القرى المجاورة ، والمدينة والحكومة ، وهذه مسألة أخرى .

لكن الزمن له ثلاث أبعاد « تقاييم » ففى دورة الفصول المرتبطة بالانتاج والعمل الزراعى يستخدمون « التقويم القبطى » لأنه متفق مع هذه

1 — E.E. Evans-Pitchrd, The Nuer, Oxford, 1940 pp. 94-95, 108,110.

الدورة ، وعلى الرغم من صلاحية « التقويم الميلادى لنفس الغرض الا أنهم لا يشيرون اليه فى أغلب الاحيان . وفى اقامة الشعائر الدينية يستخدمون « التقويم الهجرى » والتقويمان يمثلان التتابع الزمنى القصير المدى ، أى فى دورة سنوية واحدة تتكرر باستمرار ولكن التتابع الزمنى البعيد المدى الذى يمكن تسميته بالزمن الاجتماعى Social time فانهم يربطون بين الاحداث المهمة فى البدنة والقرية باحداث اجتماعية أو طبيعية هامة بغض النظر عن قربها أو بعدها « كهوجه عرابى » أو فيضان النيل ووصول المياه الى القرية . أو « بزواج فلان » أو « موت فلان » وهكذا . ولهذا ففكرتهم عن الزمن الفلكى Astronomic time غير واضحة(١) . وبالتالى تكون القيم المتعلقة بالزمان مرتبطة بالاحداث التى وقعت فى تتابعه ، أو بمظاهر النشاط والعمل المرتبط بكل فترة منه خصوصا فى دورته القصيرة المدى .

القرية كما صورتها محدودة العلاقات ككل ازاء القرى المجاورة والمدينة والحكومة ، وفى الداخل أيضا محدودة العلاقات على أساس انقسامها الى بدنات كبيرة تدور حياة « الشخص » كلها فيها تقريبا . وتقل علاقة الفرد الواحد داخل البدنة بمجتمع القرية كلما زاد التضامن الآلى وكلما زادت مظاهر « الجمعية » و « السلطة » . وفى ضوء هذا كله تتحدد القيم والنظرة الى الحياة وطريقة الحياة نفسها . ماهى اذن الأسباب الرئيسية التى جعلت مثل هذا التنظيم ممكنا وكتب له الدوام فترة طويلة من الزمان . أو بمعنى آخر ماهى العوامل التى جعلت التوازن بين الفرد والأرض والعائلة يستمر دون أن يحدث اختلال جوهرى يغير من هذه العلاقات ؟ فالواقع أن هناك عدة عوامل لا عامل واحد : ففلاحة الأرض على الصورة التقليدية فى وجود

1 — C. Lundberg, Foundations of Sociology, N.Y. 9391 pp. 518—520.

مساحات كبيرة نسبيا تقتضى تعاون أكبر عـدد ممكن من الأيدى العاملة ، ولهذا كان التعاون فى العمل الزراعى عاملا ساعد على ضـرورة تجمع عـدد من الافراد بصفة دائمة (العائلة) لهـذا الغرض والعزلة النسبية للقرية بصفة عامة جعل العـــائلات « ذات الأصل الواحد » تقيم فى مكان واحد التماسا للأمن ، والتعاون والاقامة ترتب عليهما اهتمام بمسائل القرابة وروابط الدم ، وفى ضوء هذه الاعتقادات تتحدد علاقات الافراد على أساس الجنس والسن ، والاستقرار المكانى من حيث المسكن والأرض الزراعية جعل الجـــانبين الاجتماعية والاقتصادية مرتبطين ارتباطا وثيقا . ولهذا قامت العائلة لتـؤدى عدة وظائف فى وقت واحد . وهذا الارتباط فى واقع الأمر نتيجة للعـاملين الاولين وهو العلاقة الوثيقة بين الفرد والأرض فى ضوء التعاون والـكفاية ، والعزلة النسبية للقرية ككل والبـــدنات المـكونة لها كاجزاء فى البنـاء الاجتماعى . اذن لو تغير هذان العاملان ، لتغير تبعا لهما المظاهر المرتبطة بهما وأول مايتأثر بهذا التغير « التنظيم العائلى » .

والعامل الأول طالما أنه يتصل بنشاط السكان المعتمد على الارض الزراعية ، وكانت الارض الزراعية ثابتة من حيث المساحة فانها تعتبر عامـلا دائما غير متغير ، والتغير ينصب أساسا على « القوى البشرية » وهذه القوى فى ازدياد مستمر كما تثبت الاحصـــاءات السابقة . ولما كان التغـير سواء بالزيادة أو النقصان يؤثر على طبيعة العلاقة بالعامل غير المتغير (الأرض) فان الزيادة فى حجم السكان ستؤثر فى المستوى الاقتصادى الذى يميل الى الانخفاض . وهذا الانخفاض لا يحدث فجأة وإنما يتم تدريجيا . وفى سيره يصـل الى « نقطة حرجة » يؤدى الى اختلال التوازن بصورة واضحة الامر الذى يترتب عليه عدة تغيرات هامة . ولذلك كانت الهجرة أول علامة من عـلامات التغير

الاجتماعى الذى ترتب على اختلال هذه العلاقة التى ادت الى انخفاض المستوى الاقتصادى . فمنذ عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٤٧ زاد سكان كل قرية من القرى مايقرب من الف نسمة ، على الرغم من أن التعداد لا يمثل الحقيقة تمـاما إذ أن الزيادة أكبر فيما أعتقد ، بينما ظلت مساحة الأرض الزراعية لهـلا ١٢٥٨ فدانا ، وقيطون ١٥٢٥ فدانا ، وكفر الشيخ ٨٧٥ فدانا لم تتغير ، وإذا أدخلنا فى حسابنا تباين توزيع الملكية ، لوجدنا أن عددا كبيرا من العائلات أصبح ـ خصوصا ابتداء من عام ١٩٣٧ ـ لا يملك شيئا . والعلامة الثانية الهـامة هى تفكك العائلة بعد أن بدأ الاساس الاقتصادى والاجتماعى الذى تقـوم عليه يتفكك .

لهذا اعتبر العامل الاقتصادى ـ الذى هو يمثـل علاقة السكان بالارض ، عاملا داخليا وعاملا أول فى التغير الاجتماعى الذى أخذ فى الظهور ابتداء من عام ١٩١٤ حتى الآن ، ويلاحظ أن زيادة السكان فى القرى الثلاث يتمشى مع زيادة السكان بصفة عامة فى الجمهورية العربية المتحـدة ، ويتمشى أيضـا مع ازدياد التنظيمات الإدارية والقانونية التى أخذت تنمو خصوصا منـذ عام ١٩٢٠ ، والتى صحبها ازدياد نفوذ المدينة وتأثيرها على القـرى . وكان من نتائج التغيرات الاجتماعية فى القرى وخصوصا فى الناحية الإقتصـادية ، أن أخذ النشاط الاقتصادى يتجه اتجاها آخر غير الاتجاه القديم وخصـوصا فى علاقته بالمدينة ، الأمر الذى جعله يتخذ طابع إنتاج السوق بعد أن كان إنتاجا محليا على نحو ماسنبينه فيما بعد .

والعامل الثانى الذى يتصل بالعزلة النسبية للقـــرى ، أخذ يتغير نتيجة للتغيرات التى حدثت بسبب العامل الأول وكان من شأنه زيادة صلات القرية

بالقرى المجاورة أو بالمدينة أو بالحكومة . ولم يكن هذا اتجاها من جانب القرية وحدها ، بل أن القوانين المنظمة للانتاج الزراعى والحياة الاجتماعية عامة كالزواج والطلاق والجندية والضرائب والمواليد والوفيات والاجراءات الصحية وغير ذلك زاد من تدخل المدينة (المركز) فى شئون القرية عن طريق أجهزة الدولة التى لها فروع هناك وزاد من هذا التدخل انشاء نقطة بوليس فى قرية هلا ومركز اجتماعى بها أيضا فى الفترة الواقعة بين عام ١٩٣٠ ، ١٩٤٠ ولهذا أعتبرنا تأثير المدينة والقانون عاملا خارجيا .

ومع هذا فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية يسير العاملان الخارجي والداخلي جنبا الى جنب ، فالسكان فى ازدياد مستمر وعلاقات القرية بالمدينة فى ازدياد مستمر أيضا ، ونظرا لأن زيادة السكان لا تكون محسوسة فى المدى القصير فان تأثيرات المدينة يبدو أنها صاحبة الأثر الأول فى التغير . على أنه من الملاحظ أنه بمرور الزمن تزداد سرعة التغير وتزداد آثاره على الحياة الاجتماعية والثقافة المادية ، لأن كل تغير يؤدى بدوره داخليا الى سلسلة من التغيرات وربما تغلب تأثير المدينة فى النهاية مع ازدياد التحسن فى طرق المواصلات وانتشار التعليم .

وقد يبدو أن ارجاعى التغير فى القرى الثلاث الى عوامل داخلية وخارجية يختلف من حيث مفهوم هذه العوامل عن العوامل الخارجية والداخلية التى تسبب التغير فى رأى جودفرى ومونيكا ويلسون Godfrey & Monica wilson ذلك أنه بناء على تحليلهما للتغير الاجتماعى عن طريق مقارنة بين مجتمعات وسط افريقيا القديمة (البدائية) والحديثة (بعد الاتصال الثقافى الاوربى) يعتقد أن التغير قد يأتى من الخارج أو من الداخل ، فالتغير فى البيئة

الخارجية كالفيضان أو الزلازل سبب فى التغير الاجتماعى ، وهناك على وجه خاص قوى اجتماعية فى التغير تنبعث من خلال المجتمع ، وهى من نوعين : ايجابي أو ثقافى cultural وسلبى أو بنائى structural . والقوى الايجابية أو الثقافية فى التغير الاجتماعى عبارة عن « مثل جديدة ، وأفكار ونظرة مختلفة للجمال ، واكتشاف استعمالات جديدة للمصادر المادية ، وحقائق ووسائل جديدة » كل هذا يجذب الانسان « بحرية » إلى أنواع من النشاط جديدة ، والناس يغيرون من طرقهم التقليدية فى الفعل والتفكير والتعبير لا لأنهم مجبرون على ذلك ، ولكن لأنه يبدو لهم أن هذا التغير « احسن » وأكثر « صدقا » و « جمالا » ، واكثر « دقة ومهارة » أما القوى السلبية أو البنائية فأنها « المنافسة » التى لا تفتقر بين الجماعات ومختلف طبقات الناس ، والتى تهدد ، مالم يحدث تغيير ، بتغيير القانون والمنطق والتقاليد ، وهذه هى عوامل اختلال التوازن وهى تجبر الناس على تغيير سلوكهم ، ولما كان التوازن حاجة اجتماعية أساسية ، لذلك كان اختلال التوازن لا يمكن أن يظل قائما ، بل يتضمن بالضرورة التغير . ويسميان التغيرات التى تنشأ فى البيئة الخارجية أو فى القوى الثقافية فى المجتمع ، التغيرات الأولية Primary أما التغيرات التى تنشأ تحت ضغط اختلال التوازن فهى تغيرات ثانوية Secondary (١) .

وواضح أن الكاتبين يحاولان تعميم التغير الاجتماعى فى وسط افريقيا نتيجة الاتصال الثقافى بحيث يكون صادقا على كل تغير اجتماعى يحدث فى أى

1 — Godfrey & Monica Wilson, The Analysis of Social Change, based on Observations in Central Africa, Cambridge, 1954, pp. 132—133.

مجتمع . ومع أنهما وضعا القوى الثقافية ضمن العوامل الداخلية إلا أنها فى واقع الأمر تعتبر قوى خارجية ، خصوصا فى حالة المجتمعات البدائية أو المجتمعات القروية ، أما مسألة الحرية والمقارنات التى يفترضان حدوثها لقبول الجديد ، فان هذا لا يحدث كما صوراه فى واقع الأمر . والقوى السلبية أو البنائية التى تعمل على اختلال التوازن فانها النتائج التى تترتب على دخول عناصر جديدة على البناء الاجتماعى ، كما فى حالة الاتصال الثقافى الأوربى بالمجتمعات البدائية ، وما يؤدى اليه من اختلال ثم تكامل وهكذا .

وهذا وضع قد لا يحدث فى كل المجتمعات ، وقد يكون قاصرا على الشعوب البدائية نظرا لظروفها الخاصة . وحتى لو سلمنا بهذا الاختلال ، فانه لا يكون بسبب المنافسة بين الجماعات والافراد . لأن الاختلال هو توقف النسق عن أداء وظائفه القديمة أو جزء منها خصوصا اذا كانت الثقافة المادية واللامادية للمجتمع مرتبطة ، فأى اختلال فى جزء منها يؤدى الى سلسلة من الاختلال فى الأجزاء الأخرى . هذا إلى أن القوى الخارجية كالفيضان والزلازل ، لا تحدث أو تكون ظاهرة ذات أثر فى كل المجتمعات ، وإنما قد تكون ظاهرة فى بعض المجتمعات البدائية كمجتمعات وسط أفريقيا .

وهكذا نرى أن الكاتبين لم يدخلا فى حسابهما التغير فى حجم السكان فى أثره على التغير الاجتماعى ، مع أنهما يقولان فى موضع آخر إن زيادة مدى علاقات أى مجتمع قد يكون عن طريق زيادة العدد فى هذه العلاقات من حيث الكم عن طريق زيادة السكان [1] ، ولعل اغفالهما لأثر السكان ناجم عن أن هذه الزيادة غير ملحوظة الأثر فى المجتمعات البدائية .

1 — G. & M. Wilson, Op. Cit., p. 40.

وبغض النظر عن ذلك فان فكرتهما عن أن الفرق بين المجتمعات الصغيرة (البدائية) والمجتمعات الكبيرة (المتحضرة) فرق فى مدى الصلات والعلاقات التى تميز المجتمع ككل ، والأفراد والجماعات الذين يكونونه فكرة جديرة بالنظر فالمجتمع المتحضر تكون علاقاته واسعة المدى Scale والمجتمع البدائى تكون علاقاته محدودة المدى . والتغير الاجتماعى من البدائية الى التحضر هو فى جوهره اتساع فى مدى هذه العلاقات [1] ومثال ذلك ان أعضاء جميع المجتمعات متساوون فى الاعتماد كل على الآخر . ولكن مدى تساندهم يختلف جغرافيا وتاريخيا ، فالبوشمان كفرد يعتمد على رفقائه مثل ما يعتمد الرجل الانجليزى ، ولكن الانجليزى يعتمد على عدد من الناس أكثر من البوشمان . فالانجليزى يحصل على طعامه من الأركان الأربعة فى العالم ، ويتأثر مباشرة بأفكار ٢٥ قرنا . أما البوشمان فانه يعتمد فى سبيل الطعام على جاره وجيرانه المباشرين ، ويتأثر بأفكار الاجيال السابقة الى الحد الذى يصل إليه عن طريق الكبار ، والدرجة الكلية للتساند أو كثافة العلاقات هى نفسها ، ولكنها فى حالة الانجليزى أكثر انتشارا إلى الخارج . ولذلك تختلف كثافة العلاقات فى المجتمعات المختلفة ويترتب على ذلك أنه كلما زاد مدى العلاقات تقل درجة الاعتماد على الجيران والمعاصرين [2] .

وعلى هذا الأساس وتطبيقا لهذه الفترة يكون التغير الذى حدث فى القرية ، تغيرا فى كثافة علاقات الافراد والجماعات من ناحية ، ومجتمع القريه من ناحية أخرى . أى أن القرية كما فى حالة البوشمان كانت مكتفية بذاتها محدودة العلاقات ، وتقوم أساسا على « مدى الجوار أو رابطة الدم والقرابة »

1 — Ibid. pp. 25—26.
2 — Ibid, pp 26—27.

ولكنها الآن ازدادت انتشارا الى الخارج فأصبحت ممتدة لتشمل القرى المجاورة والمدينة والحكومة . وقل اعتماد القروي على البيئة المحلية، وأصبح يعتمد الآن اعتمادا متزايدا على الخارج والمدينة بوجه خاص فى حياته الاجتماعية والاقتصادية ، وكلما زادت علاقاته زادت كثافة العلاقات ، وكلما ازداد التغير الاجتماعي زادت سرعته . اذن فالخلاف يقع فقط فى عوامل التغير التى قد ترجع الى اختلاف ظروف كل مجتمع كما هو شأن القرى الثلاث، وأما من حيث التغير خصوصا فيما يتعلق بفكرة المدى Scale فانى أجدها صالحة ومتفقة مع الخطة العامة .

ما هو إذن التغير الذى حدث فى علاقة القرية الخارجية وقيمتها الأساسية نتيجة لتغير المدى بسبب عوامل التغير الداخلية والخارجية ؟ ان العلاقات المحدودة الخارجية للقرية ، والعلاقات المتبادلة للبدنات والعائلات لم تمتد فجأة ، وإنما لوحظ أنه منذ عام ١٩١٤ بدأت تمتد شيئا فشيئا ، حتى أصبحت ظاهرة تماما للملاحظة المباشرة ابتداء من عام ١٩٣٩ . فنظرا لتغير اتجاه الحياة الاقتصادية من «المحلية الى السوق» وخاصة بعد انشاء سوقين كبيرين فى قريتين قريبتين (ميت يعيش والزمرونية) وبعد إنشاء بنك التسليف الزراعى فى مدينة ميت غمر أخذ القرويون يكونون علاقات متعددة مع هذه الأسواق ، الأمر الذى جعل الانتاج الزراعى والحيوانى كله تقريبا ، إنتاج سوق ، فالقمح والشعير والفول يباع مايفيض عن حاجة « الأسرة » فى السوق ، وكذلك الأمر بالنسبة لمستخرجات الألبان والدواجن وصغار الحيوانات . ولهذا يعتبر السوق أول مظهر من مظاهر امتداد العلاقات الخارجية بصورة واضحة مع القرى المجاورة .

ويلاحظ ان السوق شأنه فى ذلك شأن منظمات المجتمع الريفي ومعداته، يؤدي أكثر من وظيفة واحدة ، فهو ليس مكانا للبيع والشراء، بل هو مكان للاجتماع والترفيه أيضا [١] . وكانت له عدة نتائج مهمة . منها أنه أضعف من شعور « العزلة » والانتماء القوى للقرية الواحدة ، كما أنه أطلع القروى على أنواع أخرى من الانتاج يمكن أن يستفيد منها اقتصاديا ، ووجد فى السوق أدوات وحاجيات جديدة يمكنه أن يستخدمها ، الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر إلى زيادة المطالب المادية للقروى . واستمع الى روايات وقصص وأخبار جديدة عملت على توسيع آفاقه وزاد احساسه بالمدينة والحكومة ، وعرف لأول مرة تقلبات الأسعار والمساومة وبدأت حالته العقلية العامة State of Mind تتخذ اتجاها « تجاريا » ، وفى السوق كون علاقات اجتماعية مختلفة مع قرويين من قرى أخرى ، تمخضت عن معاملات اقتصادية تضيق أو تتسع ، بل أدت أيضا الى علاقات مصاهرة فى كثير من الحالات . ولهذا تزداد نسبة القرويين من القرى الثلاث الذين يتزوجون من قرية أخرى .

ولكن الملاحظ أن علاقات الزواج الخارجى تكاد تنحصر فى إطار هذه القرى ، دون أن تمتد أبعد من ذلك إلا فى حالات قليلة . وقد صاحب هذا التغير فى العلاقات الخارجية ، تغيرا مماثلا فى العلاقات الداخلية فأخذت « الحواجز البدنية » تتفكك ، واستطاع « الأفراد » أن يكونوا علاقات متعددة مع أفراد من بدنات غير بدنتهم ، وأخذ التعاون الاقتصادى يتخذ « طابع المصلحة » ولم يعد الزواج من الداخل فى حدود البدنة أمراً محتماً ،

---

(١) حامد عمار — العمل الميدانى فى الريف — المركز الدولى للتربية الاساسية ١٩٥٥ — ص ٢٣ .

الأمر الذى أدى بالتدريج إلى زيادة علاقات القرويين كأفراد أو كعائلات، وبدأ « مجتمع القرية » فى الظهور كعامل مهم فى تحديد السلوك الاجتماعى وفى توجيه القيم والنظرة إلى الحياة. ولهذا أخذ شعور الإنتماء القوى للبدنة يخف. وليس معنى هذا أن العوامل العائلية وعلاقات القرابة In-group وروابط الدم انهارت نهائيا فى القرية، بل لا تزال رواسبها القديمة موجودة تحدد الى درجة ما قيم القروى وسلوكه الاجتماعى. فقد يحدث خلاف بين البدنات يتطور إلى نزاع قد يصل الى درجة « التقاتل »، ولكنه الآن محدود جدا وتكون العوامل الباعثة على تلاشية أكثر من العوامل التى تعمل على اتخاذه مظهر العنف النهائى. نظرا لتداخل البدنات فى القرية الواحدة عن طريق المصاهرة.

ولكن شعور القرية بالوحدة ازاء القرى المجاورة لا زال قويا، وأبرز مثل على ذلك أن حادثا وقع فى عام ١٩٤٧ بين نفر من قرية القيطون وآخرين من قرية هلا، فكان الملاحظ أن كل قرية وقفت إزاء القرية الأخرى كوحدة وظلت القطيعة والتربص سائدين فترة طويلة بين القريتين وهذا أيضا ما حدث بعد أربع سنوات بين قريتى القيطون وميت يعيش. ومع ذلك يمكن القول أن القتال بين القرى محدود الآن جداً نظرا لازدياد صلات الافراد والعائلات من كل قرية أحدهما بالآخر (١). إلا أنه داخل القرية يكاد يتلاشى، وهذا يجعلنى أستنتج أن « مدى كثافة العلاقات الداخلية أكثر من المدى الذى ذهبت إليه العلاقات الخارجية ».

ومن الأدلة القوية على كثافة العلاقات الداخلية وتأثيرها البالغ فى تفكك البدنات، وانقسامها على نفسها مالاحظته بنفسى فى الانتخابات

1 — M. N. Srinivas, Op. Cit., p. 32

التى تمت يوم ٨ يوليو ١٩٥٩، لانتخاب أعضاء « الاتحاد القومى » فكثير من القرويين من بدنات القرية كانوا لا ينتخبون المرشحين من بدنتهم، بل ينتخبون مرشحين قد لا يمتون إليهم بصلة ما وكان الدافع الأول لانتخاب مرشح معين هو نظرة القرية ككل له. وهذا ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن مجتمع القرية أصبح الآن عاملا هاما فى حياة القروى أكثر من البدنة أو العائلة التى يتصل بها مباشرة.

وإذا انتقلنا من دائرة العلاقات المحلية الداخلية والخارجية والتى تدور فى نطاق القرية والقرى المجاورة، إلى دائرة أوسع وهى العلاقات بالمدينة والحكومة. نجد أن هناك تغيرات ملموسة. وكقاعدة تدور العلاقات فى ثلاث دوائر تضيق كلما اتجهنا الى الانتشار الخارجي. ولهذا فان كثافة العلاقات مع المدينة والحكومة التى تمثل الدائرة الثالثة أقل من كثافتها فى الدائرتين الاخريين. فالقروي الآن يحس احساسا واضحا بالمدينة وسكانها، ويعرف معنى القانون وحدوده ومدى إلزامه، وأخذ يتصل الآن مباشرة بأجهزة الحكومة المختلفة كالبوليس والقضاء والجيش والصحة والتعليم. ويلاحظ أن هذه العلاقات تتناسب تناسبا طرديا مع ازدياد التنظيم الحكومى الذى ينصب على الدولة بصفة عامة وعلى المجتمعات القروية بصفة خاصة. فابتداء من عام ١٩٣٠ إبان الأزمة الإقتصادية العالمية وما بعدها زاد اعتماد القرويين على الحكومة وزادت الحكومة فى التدخل فى شئون القرية عن طريق القوانين المتتابعة، وبلغ تدخل الدوله اقصاه ابتداء من الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ عندما فرضت تحديد مساحات الأرض التى تزرع بالحبوب والقطن. وكان هذا فى حد ذاته ابتداء لمرحلة جديدة من مراحل الانتاج الزراعى، فلم يعد القروى حرا فى توجيه الإنتاج كما يريد،

ولم يعد لرئيس العائلة الكلمة الأولى فيما يزرع أو لا يزرع . وأعقب ذلك الاجراءات التموينية وتنفيذ نظام البطاقات . هذا الى جانب القـوانين المتتابعة المنظمة لاجراءات الزواج والطلاق والمواليد والوفيات ، وقوانين التعليم العام المجانى . كل هذا جنبا الى جنب مع التغييرات الداخلية بسبب الحالة الاقتصادية جعل عددا كبيرا من القرويين على صلة وعلاقات مؤقته أو دائمة مع المدينة ومع الحكومة ، وكلما زادت هـذه العلاقات زاد اعتماد القروى على الخارج ، أكثر من إعتماده على جاره أو جيرانه والتراث القديم ، كل هذا أدى بجانب التغيرات فى الثقافة المادية الى اتساع آفاق القروى وأخذت دائرة معلوماته تتسع ، والمسائل الوطنية وسياسة الحكومة تهمه مباشرة ، لأنه وجد بالتجربة انها تؤثر عليه فى المدى القصير أو الطويل فى حياته الاقتصادية ، أو فى حاجاته المتزايدة أو فى قيمه المتغيرة ومع ذلك ظلت « مشاركته » فى الأحداث مشاركة سلبية فى اتجاهها العام .

وثمة نتيجة جديرة بالملاحظة ، وهى أنه فى الوقت الذى لا زالت القرية ككل تمثل وحدة إزاء القرى المجاورة ، إلا أنها لم تعد وحدة ازاء الحكومة والدولة . فالمثل الذى ضربناه فى الفترة السابقة على التغير من اتجاه القرية الى اخفاء المجرم واعطائه الحماية ، كما هو الحال فى قرية رامبورا فى الهند Rampura (١) ، لم يعد ملاحظا فى هذه الأيام . وهذا يرجع إلى أن الوحدة الداخلية للقرية القائمة على وحدة « أو بدنات » آخذة فى التفكك وما ترتب على ذلك من نمو الفردية . هذا الى جانب ازدياد احكام النظام الإدارى .

1 — M. N. Srinivas, Op. Cit., p. 32

ولكن هل معنى ذلك أن القرية أصبحت تشارك فى الحياة العامة للمجتمع بأسره وتحس بمختلف التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيه وتستجيب بطريقة ما الى هذا كله . الواقع أنه بالرغم من أن كثافة العلاقات الخارجية زادت الى درجة ملحوظة ، إلا أن القروى لا زال يفكر فى نطاق حياته الخاصة التى تتركز بوجه خاص فى القرية ، أو بصورة أوسع فى المنطقة المجاورة ، ولا زالت الفكرة عن الحكومة انها سلطة رادعة ومسؤولة عن كل شىء ، ولهذا فالقروى لا ينبعث انبعاثا ذاتيا ايجابيا نحو تغير أحواله كما هو الحال فى قرية شان كوم Chan Kom التى درسها روبرت ردفيلد ، ولكنه يتفق أو يشبه القروى فى الأولى ، فالأبعاد السياسية لهذه القرية لا تذهب أبعد من القرية نفسها ، والوطنية هى الى حد كبير الاخلاص لشعب شان كوم ، والحكومة سلطة خارجية وسلطة رادعة كما انها مصدر المساعدة (١) .

والتغير الذى حدث عن طريق تأثير المدينة ، حدث فى المحل الأول نتيجة لاتصال القرويين بالمدينة نفسها ، لا عن طريق إقامة بعثة أو هيئة فى القرية . ولذلك كان وجود « المركز الاجتماعى » قليل الأهمية فى هذا الصدد . وسواء كان التغير فى الثقافة المادية ، أو فى الحياة الاجتماعية ، فان هذا المركز لم يكن عاملا فعالا ، بل ان الذى حدث هو اتجاه معاد له فى القرى الثلاث . وكل ما فعله هو « امتداد لتأثيرات المدينة التى أثرت من قبل فى القرويين نتيجة الاتصال المباشر ، ولهذا قد يكون الاختلاف بين القرى الثلاث وقرية شان كوم فى هذا الصدد يرجع الى « الرغبة الايجابية للسكان

1 — R. Redfield, A Village that Chose Progress, Chan Kom. Revisted, Chicago, 1950, pp. 162-163.

فى التغير » فى هذه القرية ، فقد وجد ردفيلد أن « ان استيراد طرق الحياة من المدينة حدث فى عامى ١٩٤٤ و١٩٤٥ ، خلال اقامة عشرة أشخاص لمدة سنة ونصف وهم يكونون « هيئة البعثة الثقافية » وبمعيشتهم وسط القرويين ، مثل المركز الاجتماعى ـ أنيط بهم مهمة رفع مستوى الحياة والعمل على النهوض الثقافى .. وخلال اقامتهم فى القرية زارها ردفيلد فوجدها مكانا عامرا بالنشاط ، وكانت ارشادات البعثة الثقافية واضحة فى المسائل الخاصة بالتجارة ودبغ الجلود والوقاية الصحية ، والتطريز ، وتزيين المنازل بالرسومات الخارجية والاتجاه الى تحسين الأثاث المنزلى ، وكانت البعثة الى جانب ذلك تعقد الندوات الليلية تصاحبها الموسيقى والغناء [1] .

وقد لاحظت أن المركز الاجتماعى فى أوائل عهد انشائه كان يقوم بنشاط مماثل لنشاط البعثة الثقافية فى شان كوم ، ومع ذلك لم يؤد الى تغيير ما ، إلا أن ردفيلد يعود فيقول أنه عندما زار القرية مرة أخرى فى عام ١٩٤٨ لم يجد الا آثارا طفيفة للتغير المؤقت الذى حدث فى القرية ابان اقامة هذه البعثة ، وذلك على الرغم من رغبة السكان الايجابية فى اصطناع طرق للمدينة ولهذا استنتج أن التغير فى القرية الذى يأتى من الخارج « فرضا » على القرية لا يكتب له الاستمرار طالما لا يتفق من اتجاه التغير فى القرية من حيث سرعته أو العوامل التى تؤدى إليه .

فما لم يقتنع القروى بفائدة التغير أو يجد محققا لمطالبه الجديدة المتزايدة فانه يفضل البقاء على القديم أو العودة إليه إذا أجبر فى فترة معينة على تركه .

1 — R. Redfield, Op. Cit., p. 146

ومثال ذلك أن المركز الاجتماعى فى القرى الثلاث فى عهد انشائه الأول نصح القرويين بطلاء المنازل من الخارج بالجير وحاول رجاله أن يقنعوا القرويين بفائدة هذا الطلاء خصوصا فى تنظيف جو المنزل الداخلى أثناء الصيف الى جانب اعطائه شكلا جميلا . وقام بطلاء بعض المنازل فعلا وفعل عدد من القرويين هذا عن طريق التقليد ، ولكن القرويين وجدوا أن هذا الطلاء الجيرى يتساقط بسرعة ، ولذلك عادوا إلى طلاء المنازل بالطريقة القديمة بالطين المخلوط بالتبن .

إذن هل أدت « كثافة العلاقات » الداخلية والخارجية نتيجة لعوامل التغير إلى تغير ملحوظ فى القيم القروية والنظرة إلى الحياة ؟ الواقع أن نسق القيم system of values فى كل مرحلة مرتبط ارتباطا بنائيا ووظيفيا بالنسق الأخرى . ولذلك فان كل تغير فى هذه النسق يؤدى الى تغير مصاحب فى القيم . لأن هذه القيم فى جوهرها عبارة عن « الأيديولوجية » التى تصور الاتجاهات الرئيسية التى تنبعث عن استقرار « النظام » أو توازنه على نحو معين وهى التى تعين أو تحدد الأبعاد المرعية فى العلاقات الاجتماعية . كما أن النظرة إلى الحياة ترتبط ارتباطا وثيقا بكثافة هذه العلاقات ، فاذا تغيرت الكثافة ، تغيرت النظرة ، ولهذا كانت العوامل التى غيرت من الارتباطات القروية والنتائج التى ترتبت عليها هى المفسرة للتغير فى مجموع القيم وفى النظرة إلى الحياة . وأعتقد أن مبحث القيم فى دراسات التغير الاجتماعى مقياس هام فى الكشف عن المدى الذى يذهب إليه التغير الاجتماعى وفى تعيين اتجاهاته الأساسية وهو فى نفس الوقت تواجهه صعوبات كثيرة . ففى الفترة الأولى كان من السهل البحث عن القيم الأساسية فى الحياة القروية، وبالتالى استنتاج النظرة إلى الحياة ولم يكن هناك اختلاف ملحوظ بين

القرويين عامة فى هذا الصدد ، نظرا لظروف القرية التى أوضحناها من قبل .

ولـكن عندما تبدأ عمليات التغير فانها لا تسير متوازنة لتؤثر على مجموع القرويين بصورة متشابهة نظرا لاختلاف ظروف القرويين أنفسهم . فمنهم من زادت علاقاته الداخلية والخارجية ، ومنهم من زادت ناحية واحدة من هذه العلاقات فقط ، ومنهم من ظلت له ملكية لا بأس بها ، ومنهم من أصبح عديم الملكية . ومنهم من يعلم أبنائه ومنهم من لا يعلمهم .. وهكذا . وبالتالى فأن ملاحظة القيم تصبح عملية صعبة بحيث لا يمكن أن نعين لها اتجاها عاما . وبالتالى لا نستطيع أن نستنتج نظرة محدودة للحياة لها الغلبة إذا أدخلنا فى حسابنا مجموع السكان ككل . ومهما يكن أمر هذا الاختلاف فانه من الممكن أن نعتبر أن مجموع القيم الجديدة تعيش جنبا إلى جنب مع مجموع القيم القديمة ، وتختلط النظرة القديمة للحياة بالنظرة الجديدة ، ولهذا فأن القيم المتغيرة التى سنثبتها هنا تمثل أتجاها ناميـا لم يصل إلى درجة التمركز والتحديد . وفى كل الحالات تظل أسس القيم القديمة لها رواسب فى القيم الجديدة وتعطيها اتجاها خاصا بحيث يجعلها مختلفة عن جوهرها الأصلى فى المدينة مثلا .

فالأرض لا تزال المثل الأعلى للملكية وترتبط قيمة القروى من حيث مركزه الاجتماعى والاقتصادى بها . ومع أن عددا من القرويين أصبح لا يملك أرضا ، إلا أنهم مع ذلك يفضلون الارتباط بها على أى نحو وخصوصا إذا كانت هناك أرض تؤجر ، ولا يضطر القروى إلى فصم هذه العروة الوثقى إلا إذا أضطر إلى ذلك ، ولم يبق أمامه إلا الهجرة . والرغبة الأولى للقروى أن يملك أرضا أكثر أو يملك أرضا إذا كان لا يملك شيئا . وليس الوضع

فى هذه القرى كالوضع فى كالابريا وجنوب الصين أو أجزاء من الهند ، حين يقول ردفيلد Redfield أن هناك من يريد أن يكون قرويا ، ومن يريد الهروب من الحياة القروية ، ولهذا لا ألمس فى هذه القرى جريا وراء الأرض أو هربا منها ، [1] فالجرى حقيقة موجودة ، أما الهرب فغير ملاحظ البتة وانما مغادرة — مع الأسف — للتربية للعمل فى المدينة لأن هذا هو الحل الوحيد ، أو لأن الفرصة هناك — للمعيشة — أكبر .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أن الذين يعملون فى أعمال غير العمل الزراعى ، إذا تجمع لديهم فائض من المال فانهم يشترون به أرضا ، ولا يتجهون الى أستخدامه فى زيادة عملياتهم « التجارية » مثلا . والموظفون من هذه القرى مثلهم الأعلى أن يوفروا مالا يستطيعون به شراء أرض فى القرية ، أى أن التعليم فى حد ذاته لم يؤثر فى قيمة الأرض فى نظرهم ، فالأرض أستقرار وأمن .

أما القداسة المرتبطة بالأرض فقد تغيرت النظرة اليها ، ومصدر ذلك أن عددا كبيرا من القرويين أصبح لا يملك قطعة منها ، ولهذا لا يحسون قداسة شىء لا يرتطبون به ، كما أن عمليات البيع والشراء أصبحت سهلة الآن وأضحى أنتقال الملكية من قروى إلى قروى لا تحوطه الانفعالات التى كانت تحوطه فيما سبق . ولذلك فقيمة الأرض الآن ليست فى قداستها ، وأنما بأعتبارها مصدرا « مضمونا » للحياة .

ولـكن ذلك لم يمنع فى بعض الحالات أن تتغير النظرة إلى قيمة الارض كلية فى سبيل « قيمة أكبر » . فيلجأ بعض القرويين إلى بيع أجزاء من

---

1 — R. Redfield, N.Y. 1956- PP. 137-139.

أرضهم للنهوض بنفقات تعليم أبنائهم، وهم بهذا يعتقدون أن «قيمة التعليم» والنتائج المترتبة عليه أكبر فى نظرهم من «قيمة الأرض».

لكن التغيير الملحوظ كان فى قيمة العمل الزراعى، فلم يعد أجل الأعمال شأنا ومع أنه لازال يمثل النشاط الاقتصادى الأول فى القرية، إلا أن الفكرة القديمة المرتبطة به لم تعد موجودة، «فهو نوع من العمل بجانب أنواع أخرى ممكنة، فقد ترتب على كثافة العلاقات الداخلية والخارجية بفعل عوامل التغير أن ظهر هناك اتجاه للمعاملات التجارية مع السوق ومع المدينة والقرويين بعضهم مع بعض. كما أن الحاجات المتزايدة للسكان وخصوصا حاجات المدينة جعل البعض يتخصص فى «البقالة»، والبعض الآخر يتخصص فى التجارة — تجارة القطن والغلال والانتاج الحيوانى ومستخرجات الألبان — ليكون واسطة بين القرويين والمدينة، ومع أن هؤلاء قد يزاولون نشاطهم الزراعى بجانب نشاطهم التجارى هذا، إلا أن هناك عددا منهم يتفرغ كليه طوال العام. الأمر الذى جعل «رأس المال النقدى» ينمو كمظهر آخر من مظاهر الملكية غير الأرض. والقرويون يقيمون مامع «الرجل» من المال بمقدار مايمكن أن يشتريه من الأرض إذا أراد. فكأن فكرتهم عن رأس المال النقدى مرتبطة أيضا بالأرض. ولما كان المشتغلون بالتجارة هم غالبا ممن ينتمون الى بدنات فى القرية، فأن نظرة الاحتقار للعمل غير الزراعى قلت كثيرا بل انها أخذت تتلاشى فى هذه الأيام. ومن هنا ارتفع مركز المشتغلين بالمهن والحرف تبعا لذلك وأصبح من الممكن لهم أن يدخلوا فى علاقات اجتماعية مع القرويين على مستوى النظراء.

أما القيم المتعلقة بالسلوك الاجتماعى فقد نالها قدر كبير من التغير. فالتدين والصلاح، باعتباره مقياسا الرجل الصالح فقدا كثيرا من

الأسس التى كانا يعتمدان عليها واعتقد أن تأكيدهما والضغط عليهما فى سلوك الفرد كان نتيجة لتنظيم العائلة والبدنة اجتماعيا واقتصاديا. ولهذا كان تفكك العائلة مؤثرا على هذا المظهر السلوكى. فقد زالت الرقابة العائلية ودور السلطة فيها فى رعاية هذا الأمر. ولذلك يلاحظ الآن أن عددا من القرويين لا يحرصون مثلا على الصلاة الفردية أو الجمعية أيام الجمع. ولم يعد هذا المقياس يدخل فى «تقويم الشخص» كما كان من قبل، بل إن المقياس الأول الآن هو المركز الاجتماعى والاقتصادى، ومن الدلائل القوية على عدم التأكيد على التدين وإدخاله فى «تقدير الشخص» أن هناك من يجاهر بافطاره فى رمضان دون أن يناله الجزاء المادى والاجتماعى الذى كان يمكن أن يناله من قبل. ويلاحظ أن كبار السن لا زالوا متمسكين بالتدين ولكن الغالبية العظمى من الشبان لا يظهرون مثل هذا التمسك. وبالتالى قلت مشاركة القروى فى إحياء الشعائر الدينية، وقل الذين يزورون الأولياء أو يذهبون الى «الموائد» التى تقام لهم، واختفت تقريبا النذور. وفى الخمس سنين الأخيرة لم يقم «حفل دينى» فى أحد هذه القرى، وارتبطت المواسم الدينية والأعياد بالمجاملات الاجتماعية العادية وتختفى الآن مظاهرها الدينية.

وقد ترتب على ذلك أن ظل القرويون يظهرون عدم الاهتمام التدريجى بالطرق الصوفية حتى اختفت نهائيا واختفى معها ما كان يصاحبها من نشاط اجتماعى. وقد لوحظ أن اختفاء هذه الطرق من القرى كان فى وقت مبكر يرجع الى ١٥ عاما تقريبا، وسببه العام هو التغيرات الاجتماعية العديدة فى القرى، الا أننى أبرز هنا العامل الاقتصادى. فالمشاركة فى إحياء الشعائر الدينية عن طريق هذه الطرق الصوفية كان يكلف العائلة والبدنة نفقات كثيرة كانت تتحملها قديما لأسباب متعددة، ولكن انخفاض المستوى الاقتصادى

جعل القرويين « يتهربون » من المشاركة ، وبالتالى انقطع روادها تدريجيا حتى لم تعد لها آثار فى هذه القرى . والجيل الحاضر من الشبان لا يعرف عنها شيئا .

وطبيعى أن تختلف طرق ومناهج التدريب الاجتماعى Socialisation والقيم المتعلقة به . فبعد إن كانت منوطة بالعائلة ، أصبحت منوطة الآن بالأسرة ، وأول مظهر من مظاهر التغيير هو الحرية بمعنى أن الأب أصبح الآن أكثر حرية فى توجيه مستقبل أبنائه أكثر من ذى قبل فى ظل العائلة . وأصبحت قيمه المباشرة هى القيم التى يحاول أن يغرسها فيهم . ومع ملاحظة التغير فى مجموع القيم بصفة عامة فى القرية يمكن ادراك التغير ، ولما كانت الرواسب القديمة لاتزال موجودة ، فان الطفل يلقن توقير الكبار واحترام الوالدين ، والأخذ بيدهما عندما تتقدم بهما السن . وهذا المظهر مرتبط بالنصائح الدينية وبتعاليم القرآن . ولكن نمو الفردية واستقلال الاسرة عن العائلة جعل التأكيد على الولاء والاخلاص للبدنة غير واضح تماما ، بل إن القاعدة الآن عامة أن يعلم الطفل « الاقتصار على شئونه » لا علاقة له بما يجرى للآخرين ، وأن يفكر فى مصلحته هو دون مصلحة أقاربه أو بدنته ، وأن « ماحدش ينفع حد » وان « الأقارب كالعقارب فاجتنبهم » . أو بمعنى آخر أن النزعة الفردية فى التربية الاجتماعية هى الظاهرة النامية الآن . وقد لاحظت أنه فى بعض الخلافات التى لا تزال تتخذ طابع « البدنة » لا يندمج فيها إلا عدد قليل منها وهم فى أغلب الأحيان من الذين لا تربطهم بالبدنة الأخرى علاقات مصاهرة . ولهذا كان الولاء الفردى موزعا بين أهل الأب وأهل الأم . الأمر الذى ترتب عليه زيادة فى تفكك وحدة البدنة والعائلة على السواء . وهكذا نرى أن

التدريب الاجتماعى تنعكس فيه « الفردية النامية » ، والأحوال الاقتصادية والطابع الذى أخذ يميز الأسرة الآن ، والاتجاه الى عدم مراعاة قاعدة معينة أثناء الزواج الذى يكون داخليا أو خارجيا .

وخلاصة القول ان اتجاه القيم الآن والنظرة الى الحياة يتغير الآن من الجمعية الى الفردية ، أى من القيم التى كانت مرتبطة بالعائلة الى القيم التى مع الأسرة بوضعها الحالى . وجوهر الإتجاه هو الى ابراز قيم الفرد كفرد فى مقابل الاتجاه القديم الذى كان ينحو نحو ابراز القيم الجمعية « الشخص » كجماعة .

هذا وقد تكلمت عن عوامل التغير الاجتماعى التى أدت الى النتائج السابقة والتى سأعرض لنتائجها بالتفصيل فى الفصول التالية . ولكن أعود الآن فاتناولها فى شىء من التحديد . وواضح اننى أنسب التغير الى عاملين داخلى وخارجى ، أو كما يقول جودفرى ومونيكا ويلسون الى تغير فى مدى العلاقات الداخلية والخارجية [1] .

فالعامل الداخلى اقتصادى ترتب على تغير علاقة الإنسان بالبيئة « الأرض » الأمر الذى أدى إلى تغير فى علاقته بأقرانه [2] ، فى العائلة أو فى مجتمع القرية . وتغير العلاقة هذا نجم عن تغيرات فى حجم السكان ، ولذلك ربطت بين زيادة السكان كمتغير أدى الى انخفاض المستوى الاقتصادى بالتغيرات المصاحبة التى حدثت فى نواحى الحياة الاجتماعية [3] ، وعلى

---

1 — Godfrey & Monica Wilson, Op. Cit., p. 25

2 — Maciver & Page, Society, London, 1953, p. 512.

3 — Ibid, p. 517

الأخص فى العائلة والحياة الاقتصادية والثقافة المادية . ولما كان القصد من دراسة التغير الاجتماعى معرفة الطريقة التى يتغير على أساسها « النظام الاجتماعى » مستجيبا للظروف المتغيرة التى يعتمد عليها (١) ، فقد عنيت بابراز العامل الاقتصادى كعامل هام فى التغير وما ترتب عليه من تغيرات متعددة فى القرى الثلاث .

والعامل الخارجى هو تأثير المدينة والقانون ، ولما كانت القرية جزءاً من كل _ كانت التغيرات التى تحدث فى الكل تؤدى عن طريق الانتشار الى تغيرات فى الجزء ، ولما كانت المدينة هى مركز التأثير المباشر على القرى فقد عنيت ابراز أثرها ، خصوصا وأنها « واسطة » الدولة عن طريق الأجهزة الحكومية فيها _ فى تطبيق القوانين ومراعاة تنفيذها على القرى . وفى دراسة تأثير المدينة سأعرض للأحداث الهامة التى مرت بها الدولة ، والتى رأيت أن لها علاقة مباشرة ملحوظة على التغير الاجتماعى والثقافى. وخصوصا وأن من العوامل التى أبرزها حامد عمار (٢) ، ما لم تكن لها أدنى أثر لا فى « سلوا » نفسها ولا فى القرى الثلاث . أما هذه الأحداث والتجديدات فهى:

١ _ الحرب العالمية الأولى التى بدأت فيها القرى تلمس بوادر التغير الاجتماعى . (٣) وفترة الرواج الاقتصادى التى أعقبتها .

٢ _ الحركات الوطنية الاستقلالية وازدياد الوعى السياسى والمظاهر التى ارتبطت بذلك كالثورات والانتخابات وغير ذلك .

٣ _ الأزمة الاقتصادية العالمية فى عام ١٩٣٠ والنتائج التى ترتبت على

---

1 — Ibid, p. 512

2 — Hamed Ammar, Growing up in an Egyptian Village, London, 1954, pp. 67-71

3 = Maciver & Page, Op. Cit., p. 509.

ذلك فى الاقتصاد القروى، وإنشاء البنك العقارى وبنك التسليف الزراعى والجمعيات التعاونية .

٤ _ قانون التعليم الالزامى وإلغاء الكتاتيب وإنشاء المراكز الاجتماعية

٥ _ الحرب العالمية الثانية وما ترتب من هجرات وتحديد المساحات الزراعية للانتاج الزراعى المتنوع والقوانين التموينية .

٦ _ القوانين الاصلاحية _ فى الصحة والادارة والتعليم .

٧ _ انهيار النظام الملكى وظهور قوانين الاصلاح الزراعى.

هذه هى الأحداث الهامة التى أعتقد أن القرى الثلاث قد تأثرت بها أما مباشرة أو عن طريق المدينة . وأشير هنا الى أن المرحلة التى تفصل بين الحربين العالميتين الأولى والثانية تعتبر مرحلة واحدة من التغير الاجتماعى والثقافى ، والمرحلة التى تبدأ من الحرب العالمية الثانية والممتدة الى اليوم تمثل مرحلة أخرى . وهذا التقسيم يقوم على أساس أن السرعة فى التغير ووضوح اتجاهاته أكثر فى المرحلة الثانية . ومع ذلك فقد اعتبرتها مرحلة واضحة طالما اننى أعتبر أن التغير بدأ يظهر ملموسا ابتداء من عام ١٩١٤ ، ويمكن القول بصفة عامة أن التغير تزداد سرعته وتتضح اتجاهاته بمرور الزمن .

تم بحمد الله فى يوم الخميس الموافق ١٢ يناير ٦٦

الفصل الثالث

العائلة



مقدمة : مفهوم العائلة والأسرة والبدنة .

١ — العائلة القديمة .

أ — حجم العائلة ومكوناتها :

ب — السلطة فى العائلة .

ج — العلاقات العائلية .

د — الزواج .

هـ — تحليل ومقارنة .

و — النتائج المترتبة على خصائص العائلة القديمة .

٢ — العائلة المتغيرة .

أ حجم العائلة وتفككها إلى أسر صغيرة .

ب — السلطة المتغيرة .

ج — العلاقات العائلية المتغيرة .

د — الزواج المتغير .

هـ — تحليل ومقارنة .

و — النتائج التى ترتبت على تغيير العائلة .

ز — مقارنة بين قريتى هلا وكفر الشيخ على ضوء التغير فى العائلة فى القيطون .

الفصل الثالث

« العائلة »

قبل عرض وتحليل مظاهر التغير الاجتماعى فى العائلة . أشير إلى أن «العائلة» هى الوحدة الأساسية فى الحياة الاجتماعية فى القرية ولا زالت على الرغم من مظاهرها المتغيرة لها هذا الوضع ويبدو أن دورها المهم فى المجتمعات القروية من المسائل الهامة التى لاحظها كثير من الباحثين فى الحياة الريفية فى مختلف أجزاء العالم . ففى « سلوا » القرية التى درسها حامد عمار ، لاحظ أن العائلة أيضا هى الوحدة الاجتماعية التى تدور فى أطارها حياة «الفرد» [1] وفى الهند تشغل العائلة من البناء الاجتماعى أهم مكان ، وتستمد هذه الأهمية: ليس لمجرد ماتؤديه من وظائف اقتصادية ، أو كمسؤولة عن التدريب الاجتماعى Socialisation والسلطة الاجتماعية ، بل لأن لها أهميـة عظمى فى المسائل الطقسية عند الهندوسى العادى (٢) . ولا يختلف دورها فى القـرية الصينية عن ذلك كثيراً (٣) . ولهذا كانت دراسة عـوامل التغير وآثارها فى بنـائها ووظيفتها . أداة مهمة فى فهم التغير الاجتماعى عامة فى القرية .

ولـكن ماهو مفهوم « العائلة » كما سنستخدمه هنا ؟ وتحديد هذا المفهوم من الأهمية بمكان لأنه بجانب مايؤدى إليه من الدقة الوضوح ، يلقى الضـوء على « التنظيم العائلى » فى القرية فى فترة التغير ، وفترة ماقبله . فالأسرة التى

1—Hamed Ammar, Growing up in an Egyptian village;London, 1954, p. 42

2 — Dube, Indian Village, London, 1956 . P· 151

3 — M Yang, Ghinese Village, London, 1947, P. 45

تقابل كلمة Family باللغة الانجليزية تعنى من الناحية السوسيولوجية معيشة رجل وامرأة أو أكثر معا ، على أساس الدخول فى علاقات جنسية يقرها المجتمع ، وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات اجتماعية ، ومايترتب على ذلك أيضا من رعاية وتربية للاطفال الذين يأتون نتيجة لهذه العلاقات (١) . أو أنها جماعة تقوم على العلاقة الجنسية بشرط أن تكون محددة ودائمة بصورة تكفى لاعالة الأطفال وتربيتهم (٢) . والتعريف الأخير خاصة يقوم على النظر للأسرة على أنها مكونة من زوج وزوجة وأولادهما ، وبصفة عامة ، نظرا للأشكال التاريخية العديدة والمعاصرة للاسرة يضاف إلى كلمة Family صفة تحدد شكلها . ولهذا كان هناك الأسرة الممتدة Extended Family وهى الجماعة الاجتماعية التى تتكون من عدد من الأسر المرتبطة سواء كانت النسبة فيها إلى الرجل أو المرأة ، الذين يقيمون فى مسكن واحد . وهى لاتختلف كثيرا عن الاسرة المركبة Composite Family أوالأسرة المتصلة Joint Family (١) ويرجع الفضل للانثروبولوجيين فى اكتشاف هذه الاشكال المختلفة للاسرة سواء من حيث الشكل أو الإقامة أو النسبة . نظرا لاختلاف المجتمعات البدائية فى نظم القرابة ، وتداخل العلاقات المترتبة على ذلك ، الأمرالذى جعلهم يجمعون هذا الاختلاف بنسبته إلى شكل أم وهو البدنة Lineage أو العشيرة Clan .

---

1 — H P. Fairchild ed Dictionary of Sociology, New York, 1910 P. 114 .

2 — Maciver & Page; Society, London, 1953, P, 238 .

3 — Fairchild, ed. Op, Cit, , P. 114.

ولعل من أهم وجوه الشبه بين المجتمع البدائى والقرية ، هى علاقات القرابة ، والأشكال المتشابهة التى تترتب على ذلك . ولهذا كان شكل الأسرة فى كثير من القرى المدروسة ينطبق على الاسرة الممتدة أو المتصلة كما لاحظ ذلك عمار ودوبيه Dube ويانج Yang .

ولما كانت « العائلة » هى الوحدة الرئيسية فى بناء القرية الاجتماعى ، فان من المناسب أن نصف علاقات القرابة المتصلة بها ليمكن ادراك أبعادها كما هى موجودة فعلا . لأن تغير هذه الابعاد ، أو بمعنى آخر « كثافة العلاقات » المتعلقة بهذه الابعاد ، علامة هامة من علامات التغير الاجتماعى فى العائلة خاصة ، وفى القرية عامة . ولهذا سأستخدم كلمة « العائلة » فى مقابل الكلمة الانجليزية Extended Family بصورة لا تختلف عن استخدام عمار فى قرية « سلوا » أو دوبيه فى قرية شاميربت Shamirpet فى الهند أو يانج فى قرية تايتو Taitou فى الصين ، لتشير إلى (الجماعة التى تقيم فى مسكن واحد وتتكون من الزوج والزوجة وأولادهما الذكور والاناث غير المتزوجين ، والاولاد المتزوجين وأبنائهم وغيرهم من « الاقارب » كالعم أو العمة والابنة الأرمل الذين يقيمون فى نفس المسكن ، ويعيشون حياة اجتماعية واقتصادية واحدة ، تحت اشراف رئيس العائلة) أما كلمة الأسرة Family فسأستخدمها لتشير إلى « الجماعة المكونة من الزوج والزوجة وأولادهما غير المتزوجين الذين يقيمون فى مسكن واحد » وطبيعى أن الاسرة تصبح عائلة إذا أنتقلت من حالة البساطة السابقة الى حالة التعقيد بوجود أكثر من « جيل » واحد فيها ، بزواج ابن وبقائه معتمدا اجتماعيا واقتصاديا على والده .

والعائلة والأسرة فى القرية تمثل علاقات قرابة من الدرجة الأولى . ولكن

فى كل قرية يرتبط عدد من العائلات أو الاسر برباط آخر يعتبر علاقة قرابة من الدرجة الثانية وهو انتمائهم جميعا إلى أصل « جد أكبر » واحد ، فيكونون فى هذه الحالة مايسمى « بالبدنة Lineage والبدنة فى القرية لا يختلف مفهومها العام عن المفهوم الانثروبولوجى لها فى المجتمعات البدائية» فالعشيرة Glan النويرية مثلا هى أكبر جماعة من الاقارب — نسبا من ناحية الاب — يرجعون أصلهم إلى جد واحد ، والبدنة Lineage قسم من العشيرة (¹) . وهذا المفهوم هو مايستخدمه أيضا راد كليف براون ، وإن حدد البدنة بمجموع الأعضاء الذين يكونون على قيد الحياة فى وقت معين، ومداها الزمنى عدد معين من الاجيال (²) .

والبدنة فى القرية هى الجماعة القرابية الكبيرة التى تنتمى اليها جميع العائلات والأسر المشتركة فى الأصل الواحد والإسم الواحد ، ولهذا يكون لكل بدنة فى القرية « لقب » معين ، يطلق كصفة على جميع الافراد والقرية بدورها تنقسم الى بدنات من هذة الزاوية ، والعلاقات الأساسية فى مجتمع القرية علاقات بين بدنات . وفى داخل البدنة الواحدة علاقات بين عائلات . والبدنة ككل لها أبعاد ثلاث : القرابة والمكان والمركز الاجتماعى والاقتصادى . لكن العائلات لا تكون لها نفس الابعاد إلا داخل البدنة التى تنتمى اليها ولذلك تعتبر البدنات داخل القرية وحدات مستقلة ، الأمر الذى جعل العلاقات من نوعين رئيسيين : الأول عام إذا إتصل بمجتمع القرية ككل أو ببدنة أخرى فيكون على مستوى البدنات ، والثانى خاص ، داخل البدنة الواحدة ، فيكون على مستوى العائلات . وهكذا كان ادراك التغير فى أبعاد البدنات ومستويات العلاقات والعوامل التى أدت الى ذلك . كاشفا لمدى التغير فى « التنظيم العائلى واتجاهاته الاساسية .

1 — E.E. Evans-Pritchard, The Nuer, Oxford, 1940, P. 192 ,
2 — A.R Radcliffe-Brown, Structure and function in Primitive Society London, 1956, P. 70 .

ويلاحظ أن النسب والاقامة أبوى Patrilineal & Patrilocal ، وقد لا يكون راجعا الى التراث الدينى الاسلامى وحده . كما ذهب الى ذلك حامد عمار ، بل قد يرجع أيضا فيما يبدو ، الى طبيعة الحياة الريفية فى قرى تعتمد على الزارعة كمهنة أساسية كما لوحظ ذلك فى عدد كبير من قرى الهند والصين . ومع أن التعاليم الدينية تساوى بين درجة القرابة من جهة الأم والأب إلا أن المعول الأكبر على القرابة من جهة الأب على الرغم من القول الشائع بأن « الخال والد » . كما يلاحظ أن كلمة العائلة « فى القرية تستخدم فى معنى يساوى تقريبا كلمة «الدار أو الدوار » أو يسمى بالانجليزية Household ، وان كانت كلمة « الدوار » أقتصرت فى السنين الأخيرة على المكان الذى يخص « البدنة » كلها للاجتماع فى المناسبات المختلفة . وقد لاحظ ذلك حامد عمار فى سلوا ، فالعائلة « والبيت » يستخدمان كل مكان الآخر (¹) ، ولعل الاختلاف بين « البيت و « الدار » اختلاف لهجى فقط كما أن تقسيم العلاقات القرابية الى ، بدنة ، وعائلة ، وأسرة ، لا يمثل الواقع فى اللغة الدارجة ، وإنما هو تصنيف علمى لغرض الدراسة ، وان كان يطابق الواقع تماما . فكما أن « العائلة » تستخدم مرادفة لكلمة « الدار إلا أنها تستخدم دون تمييز لتشير الى هذه التقسيمات الثلاث جميعا ، ويكاد هذا الاستخدام لكلمة العائلة يتطابق مع استخدامها فى قرية شاميربت Shamirpet كما لاحظ ذلك دوبيه Dube .

اذن فالبدنة ، والعائلة ، والأسرة هى المستويات الثلاث لعلاقات القرابة فى القرية . وتمثل العائلة منها ، خصوصا فى الفتره السابقة على التغير ، المكان

1 — Hamed Ammar, Op. Cit., P. 42
1 — Dube, Op. Cit., P. 124
3 — A. Q. Radcliff•-Brown-Op. Cit., P 58.

الأول الذى يعيش فيه الفرد حياته الاجتماعية والاقتصادية . والبدنة لا تتعين أبعادها إلا على أساس الوحدات العائلية ، كما أن التغير فى العائلة يؤثر بدوره فى البدنة لا العكس . ولهذا جعلتها محور الدراسة . وهذه المستويات فى مجتمع القرية ككل تمثل مجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية ، على أساسها يمكن فهم العلاقات بين مختلف البدنات ، وبالتالى يمكن فهم مركز البدنة والعائلة فى البناء الاجتماعى (١) . وسوف نرى فيما بعد أن هذه العلاقات القائمة على أساس « النسق القرابى » تعين مركز الفرد فى القرية ، وتحدد مجال علاقته المباشرة وغير المباشرة ، هذا الى جانب أنها تحدد الأدوار Roles والمراكز Positions داخل العائلة والبدنة .

أولا — العائلة القديمة

فى هذه الفترة كان « عالم الفرد » هو القرية التى يعيش فيها حياته كلها ولم تكن به حاجة أن تمتد علاقته أبعد من علاقات قرابته ، أو آفاقه أبعد من جيرانه فى المنزل الذين يمثلون رابطة القرابة أو من جيرانه فى الحقل الذين يمثلون أفرادا من عائلات تنتمى الى بدنات أخرى ، أو أفراد من قرية مجاورة ، لم يكن يجد فيهم اختلافا أو يحس بينهم فرقا فى المظهر أو المهنة أو طريقة أدائها أو العادات أو النظرة الى الحياة وما تقوم عليه من قيم فقد كان دائما فى حالة توازن نفسى يقوم على حالة التوازن الاجتماعى والاقتصادى فى عائلته وفى مجتمع القرية ككل . فحاجاته مشبعة ، وميوله تجد القوالب التى تنصب فيها ، واذا صادفته حيرة من أمر ، وجد التفسير من كبار السن أو من رجال الدين وكانت آماله تنبعث من الأرض وتهدف اليها ، وكل ما يريد ، أن يكون فلاحا ماهرا ، وزوجا قادرا على الانجاب وفوق هذا كان يحس بالأمن ، لأن عائلته كانت تضمن له كل أسباب الطمأنينة ، فهى مسئوله عن أخطائه ، وتفخر به إن أظهر شجاعه أو تفوقا .

وفى علاقته مع الغرباء كان يحس بعائلته ومركزها الاجتماعى الذى يطابق مركزه هو . وكانت الأبعاد الاجتماعية التى يرسمها تقوم على هذه الاعتبارات جميعا . ومع هذا لم يحس بأن فرديته لا وجود لها ، ولكنه لو حاول أن يخرج على نموذج الشخصية والقيم المتعلقة بالسلوك الاجتماعى . لوجد ضغطا اجتماعيا ولا يلبث أن يعود الى النموذج .

هذه الصورة العامة لشخصية الفرد تكشف عن طبيعة التنظيم الاجتماعى الذى يرتكز أساسا على العائلة ، والوحدة الاجتماعية والاقتصادية الأولى فى القرية . والعائلة فى ضوء التعريف السابق هى نموذج الحياة العامة فى القرية حتى أن غير المشتغلين بالزراعة ، كالنجارين وحفظة القرآن والحلاقين وغيرهم تكون العائلة هى نموذج حياتهم أيضا وقد يحدث فى حالات قليله أن ينفصل « ولد » متزوج من العائلة ليكون أسرة مستقلة . ولكن نظرا لقلة هذه الحالات وانحرافها عن النموذج ، فان البدنة والقرية لا ترحبان بمثل هذا الانفصال ، وغالبا ماتكون العوامل المؤدية الى عودة المنفصل الى « حظيرة » العائلة أقوى من العوامل الداعية لهذا الانفصال . كذلك قد تنقسم العائلة فى وقت ما خصوصا بعد موت الأب الأكبر وقيام خلافات بين الأبناء المتزوجين تدعوهم الى الاستقلال ، فان القاعدة أن يظل المسكن واحدا مع تحديد أقسام منفصلة منه لكل واحد منهم ، وغالبا ما يكون هذا الاستقلال اقتصاديا أكثر منه اجتماعيا وتظل قواعد السلطة والعلاقات الداخلية والخارجية مرعية الى حد كبير . وفى بعض الأحيان يستقل الأبناء كل منهم بمسكن منفصل تماما ، ولكن نمو الأسرة يكون بعد ذلك فى اتجاه النموذج « العائلة » . وبصفة عامة لا تؤدى هذه الانقسامات أو الخلافات الداخلية الى تغير ملحوظ فى علاقة العائلة أو الأسرة بالبدنة التى تمثل دائرة القرابة الكبيرة ، وتظل علاقات القرابة وما يترتب عليها من علاقات اجتماعية تسير على

اتجاهها القديم . وفى مثل هذه الأحوال تظهر سلطة البدنة ككل فى حسم الخلافات وإعادة المياه الى مجاريها . ويلاحظ أن الأفراد اذا تعودوا على سلطة العائلة فانهم نادرا ما يتمردون على سلطة البدنة الممثلة فى كبار السن أو « الشيخ » الممثل لها فى سلطة القرية .

وتتفاوت العائلات من حيث الحجم . والتفاوت فى الحجم له مظهران : عدد الأفراد الذين يعيشون فى وقت واحد معا فى « دار » واحدة ، وسعة هذه الدار . والحجم من حيث عدد الأفراد يتوقف على عامل الزمن . فاذا ظل رب الأسرة على قيد الحياة زمنا طويلا ، فان الافراد نتيجة لزواج الأبناء والأحفاد يزدادون ، كما أنه يتوقف الى حد ما على نسبة الخصوبة وتعدد الزوجات . فقد لوحظ أن بعض العائلات ترتفع فيها نسبة الخصوبة وفى نفس الوقت يميلون الى الزواج بأكثر من واحدة ، وفى الحالة الأخيرة يكون مركز العائلة الاقتصادى يسمح بذلك .

وطبيعى أنه كلما زاد عدد أعضاء العائلة ، ازدادت سعة الدار من حيث عدد « الغرف » التى تلحق بها ، أما سعة الدار فانها ترتبط أيضا بالمركز الاقتصادى ، لأن الدار لا يقيم فيها الإنسان وحده ، بل يشاركه الحيوان فكلما ازدادت مساحة أرض العائلة ، ازداد عدد الحيوانات والآلات الزراعية ، الأمر الذى يؤدى الى اتساع المكان المخصص لها . ونظرا لارتباط كلمة « الدار » بالعائلة فانهم يشيرون الى حجم الدار مرتبطا بمركز العائلة الاقتصادى وكثرة عدد أعضائها . و « باب الدار » إذا ظل مفتوحا — كما قال أحد المخبرين — يدل على كبر حجم العائلة لكثرة الداخلين والخارجين كما أنه يدل على « نزعة الضيافة والكرم » التى تميز العائلة . ولهذا كان

« غلق الباب » من المثالب التى تذكر للعائلة فى حالات الخلاف أو التفاخر .

ويلاحظ أن « مكونات العائلة » لا تقتصر على « البشر » فقط ، فهى فى مفهوم القرويين تنقسم الى قسمين : قسم مادي ويشمل الأشخاص الذين يعيشون فى « الدار » والحيوانات الأليفة التى تستخدم فى الانتاج الزراعى أو الانتاج المنزلى كالأغنام والماعز والطيور والكلاب ، وأدوات الزراعة المختلفة كالفؤوس والمحاريث وغيرها . وتبدو أهمية هذا القسم من مكونات العائلة فى العلاقات التى يكونها الأفراد مع الحيوان والآلة . ولهذا تكون « الجاموسة » الحيوان المفضل لأن لها جلدا على العمل بجانب ما تدره من الألبان وكذلك الشأن بالنسبة للفأس والمحراث . ويفاخر القروى بأن الجاموسه « تسمع كلامه وتطيعه وتكون هينة لينة معه دون غيره » وهذا دليل على « العلاقات الشخصية » التى يقيمها القروى مع مكونات العائلة الأخرى . والقسم الثانى لا مادى ويتعلق بشهرة العائلة وسمعتها ، وعلى ضيافتهم وكرمهم وتعاونهم مع الأقارب. والقسمان المادى واللامادي ترتبطان كمكونات للعائلة وكمحددان « لصبغتها العامة » .

ويقوم مركز العائلة ودورها فى البدنة على : الحجم والتضامن الداخلى والتعاون الخارجى والسلطة فى البدنة والقرية فكلما كان حجم العائلة كبيرا ، وتضامنها الداخلى تاما ، وتظهر قدرا كبيرا من المساعدة والتعاون مع العائلات الأخرى . وكان لكبار السن فيها نفوذ ملحوظ فى البدنة والقرية ككل خصوصا إذا كان العمدة أو شيخ البلد أو شيخ الخفراء من بين أعضائها . كلما زاد دورها وزاد مركزها . وتتدرج مراكز العائلات وأدوارها على على هذا الأساس . أما حدود Limits العائلة فى القرية ككل فانها تقوم

على : البدنة التى تنتمى اليها ، المركز الاقتصادى ، المكان الذى تشغله من القرية . ومع ذلك وان وضعها فى البـــدنة أهم من وضعها فى القرية على أساس مدى العلاقات الذى لا ينتشر ليتخطى دائرة البـدنة إلا فى حدود ضيقة جدا . فالحياة الاجتماعية للفرد من مولده إلى مماته من حيث التدريب الاجتماعى والعادات والتقاليد وطرق العمـل والزواج والترفيه وغير ذلك ، يجد كل ما يتعلق بهذه النواحى فى العائلة . ولذلك لا تكون به حاجة إلى إنشاء علاقات تتخطى حـدود البدنة عامة خصـوصا وأنه إذا اقتضى الأمر مناقشة بعض الأمور التى لها صبغة عامة بالقرية فان كبار السن أورؤساء العائلات أو ممثلى البدنة منهم هم الذين يقومون بذلك ، ولهذا يظل الفرد كفرد بمعزل عن العلاقات الخارجيـة . إذن فالعائلة بالنسبة للفرد عبارة عن مجتمع صغير داخل مجتمع أكبر هو البـــدنة تقوم العلاقات فيها على أساس المشابهة فى حدود علاقات القرابة ذات الأهمية العظمى .

أما النسق القرابى فانه يقوم على قواعد الشريعة الإسلامية التى تـكون « النسبة » فيها للأب مع الاعتراف بالقرابة من ناحية الأم . ولكن القرابة فى اتجاه الأب ، خصوصا فى هذه الفترة كانت الظاهرة الهامة فى حياة العائلة ولكن إذا أخذنا البدنة ككل ، فانه نظرا للاتجاه الى الزواج الداخلى ، تكون القرابة من ناحيـة الأب والأم مختلطة ، نظرا لإنشاء الجميع تقريبا إلى بدنة واحدة . وذلك كان تتبع سلسلة النسب فى عائلة واحدة يؤدى رسم سلسلة نسب واحدة تخص البدنة كلها . وعلى هذا ففى دراسة للنسب يكفى أن تختار أى عائلة دون أى قاعدة . وقد يحدث أن تصاهر عائلة ، عائلة أخرى من بدنة أخرى . إلا أن حـــدوث ذلك كان قليلا ، ولم يترك آثارا هامة على العلاقات الاجتماعية . والقرابة فى المجتمع الإسلامى ترتبط بمسألة هامة وهى مسألة الوراثة . ولذلك فالوراثة فى القرية مهمة جدا فى نظر القرويين لأنها

ترتبط بوراثة الأرض . ومع أن الشريعة الإسلامية نصت على أن « نصيب البنت نصف نصيب الذكر » ، إلا أن العائلات كقاعدة تميل الى حرمان البنات كلية أو تقليل أنصبتهن ، عن طريق تسجيل الأرض فى حياة الأب للأولاد الذكور ، والفكرة الأساسية ابقاء الأرض كما هى فى الاتجاه الأبوى ، ومع أن العائلات كانت تميل إلى الزواج الداخلى وبذلك لا تتسرب الأرض عن طريق هذا النوع من الزواج خارج البدنة ، إلا أنهم مع ذلك لا يميلون أن تخرج الأرض من وحدة العائلة الأبوية . أما المسكن فان القاعدة العامة فى حالة إمكان وراثة البنت أرضا ألا ترث المسكن الذى يبقى للأولاد الذكور المتزوجين وغير المتزوجين . ومن الأمور التى كانت مصدر نزاع مهم بين العـائلات أن الزوج من عائلة معينة كان يطالب بميراث زوجتـه من عائلة أخرى فى الأرض . ويطول النزاع ويتخـذ فى بعض الأحيان مظاهر حادة نظرا لأن الأرض فى حالة موت الأب ، كانت تعتبر وحدة لا تقسم وتظل تزرع عن طريق العمل الجمعى . أما النزاع حول المسكن فكان معدوما تقريبا لأن الزوج حسب التقاليد المرعية ما كان ليبيع الجزء المخصص لزوجتـــه خصوصا وأن أحدا حتى أخوة الزوجة يرفضون الشراء ، وهو إلى جانب ذلك يرفض أن يستغـله لسكنه الخاص ويترك منزل أسرته . ولعل الاتجـاه إلى عدم توريث البنت إلى جانب بعض التقاليد الأخرى يفسر « نظام الهدايا الملزمة » لها فى الزواج وفى المناسبات المختلفـة من جانب عائلتها . وهذه الهدايا لا تنقطع بموت والديها ، بل تستمر طالما استمر نموذج العائلة القـديم خصوصا إذا عاش الأولاد المتزوجون معاً . وحتى فى حالات الانفصـال ، فان كل أخ يجد نفســه ملزما بارسال الهدايا الى أخواته المتزوجات . وقد قال لى أحد المخبرين ، أن الزوج كان ينظر الى هذه الهدايا على أنهـا حق لزوجته ، وكان التقليل منها أو قطعها يهدد مركز الزوجة .

أما اصطلاحات القرابة فهى تصف درجات القرابة المختلفة أو نظرة الاحترام والتشابه كما يلى :

الاصطلاح	مدلوله
أبا	يطلق على الأب البيولوجى أو من فى سنه من الأقارب ، أو والد الزوج .
أما	يطلق على الأم البيولوجية أو من فى سنها من الأقارب ، أو أم الزوج
جد	يطلق على والد الزوجة أو من فى سنه من الأقارب أو كبار السن من ناحية الأم .
جدة	يطلق على والدة الزوجة أو من فى سنها من الأقارب أو كبيرات السن من ناحية الأم .
سيد	يطلق على والد الأب أو من فى سنه من الأقارب أو كبار السن من ناحية الأب .
ست	يطلق على والدة الأب أو من فى سنها من الأقارب أو كبيرات السن من ناحية الأب .
عم ، عمه	يطلقان على اخوة الأب أو على أقرانهما من حيث السن من ناحية الأب .
خال ، وخاله	يطلقان على اخـوة الأم أو على أقرانهما من حيث السن من ناحية الأم .
أخ	يطلق على الأخ البيولوجى أو المساويين فى السن فى العائلة والبدنة .
أخت	يطلق على الأخت البيولوجيـة أو المساويات فى السن فى العائلة والبدنة .
سلف ، سلفة	يطلقان على أخ الزوج أو زوجة أخ الزوج .
ضرة	تطلق على الزوجة الأخرى .
حماه	تطلق على أم الزوجة أو أم الزوج عند الحديث غير المباشر .

وبصفة عامة يلاحظ أن كلمة « عم » تستخدم استخداما واسعا ، خصوصا عند صغار السن دون الثلاثين ، تأدبا عند مخاطبة من هم أكبر سنا منهم أو عند الإشارة اليهم فى الحديث ، ولو كانوا من الغرباء .

...

السلطة فى العائلة مرتبطة ارتباطا وثيقا بوظائفها الاجتماعية والاقتصادية . ويبدو دور هذه السلطة واضحا فى ضوء مسئولية العـائلة عن التدريب الاجتماعى لأفرادها وسلوكهم الاجتماعى وحياتهم الإجتماعية داخلها أوخارجها وفى تنظيمها لشئون الحياة الاقتصادية التى يكون النشاط الأول فيهـا هو الانتاج الزراعى ، وطريقة المعيشة والعمل الجمـعيين . ومع أن السلطة فى

المجالين الإجتماعي والاقتصادي واحدة إلا أنني سأناقش كل ناحية على حدة .

فالسلطة الإجتماعية لها مظهران : أحدهما عام ، والآخر خاص . والمظهر العام يكون من اختصاص الرجل ، والمظهر الخاص يكون من اختصاص المرأة ، ولا يعنى ذلك ازدواجا فى السلطة داخل العائلة ؛ لأن سلطة المرأة فى الحدود التى سنتكلم عنها مستمدة من طبيعة المسائل التى تشرف عليها وهى معتمدة فى نهاية الأمر على سلطة الرجل . لأن المرأة عامة تابعة للرجل وعلاقتها به تكون على أساس الاحترام والطاعة . فالرجل يشرف على شئون العائلة الاجتماعية المتصلة بضبط العلاقات بين مكوناتها المختلفة ، وبينها وبين العائلات الأخرى . فهو من الناحية النظرية مسئول عن تدريب الأولاد اجتماعيا ومراقبة سلوكهم الاجتماعى وتقسيم العمل بينهم والعمل على تزويجهم ، أما المرأة فان نطاق سلطتها يقتصر على المسائل المتصلة بادارة « شئون الدار » ومن الناحية العملية تكون مشرفة على الإنتاج الداخلى كمستخرجات الألبان وإعداد الخبز ونظافة المنزل ، وفى بعض الاحيان إطعام الحيوانات . كما تكون هى ذات الشأن فى تربية الأطفال حتى السن التى يستطيعون فيها المساهمة فى العمل الزراعى . كما تكون ذات سلطة تامة فى تدريب البنات حتى يتم زواجهن . فهى التى تقوم باعدادهن للحياة الزوجية . وهكذا تلقنها قيم الحياة النسوية وتعلمها حقوقها وواجباتها ، وبصفة عامة تجعلها تنصب فى القالب المميز لشخصية المرأة فى العائلة . ولهذا تكون تربية الأولاد الذكور فى مرحلة منها من اختصاص المرأة ، وبعد ذلك تكون من اختصاص الرجل .

أما السلطة الاقتصادية ، وهى فى الغالب تدور حول الإنتاج الزراعى

والعمليات الزراعية المتصلة به ، فالرجل صاحب الكلمة النهائية فيها . وفى هذا الصدد يلاحظ أن الرجل كانت له حرية تامة فى تحديد المساحات التى تزرع بأنواع المحاصيل المختلفة ، وتكون خبرته فى العمل الزراعى التى ورثها عن الأجداد ذات معول كبير فى توجيه العمل . ولما كان العمل جماعيا فان تقسيمه من اختصاصه ويراعى فيه السن . فالأطفال والشبان والاولاد المتزوجون وكبار السن منهم يناط بهم أنواعا مختلفة من الأعمال. وكقاعدة تزداد مسئولية الولد كلما تقدمت به السن . وسوف أتعرض لهذا الموضوع فى الفصل الخاص بالحياة الإقتصادية .

هذا وترتبط السلطة فى العائلة بالسن، ولهذا كان الأب الأكبر هو صاحبها فى الحدود التى أشرنا إليها من قبل . وتكون زوجته هى صاحبة السلطة فى حدودها أيضا . فاذا تقدمت بالأب السن فانه يظل صاحب السلطة شكليا ولكنه يشرك معه أكبر أولاده الذى يمارس سلطات والده فعـلا ، وعند ذلك يتمتع بما يتمتع به والده من طاعة واحترام . فاذا مات الوالد يظل الابن الأكبر صاحب السلطة مالم تتفكك العائلة ، ولكنه يشرك والدته فى هذه الحالة عن طريق المشورة . وإذا كان الأب متزوجا من أكثر من زوجة واحدة ، فان زوجته الأولى خصوصا إذا كانت أكثر الزوجات انجابا ، تكون لها السلطة على الزوجات الأخريات وعلى زوجات أولادها أو زوجات الأولاد الآخرين ، وفى بعض الأحيان يتعذر على الزوجة الأولى أن تمسك بالسلطة المنزلية فى يدها ، فيشتد الخلاف بين الزوجات ، الأمر الذى قد يهدد تضامن العائلة . ولهذا يلجأ الزوج الى تقسيم الأعمال المنزلية واعطاء كل زوجة سلطة نهائية فى حدود هذا التقسيم .

وللسلطة العائلية على هذا النحو عدة نتائج:

١ ـ احترام السن ، فالأصغر يحترم الأكبر ، وهذا حتى تصل الى الأب الأكبر صاحب السلطة الذى يتمتع بأكبر قسط من الاحترام وهذه القاعدة مرعية أيضا عند الإناث فتتمتع الأم الكبرى بطاعة جميع الزوجات والبنات لها . ولا يقتصر احترام السن على الوحدة العائلية ، بل ان الطفل يعلم أن يحترم الكبار عامة . وخصوصا من العائلات الاخرى فى البدنة التى ينتمون اليها ، ويكون الموقف ازاءهم مماثلا للموقف ازاء الكبار فى عائلته . فالشاب لا ينبغى أن يجلس مع من يفوقه سنا ، وإذا حدث وجلس لا يتكلم ، بل يراقب فقط ، كما أنه لا ينبغى أن يعلق على أحاديثهم فى وجوده مع رفاقه .

٢ ـ احترام المركز فى دائرة القرابة ، أى أن الذين يحتلون فى العائلات مركزا متشابها يكون لهم نوعا من السلطة على من هم أصغر منهم . فاذا حدث أن لفت أحد نظر شاب من غير عائلته الى شىء معين ، ولم يمتثل ، يلاقى عقابا من الكبار فى عائلته . أو قد يوقع عليه العقاب مباشرة من صاحب هذا المركز دون الرجوع الى عائلته . ومثل هذا السلوك فى دائرة القرابة ، لا يلقى اعتراضا من أحد ، بل هو من نماذج السلوك المرحب بها ، والتى تفهم فى حدود الحقوق القرابية .

٣ ـ سيادة الذكر ، فالعمل فى الأرض الذى هو مصدر الحياة ، يقوم به الرجال ، وهو العمل الشاق ، الشريف المقدس ، الذى لا يقوى عليه غيرهم وبالتالى فان لهم السيادة ، والمرأة تقوم بدور ثانوى ، ولهذا تحتل مركزا أدنى ، ووجودها مستمد من وجود الرجل ، ولهذا فان احترامها وطاعتها

له حق له واجب عليها دون أن تقابله واجبات من الرجل نحوها . ومثلها الأعلى أن تظل تخدم الرجل وتطيعه وتلتمس رضاه ، دون أن تتوقع منه شيئا .

٤ ـ شئون العائلة من اختصاص المسئولين فيها . ولهذا ليس لأى عضو آخر فيها أن يتدخل لا بالموافقة أو الاعتراض على شىء ، لأن الكبار يعرفون أكثر وهم أقدر على التصرف نتيجة لخبرتهم ومركزهم . فاذا كان الأمر يتعلق بخلافات داخلية ، فان أمرها يجب أن يظل داخل حدود العائلة ، وليس لأحد أن يتحدث فى هذه المسائل مع الغير . ويحرص الجميع على ذلك . وحرصهم ذلك دليل على تضامن العائلة من ناحية ، وعلى انفراد الكبار بالسلطة فيها من ناحية أخرى .

...

وعلى أساس نظام السلطة فى العائلة تتحدد العلاقات الاجتماعية داخلها ويتعين اتجاه العلاقات الخارجية ، كما أنه على أساس النتائج السابقة لهذا النظام تتخذ العلاقات الداخلية بين الأعضاء طابعا معينا . ويلاحظ بصفة عامة أن الأطفال يكونون فى مراحل حياتهم الأولى أكثر حرية فى التعبير عن رغباتهم وفى أظهار دوافعهم ، وتظل حريتهم تتقيد كلما كبروا فى السن حتى تصبح الرغبات الفردية والتأكيد عليها ، مظهرا سيئا من مظاهر الشخصية ، ولهذا كان من أهم أهداف التدريب الاجتماعى خلق الشخصية الأنطوائية . فالفرد كفرد لا قيمة له ألا فى العائلة ، وقيمه التى يقرها مجتمع القرية هى القيم العائلية ، فهو يعمل من أجل العائلة ، ويتزوج من أجل العائلة ، وينجب من أجل العائلة ، ولهذا كانت شخصية العائلة هى التى تحدد نماذج سلوكه وتعين له المسموحات والممنوعات ، وأستمرار التأكيد على القيم

الجمعية ، يجعل الشخصية تنصب فى قالب يتميز بالجمود . ومن الأمثلة على ذلك أن التعبير الفردى عن السرور أو الحزن يقابل بالسخرية والتهكم . فسرور الفرد أو حزنه هو سرور العائلة أو حزنها . وبمعنى آخر يصف سلوك الفرد دائما بالأحجام . ولهذا ليس من السهل أن تعرف حقيقة مايجرى فى ذهن القروى دون معرفة نموذج العائلة التى ينتمى إليها . وتبدو آثار هذا كله فى العلاقات الداخلية بين الزوج والزوجة ، وبينهما وبين الأولاد ، وبينها وبين الأولاد بعضهم مع بعض . وتمتد هذه العلاقات إلى زوجات الأبناء وكل من يقيمون فى « الدار » .

١ — الزوج والزوجة :

تتحدد العلاقة بين الزوج والزوجة على أساس معين . فالزوج فى علاقته مع زوجته لابد أن يظهر « البرود واللامبالاة » والأستخفاف بآرائها وعدم الأستماع اليها . أما الزوجة فعليها أن تخدم زوجها بأخلاص وتحترمه وتطيعه ولا ترد الأهانة ، أى أن تقبل كل مظاهر سلوكه نحوها دون مناقشة أو أعتراض . كما لا يجب أن يظهر الزوجان ميلهما أحدهما للآخر علنا . ومن الأمور التى تعيب الرجل أن يكون لزوجته نفوذ أو تأثير عليه من أى نوع فعيشة زوجة شابة مثلا داخل العائلة وفى وجود « الحماه » تسبب لها مصاعب كثيرة ، وغالبا ماتنشأ خلافات متعددة بينهما ، تحاول أن تقصها على زوجها أثناء انفرادهما ليلا . وكقاعدة يستمع الزوج ، ولكنه يظهر عدم الأهتمام ، لأنه لا يملك فى وجود السلطة الابوية أن يعترض على تصرفات والدته ، حتى لو أقتنع بأن زوجته على صواب وفى بعض الاحيان يمنع زوجته من ذكر أي شيء له ، ويعاملها بقسوة إن عادت إلى ذكر أى شيء يتعلق بوالدته . وفى هذه الحالة قد تلجأ الزوجة إلى أساليب مختلفة وأهمها

الامتناع عن الاتصال الجنسى أو التمارض أو هجر « دار العائلة » إذا كانت من عائلة أخرى . كما أن الام الكبرى لها عدد من الابناء المتزوجين ، فان معاملتها للزوجات تختلف ، فتحظى زوجة الابن الاكبر فى أغلب الاحيان بثقتها وتميزها عن بقية الزوجات ، الامر الذى يؤدى بأستمرار إلى مزيد من الخلافات . ولكن القاعدة أن يقل أحتكاك الام الكبرى بزوجات أبنائها بعد مرور عدة سنوات على الزواج ، وخصوصا بعد انجابهن ، ويرتفع قدر المرأة فى « الدار » كلما انجبت ذكورا أكثر من الإناث . وقد تلجأ الأم إذا كانت زوجة أبنها صعبة المراس إلى اغرائه على الزواج مرة أخرى ، وفى كثير من الأحيان تفلح فى هذا ، وتتولى اقناع الاب بذلك . وطالما أن الامر يتعلق بمزيد من الاولاد ، فان الأب يرحب دائما بذلك . وقد لوحظ أنه فى العائلة التى يكون فيها الأب له أكثر من زوجة ، تقل مشاكل زوجات الابناء مع أمهات أزواجهن ويرجع هذا إلى تعدد السلطة المنزلية فى أغلب الأحيان ، وحرص « الحموات » على أرضاء زوجات الأبناء ليكن فى صفهن فى محيط العائلة .

وتظهر الزوجة فى أوائل أيام الزواج جهلا بمسائل الجنس ، وتقاوم الزوج إذا أراد الاتصال بها ، ويظل موقفها من زوجها فى الاتصال الجنسى يتصف بمظهر الاحجام فترة تطول أو تقصر ، ثم تتخذ الامور بينهما مجراها الطبيعى بعد ذلك . ونظرا للمعيشة المشتركة فى العائلة ، يندر أن يتم الاتصال الجنسى بين الرجل وزوجته أو أى مظهر من مظاهر التودد أثناء النهار . بل كل هذا يتم ليلا وفى سكون تام . وتعرف العائلة دون أن يعلق أحد أعضائها بهذا الاتصال ، إذا تبين أن الزوجين أستحما فى الصباح . وفى الغالب يستحم الرجل فى الحقل ، أما المرأة فانها تستحم فى الغرفة المخصصة لها . ويلاحظ

أن المرأة لم تكن تعرف كثيرا عن أمور الجنس . ولم تكن تهتم به إلى الحد الذي يشغلها . وقد تعيش المرأة حياتها كلها ولا تعرف عن الاشباع الجنسي شيئا . ومع أن النساء عندما يجتمعن قد يتحدثن عن مثل هذه المسائل إلا أن ذلك لا يستتبع اتجاها معينا . ولكن الرجل كان أكثر دراية منها . ونظرا لعادة ختان البنات وما يترتب عليها من مشاكل بالنسبة له في علاقته الجنسية مع زوجته ، فان كثيرا من الرجال يلجأون الى تعاطى المخدرات ، ويؤكدون قيمتها في العملية الجنسية . وبصفة عامة يمكن القول أن التحدث كثيرا عن مسائل الجنس بين الرجال والنساء على السواء كان أمرا غير مرغوب فيه .

الوالدان والأولاد :

في التربية الاجتماعية يعلم الأولاد احترام وطاعة والديهم والطاعة والاحترام أمور نص عليها الدين . ولهذا يؤكدون في العائلة القيمة الاجتماعية والدينية في هذا الصدد . ولكن موقف الأولاد تجاه والديهم أو موقف الوالدين منهم يختلف باختلاف مراحل النمو . ففي المراحل الأولى تكون علاقة الأطفال أوثق بوالدتهم فهي التي تشرف على اطعامهم ونظافتهم وتلقينهم الآداب العائلية . ثم تظهر علاقة والدهم أكثر كلما تقدموا نحو النضج . وفي كل الأحوال يلقنوا التصرف في حدود النماذج التقليدية . ويلاحظ أنه في العائلة تكون علاقة الأطفال وثيقة بوالديهم ثم تأخذ في التفكك حتى تتخذ طابعا رسميا كلما تقدموا نحو النضج . وكلما أنيط بهم أعمال معينة في الحقل أو الدار ، فعند ذلك تكون علاقاتهم أوثق بسلطة العائلة التي تشرف على حياتهم الاجتماعية وعلى مشاركتهم في الانتاج الزراعي .

وفي مراحل سنيهم الأولى يختلط الأطفال ذكورا واناثا في النوم والأكل واللعب . ولكن بعد فترة معينة يبدأ فصلهم . فينام الذكور في مكان خاص والبنات في مكان آخر وكذلك يأكلون ويلعبون. وعند ذلك يبدأ الولد في الاحساس بذكورته والبنت بأنوثتها ، وتمايز أنواع السلوك الخاصة بهما . ويتلقى كل منهما معاملة واحدة ، فاذا أكلوا يأكلون معا وإذا لبسوا يلبسون ملابس متشابهة . وفي كل الاحوال يراعى السن . فلا يصح أن يأكل كل الشبان فوق العشرين مثلا مع من هم أقل منهم سنا بشكل واضح . على الرغم من أن الجميع قد يأكلون معا في بعض الأوقات . وكقاعدة يتناول الذكور الطعام وحدهم دون الاناث مهما كان سنهن . وعادة لا يتم ذلك إلا بعد أن يتناول الذكور طعامهم ويظهر هذا في وجبة العشاء التي تعتبر الوجبة الرئيسية . أما الأطفال دون الخامسة من الإناث فان هذه القاعدة لا تطبق عليهن بل يكون من دواعي سرور الأب أن تجلس معه طفلته لتشاركه الطعام .

ويلاحظ أن العلاقة بين فئات السن الواحدة ، يبدو فيها التعاون والتنافس. فالأطفال من الجنسين الذين لا يعملون في الحقل أو المنزل ، لا تكون هناك قاعدة معروفة في علاقاتهم ، فهم يلعبون طول الوقت أما في « وسط الدار » أو في الشارع ، وغالبا مايكونون تحت رعاية الأم الكبرى ، التي يلجأون اليها للشكوى أو لطلب الحاجات المختلفة التي تعرض لهم . وهذه الأم تبدي عطفا ورعاية كبيرة على هؤلاء الأطفال تفوق رعاية وعطف امهاتهم البيولوجيين . وهناك سبب آخر لالتجاء الأطفال اليها ، وهي أنها الوحيدة التي تملك أعطاءهم اللعب أو الحلوى أو غير ذلك . وبسبب ذلك قد ينشأ خلاف بين زوجات الابناء وبينها إذا لاحظوا أنها تخص أطفال ابن معين بمزيد

من العطف والرعاية . أما إذا انتقل الأولاد أو البنات من مرحلة اللعب الى مرحلة المشاركة فى العمل الزراعى أو المنزلى ، فالقاعدة العائلية هى التعاون ولكنهم يتنافسون فيما بينهم أما لاتقان العمل ومايترتب على ذلك من ارتفاع قدرهم وتشجيعهم بعبارات الثناء ، أو لنيل الحظوة عند آبائهم وسلطة العائلة . ومع ذلك فالاباء والامهات يحثون أولادهم دائما على الطاعة وأتقان العمل والتعاون والتنافس فى حدود مصلحة العائلة .

٣ ـ الأعمام والأجداد:

العم فى العائلة يساوى الاب من الناحية الإجتماعية فهو «أب سوسيولوجى» ولهذا تكون نماذج السلوك التى يكونها الأولاد أو البنات تجاه أعمامهم لا تفترق كثيرا عن أبائهم البيولوجيين . والعم بدوره يكون علاقات متشابهة مع جميع الأولاد والبنات سواء منهم من كانوا أبناءه أو أبناء أخوته . ومن المسائل التى تؤخذ على الرجل أن يفرق فى المعاملة بين أبناء العائلة ولهذا يظهر العم مزيدا من الاهتمام قد يفوق اهتمامه بأبنائه لابناء أخوته لأن مثل هذا النوع من السلوك يدخل فى تقديره وفى مركزه العائلى وفى علاقته بالسلطة العائلية . على أنه بينما يلاحظ قدرا من « التباعد » بين الابناء وخصوصا الاطفال ووالديهم وأعمامهم ، فأن العلاقة بينهم وبين الأجداد تكون لها صورة أخرى . فالاجداد بصفة عامة يكونون علاقات وثيقة مع الاطفال ، ويكونون أقرب اليهم من أفراد الاسرة الآخرين ، ومثل هذا القول ينطبق على الأب الأكبر صاحب السلطة . ولهذا غالبا مايتضاحكون معا ويلعبون ويتبادلون الالفاظ المختلفة والشتائم على وجه خاص . بل أن الاجداد يشجعون الاطفال فى بعض الاحيان على « أهانة » والديهم عن طريق توجيه الالفاظ النابية، ويتولون حمايتهم إذا أعتدى عليهم أو تعرضوا

العقاب . وكبار السن عامة فى العائلة يمكن أن ينطبق عليهم هذا المظهر من العلاقة . ويبدو أن انشغال الآباء فى الاعمال الزراعية لا يترك لهم فرصة للاتصال الوثيق بالاطفال الامر الذى يخلق بينهم جفوة ويباعد بينهم ، بينما يكون لكبار السن فسحة من الوقت نتيجة لأعفائهم من بعض الأعمال . فتكون الفرصة سانحة لمزيد من الصلات بينهم وبين الأطفال والتى تتخذ الشكل السابق . ولا تقتصر علاقة الكبار بالأطفال فى العائلة على هذا المظهر ، بل يمكن للاطفال من أى عائلة أن يكونوا نفس العلاقات مع الكبار من العائلات الاخرى داخل البدنة كلها . ولكن مدى علاقتهم بالكبار فى العائلة التى ينتمون اليها تكون أشد لان درجة « الألفة » بينهم أكثر و « المزاح » الذى يترتب على هذه العلاقة مزاح متبادل وليس من جانب واحد Symmotrical .

٤ ـ التعاون والصراع :

التعاون هو القاعدة التى تقوم عليها الحياة العائلية . ويراقب صاحب السلطة تحقيق هذا التعاون على أكمل وجه . كما أن التعاون بدوره يقوم على أساس مسئولية جميع أعضاء العائلة المشتركة عن الإنتاج الزراعى . وهذا المظهر التعاونى للانتاج يفترض أن يبذل الفرد أقصى مجهوده . ويظهر التعاون على مستويين : الأول العمل معا ككل فى كل عملية من العمليات الزراعية، والثانى تقسيم هذه العمليات « دون تخصص بين الأفراد »، خصوصا إذا كانت العملية كالرى تقتضى وجود بعض الأفراد فى مكان معين لملاحظة المياه أو رفعها ، ووجود البعض الآخر فى الحقل للاشراف على جريانها فى القنوات وفى أقسام الحقل المختلفة . وفى الغالب يتولى صاحب السلطة العائلية تقسيم هذا العمل ويقوم به الأفراد دون مناقشة ، أو يعمدون من تلقاء

أنفسهم الى مثل هذا التوزيع . ولا يتدخل الأب الأكبر الا لتحقيق التناسق ولكن أحيانا ينشأ اختلاف يتحول الى صراع على تقسيم العمل أو على طريقته ولكنه غالبا ما يزول بسرعة عند تدخل صاحب السلطة . أما الخلاف المنزلى خصوصا بين الزوجات أو الأم الكبرى أو بين الزوجات وأزواجهن ، فانه يتخذ أحيانا مظهرا حادا يطول خصوصا وأن صاحب السلطة يترك لزوجته حسم مثل هذه الخلافات . ومع ذلك فان اعادة العلاقات الى مجراها الطبيعى فى « الدار » تقتضى فى كثير من الحالات تدخل الأب الأكبر ولكن المظهر التعاونى للعائلة هو المظهر المميز لها والصراع الذى يحدث يمثل حالات عارضة أو مؤقتة . كما أن المظهر التعاونى هو الذى يميز العلاقات بين العائلات داخل البدنة الواحدة . وفى حالة الصراع بين العائلات فانه مع ما تتخذه من مظهر التوتر دون التقاتل — فانه يحل على مستوى رؤساء العائلات التى يمثلون سلطة البدنة .

وكقاعدة تكون العائلة فى الأوقات العادية وحدة متعاونة مستقلة نسبيا . ولكن البدنة المكونة لجميع العائلات تظهر كوحدة التعاون الكبرى فى المناسبات المختلفة كالمآتم والأفراح والأعياد واحياء الشعائر الدينية ، وفى أثناء الخلاف مع بدنة أخرى . ولكن التعاون يتخذ صورة أكبر ليشمل مجتمع القرية ، اذا واجهت القرية حادثا تاريخيا يتصل بها ككل . وهكذا نرى أن التعاون يدور فى ثلاث حلقات : العائلة والبدنة والقرية — وينطبق هذا أيضا على الصراع ، ولكن مداه أو كثافته تقل اذا انتقلنا من وحدة الى أخرى بالترتيب السابق . ولهذا تأخذ علاقات الانشاء والمشاعر المتصلة بها نفس الترتيب ، فاحساس القروى بانتمائه الى عائلته هو الأساس الأول فى تحديد سلوكه الاجتماعى وتعيين حدود حياته الاجتماعية كلها .

وقد لا يحدث فى مجتمع القرية فى حياة الفرد ما يجعله يحس بانتمائه اليها . ولهذا يعيش حياته كلها دون أن تكون آفاقه قد امتدت أبعد من بدنته . وهكذا يكشف بصورة أخرة ، ان الحياة الاجتماعية وما يترتب عليها من علاقات تقوم فى المحل الأول على علاقات القرابة وكلما كانت هذه العلاقات واضحة ومحددة ، كلما كان سلوك الفرد واضحا ومحددا أيضا . ولذلك تزداد علاقات التعاون وتتحدد قيمتها الاجتماعية والدينية . ويقل الصراع أو يتخذ طابعا فرديا لا يلبث أن يزول ويندر أن نجد صراعا فى عائلة أو بدنة يتطور الى درجة التقاتل .

العلاقات فى العائلة ككل :

عندما تبدأ مرحلة تحمل المسئوليات تتحدد علاقة أعضاء العائلة على أساس السن والجنس أما قبل ذلك تكون العلاقة بين كبار السن والأطفال غير محددة على هذا الأساس ، بل هى فى جوهرها « علاقة مزاح Joking Relationship متبادلة كما شرحناها من قبل . أما علاقات السن والجنس فانها تقوم فى المحل الأول على الفصل بين الذكور والإناث . وفى المحل الثانى على الفصل بين فئات السن المختلفه فى ضوء « الفصل الأول » وتكون العلاقة بين فئة السن الواحدة علاقة شخصية أو مباشرة ، ولكنها تتخذ طابعا غير شخصى وغير مباشر كلما صعدنا من حيث العمر الى فئات أكبر .

وعلى أساس فكرة « سيادة الذكر » فان الإناث بصفة عامة يحترمن الذكور . وهذا ينطبق على الزوجات . فالزوجة لا تخدم زوجها وحده ، بل تخدم اخوته المتزوجين وغير المتزوجين أيضا . وفى داخل الجنس الواحد

تتدرج السلطة على أساس السن ، فالبنت تطيع أختها الأكبر ، والولد يطيع أخاه الأكبر وهكذا . ويحدث أحيانا أن يكون للابن الأكبر أبناء أكبر سنا من أحد اخوته أو عدد منهم ، ويسبب ذلك مضايقات كثيرة . فمع أن المركز القرابى يراعى فى العلاقات العائلية فالعم لا بد أن يعامل مثل معاملة الأب . إلا أنه فى هذه الحالة يتدرج تحت فئة السن الخاصة به من حيث العلاقات الشخصية والمباشرة المتوازية بين أعضائها ، وتقوم السلطة العائلية بدور المنظم لهذه العلاقات جميعا ومراعاة امتدادها فى الحدود التقليدية لها .

أما « علاقة المزاح » فانها تدور فقط فى النسق القرابى ، لأن امتدادها خارج البدنة يسبب مشاكل كثيرة قد تصل فى بعض الأحيان الى درجة التقاتل . ويلاحظ أنها لا توجد إلا بصورة محدودة داخل العائلة الواحدة بين فئات السن المختلفة ، ما عدا تلك التى توجد بين الكبار والصغار . ولكنها تظهر بوضوح بين أعضاء العائلات المختلفة . وهى تكون متبادلة بين فئات السن الواحد . وغير متبادلة غالبا بين فئات السن المختلفة . فالشبان قد يتبادلون معا صنوف المزاح والهزر ، ولكن اختلاف فئة السن ، فان الأكبر هو الذى يبدأ المزاح ويستمر فيه دون أن يرد عليه الأصغر. وإذا كان الأمر يتعلق بالزوجات ، فالمزاح معهن على هذا النحو مسموح به طالما انتمين الى النسق القرابى للبدنة ، ولكنه ممنوع اذا كن ينتمين الى بدنة أخرى .

وعلاقات المزاح لا تشمل صاحب السلطة ، بل ان وجوده يوقف مظاهرها فورا ، ومن ناحية أخرى يندر أن يدخل أصحاب السلطة فى العائلات فى علاقات مزاح كل مع الآخر . وكقاعدة يقل المزاح كلما كبر الفرد فى

السن ، ولكن هذا لا ينطبق على مزاحهم مع الأطفال الذى يزيد فى هذه الحالة . أما موضوعات المزاح فقد تتعلق بالمظهر والمهارة الزراعية والضيافة والكرم وتعدد الزوجات والإنجاب . وفى هذه الحالات تكون العلاقة المزاحية ذات اتجاه « أخوى » ولكنها اذا تناولت مسائل يعتبرها الفرد حساسة بسمعة العائلة أو قيمها أو رجولة الذكر أو أنوثة الأنثى . فانها تكون ذات اتجاه عدوانى . الأمر الذى قد يترتب عليه فى حالة تساوى السن الاشتباك فى معركة . وفى حالة عدم تساويه ابلاغ العائلة بمضمون الإعتداء المزاحى . وعلاقات المزاح قد تكون مباشرة وغير مباشرة . ففى الحالة الأولى يكون الطرفان إذا كانا فردين أو جماعتين على مرأى ومسمع كل من الآخر . وهذه تكون بين أعضاء النسق القرابى غالبا . وفى الحالة الثانية يكون أحد الطرفين موجودا ولا بد أن تكون جماعة ، والطرف الآخر غير موجود . ولذلك لا يتعين أن يكون المزاح متعلقا بأعضاء النسق القرابى فقد يتعداه الى النسق الأخرى .

ومن المظاهر المألوفة فى علاقة المزاح أن تتبادل على بعد ولكن بشكل مسموع . كما يكون غير المشتغلين بالزراعة كأصحاب المهن والحرف فى القرية موضوعا مشوقا فى المزاح . وهذا يرجع إلى استخفاف القرويين بكل عمل غير العمل الزراعى . والمزاح فى هذه الحالة يكشف عن الاحتقار .

وعلاقة المزاح هذه تكشف فى بعض نواحيها عن القيم العائلية والقروية بصفة عامة وتؤدى دوراً مهما فى السلطة الاجتماعية . ذلك لأن موضوعات المزاح إذا نظرنا إليها ككل تكشف عن نماذج السلوك التقليدى الذى

يكون الخروج أو الإنحراف عنها « منقصة » كما أنها تبرز هذه النقائص بحيث يسرع الفرد الى مراجعة موقفه والعودة الى نموذج الشخصية المألوف. ومثال ذلك أن انقياد الزوج لزوجته أمر لا تقره التقاليد ويعتبر عيبا فى الرجل وانقاصا من قدره بين الرجال. ولهذا كانت الإشارة الى الانقياد فى المزاح تنبيها للزوج وسخرية منه فى نفس الوقت. الأمر الذى يكون معه المزاح فى هذه الحالة نوعا من « العقاب الاجتماعى ».

...

العائلة فى القرية كانت تميل الى زيادة حجمها، لأن زيادة الحجم كانت له أهمية اجتماعية واقتصادية فى نفس الوقت. وكثرة عدد أعضاء العائلة فى حد ذاته مثل أعلى بغض النظر عن مركزها الإقتصادى، ومع ملاحظة أن مساحة الأرض الزراعية المخصصة لكل عائلة كانت تسمح نسبيا فى هذه الفترة من تاريخ القرية بزيادة عدد المعتمدين عليها. وتزداد العائلات فى بعض المجتمعات بطرق مختلفة كالتبنى وغيره من مظاهر الزيادة، ولكن الزيادة فى حجم العائلة هنا كان مقصوراً على « الزيادة الطبيعية » وهى نتيجة مباشرة لنظام الزواج. ولهذا كان الزواج هو الحل الوحيد فى زيادة عدد أعضاء العائلة، وهو نتيجة لطبيعة العائلة يقوم على اعتبارات اجتماعية ودينية وأهداف اقتصادية.

فعندما تبدأ سمات النضج تظهر على الولد، تفكر العائلة فى زواجه، وكذلك الحال بالنسبة للبنت، وكان السن المناسب فى حالة الولد ما بين ١٦ ـ ١٨ سنة، وفى حالة البنت ما بين ١٢ ـ ١٤ سنة. وبصفة عامة يكون الولد صالحا للزواج عندما « يخشن صوته » وتظهر لحيته. وتكون البنت

صالحة للزواج بعد أول حيض لها. ولهذا كان الزواج المبكر القاعدة المرعية. ولم تكن بالعائلة حاجة للتفكير فى تأخير سن الزواج، لأن مثل هذا التفكير قد ينشأ خصوصا فى المدينة لأسباب ثقافية أو اقتصادية. ولكن حياة العائلة الجمعية التى تكفل للفرد أسباب العيش، الى جانب الرغبة الشديدة فى زيادة حجم العائلة، كانت تؤدى الى هذا النوع من الزواج المبكر، وطبيعى أنه لم يخطر ببال أحد أن الاستمرار فى زيادة العدد قد تؤدى الى حالة تعجز العائلة معها عن اعالتهم، أو قد تؤدى الى انخفاض مستمر فى مستوى المعيشة، فالأولاد « رزقهم على الله » إذا كان الأمر يتعلق بالغذاء.

والزواج فى حد ذاته يعتبر مظهرا من مظاهر النضج واعلانا باكتمال رجولة الولد، واكتمال أنوثة البنت وايذانا لهما باحتلال المركز المحترم الذى يحتله المتزوجون. ومع هذا فقد كان الزواج أمر يخص صاحب السلطة فى العائلة بالتشاور مع زوجته، ولم يكن للولد أو البنت أن يدرى أو يختار. وفى الغالب كانوا يخطبون البنات وهم لا زالوا أطفالا. والمظهر الرئيسى للزواج، هو الزواج الداخلى فى العائلة الواحدة أو بين العائلات داخل النسق القرابى. وكان الهدف المحافظة على الأرض وإبقاء علاقات القرابة داخل البدنة حتى لا تتفكك « العصبية » كما أن « بنت عمك تحمل همك » و « تستر عورتك ».

ويتم الزواج عادة فى مواسم معينة، أهمها مواسم جنى المحاصيل وخصوصا القطن، عندما تبيع العائلة قطنها، لتدفع « المهر نقدا » كما أن الزواج فى هذا الوقت يتم والقرية فى شبه فراغ مؤقت من العمل الزراعى،

اذ يعقب جنى المحصول فترة من الانتظار خصوصا فى الصيف ريثما تصل المياه المحملة بالطمى لغمر الأرض بها لزيادة خصوبتها . و « المهر النقدى » فى حالات الزواج الداخلى كان قليلا ، ولكن فى حالات الزواج الخارجى فانه يتناسب مع مركز العائلة الاقتصادى والاجتماعى . وغالبا ما تكون قاعدة المساواة بين أفراد البدنة الواحدة مرعية . ويندر أن ترفض عائلة زواج فرد من عائلة أخرى قد تكون أقل منها مستوى اقتصاديا ، ومع ذلك قد يلجأون الى المغالاة فى المهر ، فاذا استطاعت العائلة الأخرى دفعه تم الزواج ولما كان الأثاث الداخلى بسيطا ، فان معظم المهر كان يستخدم فى شراء « الحلى الذهبية » التى كانت فى نفس الوقت تدل على الثراء .

وعندما تتم الخطبة ، لابد أن تظهر العروس خجلا عند ذكر الزواج وعدم الاهتمام عند ذكر زوجها المقبل ، والعريس لا يبدى مثل هذا الخجل ، ولكنه يبدى عدم الاهتمام . فاذا تقابل العروسان فى الطريق أو فى الحقل فان أحدهما لا ينظر الى الآخر أو يحدثه أو يظهر أى مظهر الارتباك أو الاهتمام . وفى الليلة السابقة على انتقال العروس الى منزل عائلة العريس اذا كانا من عائلتين مستقلتين ، يقام احتفالان فى منزل العائلتين ، فتدهن القابلة للعروس قدميها وكفى يديها « بالحناء » بينما تنشد رفيقات السن وصديقات اللعب الأغانى ، وكذلك يدهن « المزين » قدمى العريس وكفيه . وفى هذه الليلة تتلقى عائلتى العروسين الهدايا والمساعدات الرمزية كاللبن والقشدة والدواجن وغير ذلك من المحاصيل المختلفة .

وفى الصباح تستمر الاحتفالات حتى « العصر » وعندئذ تحمل النسوة جهاز العروس البسيط فى موكب من النساء والأطفال الى منزل عائلة العريس

وعندما يصل الجهاز للحجرة المخصصة للعروسين ، يبدأ موكب العروس من منزل عائلتها راكبة جملا فى هودج ، أو حصانا أو مترجلة حسب الظروف ، ويسير حتى يصل منزل عائلة العريس ، ويكون فى انتظارها عند الباب ويتولى حملها الى الداخل وفى هذه اللحظة تحدث مشاجرة تقليدية بين العريس وشقيق العروس الأصغر فيمن له حق حملها الى الداخل .

وينفض هذا النزاع بتقديم « هدية نقدية » (١) إلى هذا الأخ . وفى حجرة العريس تجتمع النسوة من الأقارب ومعهن الداية ، ووظيفتهن تهيئة العروس لعملية فض البكارة ، وعندما يعلن العريس بالدخول يغلق الباب الذى يقف أمامه عدد كبير من شبان البدنة وتقف خلفه أحد النساء ، وعندما تدق الباب أيذانا ببدء عملية فض البكارة ، يصيح الشبان صياحا مستمرا على شكل « موال لا معنى له » والغرض منه احداث ضجة تعلو على صراخ العروس . وبعد اتمام فض البكارة ، يفتح الباب فتخرج امرأة حاملة « منديلا مخضبا بدم البكارة » وتلوح به ، وعندئذ تقدم التهانى أولا إلى والد العريس وجميع أعضاء العائلتين . وفى المساء يخرج الزوج ليلتقى باقرانه ، فيتضاحكون ويطرون رجولته فى فض البكارة ، لأنه قد يحدث أحيانا أن يضطرب الشاب فى لحظة فض البكارة فتقوم « الداية » بهذا العمل نيابة عنه . وفى ذلك اهدار لرجولة العريس . هذا وقد يقضى الزوج ليلة الزواج الأولى مع زوجته أو قد تقضيها معها أمها وتحرص عائلة الزوجة على أن يكون طعامها فى الأيام السبع الأولى معدا كما لو كانت لاتزال موجودة بين أهلها ، ويشاركها زوجها الطعام فى هذه الحالة .

---

١ ــ تسمى هذه الهدية « البلصة » .

ومن المسائل الهامة أن تلاحظ الأم على الأخص انقطاع «العادة الشهرية» الدليل على الحمل، وعند ذلك تطمئن إلى أن أبنها ستصبح أما وبالتالى سيتدعم مركزها فى عائلة زوجها. ويلاحظ أن تسمية الذكور كانت تترك للابن الأكبر، أما تسمية الاناث فانها تترك للأم الكبرى، وكانت العائلة لا تسجل كل أولادها فى سجلات المواليد ولهذا يكون عدد كبير منهم من «ساقطى القيد» ويبدو هذا عندما يكبرون ويدخلون فى علاقات تقتضى معرفة تاريخ ميلادهم. وكان السبب الأول فى عدم تسجيل المواليد هو الخوف من تجنيدهم أو أخذهم للعمل فى «السلطة أو السخرة».

والقاعدة أن ترضع الأم أطفالها. ولكن انلاحظ، أن الأمهات فى العائلة الواحدة أو العائلات المحافظة فى البدنة الواحدة. قد يرضعن أطفالا غير أطفالهن، خصوصا إذا كانت الأم الاصلية منهمكة فى عمل ما أو مريضة، الامر الذى يؤدى إلى تعقيدات متعددة أثناء الزواج، لان قواعد الشريعة الإسلامية تحرم الزواج بين اخوات الرضاعة. ويحرص الرجال على وجه خاص على عدم اختلاط الرضاعة حتى يظل الزواج داخليا للاعتبارات السابقة. ولكن النساء لا يراعين ذلك من الناحية العملية الامر الذى يؤدى إلى خلافات متعددة بين الزواج إذا نما إلى علمه شىء من هذا.

ولما كان الزواج فى العائلة، يؤدى اغراضا اجتماعية ودينية واهدافا اقتصادية، فانه يقوم على أيضا على أساس أن العائلة وحدة اجتماعية واقتصادية. وهذه الوحدة تقوم بدورها على أساس الارتباط الوثيق بين الأرض والإنسان الذى يمثل الرابطة الأساسية فى القرية والتى تمخض عنها النظر الى العمل الزراعى باعتباره انبل الاعمال واكثرها شرفا للفرد. فكلما كان العمل شاقا يتطلب مجهودا عضليا متواصلا كالعمل الزراعى ارتفعت

قيمته فى نظر القروى. ولهذا كانت الأعمال الأخرى فى القرية لا ينظر اليها هذه النظرة، وكان اصحابها بالضرورة اقل من حيث المركز الإجتماعى من القرويين. وطالما كان الأمر كذلك، فان القرية تحرص على الابعاد الإجتماعية التى تتصل بالمشتغلين بالعمل الزراعى وغيره من الأعمال. ومن ثم فالعلاقات الإجتماعية إذا سارت فى خطوط متوازية بين القرويين فانها لا تكون كذلك بالنسبة للنجار أو الحداد أو المزين، فهم أقل وأدنى درجة، وبالتالى لا يدخلون معهم فى علاقات هامة كعلاقات الزواج. ومهما كان مركز صاحب المهنة المعينة الاقتصادى فانه لا يتساوى مع القروى مهما كان معدما. لأن هذا الأخير يستمد مركزه، من مركزه فى النسق القرابى. وعلى أى حال، مهما كانت ثروة صاحب المهنة فان القروى ينظر اليها على أنه الأصل فيها.

...

إذن العائلة القديمة كانت الوحدة الأساسية للعائلات الإجتماعية والإقتصادية ونموذجها جعل الحياة القروية تتخذ اتجاهات محددة، وجعل للقرية القديمة خصائص معينة. ولما كان التنظيم الاجتماعى للقرية كما تعرضنا لذلك من قبل يقوم على نسق القرابة فى البدنة والتى من مجموعها تتكون القرية ككل، فان العائلة هى وحدة البدنة التى تقوم على القرابة المباشرة. ولهذا كانت خصائص القرية فى الفترة تصور الى حد كبير خصائص العائلة نفسها. وتنطبق عليها ما ينطبق على المجتمع الصغير من صفات التميز distinctiveness، والصغر، والتجانس والاكتفاء الذاتى (١). لأن الواقع أن القرية ولها أيضا

---

1 — R. Redfield, The Little community, viewpoint for the study of a huaman whole, Chicago, 1950, PP. 4—5,

الصفات السابقة كانت تتكون من التحليل النهائى من هذه العائلات المتشـابهة . ونظرا لأن « كثافة العلاقات » فى القرية خارج حدود النسق القرابى كانت قليلة جـدا ، فان كل عائلة أو إذا أردنا الدقة ، كل بدنة كانت تعتبر مجتمعا فى ذاتها . كما أن التشابه جاء عن ارتباط الانسان بالأرض ، والوجـود فى مكان واحد والاعتماد على نوع واحد من العمل هو العمل الزراعى ، والعائلة لها الأهمية المركزية فى التنظيم الاجتماعى وأهـداف الزواج الإجتماعية والاقتصادية غير مختلف عليهـا (١) ، إلى آخر وجوه التشابة التى سبقت الإشارة اليها . ومن هنا كانت دراسة العائلة القديمة دراسة فى واقع الأمر للحياة القروية .

إذن يمكن القول أنه اذا كانت القرية جزءا من كل فان العـائلة بدورها جزء من كل . وهناك وجه شبه بين علاقة الـكل الذى كانت القرية جزءا منه وبين الـكل — القرية — التى كـانت العـائلة جـزءا منه . فالواقع أنه فى الفترة السابقة على التغير كان مدى العلاقات سواء بين الـكل والجزء أو بين الجزء فى حالة القرية محدودا جدا ، وكذلك الأمر بالنسبة للعلاقة بين العائلة والقرية حتى يمكن القول أن نسبة العزلة بين الأجـزاء والـكل فى الحالتين كانت متشابهة . ولهذا كان أثر مجتمع القرية على العائلة ضئيلا ، فبرغم التشابه بين القرويين من العائلات المختلفة والتى تنتمى إلى بدنات مختلفة إلا أن هذا التشابه كـان مرجعه تشابه ظروف الحياة وتشـابه التنظيم الاجتماعى الذى يعيش فيه الفرد حياته كلها . ومع هذا التشابه كـان هناك اختلاف بين القرويين لاختلاف « الصيغ العائلية » داخل القرية الواحدة . والصيغ العائلية

1 — Oscar Handlin, The Uprooted, Boston, 1951, P. 7.

كانت تختلف لعدة أسباب ، منها مركز البدنة الإجتماعى والإقتصـادى فى القرية ، وحجمها ودرجة التماسك أو التضامن فيها ، والدور الذى تقوم به السلطة فى كل منها . فبدنة العمدة غير البدنات الأخرى ، والبدنات الصغيرة غير البدنات الـكبيرة ، ويظهر هذا التميز بصورة أوضح فى شخصية الفرد وسلوكه الاجتماعى . كما أن شخصية القروى بصفة عامة كـانت تختلف عن شخصية غير المشتغلين بالعمل الزراعى وهكذا . ولايعنى ذلك أن هذه الفروق كـانت من الوضوح بحيث يمكن أن نجعلها أساسا فى دراسة التنظيم العائلى لـكنها تـكشف عن طبيعة العلاقات التى كانت تسـود القرية كلها . لـكن القاعدة أن كل بدنة مهما كان مركزها أو دورها فى سلطة القرية ، كانت شبه مستقلة أو فى شبه عزلة ، وبالتـالى كانت علاقات البدنات فى أدنى درجات الكثافة . ويبدو أن خصائص العائلة ودورها فى الحياة الاجتماعية فى المجتمعات القروية يكون متشابها إذا توافرت نفس الظروف لها جميعا . فالنموذج الذى ندرسـه يشابه فى كثير من الوجوه القرى فى مقاطعة يونان بالصـين كما يشابه القرى التى درسها Fei فى مقاطعة كيانجسو Kiangsu فى الصين أيضا . فالعائلة أو « البيت » هى الوحدة الاقتصادية والاجتماعية ، حيث تـكون الملكية عامة والمعيشة مشتركة ، وما يترتب على ذلك من نتائج (١) .

وهكذا نستطيع أو نتناول العائلة من حيث بنائهـا والوظائف التى تؤديهـا بصورة أكثر تحـديدا فنكشف عن الخصائص العامة والمظاهر المرتبطة بها .

1 — Asiao-Tung Fei, Chik-1 Chang, Earth beund China, A study of Rural economy in Yunan, London, 1918-PP.11-12.

١ ـ النمو المكاني والتغير في الزمن :

لا تنمو العائلة من حيث الحجم إلى ما لا نهاية ، بل أنها تنقسم كما تنقسم الخلية الحية إلى أجزاء مشابهة للأصل . يكون لكل جزء نفس الخصائص ونفس الدور والمركز في البناء الاجتماعي ، أي أنها تنقسم إلى أسر وتكبر هذه الأسر على مر الزمن وتصبح عائلات . ففي وجود الأب يعيش معه أبناؤه المتزوجون ، وقد ينجب هؤلاء أبناء يتزوجون وينجبون بدورهم ، ومع هذا يظلون يعيشون معا ويعملون معا في نفس البيت تحت سلطة الأب الأكبر. فاذا مات صاحب السلطة قد يظل الأخوة يعيشون ويعملون معا تحت رئاسة الأخ الأكبر، وتكون هذه هي القاعدة. ولكن عندما يصبح الرجل جدا أي يتزوج أولاده وينجبون ، فانهم غالبا ما يفكرون في الانفصال ، فيكون كل منهم عائلة مستقلة قائمة بذاتها ويندر أن ينفصل عن العائلة رجل متزوج وزوجته وأولاده وهم لا زالوا غير متزوجين وفي هذه الحالة تقسم الأرض ويقسم المسكن أو يترك للأخ الأكبر ، ويبني الباقون من الأخوة مساكن مستقلة أما دورة هذه القسمة فقد تمتد إلى خمسين عاما، أي أن العائلة لا تنقسم إلا بعد مرور خمس أجيال على الأكثر . ولهذا لم تمتد القرية من حيث المساحة المكانية كثيرا في الفترات السابقة على التغير إلا قليلا : ومعنى هذا أن النمو المكاني للعائلة في خلال خمسة أجيال يمر على مرحلة واحدة وهي إنقسام بيت العائلة إلى عدة بيوت أو بناء بيوت جديدة للعائلات المنفصلة .

أما النمو في الزمن فيمر على ثلاث مراحل: العائلة التي تنمو حجما في وجود الأب الأكبر، والعائلة كما هي بعد موت صاحب السلطة وانتقالها الى الأخ الأكبر، ثم العائلات المنفصلة بعد ذلك . ولكن الحجم يختلف في المرحلة الأخيرة، ثم ينمو بعد ذلك وهكذا . لكن يانج أفترض نموا آخر للعائلة الصينية ، على أساس أن الأسرة هي الاصل ، وتكبر فتكون العائلة وتنمو

ثم تنقسم بعد ذلك لتعود الى حالة الأسرة الأولى ، أي أن نمو العائلة يعرف دورة من خمس مراحل : الأولى مرحلة الأسرة ، وهي التي تتكون من الزوج والزوجة والأولاد ، والثانية العائلة وهي عند تزوج الأولاد ويظلون يعيشون في العائلة ، والثالثة عندما ينجب هؤلاء الأولاد يظلون مستمرين في العائلة ، والرابعة عندما يتزوج جميع الأبناء ويموت أحد الوالدين ، ثم تعاود الأسرة سيرتها الأولى مارة في نفس المراحل . ومع ذلك يقول يانج Yang أن تفكك العائلة قد يحدث في المرحلة الرابعة عندما تشتد الخلافات بين الزوجات والازواج (١) . ولكن تصنيف يانج لمراحل نمو العائلة على هذا النحو فرضي بحت ، إذ ليس يتحتم عند الانفصال، ان يكون على صورة اسر بل يمكن ان يكون على أساس عائلات .

٢ ـ الارتباط بالارض والحيوان :

في العائلة يكون الانسان والارض والحيوان وحدة واحدة ، وتتبادل العلاقات بينهم على صورة تربطهم بشدة . ومعنى هذا أن العلاقات الايكولوجية واضحة وقوية جدا . ولا تؤثر على طبيعة العائلة فقط ، بل تحدد القيم ونماذج السلوك والنظرة الى الحياة . فالارض بالنسبة للانسان مصدر الحياة ومكان العمل المقدس ، ورعايتها والتفاني في بذل الجهود لزراعتها مصدر اشباع كبير وهدف يحاول كل فرد أن يصل اليه . أما الحيوان فهو شريك الانسان ومعاونه الأول في العمل في الأرض. ولذلك يكون أرتباطه بالأرض والانسان قويا من هذه الناحية . ولذلك تتوطد العلاقات مع الحيوان حتى تصل الى مرتبة العلاقات الشخصية . ومن هنا

---

1 — Martix C. Yang. A chinses Village, Taitou, Shantung Province, London, 1947, pp. 235 — 256.

نستطيع أن نفهم لماذا كان الأعتداء على الأرض على أى صورة أعتداء مباشرا على الإنسان وأهدارا لقيمه ، ولهذا أيضا كان التصرف فى الأرض بالبيع أو الرهن حادثا خطيرا ، يتجنبه القروى كما يتجنب الموت . ولما كانت الأرض ملك العائلة فانها ترتبط من ناحية أخرى بالقيم الجمعيـة المترتبـة على المعيشة والعمل المشتركين . أما الحيوان وخصوصا الذى يعمـل فى الزراعة كالرى والحرث ، فانه يعامل معاملة ممتازة فلا يجوز ذبحه أو بيعه إلا إذا دعت الى ذلك ظروف قاهرة كالتقدم فى السن أو المرض .

وكان لهذا الارتباط نتائج مهمة منها : — على أساس الحياة الجمعية — ان القروى كان لا يميل الى الهجرة والانفصال عن هذه الرابطة التى كانت تشده اليها بقوة ، حتى ان الهجرة المؤقتة لأى سبب كالتجنيد أو مغادرة القرية على أى نحو كانت أمر غير مرغوب فيه ، فالانفصال معناه قطـع الصلة بمصدر الحياة أى الموت ، كذلك كان العمل المترتب على هـذا الارتباط وهو العمل الزراعى العمل الذى اختاره الله للانسان ، ولذلك كان أشرف الأعمال وانبلها وما دونه أقل اهمية وأدعى للاحتقار . فن لا يعمل فى الأرض فهو عاطل يعتمد على « عرق غيره » . كما ان الثأر فى بعض الاحيان كان يتجه الى الارض والحيوان ، فاعدام المزروعات أو الحيوانات يساوى فى بعض الاحيان القتـل ، ولهـذا كان الرد على جرائم من هذا النوع يمكن أن يتجه الى الانسان أو الارض أو الحيوان دون قاعدة .

٣ — القرابة أساس العلاقة :

العائلة وحدة القرابة الأولى ، والبدنة وحدة القرابة الثانية ، وهى كمكونة لجميع العـائلات تكون نسق القرابة الكبير ووحدته فى القرية ككل . ومن حيث أن العائلة وحدة الحياة « الجمعيـة » الاجتماعية والاقتصـادية ،

تكون العلاقة على أساس القرابة . وهى علاقة تتميز بالكثافة ، وتقل هذه الكثافة فى البدنة ، ولكن أساسها يظل يقوم على أساس القرابة ، ثم تقل الكثافة جدا فى مجتمع القرية ، ولا تقوم على أساس القرابة ، وإنما على السلطة والمصلحة . وهى قليلة الكثافة من حيث الدرجة والعدد . فتردد العلاقات واستمرارها بين البدنة والقرية لا تتخذ صورة الدوام ، ولكنه يحمل طابع عدم الانتظام ، كما ان نسبة الأفراد الذين يدخلون فى علاقات من هذا النوع قليلة جدا وتكاد تقتصر على سلطة البدنة . أو رؤساء العائلات فى أحوال قليلة .

ولهذا تكون العلاقة على أساس القرابة فى العائلة التى تمثل وحدة القرابة فى البدنة قائمة على أساس التعاون وشدة الاتصـال العاطفى والعقلى (١) ويمكن قياس كثافتها من هذه الزاوية فهى شديدة فى العائلة وأقل شدة فى البدنة ككل . وهكذا تكون الابعاد الاجتماعية بين القرويين أبعادا قرابية . فالقروى يثق ويعاون ويتعاطف مع « القريب » ويشك ولا يتعاون مع « الغريب » ولذلك فالعلاقات الاجتماعية كالزواج يجب أن تتم بين الأقارب فقط . أما العلاقات القروية فيجب أن تقوم على السلطة أو المصلحة دون غيرها . وعلى ذلك إذا ظهرت القرية يوما ما كوحدة فقد يرجع ذلك الى حادث أو خطر خارجى يهدد أمنها ، وإذا أقيمت شعائر دينية عامة فان الإشتراك فيها يراعى فيه مسائل القرابة .

وترتبط بالقرابة ، الإقامة والنسب . فالقواعد الاسلامية تحدد النسب الى الاب وتعين مركز الفرد فى النسق القرابى ، وبالتالى تكون الإقامة فى اتجاه

1— Godfrey & Nonica Wilson, The Analysis of Social Change, Cambridge, 1954 P 26 .

الاب ولكن فى المجتمع الزراعى الذى يقع عبء العمل الشاق كله على الرجل ، تكون السيادة للذكور . ومن هنا كان مركز المرأة قليل الأهمية، ولا بد اذن ان يكون تابعا للرجل . وعلى ذلك يمكن تفسير القرابة والإقامة والنسب وضرورة قيامها على أهمية الرجل ، على أساس دينى واجتماعى . ولهذا كان الخروج من حيث الإقامة فى اتجاه الرجل على النموذج ، كأن يسكن الزوج مع عائلة زوجته ، عملا يقلل من قيمة الزوج كرجل ، ويتعرض بسبب ذلك للعقاب الاجتماعى .

وقد ترتب على « القرابة أساس العلاقة » أن زاد نفوذ العائلة على الأفراد وبالتالى ضاقت آفاق الفرد منذ ان تحددت علاقاته فى هذه الدائرة الضيقة ، هذا الى اشتداد الشعور الجمعى ، والاعلاء من شأن القيم العائلية ، بحيث تصبح نماذج السلوك الاجتماعى . ولما كان الافراد متساوون من وجهة النظر الخارجية فى النسق القرابى ، فقد ترتب على ذلك مسئولية الجماعة لا الفرد عن أخطاء أعضائها . ونظام المسئولية الجمعية من أهم النتائج التى ترتبت على شدة علاقات القرابة وقيامها أساسا فى العلاقات الاجتماعية مع ما لها من مظهر جمعى . فالفردية هنا لا وجود لها ، ولا يعرف الفرد الا مرتبطا بجماعة أو عائلة معينة . ومن هنا كانت المسئولية لا تعرف الا النسق القرابى .

٤ ـ السلطة

العائلة التى تقوم على القرابة والحياة الجمعيـة ، لابد أن تكون هنـاك سلطة لها الأمر والتوجيه والتنسيق. والعائلة الزراعية تعطى السيادة للذكر، فأول مظاهر السلطة فى العائلة هى سلطة الرجال والنساء ، أى أن السلطة تقوم على أساس الجنس وقيام العلاقة على أساس القرابة يجعل للسن أهمية

كبرى فالأصغر يحترم ويطيع الأكبر ، وبالتالى يكون لكبير السن سلطة على مادونه . والحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العائلة تقتضى تقسيما للعمل فى الحقل والمنزل . ولهذا كانت سلطة الحقل غير سلطة المنزل ، فسلطة الحقل فى يد الرجل وسلطة المنزل فى يد المرأة . ولكن نظرا لقاعدة سيادة الذكر تكون سلطة المنزل بدورها تابعة لسلطة الرجل. ولهذا أيضا يكون أكبر الذكور سنا فى العائلة هو صاحب السلطة العليا ، يدين له الجميع ذكورا وإناثا فى دائرة « الدار » بالاحترام والطاعة والولاء . وقد يكون الاب الأكبر أو أكبر أبنائه سنا فى حالة وفاته أو عجزه أو تقدمه تقدما واضحا فى السن . وفى نطاق السلطة العليا ، تتدرج السلطات الداخلية فى العائلة من الأصغر إلى الأكبر حسب فئات السن . وفى « الدار » تكون السلطة للأم الكبرى أو لزوجة الإبن الأكبر فى حالة وفاتها أو عجزها أو تقدمها فى السن وفى كل الأحوال تقتدى بنصائح الرجل .

ويترتب على نظام السلطة ، مسئولية صاحبها اقتصاديا واجتماعيا عن العائلة فهو المسئول عن الإنتاج الزراعى وتقسيم العمل ، وهو الذى يستثمر فائض الإنتاج ، وهو الذى يشرف على تضامن العائلة وعلاقاتها الخارجية، بالعائلات الأخرى أو بمجتمع القرية متعاوناً مع نظرائه فى البدنة . وهو الذى يزوج ويطلق ويفصل فى المنازعات وتكون زوجته تبعا لذلك مسئولة عن تنظيم شئون الدار ، من حيث تربية الأطفال وإعداد الطعام وتدريب الإناث من بناتها ، وتقسيم العمل بينهن وبين زوجات أبنائها ، كذلك تكون مسئولة عن الإنتاج الداخلى ، كتربية الدواجن وحلب الماشية واستخراج الزبد والجبن وفى بعض الأحيان تشرف على توزيع الطعام والملابس وغرف « الدار » ... وهكذا .

٥ ـ الاكتفاء الذاتي:

هذا الاكتفاء نتيجة مباشرة لوجود العائلة كالإحدة اجتماعية واقتصادية. ولهذا كان الإكتفاء الذاتي ذا مظهرين: اجتماعي من حيث العلاقات الاجتماعية واقتصادي من حيث الحياة الإقتصادية فمن الناحية الاجتماعية يعيش الأعضاء داخل العائلة مكونين لعلاقات إجتماعية متعددة، ولا يشعرون بحاجة إلى أن تمتد علاقاتهم أبعد من ذلك. فالعائلة تشبع من وجهة نظرها أكثر ميولهم ورغباتهم، وأقصى إمتداد لهذه العلاقات يكون في دائرة البدنة أي نسق القرابة الكبير.

ولما كان الزواج يعتبر أهم مطلب إجتماعي للفرد فهو يتم داخليا في حدود العائلة أو البدنة، ومجموع القيم والأفكار والنظرة إلى الحياة يتلقاها جميعاً عن العائلة، وسلطة العائلة تقوم نيابة عن جميع الأعضاء بكل ماقد يكون ضرورياً من علاقات مع الخارج إذا استثنينا علاقات المجاملة والاشتراك في المناسبات العامة. إذن فدورة حياة الفرد منذ ولادته حتى مماته تتم في محيط العائلة. ففي طفولته يجد رفقاء اللعب في العائلة أو البدنة، وعندما يشتد عوده يشارك بقدر في الإنتاج الزراعي مع نظرائه في السن ويكون معهم علاقات التعاون والتنافس والصراع، وفي خلال هذا كله يتلقى بالتدريج عن العائلة كل القيم التي تحدد نماذج سلوكه، ثم تزوجه العائلة وتصبح مسئولة عنه اجتماعياً واقتصادياً. وعندما تتقدم به السن يشارك بقدر في شئون العائلة أو البدنة أو القرية بصورة لا تؤثر على مجموع علاقاته المرعية في العائلة، وعندما يمرض تقوم العائلة على رعايته، وإذا مات تشيعه في حدود التقاليد المرعية.

ومن الناحية الإقتصادية تعمل العائلة في الأرض الزراعية التي تملكها

وتقيم في الدار التي تسعها في المنطقة التي تشغلها البدنة من القرية. وفي الزراعة أو الحيوان يحصل على كل حاجاته في المأكل والملابس والمسكن، ولا تجد العائلة ضرورة في كثير من الأحيان إلى الاعتماد على غيرها، لأن جميع العائلات متشابهة من حيث نوع العمل ونوع الاعتماد على الأرض. هذا الى أن كل الأدوات أو الحاجات البسيطة التي تريدها العائلة كانت تأتي إلى القرية ولا تتكلف هي عناء في البحث عنها أو الوصول إليها. ولهذا كان الإكتفاء الذاتي بدوره مزيدا لوحدة العائلة ومؤكداً للحياة الجمعية التعاونية التي تقوم عليها.

وقد ترتب على ذلك أن العائلات في واقع الأمر لا تعتمد من الناحية الاقتصادية على الأقل على غيرها، بل إن بعض العائلات قد لا يعتمد خصوصاً في الزواج على عائلات أخرى. ولهذا كان التعاون بين العائلات في البدنة الواحدة ليس له هدف اقتصادي، وإنما كان يحقق أغراضا اجتماعية بحتة ويكشف عن التعاطف والتواد بين الأقارب في النسق القرابي. وعلى هذا كان الإكتفاء الذاتي من المسائل التي تفاخر بها العائلة وترتبط سمعتها وشهرتها به لأن الإكتفاء في أساسه عبارة عن كفاية الأرض وكبر العدد ومهارة الأفراد.

المحافظة على التقاليد:

القرابة ومايترتب عليها من احترام وطاعة على أساس السن والسيادة على أساس الجنس ومايترتب عليها من سيادة الرجال على النساء، وأهمية الارض والقدر العظيم للعمل الزراعي، وما يترتب عليها من قيم، والشخصية الجمعية والعمل للعائلة، وما يترتب عليها من قيم عائلية واستبداد للقيم

الفردية ، كل هذا وما يترتب عليه من قيم ونماذج للسلوك ونظـرة للحياة تـكوّن مجموعة التقاليد المترتبة على الحياة العائلية ، والتى تحرص عن طريق التدريب الإجتماعى أن تنشىء أعضـاءها عليها ، تصور دور العائلة فى حفظ التقاليد ونقلها من جيل إلى جيل ، واحاطتها بسياج من الضبط الاجتماعى يمنع العدوان عليها أو الاستخفاف بها أو محاولة مناقشتها . والذى يجعـل لهذه التقاليد قدسية وكلمة نهائية فى العلاقات الاجتماعية تدعيمها بالقواعد والتعاليم الدينية ، فهى مزيج من أوامر الله والرسول ومقتضيات الحياة العائلية الجمعية .

ومما يساعد على قوة هذه التقاليد الإطار المحدود الذى تعيش فيه العائلة وأعضاؤها وضيق المـدى الذى تذهب إليه علاقاتها ، والانتظام الدقيق الذى يتردد باستمرار فى دورات متعاقبة للحياة الاجتماعية والاقتصـادية المرتبطة بالمواسم والأعياد ، ودورة الفصول . ومما يساعد التقاليد على الرسـوخ استقرار النظام الذى توجد فيه . فالحياة الاجتماعيـة تسير فى نظام رتيب وكذلك الزراعة . الأمر الذى جعل إحساسهم بالزمن أيضا يتفق مع هـذه الرقابة فى تعاقب الحوادث الاجتماعية . والانتظام فى فصول السنة .

وكان من نتائج هذه التقاليد خصوصا فى تشابه جميع أعضاء العائلة ، من حيث نوع العمل الذى يقومون به ، أن كانوا جميعا صورة واحدة بحيث يمكن التنبؤ بما يفعله فرد معين إذا عرفنا مجموع التقاليد التى توجه حياة الجماعة : ولهذا فالسلوك المتوقع من فئات السن المختلفة يمكن تصويره فى ضوء التقاليد المرعية لكل فئة . كما يمكن أن ندرك الفرق بين التقاليد التى تحكم سلوك الرجال عامة والتقاليد التى تحكم سلوك النساء . وبصفة عامة

دور التقاليد فى حياة العائلة أقامة شخصية محددة المعالم نموذجية

كان دور التقاليد فى حياة العائلة إقامة شخصية نموذجية محددة المعالم . ولهذا تـكون دراسة الشخصية دراسة للقيم العائلية .

الزواج هو مرحلة المرور من مرحلة اللامسئولية إلى مرحلة المسئولية الكاملة

٧ ـ الزواج واجب اجتماعى وهدف اقتصادى :

كان الزواج كما قدمنا أمرا تقوم به العائلة من حيث الاختيار الذى كان يفضل أن يكون داخلياً فى حدود النسق القرابى ، وكانت تحدد زمنه من السن الذى يفضل أن يكون فى سن مبكرة للذكر والأنثى . وهو من الناحية الدينية واجب بحسب القواعد الإسلامية . فالرجل لا يكتمل دينه إلا إذا تزوج ، ومن الناحيـة الاجتماعية يعتبر تأهيلا للشاب أو الشابة لتحمل المسئوليات كـاملة ، خصوصا وأن المجتمعات الزراعية لا تمارس أنواعا من الطقوس لتأهيل الشباب للدخول فى الحياة العامـة أو إعلان انتقاله من مرحلة لأخرى فالزواج هو « المرور » من مرحلة اللامسئولية النسبية التى تتعلق بصغار السن إلى مرحلة المسئولية الـكاملة التى تتعلق بفئات الـكبار. وطالما ظل الشاب غيرمتزوج فانه يـكون فى مفهوم العائلة لا زال « جاهلا» أى فى سن الطيش وعـدم إدرك المسئولية ، وتكتمل رجولته بالزواج وخصوصا بعد الإنجاب .

والزواج فى سن مبكر فى نظر العـائلة « ضبط للحياة الجنسية » لأن التجربة الجنسية قبل الزواج أمر ممنوع ومعاقب عليه بشدة . ومع هذا قد يكون لبعض الشباب صـلات جنسية سرية قبل الزواج ، أو قد يمارسون أنواعا من اللعب الجنسى أو التردى فى بعض العادات السرية المتصلة بالجنس. ولـكن نظرا لرفض المجتمـع ذلك وإعطائه قدرا كبيرا من الأهمية والقيمة للطهارة والعذرية عند الجنسين ، فان المخارج الجنسية قبل الزواج كانت محدودة

جدا . حتى أنه يمكن القول أن خبرات الجنس عند غير المتزوجين كانت شفوية فى أغلب الأحيان ولا تتم الخبرات العملية فى الاتصال الجنسى إلا بعد الزواج .

ومن الناحية الاقتصادية كان الزواج هو الطريق الوحيد لانجاب اليد العاملة فى الزراعة ، وهنا لا نستطيع أن نفصل بين الأهمية الاجتماعية للأولاد وبين أهميتهم الاقتصادية . فالأولاد يعملون على كبر حجم العائلة وما يترتب عليه من مركز اجتماعي للعائلة الكبيرة العدد ، ولكن الأهداف الاقتصادية للزواج كانت واضحة ، فالزوجات بعد زواج بنات العائلة مطلوبات لمساعدة الأم الكبرى فى « عمل الدار » والمعاونة فى شئونها المختلفة ، ولهذا يدخل فى اختيار الزوجة مهارتها فى الأعمال المنزلية كقدرتها على طهى الطعام وحلب الجاموس والبقر ، وإعداد الخبز ، كما يدخل فى اختيارها ما يمكن أن تناله من أرض زراعية أو ما قد يصلها من هدايا منتظمة من عائلتها.

ومن ناحية الفرد كان الإتصال الجنسى فى الزواج هو الطريق الوحيد للاستمتاع بالحياة (١) خصوصا بعد أن يتزوج الفرد ، وينقطع عن رفقاء اللعب وتزداد مسئولياته ، ومع طبيعة العائلة القائمة على العمل والمعيشة الجمعيين والسلطة التدريجية ، لا يجد الفرد مجالا للتنفيس عن رغباته أو التعبير عن ميوله . وكانت مظاهر الترفيه قليلة جدا وتكاد تصطبغ بالاتجاه الدينى فى الحفلات والشعائر الدينية . والموالد القليلة التى كان يسمح للفرد بالتردد

1 — R, Redfield, Peasant Society, and Culture, Chicago,195, p. 127.

عليها . وبعد الزواج فى هذه السن المبكرة كان اظهار المرح أو الخفة أو الرغبة فى اللعب أو الضحك بصوت عال ، أمور غير مرغوب فيها لأنها مقصورة على « الصغار ».

وقد ترتب على قيام العائلة على هذا النحو ، ان كانت لها نتائج هامة فى الحياة القروية عامة ، وحياة القرويين خاصة . فقد حددت مدى العلاقات Scale من حيث الكثافة Intensity وعدد الأفراد الداخلين فيها Number of Indviduals (١) . ولما كانت وحدة الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فقد انعكس هذا التحديد على مجتمع القرية ككل ، ثم على علاقة القرية بالقرى الأخرى أو المدينة .

ففى داخل العائلة الواحدة ، يعتمد كل عضو على الآخر اعتمادا مباشرا . ولهذا تزداد كثافة العلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض ، ويزداد عدد الأفراد الذين يكونون أهداف هذه العلاقات . ونظرا لاكتفاء العائلة بذاتها ، فان الكثافة والعدد يقلان كثيرا من وجهة نظر الإعتماد بالنسبة للعائلات الأخري فى البدنة الواحدة ، ويكادا يتلاشيان فى العلاقة مع عائلات من بدنات أخرى . فاذا أدخلنا فى حسابنا قيام العلاقة على أساس القرابة ، وجدنا أن كثافة العلاقة تزيد داخل البدنة الواحدة المكونة للنسق القرابى وتقل جدا فيما عدا ذلك ، كما يقل بالتالى عدد الأفراد الذين يشتركون فى هذه العلاقات ، وإذا نظرنا الى السلطة باعتبارها مركزية فى يد أكبر الذكور سنا لوجدنا أن عدد الأفراد الذين يدخلون فى علاقات مع الغير عداه قليلون جدا ، وتزداد قلتهم فى العائلة الى البدنة الى مجتمع القرية . وينطبق

1 — Godfrey & Nonica Wilson; Op, Git. p. 25

هذا بدوره على كثافة العلاقات . وفى القرية نظرا لقيام تنظيمها الاجتماعى عامة على البدنات كنسق كبيرة للقرابة المحددة للعلاقات الاجتماعية ، فان كثافة هذه العلاقات المتبادلة وعدد الأفراد الذين يشتركون فيها بالتالى تصبح قليلة ، وتبدو هذه القلة واضحة إذا كان الأمر يتعلق بالقرى المجاورة حيث يقل الاعتماد ويصل التعاون الى أدنى درجاته . إذن فضيق مدى العلاقات من حيث الكثافة والعدد أهم ما تمخض عن بناء العائلة القديمة .

وفى هذا الصدد قد تختلف القرية فى النموذج الذى تدرسه عن قرى أخرى فى الهند مثلا . فكل منطقة فى الهند نجد فيها اختلافا فى الأجناس واللغات والأديان ، وسكان القرية فى كل منطقة ينتمون الى طوائف هندوكية مختلفة أو الى أديان مختلفة ، ولذلك تمتد علاقات القرية بالقرى المجاورة من الناحية الاجتماعية على أساس طائفى . وفى كثير من الأحيان ، يكون بعض السكان فى القرية الواحدة علاقات وثيقة على هذا الأساس مع القرى المجاورة أكثر من علاقاتهم « ببقية السكان » (١) . ولهذا كانت كثافة العلاقات فى العائلة الهندية وعدد المشتركين فيها أكبر من حيث المدى على ضوء ذلك من العائلة فى القرى فى الجمهورية العربية المتحدة ، نظرا لعدم وجود هذا التمايز الواضح فى الأجناس والأديان واللغات . فالقرى « المصرية » متشابهة من حيث الظروف التى تعيش فيها ، ومن حيث خصائص السكان . ومن هذه الزاوية كان تأثير التغير فى الثقافة الهندية يترك آثارا مباشرة على القرى ، أو أن الثقافة الهندية القديمة من حيث قيامها على مضمونات متنوعة ومختلفة على الأسس السابقة كانت تعطى للقرى صيغا مختلفة ، وهذا وضع لم يلاحظ

1— S. C. Dube, Indian Village, London, 1956, pp. 5,6,7,8.

فى علاقة المدينة أو « الثقافة المصرية » بالقرى الثلاث ، وأغلب الظن ان تأثيرها يؤدي الى تشابه صيغ القرى ذات الظروف الواحدة فى المجتمع الريفى بأسره .

ومن المهم هنا أن نبرز أن الشخصية الاجتماعية للفرد كانت محدودة بمدى العلاقات فى العائلة وخارجها . فالفرد جزء من العائلة ولا يتمايز الأفراد من هذه الزاوية إلا بناء على تحقيقه للقيم العائلية أو تقصيره أو اخفاقه . فالعمل للعائلة والمهارة فى العمل الزراعى ، واحترام السن فى دائرة الجنس، والتدين ، كانت الخطوط الرئيسية التى تعين نموذج الشخصية . وقد ترتب على ذلك أن كانت للتقاليد سطوة كبرى من حيث الحدود التى ترسمها للسلوك الاجتماعى . ويلاحظ أنه كلما قل مدى العلاقات من حيث الكثافة والعدد بين المجتمعات أو وحدات الحياة الاجتماعية فيها ، كلما كانت التقاليد شديدة الأثر ومكونة لإطار محكم من القيم ونماذج السلوك . فاذا زاد المدى خفت قبضة التقاليد وصار هناك مجال للحرية فى نطاق أوسع .

ثانيا — العائلة المتغيرة :

العائلة القديمة تتغير ، وتزداد سرعة التغير ، وتزداد آثاره . هذه حقيقة واضحة عن طريق المقارنة بين العائلة القديمة والعائلة المتغيرة الآن والملاحظات المباشرة للحياة القروية عامة ، وللبدنات والعائلات تكشف عن المدى الذى ذهبت إليه الوحدات الأساسية فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية القديمة فى التغير . وقد يمكن على أساس ذلك وفى ضوء ازدياد وتجمع عوامل التغير أن نعين اتجاه الحياة العائلية ومستقبل الحياة الريفية بأسرها .

والصورة العامة للقرية الآن ، أن السكان يزدادون ، ومساحة الأرض الزراعية

كما هي ، ولم يحدث تحسن ذو شأن في وسائل الانتاج ، ويزداد تفتت الأرض الزراعية وتوزعها على وحدات أصغر باستمرار ، فيقل الانتاج الاقتصادى في مجموعه ، ويزداد انخفاض مستوى المعيشة في الوقت الذى نشأت فيه حاجات جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وتحصل « مصر » على الاستقلال عام ١٩٢٣ ، وتتولى الحكم حكومات وطنية ، وتحس القرية بالحركات الوطنية ، وتبدأ الحكومة في إعادة تنظيم الجهاز الادارى ويعفى الفلاح من بعض الضرائب ويلغى نظام « السخرة » وتتدخل الدولة تنظيميا في مسائل الزواج والطلاق والمواليد والوفيات ، وتنشىء المدرسة الإلزامية ، وتقضى على « الكتاب » ويصبح التعليم الإلزامى إجباريا وتزداد القوانين ، ويزداد السهر على رعاية الأمن . ويزداد اتصال القرية بالمدينة ، ويطلع القرويون على نماذج جديدة من الحياة وطرزا مختلفة للثقافة المادية ، وتزداد « الأسر » التى لا تملك أرضا زراعية وتقل طاقة المساحات التى « تؤجر » على استيعاب الأعداد المتزايدة من هذه الأسر فتتغير الرابطة بين الإنسان والأرض والحيوان ، فتظهر بوادر الهجرة المؤقتة فالدائمة وتزداد .

وتقوم الحرب العالمية الثانية ، ويزداد تدخل الحكومة في الانتاج الزراعى ، وفي وسائل التموين ، وتتحسن طرق المواصلات ، وتدخل مظاهر ثقافية مادية جديدة في القرى كالسيارة والراديو والصحف ، ويأخذ التعليم في الانتشار ، ويصبح ذا قيمة اقتصادية ، فيرسل الفلاح ابنه طواعية الى المدرسة في المدينة . ويظهر رأس المال النقدى كنوع آخر من الملكية ، ويزداد عدد غير المشتغلين بالزراعة ، وتبدأ النظرة للأرض والعمل الزراعى تأخذ إتجاها جديدا .

إذن فحجم العائلة وازدياد آثار المدينة على القرية كانا العاملين البارزين في تغير الحياة القروية ، وبالتالى كانت نتيجتهما مباشرة على العائلة . وقد ذكرنا من قبل أن العائلة القديمة كانت تميل الى زيادة حجمها لأسباب إجتماعية واقتصادية في الوقت الذى كانت أرضها الزراعية تسمح باعالة أكبر عدد ممكن ، ومعنى هذا أن سكان القرية في مجموعهم يزدادون . وهذا واضح من الاحصاءات الرسمية ، ولكن زيادة حجم العائلة وانقسامها فيما بعد إلى عائلات تميل بدورها الى زيادة حجمها ، كان العامل الأول في تغيير بنائها ووظائفها والأسس التى تقوم عليها . فالعائلة التى كانت تملك ٢٠ فدانا في عام ١٩١٤ مثلا وكانت تتكون من رجل وزوجته وخمسة أبناء متزوجين وخمس غير متزوجين ، وعدد من الأعضاء يبلغ ١٨ ، فانها تضم ٣٠ عضوا . فاذا تزوج باقى الأولاد ، وظلت العائلة محافظة على السلطة فيها للابن الأكبر حتى عام ١٩٢٨ مثلا الى أن تنقسم الى عائلات ، فمع حرمان الإناث من الميراث ، فان كل عائلة يخصها حينذاك « ٢ » فدان فقط . واذا انقسمت هذه العائلة في عام ١٩٤٠ ، وكان عدد الذكور ٨ ، خص كل منهم نصف فدان ، وهكذا تتضاءل الملكية وتتلاشى على مرور الزمن . وهذا المثل يصور ما يحدث في القرى فعلا .

وعلى ذلك فان الاكتفاء الذاتى للعائلة يختل بزيادة العدد وفي المدى الزمنى الطويل تتفكك لتفكك قاعدة الوحدة الاجتماعية والاقتصادية . وانقسام العائلة في هذه المرحلة من مراحل التغيير لا يكون الى عائلات بل الى أسر ، وهذا هو الاتجاه العام . وبذلك تنتقل وحدة الحياة الاجتماعية والاقتصادية من العائلة الى الأسرة . وتعمل الأسرة لنفسها لإعالة أعضائها ، خصوصا غير المتزوجين ، فاذا تزوج ابن فانه لا يبقى طويلا في

الأسرة ، بل ينفصل ، وإذا بقى فعلى أساس يختلف عن أساس البقاء فى العائلة القديمة ، كما سنوضح ذلك فيما بعد .

وإذا أضفنا الى ذلك أنه بعد ان بدأت ملامح التغير تظهر على العائلة أخذت آثار المدنية تصل الى القرية فى ازدياد مستمر ، لتبينا أن عامل التغير الاجتماعى الداخلى والخارجى يعملان على زيادة التغير فى العائلة وفى الأسس التى كانت تقوم عليها ، ومع ذلك فان الأسرة هى الوحدة الأساسية الآن فى البناء الاجتماعى على الرغم من أنها لم تعد وحدة الحياة الاقتصادية كما كانت العائلة القديمة ، ولذلك يتخذ البناء شكلا آخر غير الشكل Form القديم الذى كانت العائلة أهم مكوناته . ولهذا فان دوبيه Dube عندما يقول أنه برغم التغير الذى حدث فى العائلة الهندية لازال البناء الاجتماعى كما هو (١) ، فلا بد أن يكون التغير فى العائلة لا زال غير واضح ولا زالت تقوم على الأسس التى قامت عليها من قبل . ولعله لو التفت الى التغيرات الداخلية المبنية على أثر العوامل الداخلية كزيادة السكان لوجد اختلافا واضحا بين القديم والجديد . كما ان حامد عمار فى الفصل الذى عقده عن التغير الاجتماعى فى قرية « سلوا » يرى أن العائلة بمفهومها القديم لا تزال موجودة (٢) . ولعل ظروف قرية سلوا هذه لم تجعل العائلة تتغير كثيرا ، وبقيت حتى الآن أساس البناء الاجتماعى وقاعدة الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

وهذا لا يعنى أن العائلة اختفت تماما ، ولكن هناك عدد من العائلات

1 — Dube. Op. Cit., pp. 216-222.
2 — Hamed Ammar, Growing up in an Egyptian Village, pp. 48—44.

لا زال موجودا فى كل قرية ، وإنما تختلف أيضا عن العائلات القديمة ، خصوصا من حيث السلطة والأكتفاء الذاتى وأهمية علاقات القرابة ، أى أن الأختلاف يقع فى مدى العلاقة من حيث الكثافة والمدد . وقد لاحظت أن سبب بقائها على هذا النحو يرجع الى أسباب اقتصادية ، فبعض العائلات لا زالت تملك قدرا لا بأس به من الأرض الزراعية ، وفى وجود الأب الأكبر تظل العائلة محافظة على البناء الذى يشابه البناء القديم من حيث الشكل وإنما تتخذ العلاقات الداخلية اتجاها يتأثر بالتغيرات الموجودة فى القرية . ولكن ماحدث لعائلات أخرى عند موت الأب من انقسامها الى أسر واستقلال كل منها اقتصاديا واجتماعيا ، سوف يحدث للعائلات الباقية فالأعضاء المتزوجون فيها ، ينتظرون موت والدهم ، . أما فى حالة الأسر فانها نظرا لأنفصالها نتيجة للعوامل الاقتصادية فى المحل الأول فانها تكون مستقلة تماما من هذه الناحية ، ولكنها لا تزال مرتبطة على نحو ما بالأسر الأخرى فى النسق القرابى من الناحية الإجتماعية . والتغير يسير فى الاتجاه الذى يقلل من هذه الارتباطات ويجعلها تتصل بمجتمع القرية ككل لا بالنسق القرابى وحده .

وهناك ثلاثة أنواع من الأسرة الأول أسر مستقلة تماما من الناحية الإجتماعية والاقتصادية وفى المسكن أيضا ، وتقوم علاقاتها فى المحل الأول مع الأسر الأخرى فى القرية على أساس المصلحة والثانى أسر مستقلة من الناحية الاقتصادية ولكنها لا تزال تسكن فى دار العائلة القديمة التى قسمت داخليا مع وجود باب واحد يدخل منه الجميع . ولهذا لا زالوا مرتبطين من الناحية الاجتماعية بعدة روابط تعتبر رواسب للعائلة القديمة . والثالث أسر شبه مستقلة من الناحية الاقتصادية ولكن العمل جمعى ، ويقسم الانتاج

فى النهاية بين الجميع وتستقل كل أسرة فى استهلاكه أو توزيعه حسب ما يتراءى لها ، ولهذا تسكن هذه الأسر فى دار العائلة القديمة وتكون ارتباطاتهم الاجتماعية أكثر كثافة من النوع الثانى . وليست هناك قاعدة منطقية لهذا التصنيف . فمن الأسر المستقلة ، عدد لا يملك أرضا زراعية وعدد آخر يملك قدرا ضئيلا ، وبعضها يملك مساحات لا بأس بها قد يؤجر منها أجزاء للأسر الاخرى . ومن الاسر المستقله اقتصاديا من لا يملك أرضا ومنهم من لا يعمل فى الزراعة وبعضهم يملك أرضا مناسبة ، وكذلك الحال بالنسبة للاسر شبه المستقلة من الناحية الاقتصادية . وهكذا نرى أن اتجاه التغير هو إلى نموذج الاسرة المكونة من الزوج والزوجة والأولاد فقط كما يتضح هذا من العرض الآتى :

. . .

العائلة القديمة فى الواقع كانت تضم عدة أسر تربطها روابط القرابة المباشرة والعمل الجمعى والمعيشة الجمعية والسلطة الواحدة . وظل هذا النظام محافظا على توازنه زمنا طويلا نظرا للتوازن الذى كان قائما بين الانسان والارض والحيوان . والذي كان من أهم مظاهره الا كتفاء الذاتى فى العائلة وفى القرية أيضا . ويعتبر الاكتفاء الذاتى فى العائلة أحد الخصائص الهامة التى كانت تجعل الفرد يحس أنه عضو فى جماعة مسئولة عنه ، تواجه مطالبه العادية بكفاية تامة طبقا للمستوى المحلي ، وتواجه مطالبه الاجتماعية كالزواج وبالتالى ترعى اولاده وتشرف على تربيتهم وتدريبهم ، وتصنع معهم عند ما يشبون مثل ماصنعت معه من قبل . وكل هذا كان شأنه أن يخلق حالة من التوازن فى العائلة يكتب لها الاستقرار . وليس معنى هذا أنها كانت ثابتة Static وانما كانت تتغير ، لأن التغير هو خاصية المجتمعات ، والتغير لها

كالتنفس بالنسبة للكائن الحى ولكن التغيرات الطفيفة التى كانت تحدث لا تصيب هذا التوازن باضطراب هام يؤدى الى تغيرات ملحوظة فى بناء العائلة ووظائفها والأسس التى تقوم عليها . ولهذا كانت عملية إعادة التوازن تتم بسرعة وبطريقة مباشرة حتى لا يكاد أعضاء العائلة أو مجتمع القرية ككل يحسون أن ثمة تغير أو اختلال حدث .

ولكن الزيادة الطبيعية فى سكان القرية عامة ، وفى العائلة خاصة ، واستمرار الاعتماد على الزراعة كمصدر أول للحياة الاقتصادية ، أصاب هذا التوازن بعدة اختلالات متوالية ، بدت فى أول الأمر على صورة خلافات بسيطة حول التوزيع ، ثم أخذت تزداد نتيجة استمرار انقسام العائلة فى المدى الزمنى الى عائلات وما ترتب عليه من تناقص مساحة الأرض المخصصة لكل عائلة الأمر الذى أدى فى كثير من الحالات الى توفر الأيدى العاملة دون عمل . فظهرت البطالة الجزئية ثم البطالة الكلية . ويلاحظ أن توزيع الملكية كان له شأن كبير فى تفكك العائلات الفقيرة والمتوسطة . أما العائلات الغنية ، فالتفكك فيها كان راجعا فى المحل الأول الى التقليد وأثر المدينة وظهور المطالب الجديدة والقيم الجديدة كالتعليم .

وتفكك العائلة لم يظهر فجأة ، وإنما أخذ يظهر تدريجيا ، ففى العائلات الغنية بدأ بتخصيص جزء معين من المحاصيل لكل أسرة فى نطاق العائلة تكفى حاجتها السنوية وترتب على ذلك نوع من الاستقلال فى الحياة المنزلية ، ثم أخذ التفكك يأخذ مرحلة أخرى بتخصيص جزء معين من الدار لإقامة كل أسرة . وفى كل من المرحلتين ظل العمل جمعيا ، وظل للأب الأكبر بعض مظاهر السلطة كالتصرف فى فائض الانتاج والزواج والعلاقات الاجتماعية الخارجية . ثم أخذ التفكك يدخل مرحلة ثالثة عندما

تزداد الخلافات بين الأبناء وبين الزوجات ، فينفصل كل منهم انفصالا يكاد يكون تاما فى حياة والدهم فى المعيشة فى الدار وفى التصرف فى محصول جزء من الأرض . وعندما يموت الأب يتخذ الاستقلال صورته النهائية بتقسيم الأرض الزراعية . أما فى العائلات الفقيرة أو المتوسطة ، فان التفكك يسير كالأسر الغنية فى المرحلة ، وينفصل الأبناء المتزوجون بعد ذلك .

إذن فالعائلة من حيث الحجم قل عددها الآن ، والنموذج هو الأسرة التى تقتصر على الزوج والزوجة والاولاد . فالأسباب التى من أجلها كانت العائلة تميل الى زيادة حجمها لم تعد موجودة الآن والقروى الآن تبدو عليه مظاهر القلق والسعى الدائم فى سبيل توفير المطالب الأساسية لأسرته .

أما القرابة فبعد ان كانت أبعادها تمتد فى حدود البدنة التى تمثل النسق القرابى ، إلا أنها تغيرت الآن . وتتسع الان لتشمل مجتمع القرية بأسره ، وقد ساعد على ذلك أن الزواج لم يعد يراعى فيه أن يكون داخليا ، ولهذا يصعب الآن تتبع سلاسل النسب ، فقد يؤدى تتبع واحدة منها الى شمول القرية بأسرها . وكان لذلك نتائج مهمة على التضامن العائلى ووحدة البدنة .

ومن الأمثلة على ذلك أن الخلافات التى كانت تحل دائما على مستوى عائلى أصبحت الآن تحل على مستوى فردى فى أغلب الاحيان . ومعنى هذا أن مجتمع القرية أخذ يظهر الآن كعامل هام فى حياة الافراد بعد أن تغيرت حدود القرابة .

السلطة فى القرية كانت تعتمد وتتعاون فى نفس الوقت مع سلطة العائلة والبدنة ، وبمعنى آخر أن العمدة كان يؤدى وظيفته عن طريق السلطات العائلية التى كان يمثلها كبار السن ورؤساء العائلات . هذا فى الوقت الذى كانت سلطة العائلة مركزية واضحة المعالم يدين لها جميع الأعضاء بالطاعة والولاء والاحترام ، ولكن سلطة القرية الآن نمت على حساب السلطة العائلية وبالتالى ظهر القانون بدل العرف كمنظم أول للعلاقات بين الأفراد .

وطبيعى أن تتأثر السلطة العائلية بالتفكك الذى أخذ يظهر فى العائلة وانقسامها المستمر الى أسر تمارس حياتها الإجتماعية والإقتصادية مستقلة عن نطاق العائلة القديم . فأول مظهر لسلطة العائلة ناله التغير هو المظهر الاقتصادى حيث كان صاحب السلطة له الكلمة العليا فى الانتاج الزراعى وما يترتب عليه من تعاون وتقسيم للعمل . فوجود عدد متزايد من العائلات الآن دون ملكية على الاطلاق أدى الى تفككها وبالتالى اختفاء السلطة القديمة . حقيقة أن بعض العائلات لا تزال تعيش على الصورة القديمة ، ويعمل الأبناء ويعطون نتيجة عملهم لوالدهم وقد يكونون متزوجين ، ولكن هذا المظهر لا يظل طويلا ، فالخلافات تحدث بسرعة ولأقل سبب ويعقبها فورا الانفصال ، كما أن موت الوالد يقضى على المظهر العائلى مباشرة حين يلجأ كل إبن متزوج الى الاستقلال وتبقى الأم مع الأبناء غير المتزوجين ، فاذا ماتت الأم وكان هناك أطفال لا زالوا فى سن الرعاية ، فان القاعدة أن يعيشوا مع الأخ الأكبر أو مع أخوتهم بصورة غير منظمة ويحدث أن يرفض الأخوة إعالة أخوتهم الأطفال ، فيذهبون الى أحد أخوالهم . أما المظهر الاجتماعى للسلطة ، فانه لا زال له بعض الاحترام ، وهذا يعنى أن عامل السن أو السلطة على

أساس السن لا زالت مرعية الى حد ما ، ولكنها تضاءلت الى درجة أن الخلاف قد يظهر عدم احترام الشبان للكبار فى كثير من الحالات خصوصا إذا تعلق الأمر بالمصلحة المادية ، أو بالأختيار فى الزواج ... وهكذا .

ونظرا لعدم التزام قاعدة الزواج الداخلى ، الذى كان يجعل لكبار السن عامة فى البدنة سلطة على من هم أصغر منهم سنا ، فقد ترتب على ذلك أن الفرد يتأثر بنوعين من السلطة الاجتماعية القائمة على السن ، السلطة من ناحية الأب ، والسلطة من ناحية الأم ، وقد يكونان من بدنتين مختلفتين ، وبمجرد تعدد الولاء الفردى على هذا النحو يؤدى فى نهاية الأمر الى تفكك التضامن فى العائلة والبدنة والى ضعف روابط القرابة فى نسق القرابة القديم .

ومع هذا يحدث الآن أن يخرج كثير من الشبان غير المتزوجين على طاعة آبائهم فيطردون من منزل الاسرة ، فيلجأون الى منزل العم أو الخال دون قاعدة ، ولا يهم اذا كان الخال من بدنة غير البدنة التى ينتمى اليها . كما أن الشاب قد يأتمر بأمر خاله أكثر من والده ، لا تفصل فيه سلطة العائلة القديمة أو البدنة ، بل يشترك فى بحث النزاع والعمل على عودة المياه الى مجاريها عدد من كبار السن الذين يمثلون « طبقة الأعيان » فى القرية ، وهؤلاء لا يشترط فيهم أن يكونوا من نفس البدنة .

وللسلطة على هذا النحو بمقارنتها بالسلطة فى العائلة القديمة عدة نتائج على مايلى :

١ ـ احترام السن :

كان احترام السن يقوم على أساسين ، الأول قيام العلاقة على أساس القرابة الأمر الذى جعل احترام المركز القرابى يرتبط بالسن فى النسق العائلى النسق القرابى للبدنة ، والثانى ضيق مدى علاقة الفرد وضآلته من حيث الكثافة وعدد الذين تربطهم به علاقات مباشرة أو غير مباشرة ، الأمر الذى جعل السن هو مقياس « البعد الاجتماعى Social distance » بين الافراد . ولكن تفكك العائلة فى ضوء العوامل التى أدت الى ذلك والنتائج التى ظهرت لهذا التغير ، جعل العلاقة لا تقوم على القرابة وحدها ، وإنما تقوم أيضا على أساس المصلحة ، كما أدى الى تغير فى كثافة العلاقات وزيادة عدد الأفراد الذين يدخلون اطرافا فيها ، الأمر الذى ترتب عليه اختلاف فى مقاييس البعد النهائى . ولما كان احترام السن أمرا لا يقتصر على المجتمعات القروية وحدها ، فانه ظل فى القرية محتفظا برواسبه القديمة ولكنه لا يقتصر على النسق القرابى بل امتد الى مجتمع القرية ككل ، كذلك لم يعد هو المقياس الوحيد للبعد البنائى بين الأفراد ، فقد تعددت المقاييس . ولهذا لم يعد احترام السن محددا لسلوك الفرد بل أنه يمثل اتجاها ذهنيا setata of nind ، وموقفا معينا قد يتغير باختلاف الظروف ، واختلاف نوع العلاقة . اذن فالفرد يستطيع أن يعارض وأن يناقش ، وأن يتعاون ، وأن يسوى بينه وبين كبار السن اذا اقتضت مصلحته الفردية ذلك . وهذا أدى الى نتيجة هامة وهى أن احترام السن يقوم الآن على القيم الفردية ، بعد أن كان يقوم على القيم العائلية .

٢ ـ سيادة الذكر :

كان قيام الرجال بالجهود الأول فى الحياة الاقتصادية ، وقصر عمل النساء على الأعمال المنزلية الى جانب الزواج الداخلى فى النسق القرابى ، الى جانب القيم

سلوك الأفراد وعن أخطائهم . ولكن فى الأسرة الآن تشارك المرأة والأبناء الرجل هم الاضطلاع بالمسئوليات الاقتصادية ، خصوصا وأن الأبناء فى الأسر التى لا تملك أرضا ، قد يعطون للغير ويعطون مقابل عملهم لوالدهم بأكمله ، أو قد يلجأ الرجل إلى « توظيف مجهود » أبنائه فى أعمال للغير ، ويتقاضى هو شخصيا المقابل ، وهذه ظاهرة مألوفة عند هذه الأسر إلى أن يتزوج الأبناء ، فيستقلون فى أغلب الأحيان بعملهم وتكون نتائجه لهم وحدهم أو قد يساعدون والديهم فى بعض الحالات . أما المرأة فانها قد تمارس أنواعا من الأعمال تدر دخلا للأسرة ، كتربية الدواجن أو مستخرجات الألبان وغير ذلك . ومن حيث التضامن فالأسرة بأكملها مسئولة وليس الرجل وحده كما أن العلاقات الخارجية وتدبيرها لا يكون من اختصاص الزوج وحده ، بل أن المرأة تشاركه فى كثير من الأحيان . ولكن يلاحظ أن نسبة الخلافات فى الأسر الآن أكثر منها فى العائلات . وهى خلافات يعرفها الجميع ، ولا تحرص الأسرة على أبقائها من شئونها الخاصة . فالجيران ومجتمع القرية يعرف متى يضرب الرجل زوجته ، وما إذا كانوا فى ضيق أو يسر ، وما إذا كان الأبناء يحترمون والديهم ويطيعونهما وقد ساعد على ذلك أن الزواج أصبح الآن غير داخلى فى أكثر حالاته ، ودخول أطراف فى مشاكل الأسرة لا تمت إلى النسق القرابى يؤدى الى الكشف عنهما والتحدث فى أمرها ، أى معرفة شئون الأسرة وطبيعة العلاقات فيها .

أما مسئولية الأسرة عن سلوك أعضائها فهو أمر واضح ، ولكن الذى تغير هو المسئولية الجمعية للعائلة والبدنة . ولهذا تتجه المسئولية الآن اتجاها فرديا . وهذا يرجع أولا إلى استقلال الأسر من الناحية الاقتصادية وإلى حد كبير من الناحية الاجتماعية ، كما أن الزواج الخارجى جعل الفرد ينتمى



العائلية التى كانت تعلى من شأن الذكور ، أمورا جعلت الرجال هم المسئولون عن استمرار الحياة وضمان العيش والدفاع عن العائلة وسمعتها . وبالتالى جعلت لهم سيادة نظرية وعملية على النساء . ولكن انخفاض المستوى الاقتصادى وتفكك العائلة ، ووجود الأسرة المستقلة ، جعل المرأة تشارك أكثر فى العمل الزراعى ، وتتحمل مسئوليات أكبر من ذى قبل ، هذا الى أن المرأة تعتمد الآن فى مركزها على أسرتها ، كل هذا جعل مركز النساء يزداد على حساب سيادة الذكور القديمة ، ومع أن الرجال لا زالوا حتى الآن يدعون السيادة نظريا ، إلا أنه من الناحية العملية قد لا يكون لهم هذه السيادة المطلقة . فكثيرا ما يحدث ألا يبت رجل فى أمر يتصل بالحياة الاقتصادية كبيع المحصول أو بيع الأرض أو شرائها ، أو بالحياة الاجتماعية كزواج الأبناء من الذكور والأناث قبل أن « يرجع للجماعة » وكقاعدة يزداد مركز المرأة كلما كانت لها ملكية خاصة . وقد لاحظت أن كثيرا من النساء فى وجود الزوج أو حالة موته ، يتولين المعاملات الإقتصادية مع الغير ، ويدخلون فى علاقات متوازية مع الرجال . وفى كثير من الأحيان يلجأ الأزواج إلى ضرب زوجاتهم لإثبات سيادتهم مع أن ظاهرة ضرب النساء لم تكن كثيرة الحدوث من قبل . وهى لذلك مظهر من مظاهر حياة الأسرة الآن لم يكن موجودا فى العائلة .

٣ ـ المسئولية :

كان للمسئولية ثلاث نواحى فى العائلة : الأولى مسئولية صاحب السلطة عن العائلة اقتصاديا فهو مسئول عن توفير الحاجات المختلفة من مأكل وملبس وغير ذلك ، الثانية مسئوليته عن التضامن العائلى وحل الخلافات داخليا وتدبير العلاقات الخارجية ، والثالثة مسئولية العائلة ككل مع البدنة عن

الى أكثر من بدنة واحدة من حيث النسق القرابى . ولهذا زاد إنتماء الفرد إلى مجتمع القرية أكثر من إنتمائه إلى عائلة أو بدنة بعينها . ولكن لاحظت أن الفردية من حيث المسئولية تكون اما داخل القرية حينما ينشأ صراع بين فردين واعتداء أحدهما على الآخر ، أو فى علاقته مع سلطة القرية أو سلطات الحكومة المختلفة ، ولكن المسئولية تكون جمعية خصوصا فى علاقة القرية بقرية أخرى مجاورة لأن الفرد ينتمى فى هذه الحالة إلى القرية ككل . ومعنى هذا أن « الشعور الجمعى » للقرية يتجه الآن إلى الظهور على « الشعور الجمعى » للبدنة .

وعلى أساس هذه الظاهرة المتغيرة للسلطة وما يترتب عليها من نتائج ، وكذلك على أساس وجود الأسرة كوحدة أساسية فى البناء الاجتماعى للقرية تتحدد العلاقات الاجتماعية داخلها ، ويتعين اتجاه علاقاتها الخارجية . ويلاحظ أن الشخصية « الانطوائية » التى كانت تميز القروى أخذت تتغير فى الاتجاه « الإنبساطى » ، فهو أكثر حرية من قبل فى التعبير عن رغباته وإظهار ميوله وتحديد بعض المواقف الفردية التى تتصل بصالحه الخاص . وبمعنى آخر أن الاختلافات الفردية بين القرويين أخذت فى الظهور منذ أن امتدت علاقتهم ووصلت إلى درجة من الكثافة ، وتعدت حدود النسق القرابى ، وأصبح للمجتمع القروى تأثيرات متزايدة على نماذج السلوك . وطبيعى أن يحدث اختلاف بين القديم والجديد بالتدريب الإجتماعى والتربية فى العائلة كانت لها أهداف تختلف فى كثير من نواحيها وآثارها على الفرد عنها فى الأسرة فمن حيث انخفاض الحجم زادت أهمية الفرد كفرد ، ومن حيث السلطة أصبح الفرد لا يخضع لعدة سلطات حتى السلطة المركزية . بل ضاق مدى خضوعه وطبيعته ، ومن حيث المظهر الجمعى للعمل والحياة ،

أصبح على الفرد يتصل به اتصالا مباشرا ولصالحه الخاص ، وحياته تتعلق به أكثر مما تتعلق بمجموعة أكبر . وعلى ذلك لم يعد نجاح الفرد أو فشله يتصل بسمعة العائلة ويدخل فى نطاق مسئولياتها ، بل أنه يرتد اليه مباشرة .

١ - الزوج والزوجة :

كان لاستقلال الأسرة من حيث المسكن والعمل والى حد ما فى الحياة الاجتماعية آثار هامة على علاقة الزوجين ، فقد زادت شدة ، وأصبحت مباشرة تقريبا كل الوقت . حقيقة أن عمل الزوجة لا زال تقريبا كما هو من حيث قيامها على خدمة زوجها واحترامه والاخلاص له وطاعته ، لكن اهتمام الزوج بالزوجة أخذ يظهر تدريجيا ، فلم يعد « البرود واللامبالاة » نموذج علاقته معها . وقد ترتب على وجودهما منفردين فى مسكن واحد أن زادت فرص اظهار الحب ، ولذلك لم يعد عيبا أن يقال أن هذه الزوجة تحب زوجها ، بل أن بعض الزوجات لا يترددن فى اظهار محبتهن لأزواجهن علنا . كما أن تغلب الزوجة على « الحماه » فى الخلافات التى تنشأ بينهما أصبح ظاهرة ملموسة ، فكثير من الأزواج يقفون الآن بجانب زوجاتهم ، خصوصا إذا كان الخلاف سيهدد حياته الزوجية . ومع استماع الرجل لزوجته وانقياده لها سلوك يقابل بالاحتقار والاستخفاف من مجتمع القرية ، إلا أنه من الناحية العملية أصبح ظاهرة مألوفة ، خصوصا أن الذين يحتقرون هذا السلوك نظريا ، ينقاد أغلبهم الى زوجاتهم .

ولكن الملاحظ أن الخلافات الزوجية زادت عن ذى قبل ، حتى أن نسبة الطلاق فى تزايد مستمر ، ولعل تعدد الزوجات فيما قبل كان يقلل عن

هذه النسبة ، بينما لا يميل الرجل الآن الى الجمع بين أكثر من زوجة واحدة فى وقت واحد . وقد كان الخلاف بين الزوجين فيما مضى يحل عن طريق العائلة إذا كان الخلاف بسيطا ، وعن طريق البدنة اذا كان كبيرا ، ونادرا ما تتدخل سلطة القرية فى ذلك . كما أن الإلتجاء الى المحاكم فى المدينة لم يكن معروفا أما الخلافات الزوجية فتتدخل فيها الآن أطراف أكثر من ذى قبل ، وقد يصل الأمر الى المحاكم ، ومايترتب على ذلك من نتائج كالنفقة ومؤخر الصداق ، الأمر الذى كان من الخدش لسمعة العائلة من قبل أن تطالب به . وفيما يلى احصاء لنسبة الخلافات العائلية وطرق حلها كما جمعتها بنفسى فى الخمس سنين الأخيرة :

القرية	الهجر	الانفصال	الصلح	الطلاق الودى	الطلاق فى المحاكم	طلاق بسبب مشاكل	مجموع حالات الطلاق
قيطون	١٣٧	٤	١٣٣	٢٤	٩	٤	٣٧
كفر الشيخ	١٠١	٨	٩٣	٣٩	١٧	٣	٥٩
هلا	١٢٢	٣	١١٩	٣٢	١٢	٥	٤٩

ويلاحظ أنه فى حالات الهجر والانفصال ، لا تبقى الزوجة فى الأسرة ، كما كان يحدث فى العائلة القديمة بل تذهب إلى أسرتها ، ولا تعود الا بعد محاولات متعددة من الزوج لاعادتها ، وفى بعض الأحيان تفرض عليه نوع من « الغرامة » كأن يشترى للزوجة ملابس جديدة ، أو ينفصل عن والديه ،

أو يدفع مبلغا نقديا الى الزوجة ، أو يتعهد ببعض المسائل يقوم بها وغير ذلك . كما أن أخوة الزوجة يتدخلون الآن فى شئون أختهم المتزوجه سواء فى حالات الخلاف أو السلام بينها وبين زوجها . وقد كانت لذلك نتائج مهمة أبرزها ازدياد مركز أقارب الزوجة فى الأسرة ، خصوصا اذا كانوا من بدنة أخرى ، الأمر الذى جعل القرابة من ناحية الأم تعلو فى بعض الأحيان على القرابة من ناحية الأب . وكقاعدة يرحب بوجود أقارب الزوجة فى الأسرة أكثر من الترحيب بأقارب الزوج .

وقد زاد الاهتمام بالجنس منذ إن استقلت الأسرة . وهناك ثلاث حالات طلاق فى قرية القيطون بسبب عدم الاشباع الجنسى للزوجين ، وإن لم يبرز ذلك صراحة فى أسباب الطلاق . ولهذا فالزوجة فى أيام الزواج الأولى تظهر جهلا « تقليديا » بمسائل الجنس ولكنها لا تقاوم الاتصال كما كان النموذج من قبل . وتبدو أهمية الجنس فى حياة الأسرة الآن . من جعله موضوعا هاما للحديث بين الرجال والشبان والنساء ، كل مع رفقائه وأصدقائه فى أثناء جلساتهم الخاصة . كما أن الاتصال الجنسى لم يعد مقصورا على الليل وفى الغرفة المخصصة للزوجين ، بل إنه يتم بالليل والنهار حسب الأحوال ، وفى أحيان كثيرة فى الحقل .

والظاهرة الهامه هنا عند الرجال ، أن ارتباط تعاطى المخدرات عندهم بالجنس ، جعل نسبة متزايدة من القرويين يحرصون على تناولها فى السنين الأولى من الزواج . حتى أن بعض الشبان ينصحون بتناول أنواع منها فى شهور زواجهم الأولى . أما الاتصال أو التجربة الجنسية قبل الزواج فكان من الصعب جدا معرفتها بين النساء ، ولكن بين الرجال تبين أن

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الأولاد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الأسرة [illegible]

[illegible]

عندها في أسرتها وخصوصا عند أقارب زوجها . ولكن إذا تزوج الأبناء [illegible]

[illegible] الأسرة [illegible]

[illegible]

[illegible] الطبيعة الثانية .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] أكثر من [illegible]

القرابة والإنتماء إلى جماعة معينة . ولهذا فان الصراع بين أفـراد من بدنات مختلفة يتخذ فى أغلب الأحيان طابعا فرديا . والأثر المهم الآخر هو تفـكك السلطة القرابية ، وزيادة ظهور سلطة القانون ، أى زيادة سلطـة العمدة والإدارة المحلية عن طريق نقطة البوليس ، أو الالتجاء الى القضاء للفصل فى المنازعات.

التعاون والصراع :

زاد الصراع ، وقل التـعاون من وجهة النظر القرابية ، وازداد من وجهة نظر المصلحة . هذا هو التغير الهام الذى طرأ على هذين المظهـرين من السلوك الاجتماعى والاقتصادى عامة . أما فى الأسرة فان التعاون بين الزوجين والأبناء يقوم على أساس مسئوليتهم جميعا عن حياتهم الاقتصادية ، وقلقهم الدائم من هـذه الزاوية . ونظرا لانخفاض المستوى الاقتصادى وتضـاؤل مساحات الأرض الزراعية المخصصة لـكل أسرة ، فان أعضـاءها يبـذلون متعاونين أقصى الجهد للوصول بالإنتاج إلى أقصى حد ، وتنويعه بحيث يدر دخلا أزيد على قـدر ما يستطيعون : أما تعاون الأسرة مع الأسر الأخرى فى النسق القرابى ، فانها لا تقوم على أساس الإنتماء لأصل واحـد ، أو نتيجة للشعور بواجب التعاون فى هذه الزاوية . ولـكنه يقوم على أسـاس تبادل المصلحة .

ولذلك فان التعاون على هذا النحو امتد ليشمل مجتمع القـرية كـكل. فالأسرة تتعاون فى أى اتجاه طالما كان ذلك فى حدود مصلحتها . بل يحدث أحيانا أن يقلل الرجل من تعاونه مـع أقاربه ويزيده مـع « الغرباء » لأنه يضمن فى هذه الحالة معاملة بالمثل تماما لا تدخل فيها اعتبارات أخرى أما

الصراع فانه إزداد فى داخل الأسرة نفسها أو بينها وبين الجيران فى المسكن أو فى الحقل . فـكثيرا ما يختلف الزوجان خصوصا فى أوائل سنى الزواج حتى أن « الغضب » وهو ذهاب الزوجـة إلى بيت أسرتها يعتبر أمرا عاديا . أما بين الأسر والجيران ، فان مواد الصراع وأسبابه زادت ، كالخلاف على الرى أو المرور وغير ذلك ، وقد يشتد الصراع فى هذه الحالة ويصل إلى درجة التقـاتل ، ولـكنه فى الغالب ينتهى بتدخل طرف ثالث أو تحكيمه .

ومع ذلك فلا زال لرواسب العائلات والبدنة بعض مظاهر الوحدة القديمة القائمة على أساس وحدة النسق القرابى . ولهذا يحرصون من الناحية المظهرية على الظهور كـكل فى المناسبات المختلفة كالاعيـاد والمواسم الدينية وفى الوفاة والزواج وغير ذلك . ولـكن وحدتهم هذه تتفكك إذا تعلق الأمر بالناحية الاقتصادية ، أو كـان الأمر يتعلق بالبدنات الأخرى ذات العلاقات بعدد من أفراد البدنة الأولى عن طريق المصاهرة . ولهذا يحس القروى الآن إحساسا مباشرا بأنه المسئول الأول عن مصالحـه وسلوكه ، وانه لا ينتظر تدخل أحـد للوقوف بجانبه ، وتقـوم اتجاهاته العـامة على هذا الأساس .

العلاقات المتبادلة :

يلاحظ الآن أن تحمل الأبناء لمسئولياتهم يتم فى وقت مبكر عن ذى قبل ، وزاد عمل الأطفال ومشاركتهم فى العمليات الانتاجية . ولهذا قلت الفترة التى يلعب فيها الأطفال ويـكونون أكـثر حـرية من الـكبار . وبالتالى قلت « علاقات المزاح » المتبادلة بينهم وبين كـبار السن . كـما أن الفصل بين الذكور والإناث وتحديد علاقات اللعب يتم الآن فى وقت مبكر

أيضا : وبصفة عامة يمكن القول أن كثافة العلاقات ومداها من حيث عدد الأفراد الداخلين فيها فى الأسرة وخارجها فى مجتمع القرية زاد زيادة كبيرة .

وتتميز العلاقات بالنوع المباشر دون تحديدها تحديدا محكما بالسن كما كان من قبل . كما أن علاقات زوجات الأبناء الآن تقوم على أساس المساواة بل دخلها عنصر التنافس والغيرة . ونظرا لاستقلال الأسرة ، فلم يعد ملزما للزوجة أن تخدم الكبار وأن تعاملهم من هذه الناحيـــة معاملة الزوج .

وقد نال علاقات المزاح هى الأخرى بعض التغيير ، فبعـد أن كانت مقصورة فى أغلب الأحيان على النسق القرابى ، ولاتكون متبادلة بين الكبار والصغار ، أى أن الكبار هم الذين يكونون العنصر الايجابى فيها ، فانها الآن تشمل مجتمع القرية ككل . وقد يراعى عامل السن فى الرد على المزاح . أما الموقف بالنسبة للأطفال فلا زال كما هو . وقد نال التغير أيضا موضوع المزاح تبعا لتغير القيم وخصوصا القيم المرتبطة بالحياة العائليـــة الجمعية .

...

أشرت من قبل إلى أن الزواج أصبح لايراعى فيه قاعدة معينة كأن يكون من داخل العائلة . ويعتبر التغير فى ميدان الزواج من أهم التغيرات الواضحة فى القرية . فلم يقتصر تغيره من حيث الشكل على الزواج الخارجى فى حدود القرية ، بل تعداه الى الزواج من القرى المجاورة أو من المدينة . وهـذا لا يعنى بطبيعة الحال أن كل الزواج أصبح خارجيا ، فلا زالت هناك نسبة معينة من الأفراد فى كل بدنة تتزوج فى حدود النسق القرابى . إلا أننى هنا

أبين الاتجاه العام . ومع أن الزواج يتم فى مواسم معينة إلا أنها لم تعد القاعدة التى كانت مرعية من قبل . فهذا يتوقف على الظروف . لذلك فقـد يحدث الزواج فى كل شهور السنة . أما أهداف الزواج فانها لم تتغير كثيرا عن ذى قبل . فالرغبـــة فى انجاب الأولاد الى جانب ضبط الحياة الجنسية لا زالا الهدفين الرئيسين .

ونظرا لتفكك العائلة التى كانت تقوم على الإرتباط بين الحياتين الاقتصادية والإجتماعية وما يترتب على ذلك من اتجاه إلى الفردية والى ظهور مجتمع القرية على حساب النسق القرابى ، فقد انفصل التشابه والتساوى بين أفراد النسق الواحد بغض النظر عن مركزهم الاقتصادى فى النظرة إلى الفرد ولهذا يتم الزواج الآن على أساس المركز الإقتصادى دون تقدير كبير لمركز الفرد الإجتماعى على أساس انتمائه الى بدنة معينة . فالقدرة الفردية على إعالة الزوجة هى أساس قبول رابطة المصاهرة . وطبيعى أن هذه القدرة ترتبط بمقدار الأرض الزراعية التى يملكها الفرد أو التى ستؤول اليه بعـد وفاة والده ، أو مقدار المال الذى سيرثه إذا كان الوالد يعمل فى غير الإنتاج الزراعى . وعلى ذلك فقد يتزوج فرد من بدنة صغيرة أو قليلة الأهمية فى القرية من فتاة من بدنة كبيرة طالما أن مركزه الاقتصادى يسمح بذلك . وينبغى هنا أن نلاحظ أنه فى الوقت الذى ظهرت فيه الفـــردية إزداد مركز الطائفة — التجار — الحداد . . . الخ ، وتغيرت النظرة اليهم ، وأخـذت المقاييس الاقتصادية تطبق عليهم أكثر من المقاييس الاجتماعية الأمر الذى جعـل الأبعاد بينهم وبين القرويين تضيـق . ولهذا لم تعد قاعدة رفـض مصاهرتهم مرعية تماما . وقد لاحظت أن عددا من « أبناء هذه الطائفة » متزوجون اليوم من فتيات ينتمين الى بدنات كبيرة فى القرية . الأمر الذى ترتب عليه امتزاج هذه الطائفة فى مجتمع القرية بعد أن كانوا « شبه منبوذين » .

أما القاعدة الخاصة بانتقال الزوجة لتعيش فى منزل زوجها . فأنهـا وأن كانت الأساس الأول فى علاقة الزواج ، إلا أنه يحـدث فى بعض الحالات خصوصا عندما ينفصـــل الزوج فى حياة والده عن أسرته ، أن يذهب مع زوجته ليعيش فى منزل أسرتها . أو قد يعيش معها فى قطعة من منزل تكون قد ورثته .وتتناول القرية هذه الظاهرة بالنقد والسخرية من الزوج ، الا أن ازدياد عدد الأزواج الذين يفعلون نفس الشيء فى المستقبل — وهذا مايحدث فى الواقع — سيخفف من هذا العقاب الاجتماعى للزوج الخارج على القيم التقليدية .

ولم تعد الأسرة ذات سلطه نهائية فى اختيار الزوجة دون علم الشاب ، فمع أن هذه هى القاعدة العـــامة ، إلا أن نسبا متزايدة من الشبان يختارون زوجاتهم . وقد ساعد على ذلك أن الاختلاط فى الحقل بين الشبان والفتيات ، وازدياد مشاركة المرأة بصفة عامة فى الحياتين الإجتماعية والإقتصادية ، جعل الشبان يلاحظون الفتيات عن قرب ، الأمر الذي ترتب عليه تفضيلهم لهـذه أو تلك ، لذلك يحدث كثيرا أن يرفض الشاب ما تختاره له أسرته ، ولـكن الدليل الهام على التغير ، هو أن عددا من الفتيات يتزايد بمرور الزمن يرفضن من يتقدم لهن من الشبان . ومن الأمور التى تثار الآن فى شيء من الحـذر أن ينسب هذا الرفض لميل الفتاة الملاحظ الى شاب بعينه . فاذا تزوجت غيره قسرا منها ، فان فتاها يلجأ الى مايسمى « الرباط » وهو « حجاب » يجعل الشاب عاجزا « عن الاتصال الجنسى مع زوجته فى أوائل أيام الزواج » . لهذا فان الخلافات التى تنشأ بسبب « عدم الميل » بين الأزواج تتزايد هذه الأيام وأغلبها ينتهى بالطلاق وفى بعض الأحيان تتزوج المطلقة من الشـــاب الذى كانت تميل اليه قبل زواجها الأول .

والمهر أيضا أصبح أمرا مهما ويغالى فيه الآن ، كما أنه يتناسب مع مركز أسرة الفتاة الاقتصادى ومع احتمالات وراثتها لأرض زراعية . وكقاعدة يكثر الشبان الذين يخطبون فتاة من هذا النوع ، وفى هذه الحالة يتزوجها الشاب الذى يعرض أكبر مهر ممكن ، كما يميل القرويون الى جعل مؤخر الصـداق كبيرا حتى يضمنوا بقاء الزوج مع زوجته . هذا الى أن هناك سبب آخر لإرتفاع المهور وهو تنوع أثاث العروس الآن فبعد أن كان بسيطا يتكون من « مرتبة وحصير ومجموعة من الملابس والأوانى والصناديق » أصبح الآن يشمل الـكراسى والسرير وأدوات المطبخ والموائد . . . وغير ذلك بحسب حالة الأسرة الإقتصادية .

ومن مظاهر التغير البارزة ، الاتجاه إلى تأخير سن الزواج للفتى والفتاة فبالنسبة للفتاة — بالإضافة الى العوامل الاقتصادية ، فان الدولة حـــددت زواج البنت بـ ١٦ عاما ومع ذلك قد يلجأ القرويون الى تسنينهـا عند طبيب لزواجها . ولـكن الملاحظ أن التـأخير بالنسبة للذكور هو الغالب أما البنت فانها تتزوج متى ظهرت عليها علامات النضج وجاءها « العريس » الذى تراه الأسرة مناسبا . كما أن الأسر تحرص على زواج البنـات لأسباب إجتماعية وإقتصادية معاً . كما أن تعدد الزوجات آخـذ فى الاختفـاء بسبب إنخفاض المستوى الاقتصـادى . والرجل الذى يتزوج إمرأة عقيم لا يتزوج غيرها فى نفس الوقت ، بل يطلق ويتزوج مرة أخـــرى . ولعل هذا من الأسباب التى أسهمت مع أسباب أخـرى فى كثرة حالات الطلاق فى القرى الآن . كما قلت المشاكل المترتبة على الرضاعة المشـتركة ، لأن الأم فى أغلب الأحيان الآن هى التى تقوم بارضاع أبنائها ، خصوصا بعد أن تنبه القرويون إلى النتائج التى تترتب على ذلك خصوصا عند الزواج .

القرية كما صورناها من قبل كانت عبارة عن مجتمع صغير متجانس مكتنف بذاته منعزل تقريبا كما أن البدنات المكونه له كوحداته الأساسية الكبرى كانت لها نفس الخصائص . وترتب على ذلك أن كانت كثافة العلاقات قليلة ومدى هذه العلاقات محدودا جدا فى مجتمع القرية ككل . وتكبر الكثافة وتتسع مدى العلاقات فى البدنة المكونة للنسق القرابى ، ثم تزداد الكثافة ويتسع المدى أكثر فى العائلة . كل هذا كان على أساس قيام العائلة كوحدة أساسية فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

والعائلة فى واقع الأمر كانت مكونة من عدة أسر . ولكن معيشتهم المشتركة جعلت لها خصائص تختلف عن خصائص الأجزاء المكونة لها . فلما تغيرت العائلة بتفككها إلى أسر نتيجة لتأثير عوامل مختلفة وأهمها العوامل الاقتصادية المترتبة على زيادة السكان وثبات مساحة الأرض الزراعية تغير التنظيم الأساسى للحياة الاجتماعية فى القرية . لأنه يقوم الآن على وحدات أكثر وهى الأسرة التى تختلف بنائيا ووظيفيا عن العائلة من عدة وجوه . ولو أن خصائص العائلة ظلت للأسرة لما حدث تغيير هام فى الحياة الاجتماعية فى القرية . ولكن كما سنرى فيما بعد . كان تغير البناء والوظيفة مؤديا الى اختلافات ذات شأن فى كثافة العلاقات وفى مداها من حيث عدد الأفراد الداخلين فيها ، الأمر الذى غير من عزلة القرية الداخلية . وقلل من اكتفائها الذاتى وأثر على عزلتها النسبية الخارجية ، وهذا فى الوقت الذى أخذت العوامل الخارجية على القضاء على العزلة الخارجية ، وبالتالى تزداد الصلات الداخلية ولهذا كلما زاد النمو الداخلى زاد اعتماد القرية على الخارج وزاد حجم القرية أيضا . وهكذا نجد أن العوامل الداخلية والخارجية تعمل معا على زيادة التغير الاجتماعى واتساع مداه .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن شكل البناء ومكوناته ترتبط ارتباطا وثيقا بالعمليات التى تعمل على دوامه عن طريق الوظائف التى تؤديها ككل أو تؤديها الأجزاء المكونه له ، ولهذا يرتبط البناء بالعملية والوظيفة ارتباطا منطقيا (١) . فالعائلة القديمة من حيث البناء كانت عبارة – كما سبق أن أشرنا – عن عدة أسر تعمل على استمرار الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية لها ككل وللأعضاء الذين يكونونها ، وتؤدى وظائف محددة . هذا الى أن بناء العائلة القديمة على نحو ما بيناه جعل للسلطة والمعيشة والعمل اتجاهات ونماذج محددة . فاذا تغير هذا البناء ، فهل معنى هذا أن تتغير الوظائف والعمليات المرتبطة به ؟ ولكن ما هو التغير فى البناء ، هل التغير فى صورته ، أو فى مضمون العلاقات الجزئية فيه ؟ يقول رادكليف براون Radcliffe Brown أنه إذا لاحظنا مجتمعا صغيرا ، فاننا نتعرف على بناء اجتماعى ، « فالأفراد » الوحدات الأساسية فى هذا الصدد ، يرتبطون عن طريق مجموعة معينة من العلاقات الاجتماعية فى الكل المتكامل . واستمرار البناء الاجتماعى مثل البناء العضوى ، لا يتحطم بالتغيرات فى « الوحدات » ، لأن استمرار البناء يكون عن طريق « عملية الحياة » ولذلك « فالحياة الاجتماعية هى وظيفة البناء الاجتماعى » . هذا الى أن « وظيفة » أى وحدة اجتماعية هى ما تسهم به فى الحياة الاجتماعية الكلية هى فى نفس الوقت وظيفة النسق الاجتماعى الكلى وهكذا يميز براون بين البنـاء الفعلى الذى يتكون من مجموعة عن العلاقات المتغيرة . وبين الصور البنائية التى تدوم نسبيا خلال فترة تطول

---

1 — Radcliffe-Brown, *Structure and function in primitive Society*, London, 1956, P. 12.

أو تفصر (١) ومع أن إيفانز بريتشارد لم يرتض هذا الفصـــل بين البناء كعلاقة وكصورة ، وجعل الديمومة هي أساس البناء (٢) ، وكذلك فورتس Fortes الذي قال أن هذا الفصل تجريد غير واقعي (٣) . إلا أن العلاقات المتغيرة بين الأفراد ، في البناء الواقعي قد تغير من خصائص البناء ، وبالتالي تتغير طبيعة الحياة الاجتماعية كعملية . فالعائلة كنسق اجتماعي كانت مكونة من عدة نسق اجتماعية ، تحددت العلاقات بينها على أساس المعيشة المشتركة واعتمادها على نظام معين في السلطة والعمل ، ولكن وظائف العائلة التي هي في واقع الأمر وظائف الأسر المكونة لها لم تتأثر كثيرا بانفصال الأسرة عن النموذج العائلي . وإنما الذي تغير هو الخصائص التي كانت للنموذج ، والعملية المرتبطة به . فالأسرة إذن كصورة بنائية ظلت هي أساس البناء الاجتماعي في القرية كما كانت العائلة من قبل ، ولكن علاقاتها البنائية بالوحدات الأخرى تغيرت وبالتالي تغير أسهامها في الحياة الاجتماعية الكلية في القرية إذا قورنت بالعائلة . كما أن العائلة من حيث الوظائف كانت تقوم بمجموع وظائف الأسر الداخلة في تكوينها ، ولما انفصلت الأسرة أصبحت تقوم بوظائفها مستقلة ، أي أن اتحاد الأسر في وحدة واحدة لم يؤد إلى قيام وظائف مختلفة نوعا عن وظائف كل منها على حدة . وإنما الاختلاف في طريقة تأدية هذه الوظائف وهو اختلاف بين الجمعية والفردية ، كما أن نتائج

1 — Radcliffe-Brown, Op. Cit., PP. 178—181.

2 — Ibid. PP. 182 — 193.

ايفانز بريتشارد ـ الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ ترجمة أحمد أبو زيد ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ـ ص ٢٩ وما بعدها
Evans-Pritchard, London, 51 pp., 16—20

3 — Mayer fortes, Tims and Social Structur, in Social structure, ed. by M. Fortes, Oxford, 1949, pp. 54 — 55.

ذلك على الحياة الاجتماعية من حيث هي علاقات كانت اختلافا بين درجتين من الكثافة وبين كمية من الأفراد الداخلين في العلاقات .

إذن فتغير العائلة بتفككها إلى أسر مستقلة أو شبه مستقلة هو تغير ملازم لها أو تغير داخلي ، وتكوين العائلة القديم كان ينبيء بالتغيرات التي يمكن أن تحدث فيها . لأن وجودها في الواقع كان يعتمد قبل كل شيء على العلاقة بين رجل وامرأة عن طريق رابطة الزواج ، وكل ما ترتب على ذلك من حيث خصائص العائلة كان يعتمد على هذه العلاقة القائمة على هذه الرابطة ولذلك لو أن تغير العائلة أدى الى تغير في هذه العلاقات بين الرجل والمرأة من حيث الجوهر لكان تغير العائلة في هذه الحالة تغيرا بنائيا يؤدي الى تغير في العمليات المرتبطة بنوع البناء الجديد والوظائف التي تؤدي مهام الربط بين البناء والعملية : ولكن التغير لم يؤد الى تغير هذه العلاقات الأساسية بل ظلت كما هي ، لذلك فان الصورة البنائية التي تترتب على بقاء العلاقات كما هي تظل ثابتة وبالتالي تظل الوظائف على ما كانت عليه (١) . وهكذا كان تغير العائلة استجابة للظروف المتغيرة التي تعتمد عليها (٢) . ويتضح هذا أكثر خصوصا وأن هناك عدة مسلمات خاصة بالعائلة أو الأسرة الريفية والحضرية على السواء ، وتتلخص في أن العائلة جماعة تعمل على إنتاج وتربية الأطفال وفي قيامها على رابطة القرابة ؛ تعتمد على العوامل البيولوجية في تضامنها . وهي لذلك أكثر النسق الاجتماعية عمومية ، لأنها كانت وستظل تعيش في كل المجتمعات ، والأدوار التي يقوم بها أعضاء العائلة أو الأسرة تختلف اختلافا

1 — P. Sorokin, Society, culture and Personality, New-York 1947, PP. 636 — 701.

2 — Maciver & Page, Society, London, 1953, P. 512.

3 — Charles P. Loomia, J. Allen Beegle; Rurel Social systems, New York, 1951, PP. 39 — 47.

كبيرا من ثقافة إلى ثقافة، وأكثر الأنماط العائلية عمومية هو «التحريم» وهو نمط يتصل مباشرة بتكامل العائلة أو الأسرة . أما من حيث الوظائف فهى تدور حول إنجاب الأطفال وحمايتهم واطعامهم ، وتهيئة تعليم الصغار وتدريبهم اجتماعيا ، واعطاء كل عضو فى العائلة مركزا فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وتقديم وتسهيل التعاون والعلاقات الأولية الأساسية الضرورية للإنتاج وكسب المعاش والاستهلاك واللهو والترفيه والرعاية الصحية . هذا الى أن أبناء العائلة أو الأسرة فى بعض الثقافات يتحدد بواسطة العمل ، ويلاحظ أن كثيرا من التغيرات التى تتسبب عن القوى الإقتصادية مهمة جدا فى أثرها على بناء العائلة أو الأسرة أو على علاقاتها المختلفة (٣) ومعنى هذا أن الوظائف التى تقوم نتيجة لمعيشة رجل وإمرأة معاً عن طريق رابطة الزواج واحدة تقريباً سواء قام بها كلها الزوجان أو ببعضها وتركا الباقى لجماعة أكبر وهى العائلة وعلى هذا الأساس نستطيع أن نحلل التغير فى العائلة كما يلى :

١ — النمو المكانى والتغير فى الزمن :

النمو المكانى لا يؤدى الآن إلى كبر المسكن . والتغير فى الزمن لا يؤدى الى إنقسام العائلة الى عائلات مشابهة ، وهذا نتيجة مباشرة لانفصال الأسرة عن العائلة القديمة واستقلالها الاقتصادى على وجه خاص . وحين نقول إنفصال الأسرة فاننا نعين الاتجاه العام فى التغير العائلى . ومع أن هناك بالقرى عائلات لا تزال لها الخصائص القديمة ، إلا أن هذه الخصائص لا تطابق الخصائص القديمة، وتتساقط عنها الواحدة بعد الأخرى إلا أن وضوح الأسرة فى البناء الاجتماعى للقرى الآن أكثر من وضوحها فى قرية سلوا التى لا تزال العائلة فيها لها وجود متميز(١) ولكن تغير خصائصها المستمر ينبىء بأنها فى الطريق الى التغير وهنا ينبغى أن نفرق بين المظاهر العائلية القديمة وخصوصا فى الناحية

1 — Hamed Ammar growing up in an Egyptian village, London. 1954 PP. 48 — 43.

الاجتماعية والتى تميز « المجتمعات » الصغيرة وبين استقلالها الإقتصادى لانه كلما استقلت الأسرة اقتصاديا كلما زادت علاقاتها مع الغير وقامت فى أكثر نواحيها على المصلحة أكثر من قيامها على « الواجبات » التى تميز العلاقات القرابية . كما ينبغى أن نميز العلاقات الاجتماعية القديمة التى كانت تقوم على النسق وبين علاقات « المجاملة » التى تتصل الآن بالنسق القرابى وحده ، بل تتصل بمجتمع القرية ككل الان .

فالأسرة الآن تختص بمسكن مستقل ، أما أن يكون جزءا من مسكن العائلة القديم أو منفصل تماما . ولهذا فان القرية من حيث الحجم تكبر الآن باستمرار . حتى أنه فى عام ١٩٣٨ امتدت مساكن القرية حتى جاوزت « المدافن » التى كانت بعيدة قبل ذلك ، الامر الذى أدى الى نقلها الى مسافة بعيدة عن القرية الآن ، ولهذا لا تختار الأسرة مساكنها بالضرورة فى المنطقة التى كانت مخصصة للبدنة من القرية ، بل أنه فى كثير من الحالات يسكن الرجل فى بدنة غير بدنته على حسب الظروف . فقد لا تكون الأرض المجاورة لمسكن العائلة القديم مناسبا له من حيث الثمن ، فيلجأ الى المكان الذى يستطيع شراء أرض فيه يقيم عليها مسكنه مهما كان موقعها ، وقد يكون لزوجته أرض صالحة لإقامة المسكن فى منطقة أخرى من القرية ... وهكذا .

وعامل الزمن يلعب الآن دورا مهما فى ضوء عوامل التغير، لأنه يزيد من انفصال الأسرة عن العائلات ، ويباعد كل منها ويجعل استقلال كل أسرة اجتماعيا واقتصاديا يكاد أن يكون تاما ، كما أنه يؤثر على نمو الأسرة ، لأن بعض الأسر تتخذ طابع العائلات القديمة بعض الوقت حين يتزوج أحد الأبناء ويظل يقيم مع الأسرة فترة من الزمن ينفصل بعدها ، أما لموت

الوالد أو الخلافات الداخلية بين أعضاء الأسرة ، ولذلك فان اتجاه التغير الآن يجعل كل ابن متزوج يستقل فورا عن الأسرة ، وتختلف درجة الاستقلال باختلاف الظروف ، فقد يستقل استقلالا اقتصاديا ، ويظل اجتماعيا مرتبط بالأسرة ، وقد يكون استقلاله تاما خصوصا إذا هاجر من القرية وإن ظل على صلة بالأسرة يعاونها اقتصاديا .

والنمو المكانى على هذا النحو يدل على تفكك وحدة البدنة ذاتها وتضاؤل التضامن بين أعضائها على أساس علاقات القرابة ، كما أن أمن الفرد وعلاقاته الأساسية لا يلزم أن تكون فى إطار بدنته ، بل يمكن له أن يجد أمنه فى أى جزء من مجتمع القرية ، وأن يكون علاقات متعددة ذات اتجاهات مختلفة مع جميع الأفراد . ولهذا يمكن أن نقول أن علاقات الجوار وما تؤدى اليه من تعاون أو صراع أخذت تظهر جنبا الى جنب مع العلاقات القائمة على أساس القرابة . حقيقة أن علاقات الجوار كانت موجودة من قبل ، ولكنها كانت علاقات تصطبغ بالمراكز القرابية أكثر من اصطباغها بالجوار ولهذا فان الجوار الآن له واجبات وحقوق مثلما للقرابة فى كثير من الأحيان ، حتى أن التعاون بين الأقارب تؤكد فيه علاقات الجوار أكثر من تأكيد القرابة .

أما التغير فى الزمن من حيث زيادة استقلال الأسر ، فقد ترتب عليه زيادة العلاقات الداخلية فى القرية وقيامها على المصلحة فى أغلب الأحيان ، كما أنه يدل على أن استمرار النمو السكانى سيزيد من أثر العوامل الاقتصادية الى جانب العوامل الأخرى فى انطواء الأسرة على نفسها اجتماعيا واقتصاديا

وقيامها وحدة مستقلة فى مجتمع القرية على أساس علاقات التعاون والمصلحة المتبادلتين على حساب علاقات القرابة أو الجوار .

٢ ـ الارتباط بالارض :

ارتباط القروى بالأرض فى العائلة القديمة كان يعكس توازن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، على أساس كفاية الأرض الزراعية للوفاء بالمطالب الأساسية . ولهذا كانت مصدر الحياة وكان العمل فيها أنبل الأعمال ، وكل مجهود يبذل فيها يلقى الانسان ثماره ويرضى بالتالى العائلة ويتفق مع قيمها وينال المركز الذى يناله الرجل المنصرف الى عمله . ونظرا لكفاية الأرض فان الخلافات التى كانت تحدث فى العائلة كانت لا تتصل بمطالب المعيشة وإنما تدور حول تقسيم العمل أو الزواج أو العلاقات الداخلية بين الأعضاء وهذه أمور كان من السهل التغلب عليها فى محيط العائلة بتدخل صاحب السلطة أو كبار السن فى البدنة . كما أن التقاليد والقيم العائلية كانت تقلل كثيرا من هذه الخلافات ، وتمنع ما قد يترتب على استفحالها من نتائج على تضامن العائلة ووحدتها .

ولهذا كان تضامن العائلة مثلا أعلى يسعى من أجله الجميع ولكن مرور الزمن واستمرار النمو السكانى ، الذى ينعكس فى زيادة حجم العائلة المستمر ، جعل الأرض تنقسم باستمرار ، وبالتالى تقل مساحتها ، فى الوقت كانت زيادة حجم العائلة لا تزال المثل أو النموذج المفضل والمطلوب للعائلة . ولهذا ظهرت بوادر الخلافات الاقتصادية حول التوزيع وكفاية الإنتاج للحاجات الأساسية ، وتغلبت بعض العائلات على هذه الأزمات المتكررة عن طريق خفض المستوى المعيشى ، ولكن استمرار الزيادة فى السكان

واستمرار انقسام العائلة الى عائلات أدى الى وجود بعضها دون ملكية على الإطلاق ، وظهر هذا واضحا إبان الأزمة الاقتصادية العالميــة عام ١٩٣٠ وما بعدها حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

إذن ظهرت بوادر اختلال العائلة لاختلال الأساس الذى تقوم عليـه ، ولكن هذا الاختلال كان يعود الى حالة التوازن عن طريق تعديلات فى الأسس العامة كأن تلجأ العائلة إلى تأجير أرض زراعيـة أو كان يشارك بعض أعضائها فى العمل الزراعى للغير ... وهكذا . إلا أن الاختلال كان يعود بسرعة تتزايد بمرور الزمن . ويلاحظ أن انخفاض المستوى الاقتصادى للعائلة ، كان يزيد من الخلافات داخلها بين الأعضاء وخصوصا بين الزوجات حدة وكثرة . ولهذا كانت وحدة العائلة محل مناقشة باستمرار .

وكان من نتائج ذلك أن قل ارتباط القروى فى العائلة قليلة الملكيـة أو ولا يعنى هذا أنه أصبح يحقر من قيمة الأرض ، فـلا زالت لهـا الأهمية العظمى عنده ، وإنما اضطر أن يبحث عن أعمال جديدة ليضمن « معاشه » ولهذا كان يترك القرية فى فترات غير منتظمة للعمل فى تطهير المصـارف والترع أو للعمل فى بعض المشروعات التى كانت تقوم بها الحكومـة لشق طرق جديدة أو رصف بعضها ، ومع استمرار اتصال المدينة بالقرية ، اتسعت آفاق القرويين ، خصوصا عندما علموا أن فى المدينة مجالا للعمل بدلا من العمل الزراعى . ومن ثم بدأت الهجرة الدائمـة من القـرى ، ويلاحظ أن الهجرة من القيطون كانت تتجه الى منطقة القنال للعمل فى معسكرات جيش الاحتلال السابق ، وإلى القاهرة للعمل فى مصانع شبرا الخيمة أو منطقة غمرة ومن كـفر الشيخ الى هذه المناطق السابقة ، ولكن فى أعداد قليلة ، وبعضهم

كان يلتحق بأعمال فى الحكومة ، أما من هلا فان الهجرة إتخذت طابعا آخر فكان أغلبها للعمل الزراعى فى منطقة دكرنس وكفر سعـد فى الأراضى المستصلحة هناك .

وكـقاعدة يمكن القول أن القروى لا يجد فرصة للهجرة ـ إذا كان قليل الملكية أو عديمها ـ من القرية الا وينتهزها . كما ان تيار الهجـرة يزداد فى هذه الأيام . لأن المناطق التى استقر فيها المهاجرون الأول تعتبر الآن مناطق جذب للقرويين . وهناك حالات متعددة يهاجر فيها القروى متزوجا أو غير متزوج بغض النظر عن ملكية أسرته لمجرد خلاف بسيط بينه وبين والديه ، أما فى القرية نفسها فان بعض القرويين أخذ يعمل فى أعمال غير العمل الزراعى ، كالتجارة أو فى بعض المهن التى كان القـروى قـديما يأبى أن يشترك فيها ، فالقروى الآن يعمل بناء ونجارا ومساحا وغير ذلك .

٣ ـ المصلحة أساس العلاقة :

كان الإكتفاء الذاتى للعائلات ، لا يجعلها فى حقيقة الأمر فى حاجة الى معاونة من العائلات الأخرى ، ونظرا للعلاقات القوية القائمة بينها على أساس القرابة فان التعاون كان المظهر المميز لعلاقاتهم ، وهو تعاون يكشف عن الترابط الوثيق ، وما تفرضه القرابة من واجبات وحقوق ، حتى أن معاملاتهم الإقتصادية كانت تقوم على هذا الأساس أيضاً ولكن تنوع العلاقات الآن خصوصا بعد أن أصبح الزواج لا يشترط فيه أن يكون داخليا ، أدى إلى إتساع دائرة القرابة واتساع دائرة العلاقات بالتالى ، ولهذا أصبحت العلاقات داخل البدنة الواحدة متعارضة . فقد تكون للبدنة مواقف معينة تجاه بعض

البدنات ، ولكن جميع أعضائها قد يشتركون فى العلاقات المترتبة على ذلك نظرا لإنتمائهم لها بطريق المصاهرة . كما أن إنفصال الأسر عن العائلات أدى إلى مزيد من الإتساع فى العلاقات .

وقد سبق أن ذكرنا أن من أهم أسباب هذا الإنفصال انخفاض المستوى الاقتصادى ، ولهذا قد يعمل بعض أفراد الأسرة عند أسرة أخرى ، ومن بدنة أخرى خصوصا فى الأعمال الزراعية ،أو قد يؤجر منها أرضا ، ولذلك تنشأ بين هذه الأسر علاقات من نوع جديد لا تقوم على القرابة ، وإنما تقوم على المصلحة المباشرة . كما أن الأسرة وهى تدبر أمورها الاقتصادية لا تعلقها على النسق القرابى ، لأن تعليقها على هذا الأساس قد لا يفى بحاجات الأسرة الأساسية .

وقد ترتب على ذلك عدة نتائج مهمة ، منها أن دائرة النسق القرابى لم تعد محددة لعلاقات الأفراد من حيث الكثافة أو المدد ، فالقروى الآن قد تكون له عدة علاقات مختلفة مع عدد كبير من الأفراد . فمثلا تكون له علاقة بأسرة من بدنة أخرى عن طريق المصاهرة ، وبأسرة مخالفة عن طريق الارتباط الإقتصادى ، وبأسر غيرها عن طريق التعاون أو علاقة الجوار . وهذا بدوره أدى الى تضاؤل أهمية العلاقات القرابية ، وتضاؤل نفوذها على نماذج السلوك . أى أن إتجاهات القروى أصبحت فردية بعد أن كانت جمعية ، الأمر الذى أدى الى ظهور مجتمع القرية ككل كمعين لنماذج السلوك ، ولهذا فان مسئولية الفرد عن سلوكه أصبحت متعلقة بشخصه أكثر من تعلقها ببدنته ، فالفرد الذى يدير علاقاته دون رقابة من البدنة أو من كبار السن فيها ، لا يكونون بالتالى مسئولين عن أخطائه . وفى كثير من الأحيان

يقال للفرد عندما يلتمس حماية بدنته ، انه لم يستشر أحدا أو لم يستمع إلى النصح ، ولذلك فعليه أن يتحمل وحده تبعة أعماله .

أما إقامة الزوجة فى حالة زواجها فى منزل الرجل ، فان القاعدة القديمة فيها قد تغيرت ، فقد كانت مسألة هامة لا يفكر المرء فى الخروج عليها وإلا تعرض للجزاء الاجتماعى ، كما أن الفرد كان يعلى من شأن علاقاته القرابية ويضعها أساسا فى سلوكه . ولكن نظرا للزواج الخارجى ، وقيام العلاقات الآن على المصلحة أكثر من قيامها على القرابة ، فان الزوج قد يقيم فى منزل زوجته إذا كانت مصلحته الإقتصادية تقتضى ذلك .

والقرية ككل تقاوم مثل هذا السلوك وتجعله محل سخريتها . ولكن وطأة الأزمة الاقتصادية ، خصوصا إذا كانت الزوجة تملك الأرض والمسكن تجعل الزوج يقبل هذا الوضع . وتعدد هذه الحالات يجعل القرية تخفف من سخريتها فى هذا الصدد . هذا وكان تحليلنا للعلاقات التى تقوم على أساس المصلحة من وجهة نظر اقتصادية بحته ، لأنه كما يتبين من الفصل القادم أن دور المصلحة فى العلاقات الاقتصادية بوجه خاص أصبح واضحا ومحددا فى القرى الآن ، ولا تتدخل علاقات القرابه كثيرا فى تعديلها ، بل إن هذا النوع من العلاقة لم يعد قاصرا على النسق القرابى فى مجموعه ، بل إنه يشمل الآن الإخوة أيضا .

وإذا كانت المصلحة تظهر الآن كنموذج للعلاقات إلا أنها لم تطغ على العلاقات الاجتماعية تماما . فمع أن الخلاف عليها قد يؤثر على هذه العلاقات إلا أن البدنة كنسق القرابة تعمل على الظهور فى المناسبات المختلفة بمظهر الوحدة والتضامن . فمثلا يجلسون فى مكان واحد أيام الأعياد ، وقد

يقيمون بصفة جمعية بعض الشعائر الدينية . أو قد يجاملون بدنات القرية الأخرى فى المآتم والأفراح بطريقة جمعية ، إلا أن هذا التضامن فى كثير من نواحيه شكلى ورمزى أكثر منه واقعى . وعلى ذلك تكون البدنات والعائلات الباقية أكثر تفككا من هذه الناحية ، منها قرية « سلوا » . فحامد عمار يقول « إن وحدة العائلة تكون فى المسائل المتعلقة بالمناسبات العامة والرسمية ، وهى مسئولة عامة عن سلوك أفرادها ، كما أن وحدة العائلة لا تظهر خاصة إلا أمام مجتمع القرية ككل (١) .

٤ - ازدياد سلطة القرية والقانون :

كانت سلطة العائلة القديمة مستمدة من طبيعة تكوينها وخصوصا مسئولياتها الداخلية والخارجية عن سلوك أعضائها . ومن الطبيعى أنه كلما قلت كثافة العلاقات ، وقل عدد الأفراد الداخلين فيها ، كلما زادت عزلتهم وزاد خضوعهم للسلطة المحلية ، والسلطة المحلية هنا هى سلطة العائلة والبدنة . فالخلاف الذى لم يكن يحل داخل العائلة ، يحل على مستوى البدنة ، كما أن الخلاف بين العائلات كان يحل عن طريق كبار السن فى البدنة التى ينتمون إليها . ولهذا كان عدد الأفراد الذين يدخلون فى علاقات السلطة قليلا جدا ، لأن السلطة كقاعدة كانت من مميزات كبار السن . ولكن تفكك العائلة وانفصال الأسر مستقلة عنها ، أدى الى تفكك السلطة أيضا . وأصبح الرجل فى كل أسرة مسئول عن حياة أعضائها الاجتماعية والاقتصادية .

ونظرا لتعدد علاقات الأسرة على هذا النحو كما أشرنا الى ذلك من قبل ،

1 — Hammed Ammar. Op. Cit , PP. 45 — 47.

إن زادت فرص الخلاف بينها وبين الآخرين ، ليس فى دائرة النسق القرابى فحسب ، بل فى مجتمع القرية بأسره . ونظرا لأن المصلحة أصبحت عاملا مهما فى علاقات الأفراد ، فان الخلاف عليها يزداد . ويليه نسبة فى الزيادة الخلافات الزوجية ، كالإنفصال والطلاق . ومع أن حل الخلافات داخليا وبطريقة عرفية على يد كبار السن فى القرية يعتبر حلا مناسبا ، إلا أن نسبة الخلافات التى تحل عن طريق العمدة ونقطة البوليس والقضاء تزداد زيادة ملموسة هذه الأيام . وقد ترتب على ذلك أن ظهرت سلطة القرية على سلطة كبار السن وأصبح دورها فى تنظيم العلاقات بين القرويين واضحا . بل أن اتجاها يتزايد هذه الأيام أيضا وهو تخطى سلطة القرية ، الى سلطات المدينة البوليسية والقضائية . وقد لاحظ دوبيه Dube أيضا فى قرية شاميربت Shamirpet فى الهند « أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية الجديدة أدت الى ضعف الروابط العائلية (٢) » ، وخصوصا فيما يتعلق بالسلطة ونمو الفردية ، الأمر الذى كانت له عدة نتائج على التنظيم العائلى .

ويلاحظ أن تفكك السلطة العائلية على هذا النحو كان نتيجة مباشرة لأثر العوامل الاقتصادية الداخلية على العائلة ، الى جانب ازدياد آثار المدينة على القرية . وفى الفترة الأخيرة يزداد تفكك السلطة كلما ازدادت المؤثرات الخارجية خصوصا ازدياد التنظيمات الإدارية وتحسن طرق المواصلات وانتشار التعليم . فالقروى الذى يعرف القراءة والكتابة ، يعلم أنه يستطيع يكتب مظلمة أو شكوى للجهات الحكومية الرسمية . ويدرك آثارها أو فوائدها بالنسبة له . وهو بهذا يجعل للقانون أهمية كبرى فى تنظيم العلاقات بينه وبين أقرانه إذا ساءت أو اختلت . كما أن صغار البدنات فى القرى قد تلجأ لمثل هذا فى حالة عدوان بدنة كبرى عليها .

2 — Dube, Indian Village, London, 1958. PP. 222 — 329.

٥ - الاعتماد المتزايد على القرية والمدينة :

كان اكتفاء العائلة الذاتى فى حدود البدنة اجتماعياً واقتصادياً من أهم خصائصها التى عملت على وحدتها . ولكن العوامل الاقتصادية وهى الظاهرة فى هذا المجال أدت إلى تدهور هذا الاكتفاء ، وزادت من اعتماد الأسر بعضها على بعض بغض النظر عن انتمائها لبدنات معينة ، وبالتالى زاد اعتماد القروى على القرية ككل . ونظرا لقلة المطالب والحاجات القديمة ، فان العائلة ما كانت تجد سببا للاتصال بالمدينة لقضاء هذه الحاجات ، فكل شىء كان فى إمكانها توفيره محليا . فالأسرة الآن تعتمد فى المبادلات الاقتصادية على سوق القرية أو سوق القرى المجاورة أو المدينة ، كما أن ازدياد الحاجات المادية فى الملبس والأثاث أدى أيضا الى زيادة الاعتماد على المدينة ، ويزداد هذا الاعتماد بتزايد وتنوع هذه المطالب وقد ينهار هذا الاكتفاء تماما حين يصبح القروى لا ملكية له ، فيضطر الى الاعتماد على الأرض الزراعية التى تؤجر أينما كانت وأياً كان مالكها فى القرية ، وقد يلجأ الى الهجرة كما أشرنا الى ذلك من قبل . وكقاعدة كلما زاد الاعتماد على القرية كلما تعددت العلاقات وزادت كثافتها ، وكلما كانت نتائجها واضحة على استقلال الأسر ونمو الفرد .

أما من الناحية الاجتماعية فكان مظهر الاكتفاء الذاتى يبدو بوجه خاص فى مسائل الزواج الذى كان يتم داخليا فى العائلة أو فى البدنة التى تمثل النسق القرابى الكبير . ولهذا كانت العلاقات الاجتماعية والتى تدور حول رابطة الزواج ونتائجها محددة بالقرابة . ولكن الزواج اليوم أصبح اتجاهه خارجيا أكثر منه داخليا . وهذا أدى بدوره الى تضاؤل الاكتفاء الذاتى من هذه الناحية . وكقاعدة أيضا كلما تخطت العلاقات الاجتماعية

حدود البدنة كلما اتسعت وزادت كثافتها ، وكلما كانت نتائجها واضحة على تفكك العلاقات القرابية ، وكلما ظهر مجتمع القرية كعامل هام فى نماذج السلوك . اذن فزيادة الاعتماد على القرية والمدينة زيادة فى نفس الوقت فى استقلال الأسرة وفى نمو الفردية وفى الإتجاه الى الهجرة .

٦ - التقاليد فى القرية وقيم الفرد :

التقاليد العائلية القديمة كانت تقاليد جمعية ، وتقوم على قيم جمعية أيضا ، وينشأ الفرد فى هذا الإطار ، ولا يعرف أن هناك تقاليد أو قيم غيرها . ونظرا لتشابه العائلات والبدنات ، فقد تشابهت التقاليد والقيم حتى يمكن أن يقال أنها كانت تقاليد وقيم المجتمع القروى فى هذا الوقت وأهم ما ترتب على ذلك من نتائج ، ان الفرد كفرد لا وجود له ، فهو شخصية تنعكس فيه عائلته . ولهذا كان الأفراد جميعا متشابهين من هذه الناحية .

وأهم ما أثر على التقاليد والقيم ، تفكك العائلة والحياة الجمعية ، وتعدد العلاقات التى تربط الفرد فى القرية ، وقيام هذه العلاقات فى جانب مهم منها على المصلحة ، وكثرة الاتصال بالمدينة والغرباء والاطلاع على نماذج مخالفة للسلوك . ومع استقلال الأسرة أصبح عمل الفرد يعود إليه مباشرة ويحصل على نتائجه . ولهذا تغيرت القيم المرتبطة بالعمل تغيرا فى الإتجاه الفردى كما تغيرت النظرة الى السن ، فكبار السن وإن ظل لهم احترامهم ، إلا أن طاعتهم إذا تعارضت مع المصلحة الفردية ، فانها لا تصبح واجبة . ولهذا فان القيم الآن تتخذ طابعا فرديا بناء على تجربة الفرد ومن جهة نظره الخاصة .

للحياة ، ولكن رأس المال النقدي أصبح له قيمة تساوى ملكية الأرض الزراعية ، وأصبح التعليم ـ تعليم الأبناء ـ أحد القيم المرتبطة بالأسرة ، أن الفلاح قد يبيع أجزاء من أرضه على التوالى لتعليم أبنائه نظرا لما للتعليم فى نظره من قيمة تفوق قيمة الأرض الزراعية . . لأن التعليم مع ما له من قيم اجتماعية . فهو ذا هدف اقتصادى .

٧ ـ الفردية والمصلحة فى الزواج :

كان الزواج أمرا يخص العائلة ، والاهتمام به راجع الى الرغبة فى مزيد من اليد العاملة ، وزيادة حجم العائلة ـ فضلا عن ذلك ـ نظرا لأهميتها من الناحية الاجتماعية . ومع ما أشرنا اليه من الإتجاه إلى الزواج الخارجى الآن . فانه أصبح رغبة فردية أكثر منه رغبة جمعية ، ولهذا فان حرية الاختيار أصبحت الآن ظاهرة ، يلمسها الملاحظ فى الخلافات التى تقوم بين الآباء والأبناء على الزواج . وفى كثير من الأسر يتأخر زواج الشبان لأسباب اقتصادية ، حقيقة أن الأسرة هى التى تقوم بتزويج أبنائها فى ظاهر الأمر ولكن دور الشاب فى اتمام الزواج يتزايد فى هذه الأيام . بل إن بعض الشبان يطلبون من تلقاء أنفسهم الآن أن يتزوجوا وتخضع الأسرة لمشيئتهم، ويلاحظ أنه إذا كانت الأم من نسق قرابى غير نسق الزوج ، فانها تميل الى ترويج أبنائها من أقاربها ، وكذلك يفعل الزوج . وكقاعدة يزداد الزواج الخارجى الآن وتزداد الرغبات الفردية وضوحا ، ونظرا لارتفاع قيمة الفرد وظهوره فى العلاقات الاجتماعية كوحدة شبه مستقلة ، فان صفاته الشخصية، ومبلغ مهارته وقدرته على العمل تدخل كمقاييس له عند الزواج ، وبعد ان كانت الزوجة تتزوج « فى عائلة » فانها تتزوج الآن فردا .

كما أن النظرة إلى الحياة أصابها شىء من التغير ، فكثرة الأولاد والمهارة الزراعية ليستا كل أهداف الفرد من الحياة ، بل إن الأمان الاقتصادى وتعليم الأبناء أصبحتا من مكونات النظرة الجديدة وعنصرين هامين فيها . وفى التدريب الاجتماعى لا يعلم الطفل كل ما كان يتعلمه أبوه ، بل لا يؤكدون الآن على أهمية علاقات القرابة واحترام المركز فى دائرتها أو على العمل الجمعى ، أو الخضوع التام لصاحب السلطة . بل يؤكدون فيه النزعات الفردية أكثر من النزعات الجمعية . أى أن تقاليد القرية كمجتمع محلى أصبحت عاملا هاما فى تحديد نماذج السلوك ، وهى الآن تقوم على مزيج من التقاليد القديمة والتقاليد الجديدة المرتبطة بالأسرة المستقلة ، ويظهر فيها عنصر هام لم يكن موجودا من قبل، وهو زيادة علاقات الأفراد بعضهم بالآخر داخلها ، وزيادة علاقات القرية بالقرى المجاورة والمدينة .

وكان من نتائج ظهور تقاليد القرية وقيم الفرد كمحددان لنماذج السلوك الاجتماعى للأفراد أن التشابه بين الأفراد لم يعد واضحا كما كان من قبل. فالملاحظ يلمس اختلافات كثيرة تقوم على أسس فردية بحتة . وخصوصا بين فئات السكان التى يكون لها اتصال أوسع بالسوق أو بالقرى المجاورة أو بالمدينة ، أو بين الذين يملكون أرضا ومن لا يملكون . أو بين من أجادوا القراءة والكتابة وتعلموا إلى حد معين ، وبين من لا يقرأون أو يكتبون … وهكذا .

فالتقاليد والقيم والنظرة الى الحياة تختلف باختلاف التجربة ، واختلاف كثافة العلاقات ومداها . كذلك كانت قيمة الأرض الزراعية والعمل فيها من الأمور المسلمة عند القروى والتى كانت تضع الإطار لآماله ونظرته

وقد ترتب على ذلك أن كان مركز الفرد الأقتصادي من العوامل الهامة في إتمام زواجه خصوصاً إذا كان يطلب يد فتاة من أسرة لها ملكية لا بأس بها . وعلى ذلك تظهر الان المصلحة الخاصة في الزواج بغض النظر عن مدى ارتباط الأسرتين – أسرة الفتى والفتاة – عن طريق القرابة أو الجوار هذا وكلما كان للفتاة ملكية خاصة ، أو كان لأسرتها هذه الملكية، فان الطلب عليها يزداد . ومع هذا فان أسرة مثل هذه الفتاة تميل إلى تزويجها من شاب لأسرته نفس الملكية ، أو قدرا يزيد على ملكيتها هي . ومن النادر الآن أن توافق أسرة على زواج أحد بناتها من شاب معدم . إذن فالمركز الاجتماعي للشاب لم يعد كافياً لدخوله في علاقات زواج مع أسر تماثله من حيث المركز ، ولكنها تعلوه اقتصادياً .

والنتائج المترتبة على الفردية والمصلحة في الزواج مرتبطة بالنتائج المترتبة على الخصائص الأخرى . ولعل علاقات الزواج هي التي يظهر عليها إلى أي حد وصل اليه تفكك العائلة وخصوصاً نتيجة لتغير الأسس التي كانت تعتمد عليها . وأغلب التغير في حالة الزواج نتيجة مباشرة لانفصال الأسرة وقيامها كوحدة مستقلة في البناء الاجتماعي للقرية ، وما ترتب عليه من تغير في كثافة العلاقات ومداها في المجتمع القروي .

التغير في العائلة أحد النتائج الهامة للتغير الاجتماعي في القرى . والتي ترتب عليه تغيرات مصاحبة شملت الأسس التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية ، وسوف يتضح هذا أكثر عندما نعرض لهذه التغيرات في الحياة الاقتصادية والثقافية والمادية .

حقيقة أن التغير الاجتماعي يغير من الحياة القروية ككل بما فيها الحياة العائلية ، إلا أن تغير العائلة في مراحل التغير الأولى كان أوضح ونتائجه المصاحبة كانت أوسع . والآن تزداد عوامل التغير ، وتزداد لذلك عمليات التغير في كل ناحية . فقد كانت زيادة السكان في القرية ، وما تبعها من زيادة في حجم العائلات المتعاقبة والتي تعيش على أرض تتناقص باستمرار ، النذير الأول لأزمة العائلة فيما بعد . وفي وجود العائلة القديمة على نحو ما صورناه من قبل معتمدة في حياتها الاقتصادية على أرض تزدحم فيها الأيدي العاملة ، إيذانا ببدء خلافات لا تنتهي ، خلافات تزداد ولا تختفي إلا لتعود أكثر شدة من ذي قبل ، ويشترك في هذا الخلاف الرجال والنساء على السواء ، ويعملون بالتالي على تفكك العائلة ، لأن السلطة التي كانت تعيد التوازن ، فقدت مقومات الطاعة منذ أن فقدت القدرة على امساك تضامن العائلة عن طريق وحدة الحياتين الاقتصادية والاجتماعية .

وعندما يبدأ الأفراد يناقشون حياتهم الاقتصادية ويعملون على تدبير أمورهم تهبط سلطة التضامن باستمرار . وكان تغير الأساس الاقتصادي للعائلة عاملا مهما في خفض حجم العائلة في أغلب المجتمعات الريفية لا في الجمهورية العربية وحدها ، بل في كثير من أنحاء العالم . فمارتن يانج M. Yang يلاحظ في قرية Taitou في مقاطعة Shantung بالصين أن الشبان لا يحملون الآن أي عاطفة وثيقة نحو العائلات وأصبح الخلاف أمرا عاديا يتعلق أغلبه بمسائل المسكن والعمل والغذاء (١) .

إذن فقد كان تغير حجم العائلات وانفصالها الى أسر مستقلة وخصوصا

1 — Martin C Yang, Achinese Village, London, 1947 p. 239

من الناحية الإقتصادية ، آثار هامة على الحياة العائلية وخصائصها القديمة المتفقة مع تنظيمها المتميز ، بل على مجتمع القرية ككل وطبيعة الحياة الإجتماعية فيه ، وأيضاً على علاقات القرية بالقرى الأخرى ، وبمراكز الإدارة والسلطة فى المدينة وفى العاصمة .

وهنا ينبغى أن نسأل سؤالا هاما : هل القرية فى وجود العائلة كانت كلا Whole وفقدت هذه الكلية فى وجود الأسرة ؟ والإجابة على هذا السؤال بالإيجاب يتفق مع الاتجاه العام لمدرسة شيكاغو التى من أبرز ممثليها ردفيلد Redfiled والتى تنظر الى القرى الآن وقبل ذلك على أنها مختلفة أساسا عن المجتمعات البدائية فى صفتين أساسيتين وهى العزلة والكلية ، بينما تكون القرية شبه منعزلة وجزءاً من كل . وعلى ذلك تختلف طرق الدراسة باختلاف النموذج على هذا النحو . وقد حاول كثير من الباحثين اثبات هذا الفرض مثل هاتش Hatch ، وبر جرايسلوند Per Graslund . فالقريتان محل دراستهما كانت كل منهما تفقد الكلية فى مجرى التاريخ حتى أصبحت منذ مدة وإلى الآن جزءا من كل (١) .

والواقع أن خاصية الكلية ترتبط ارتباطا وثيقا بالإكتفاء الذاتى . فاذا كانت قريتا هاتش وجرايسلوند كانتا كذلك فى الماضى وأخذتا تفقدان هذه الخاصية فى الماضى القريب والآن ، فاننى لا أعرف على وجه التحديد أن القرى التى أدرسها كانت كل منها كلا فيما مضى ذلك لأن الإكتفاء الذاتى مسألة نسبية ، وارتباط القرية كما قل ردفيلد بأحد المدنيات القديمة

1 — R. Redfield, The Little Community, Chicago, 1956, pp. 108—109.

لا يجعلها من جميع الوجوه « كلا Whole » أى مكتفية بذاتها كالمجتمع البدائى . والإكتفاء الذاتى لا يعنى اكتفاء من الناحية الاقتصادية ، بل هو أيضا من الناحية الاجتماعية . فاذا كان الإكتفاء الذاتى يؤدى الى العزلة ، فان القرى لم تكن كذلك فى أى مرحلة من مراحل تاريخها — على ما أعلم . فالقروى كان يحس بالقرى المجاورة والمدينة ويحدد مركزه فى العالم على هذا الأساس (١) . كما كان يحس بالحكومة لأنها تفرض عليه الضرائب ، وتنقله من قريته للعمل فى « السخرة » أو الالتحاق بالجيش ، ويتدخل رجالها عند الاشتباك وسقوط القتلى وهكذا .

إذن فالقرية يمكن أن تكون مكتفية بذاتها ومنعزلة نسبياً كما كانت من قبل ، ومع ذلك تكون جزءاً من كل ، أى أن عزلتها واكتفائها بذاتها النسبيين كانا أكثر أثراً فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية من انتمائها الى كل أكبر وهو المجتمع الكبير . ولهذا كان التغير الإجتماعى فى حقيقة الأمر تغيرا فى العزلة والاكتفاء الذاتى ، وكلما زاد التغير فى هاتين الناحيتين كلما ظهر أثر الكل فى حياة الجزء . ومن هذه الزاوية كان اهتمام الباحثين فى المجتمعات القروية الهنديه منصبا على دراسة أثر المدينة والحكومة فى التغيرات الاجتماعية فى هذه المجتمعات (٢) .

ولم تفقد « القرية الكلية النسبية » بتغير العائلة وتفككها الى أسر مستقلة فقط ، بل تغيرت الكلية أيضا بالنسبة لوحدتها الرئيسية وهى البدنات

1 — R. Redfield, Alfonso Villa, Chan Koum, A Maya Village, Washington. 1934, p. 1

2 — Mokim Marriot, Village India, Chicago, 1956.

لأن دائرة الاعتماد بالنسبة لها زادت ، كما زادت هذه الدائرة بالنسبة للقرية ككل . والاعتماد فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية كمقياس لتغير مدى العلاقات كثافة وعددا يشبه فى نواح كثيرة التغير من الكل الى الجزء فى حالة المجتمعات القروية . وعلاقة الاعتماد هذه يتخذها جودفرى ومونيكا ويلسون أساسا للمقارنة بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتحضرة . ولهذا كلما زاد الاعتماد — مع زيادة حجم المجتمع — كلما تغير المجتمع من البدائية إلى الحضرية (١) ... وهكذا .

ومعنى هذا أن علاقة الانتماء الى الكل كانت ذات اتجاه معين فى الماضى وتغير هذا الاتجاه الآن . ويمكن تطبيق هذا القول على العائلة القديمة وعلى الأسرة الآن ، كما يمكن تطبيقها أيضا على القرية فى الحالتين ، فالقروى فى العائلة والبدنة كان يحس بعلاقة الانتماء الى النسق القرابى أكثر من إحساسه بالإنتماء للمجتمع القروى ، ولا يحس بالقرية إلا فى المناسبات الخاصة ، ومع هذا يكون إحساس الانتماء جمعيا لا فرديا ، وكذلك الأمر بالنسبة للقرية فقد كان احساسها ككل بذاتيتها أو هويتها هو الاحساس الدائم ، أما احساسها بالدولة أو بالمجتمع الكبير فكان إحساساً مؤقتا . ولهذا كانت القرية تنتمى للمكان الذى تعيش فيه انتماء من الدرجة الأولى ، أما الأسرة اليوم فانها تنتمى — وعلى الأخص من وجهة نظر الفرد — الى مجتمع القرية أكثر من الانتماء الى النسق القرابى القديم . ومعنى هذا أن دائرة علاقات الفرد أصبحت تشمل من الناحية النظرية جميع أفراد القرية ، وبالتالى فان القرية الآن تنتمى الى دائرة أكبر من حيث المكان ، ويزداد انتماؤها كلما

1 — Godfrey & Monica Wilson, Op. Cit.; pp. 25—30.

صغرت الوحدة المكانية . ولهذا فان انتماءها للمركز أقوى من المديرية وأقوى أكثر بالنسبة للدولة ككل . وكقاعدة يمكن القول أنه كلما زادت عوامل التغير الاجتماعى وزادت آثارها كلما زاد الاتصال بين الأجزاء شدة بالكل ، سواء كانت هذه الأجزاء فردا أو أسرة أو قرية .

ما هى إذن النتائج التى ترتبت على تغير العائلة فى الحياة الاجتماعية ؟ لقد لاحظت أن هناك تغيرات مصاحبة عديدة لتغير العائلة وتزداد ويتعين اتجاهها بمرور الزمن . ويمكن ابرازها على النحو التالى :

١ — ازدياد التنقل الاجتماعى : Social Mobility

الدورة الاجتماعية Social Circulation التى هى نتيجة للتنقل الاجتماعى ، توجد فى كل مجتمع ، ولكن سرعتها تختلف باختلاف المدى Scale . ففى المجتمعات البدائية يتحرك الناس داخل مجتمع صغير ، ويتحركون داخل مجتمع كبير فى المجتمعات المتحضرة (١) . والتنقل أما أن يكون أفقيا وهو انتقال الظاهرة الثقافية من الشخص أو الجماعة الى شخص أو جماعة أخرى متشابهين أو متطابقين Horizontal ورأسيا Vertical إذا مرت من أعلى الى أسفل ، أو من أسفل الى أعلى ، وقد يكون هناك تنقل توسطى إذا ظلت مراكز ومواضع الأشخاص غير محددة (٢) بالنسبة للفرد يكون التنقل أفقيا إذا انتقل من جماعة اجتماعية لها نفس المستوى ، ورأسيا إذا انتقل من جماعة أدنى الى جماعة أعلى أو العكس (٣) .

1 — Godfrey & Monica Wilson Op. Cit., pp. 98—100

2 — P. Sorokin, Society, Culture and Personality, New York 1947. p. 564

3 — Ibid. , p. 405

ومع أن جودفرى ومونيكا ويلسون يتفقان مع سوركين Sorokin فى التنقل الأفقى والرأسى إلا أنهما يختلفان معه فى سرعة الدورة الاجتماعية فى المجتمعات (١) ، ولذلك فان سرعة التنقل ومداه مرتبط بحجم الجماعة التى يتحرك الناس فيها بحرية . والتنقل على هذا قد يتحدد رأسيا عن طريق الحواجز الجغرافية أو صعوبة وسائل المواصلات . أو أفقيا عن طريق الطبقة أو الطائفة أو العنصر أو الجنس أو السن . فالزواج مثلا لا يمكن أن يقارن فى مجتمعين إذا كان يتضمن تغيرا مشابها فى شدة العلاقات ، وبالتالى لا يقاس التنقل عن طريق البعد الجغرافى أو الرأسى ، وإنما عن طريق حجم الجماعة « أفقيا » والتى يتحرك فيها الناس بحرية (٢) .

ويلاحظ أن ويلسون Wilson يربط بين التنقل وسرعته ومداه وبين العلاقة من حيث الكثافة والمدى ، ففى المجتمع الصغير (البدائى أو القروى) يكون حجم المجتمع صغيرا ، وبالتالى يكون التنقل محدودا ، والعلاقات أيضا محدودة ، بعكس الحال فى المجتمع الكبير المتحضر . ولا يعنى فى واقع الأمر بتغير الدور والمركز فى حالة التنقل الرأسى كما يعنى به سوروكين . وأعتقد أن الخلاف خلاف فى وجهة النظر ، لا يمتد الى الأساس وعلى هذا يمكننا أن نلاحظ أن التنقل الاجتماعى فى القرى فى فترة ما قبل التغير كان له خاصيتين : الأولى أنه كان « محدودا Limited » . وهذا راجع الى « التدرج فى الصغر » فالقرية كمجتمع كانت صغيرة ولهذا كان التنقل محدودا من حيث السرعة والمدى . والعائلة كوحدة من وحدة أكبر هى البدنة كانت بالتالى أصغر فهى من هذه الزاوية كانت الوحدة الصغرى للحياة الاجتماعية ، وبالنظر الى خصائصها العامة التى أشرنا اليها

1 — Godfrey & Monica Wilson, Op. Cit., p 100

2 — Ibid, Op, Cit., p. 99

من قبل ، فان التنقل الاجتماعى داخلها وفى إطار البدنة كان أكثر تحديدا والثانية أنه كان « أفقيا Horizontal » لأن الزواج إذا لم يغير من الوضع الرأسى للفرد الذى ينتقل من عائلة لأخرى ، فانه يكون تنقلا أفقيا (١) هذا لأن مدى العلاقات وكثافتها كانت محددة فى دائرة البدنة الواحدة ، وقامت على أساس النسق القرابى والزواج الداخلى . كما أن العائلات المكونة للبدنة الواحدة كانت متشابهة المركز الإقتصادى والاجتماعى . ولذلك كان انتقال المرأة من عائلة لأخرى هو انتقال أفقى لا رأسى . وأغلب الظن أن هذا النوع من التنقل كان مقصورا على الزواج أو الطلاق . وكان تنقلا لأشخاص وليس لجماعات .

أما فى الفترة المتغيرة فان التنقل له عدة خصائص . فالأسرة أصبحت أساس البناء الاجتماعى . وزادت الصلات المتبادلة بين القرى والعالم الخارجى ، وزادت تبعا لذلك كثافة العلاقات ومداها فى الداخل والخارج معها . ولهذا فالتنقل : أولا ، « غير محدود UnIimited » لأن الحواجز القديمة للعائلة والبدنة ومجتمع القرية ككل لم تعد تمنع امتداد العلاقات فى أى اتجاه ولذلك زادت سرعة التنقل ومداه . ثانيا : أفقى لا يقتصر فقط على الزواج بل يمتد الى عدد من العلاقات المختلفة بين جميع الأفراد من الجنسين من مختلف فئات السن . وتعدى الانتقال على هذا النحو حدود النسق القرابى وأصبح انتقالا فى دائرة مجتمع القرية ، ثالثا : رأسى وهو ما لم يكن موجودا من قبل ، فالأفراد والأسر تنتقل الآن من حيث المركز الاقتصادى والاجتماعى نتيجة لتفتت الملكية أو انعدامها من طبقة أعلى الى طبقة أدنى ، كما أن بعض أصحاب المهن الذين كانوا ينتقلون من الناحية الاجتماعية

1— Sorokin , Op. Git. , p. 409.

افقيا ، أصبحوا الآن ينتقلون رأسيا أيضا على أساس ارتفاع مركزهم الاقتصادى والاجتماعى . وأيضا بغير بعض القرويين العمل الزراعى فيشتغلون بالتجارة أو بالمهن والحرف فينتقلون رأسيا من طائفة الى أخرى وهكذا . كما أن هجرة القرويين والمتعلمين من القرية الى المدينة تعتبر فى جوهرها تنقلا اجتماعيا رأسيا ، رابعا : توسطى Intermidiary أى غير واضح . وذلك لأن بعض الأفراد ينتقلون من مركز الى آخر غير محدد ، كأن يعمل القروى بالتجارة والزراعة معا . أو يسكن المدينة والقروية فى نفس الوقت .

٢ ـ اللاتثبية Uncertainity :

كانت علاقة القروى بالأرض والعائلة والزمن علاقة ثابتة منتظمة ، تدور حياته فى دورات يمكن التنبؤ بها فى دقة وتحديد كبيرين ولهذا كان من السهل تعيين الأبعاد الايكولوجية والبنائية (١) للفرد والعائلة . فدورة عام واحد كانت تعنى أنواعا مختلفة من العمل والمحاصيل وفترات محددة من الفراغ ، كما كانت تعنى احتفالا بمناسبات وقياما بشعائر مختلفة ، وتوالى السنين لا يحمل معنى التغير وانما التردد أو المطابقة . ولهذا كانت دورة حياة الأفراد من الجنسين تكاد أن تكون متشابهة . ونظرا لعدم اختلال هذا الانتظام فقد كان الفرد متثبتا من كل شيء يتعلق بحياته الاجتماعية والاقتصادية – حتى الموت ، فأجل مكتوب ، وكان الذى يقوى هذا التثبت وجود الحياة العائلية بخصائصها التى اشرنا اليها . ولكن تغير العائلة تحت تأثير العوامل الاقتصادية واستمرار انخفاض مستوى المعيشة ، والى جانب التأثيرات المتتابعة من المدينة جعل هذا التثبت يختل . ولهذا اختلت علاقة القروى بالأرض وبعلاقاته القرابية وأصبح الامتداد الزمنى

1 — R.E· Evans-pritchard, The Nuer , Oxford , 1940, p.

لا يؤدى الى دورات متشابهة للحياة ، بل تؤدى الى تغيرات تحمل معها القلق وعدم الأمن . فكل ما كان ثابتا فى الماضى يراه الآن متغيرا ولا يعلم اتجاهه أو مداه .

وتفصيل ذلك أنه إذا أعتبرنا القرية مجتمعا ثابتا فيما مضى ، وقد كان كذلك لأن النسق الأساسية فى تكوينه ثابتة أيضا ، جاز لنا القول أنه كان مجتمعا متوازيا ، ويهتز هذا التوازن عن طريق التغيرات الاجتماعية ، ونتيجة لهذا الإهتزاز ، فان الآباء لا يعرفون مستقبل أبنائهم من حيث المهنة بعكس الحال فى الحالة الأولى ، والإتجاه الآن الى الإهتمام بتحسين مستوى المعيشة وبالأخلاق الفروية أكثر من الأخلاق الجمعية . ومع أنه فى الماضى لم يكن هناك مجال للتجريب ، فقد تمت المحاولات والأخطاء قبل ذلك حتى وصل الحال الى وضعه الراهن وأستقر على طرق معينة مفضلة، ويقال « اننا نفعل ذلك لأن الأمر كان كذلك دائما (١) . ومع أن التجريب الآن ليس له دور كبير وغير ظاهر فى أغلب الأحيان فليس هذا راجعا الى السبب الأول ، بل أن القرويين يعرفون أن هناك طرقا أفضل ولكنهم لأسباب متعددة وأهمها عجزهم الإقتصادى لا يقبلون على أى تغيير خصوصا فى النواحى المتعلقة بالثقافة المادية . وخلاصة القول أن القروى الآن لا يعرف إذا كان سيظل بالقريه أم سيهاجر أو هل سينجح فى الوفاء بحاجات اسرته أم سيتعرض للفشل ، هل سيكون دائما على علاقات طيبة مع الجميع ، أو هل التغير عامة فى صالحه أم سيلاقى الصعاب ··· وهكذا .

٣ ـ الاستقلال والتبعية Autonomy & Subordination :

لم يكن الفرد فى العائلة مستقلا بل كان تابعا لها ، ولهذا لم تكن له

1 — W.dOgburn; M. Nimokff, Handbook of Sociology, London, 1955 pp. 585–586.

تبعية أخرى حتى لسلطة القرية الكلية . فنظام المسئولية الجمعية كان يجعل الأفراد جميعا وحدة واحدة داخل العائلة أو البدنة ، ولم يكن لأحد منهم استقلال خاص من هذه الناحية وكذلك بالنسبة للعائلة فى حدود البدنة النسق القرابى الأكبر . أما الآن وفى ضوء التغيير الاجتماعى الذى حدث للعائلة ولمجتمع القرية ، فقد أصبح الفرد أو الأسرة التى ينتمى إليها مستقلة وتابعة فى نفس الوقت لأنه نظرا لتعدد علاقات الأفراد وكثافتها فى نفس الوقت فى الداخل والخارج ، فقد أصبحت ضيقة Narrow بمعنى أنه لا يشترك فيها عدد كبير على نفس المستوى كما كان الحال أيام العائلة . ولهذا كلما ضاقت العلاقات بهذا المعنى كلما زاد استقلال الفرد أو الأسرة . أما التبعية فقد كان الفرد تابعا لوحدة صغيرة ، أى أن علاقات التبعية كانت تدور فى دائرة محدودة وهى البدنة أو العائلة ، ولكن الوضع الآن أن دائرة التبعية اتسعت الآن حتى شملت مجتمع القرية ، بل والدولة بأسرها أيضا ومثال ذلك أن التبعية من حيث السلطة هى تبعية للقرية وللمدينة أيضا . إذن كلما زادت علاقات الفرد من حيث الاتساع كلما اتسع نطاق تبعيته وهكذا .

٤ - فردية البعد النهائى : Individualism in structural distance

الأبعاد البنائية (١) - أو الاجتماعية - كانت أبعادا بين عائلات وبدنات وبين عائلات وبدنات أخرى . والبعد البنائى على هذا النحو كان يتضمن حجم البدنة ودورها فى سلطة مجتمع القرية ، وبالتالى مركزها الاجتماعى

(١) البعد البنائى - فكرة استخدمها ايفانز بريتشارد فى الفصل الخاص بالزمن والمكان فى كتابة عن النوير ليصور طبيعة العلاقات بين القرى والبدنات المكونة لشعب النوير . وقد أشرت اليها فى الفصل الثانى من هذه الرسائل .

والاقتصادى ، الى جانب درجة التضامن فيها ولهذا لم يكن للفرد استقلال بنائى خاص . فأعضاء البدنة جميعا متشابهين بعدا بنائيا ، ومتميزين على هذا الأساس عن أعضاء البدنات الأخرى والآن نظرا لتفكك العائلة واتساع نطاق العلاقات التى تربط الأسر والأفراد وتغير مضامين النسق القرابية ، وظهور المصلحة كمحدد لاتجاه هذه العلاقات ودرجة شدتها . فقد أصبح البعد الإجتماعى فرديا ، وأهم مايدخل الآن فى تحديد هذا البعد المركز الاقتصادى كما أن المركز الاقتصادى لم يعد يتحدد أساسا بملكية مساحة معينة من الأرض ، بل ما يكسب الفرد من الزراعة أو من غيرها من الأعمال تجارة أو مهنا أو حرفا ، ومن هذه الزاوية إرتفع مركز أفراد كانوا يعتبرون فيما مضى فى مرتبة أدنى وهم على الأخص المشتغلين بالحرف والمهن المختلفة ، وضاقت الأبعاد التى تفصلهم عن القرويين المشتغلين بالزراعة . ومع هذا يدخل المركز الإجتماعى القديم فى تحديد البعد البنائى ولكنه قد يتجاوز عنه فى العلاقات الإجتماعية كالزواج . وكقاعده يمكن القول أنه كلما زاد التغير الإجتماعى كلما تحددت الأبعاد البنائية بين الأسر والأفراد على أساس اقتصادى ، وقل المركز الإجتماعى فى هذا التحديد . ونظرا لاتساع مدى العلاقات التى تربط القرى الآن بغيرها من القرى المجاورة وبالمدن . فان الأبعاد البنائية للأفراد تقاس أيضا على أساس اقتصادى . فالفرد يدخل فى علاقة اجتماعية مع فرد من قرية أخرى إذا كان فى نفس المستوى ، ولكن فى هذه الحالات يدخل فى الاعتبار المركز الإجتماعى للعائلة أو البدنة إذا كانت هذه العلاقة علاقة زواج ، كما يدخل فيها بصفة عامة البعد البنائى للقريتين ، ويدخل فى هذا الاعتبار خصائص كل قرية على حدة ، أو النموذج الذى أشتهرت به بين القرى أو فى المنطقة المحلية . إذن فالقرية ينظر اليها من هذه الزاوية كما ينظر للفرد أو بطريقة مشابهة ومثال ذلك أن أفرادا من قرية القيطون

يقبلون على الزواج من فتيات من قرية كفر الشيخ نظرا «لسمعتها» المسالمة. ويعرضون عن الزواج بفتيات من قرية هلا «لسمعتها» العدوانية. وكقاعدة كلما ازدادت صلات القرى بعضها بالبعض الآخر كلما تفككت فكرة النموذج فى تطبيقها على القرية ككل، وكلما أصبح ممكنا الدخول فى علاقات متعددة على مستوى الأفراد والأسر.

٥ – الهجرة رأسيا وأفقيا : Vertical & Horizontal

لم يصل إلى علمى أن القرى قبل فترة التغير استقبلت مهاجرين أو خرج منها مهاجرون. اللهم الا بعض العائلات المسيحية التى هاجرت لأسباب ليست محل بحث الآن ولكن الهجرة كما أشرنا الى ذلك من قبل تزداد بمرور الزمن. وقد بلغت أقصاها فى القرى فى فترة الحرب العالمية الثانية والسنوات التى أعقبتها، وهى مستمرة حتى الآن وهى أما رأسية أو أفقية.

فالهجرة الرأسية تتمثل فى القرويين الذين يتركون القرية إما بصفة دائمة أو ليعملوا فى غير العمل الزراعى فى جهات بعيدة، ويعيشون مع جماعات تختلف عن عائلاتهم من حيث المركزين الاقتصادى والاجتماعى. فبعضهم يعمل فى تطهير الترع والمصارف والآخرون يقيمون فى المدينة ويعملون فى المصانع أو فى مصالح الحكومة المختلفة. كما أنه يمكن اعتبار من يتعلمون من أبناء القرية ضمن هذه الفئة لأنهم فى حقيقة الأمر يقيمون ويعملون فى المدينة ويغيرون من مركزهم الاجتماعى والاقتصادي، وينضمون الى جماعات تختلف من حيث القيم والمركز عن أسرهم.

أما الهجرة الأفقية فانها تتمثل فى القرويين الذين يهاجرون من القرية

مؤقتا ليعملوا فى الزراعة خصوصا فى مواسم الحصاد أو الجنى ثم يعودون الى القرية ثانيا. وهؤلاء ينتقلون من جماعة إلى جماعة مماثلة تقريبا، أو دائما حين ينتقل الفرد بمفرده أو مع أسرته ليقيم فى قرية أخرى بعيدة أو قريبة، يزرع الأرض طريق الايجار أو الملكية. فلا يتغير دوره أو مركزه بذلك.

ومن حيث أثر المهاجرين على القرية نجد إنها تتأثر أكثر بالمهاجرين رأسيا لأنهم إذا ظلوا على صلة بالقرية فانهم يعاونون أسرهم الباقية ويجلبون معهم فى أثناء عودتهم طرقا جديدة وأفكارا جديدة أيضا [1]. وقد لاحظت أن غير المتعلمين منهم أكثر من المتعلمين أثرا فى هذه الناحية.

٦ – التفكك النسبى فى الفواصل:

كان من خصائص العائلة القديمة الفصل التام وتحديد العلاقات والعمل على أساس الجنس والسن، وكان هذا الفصل أحد قيم التدريب الاجتماعى، ونماذج السلوك المرعية. ولكن التغير فى العائلة وما ترتب عليه من استقلال وبناء على النتائج السابقة يلاحظ فى القرى أن مركز المرأة آخذ فى الازدياد، كما يزداد الآن دورها فى الحياة الإجتماعية العامة ومشاركتها فى الحياة الاقتصادية. وقد زاد عمل المرأة ومسئوليتها فى الأسرة عنهما فى العائلة ولذلك تسهم بنصيب أوفر فى العمليات الزراعية التى كانت وقفا على الرجال. كما أنها تقوم بدور هام فى المبادلات الاقتصادية. وفى السوق نجد الرجال والنساء معا. وبالتالى تغير النموذج أو طبيعة السلوك المتوقع من المرأة.

1 — M. Yang. Op. Cit., p. 230

حقيقة أن الرجال لا زال لهم السيادة من الوجهة النظرية ، إلا أن تبعية المرأة المطلقة له تصبح مثار جدل بين الزوجين ، وفى كثير من الأسر تقوم المرأة حين يموت الزوج بجميع مسئولياته فيما عـدا العمل الزراعى الذى يتطلب مجهودا بدنياً شاقا وفى غير ذلك تبذر البذور وتسقى المزروعات وتجنى وتحصد . ومن المناظر المألوفة فى القرى أن يتحدث الرجال أو يسرن معهن فى الطرقات سواء كانوا ينتمون إليهم عن طريق القرابة أم لا .

أما فواصل السن فقد تفككت هى الأخرى ، فلم يعد الشبان مثلا يلتزمون بدقة أنماط معينة من السلوك أمام الكبار . كما أنهم يجلسون معهم ويتبادلون « المزاح » أو الرأى ، وكقاعدة يمكن القول أن أنواع السلوك المترتبة على فواصل السن كاحترام الصغير للكبير وطاعته وعدم تبادل المزاح معـه ، تتغير الآن الى نوع من حرية السلوك فيه انحراف كبير عـن التقاليد القديمة .

إذن يمكننا أن ندرك مما سبق أن الحياة القروية القديمة التى كانت تقوم على الحياة الجمعية فى العائلة وما لها من خصائص تتغير الآن بفعل عوامل متعددة ، أهمها العوامل الاقتصادية وتأثيرات المدنية والقانون . وليست هذه الملاحظة خاصة بالنموذج الذى أدرسه ، بل أغلب الظن أن تغير القرية ظاهرة هامة فى المجتمعات التى يعتمد جزء كبير منها على الزراعة ، حتى أن ردفيلد Redfield يتزعم الآن فى شيكاغو حركة علمية كبرى تهدف الى دراسة الحياة الريفية فى مختلف أجـزاء العالم قلما تتغير معالمها [1] .

1 — R. Redfield, Peasant Society and Culture, Chicago, 1956, pp. 137 – 139

وكما فعل الأنثروبولوجيون من قبل فى المجتمعات البدائية قبل الغـزو الأوربى وإبانه ، فلا بد أن يفعـلوا نفس الشىء فى المجتمعات القروية مع التعديلات الضرورية فى المنهج والتى من بواعثها الاختلاف بين دراسة الكل المنعزل المكتفى بذاته فى حالة المجتمع البدائى ، والجزء غير المنعزل غير المكتفى بذاته نسبيا فى حالة القرية . وقد أجريت فعلا عدة دراسات هامة فى الهند والمكسيك وبعض بلاد الشرق الأقصى لمواجهة هذا المطلب العلمى الهام . حتى أن ردفيلد وغيره من زملائه وتلاميذه نتيجة لهذه الدراسات أخذوا يقارنون المجتمعات القروية التاريخية والمدروسة بالطريقة العلمية لاستخراج التعميمات التى تصور الجوانب المتشابهة فى الحياة الريفية عامـة .

وقـد وجدت أثناء دراستى وبعـدها عددا من وجوه الشبه بين نموذج دراستى والنماذج الأخرى التى درست فى بعض أجزاء العالم . فمثلا فى بحث العائلة القديمة والمتغيرة فى الهند وصل دوبيه Dube إلى عدة نتائج هامـة لا تختلف كثيرا عن النتائج التى وصلت اليها [1] . فالعائلة القديمة فى قرية شاميربت Shamirpet كانت متضامنة أو متماسكة ، ترتبط بالأرض والمسكن ارتباطاً وثيقا ، والعلاقات داخلها وخارجها محددة على أساس السن والجنس والنسق القرابى ، وهى اليوم تسجل تغيرات هامة ، فالفردية خاصة نامية ، والهجرات متعددة نتيجة لاختلال الأوضاع الاقتصادية وتأثيرات المدنية ، كما أن التقاليد القديمة المنظمة للعلاقات الاجتماعية أخذت فى التداعى أى لم تصبح بعد محددة باحكام لنماذج السلوك الفردى والجمعى ... وهكذا . ومثل

1 — S. C. Dube, Indian Village, London, 1956. pp. 222—229

آخر من الصين عندما يصور مارتن يانج M. Yang مدى اعتماد العـــائلة القديمة على الأرض فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، ومدى ما تذهب إليه من تغيير إذا تغيرت علاقاتها بالأرض فيقول « أن الأرض أســـاس العـائلة الحقيقى ، وعندما نقـول أن العائلة تفككت فمعنى ذلك أنها فقدت أرضها »[١] .

ولا يعنى هذا أن وجوه التشابه فى الحياة الريفية يؤدى الى تطابق التنظيم العائلى مثلا فى القديم وسيره فى اتجاه واحد أثناء التغير . فالتغير الاجتماعى مرتهن بعدة عوامل قد تـكون متوازية الأهمية ، أو يفوق بعضها الآخر من هذه الناحية بحسب ظروف القرى محل الدراسة ، ولهذا فان اتجاهات التغير أو سرعته قد تختلف من قرية الى أخرى ، بل قد تختلف من قرية الى أخرى فى نفس المجتمع كما هو واضح من وصف حامد عمار لتغـير العائلة فى قرية « سلوا »[٢] بمقـارنته بالتغـير فى النموذج الذى أدرســه . ولعـل الاختلاف كما أظن لا يرجـع الى اختلافات أساسية وإنما يتعلق بالمدى لاختلاف الظروف نسبيا .

...

لـكن الاختلاف بين نموذج الدراسة وبين النماذج الأخرى فى الهنـد والصين والمكسـيك ، أو بينه وبين قرية سلوا ، لا يماثل فى الدرجة الاختلاف النسبى بين القرى الثلاثة ـ قيطون ـ هلا ـ كـفر الشيخ . فهى جميعا من حيث العوامل التى أدت الى التغير ، أو عمليات التغير نفسها واتجاهاتها ونتائجها

1 — M. Yang. Op. Cit., p. 46

2 — Hamed Ammar, Op. Cit., pp. 42—47

واحدة تقريبا . ولهذا كان الاختلاف النسبى بينها لا يؤدى الى عدم انطباق النموذج على واحد منها ، بل هم كما حددنا ذلك فى المقدمة ينتمـون الى نموذج واحد . وإنما أردت أن أبرز هنا بعض الاختلافات التى أرجعها الى اختلاف فى الانتشار أو التوقيت . وهو إن كان واضحا فى مراحل التغير الأولى ، إلا أنه آخذ الآن فى التلاشى . وهذا يعنى أن تجمع accumulation مظاهر التغير المادية أو اللامادية [١] فى قرية بنسبة تزيد على القرية الأخرى لا يؤدى الى أسبقيتها من حيث التغير الاجتماعى باستمرار ، وذلك لسببين : الأول أن التجمع على هذا النحو هو تجمع يتخذ الآن صورة التجمع الكمى غالبا دون الـكيفى [٢] حتى أن القديم يعيش بجانب الجديد دون أن يحدث اختلال أو تخلف أو عدم استواء [٣] . والثانى أن التأثيرات الخارجـية الآن أخـذت تزداد إلى درجـة تتساوى معها القرى الثلاث فى التأثر بها .

والجـدول الآتى يكشف عن الاختلافات النسبية المشـار إليهـا فى تغير العائلة :

1 — Ogburn & Nimkoff, Op. Cit., p. 571.

2 — P. Sorokin, Op. Cit., p. 586—587.

3 — Godfrey, & Monica Wilson, Op. Cit., p. 132.

الخاصية أو النتيجة	قرية هــلا	قرية كفر الشيخ
الخصائص	الخصائص العامة متشابهة تقريبا	الخصائص العامة متشابهة تقريبا
١ - النمو المكانى والتغير فى الزمن	الاتجاه العام متشابه . ولكن تفكك العائلة إلى أسر أسرع وأسبق .	الاتجاه العام متشابه . ولكن النمو والتغير أكثر سرعة وأوضح .
٢ - الارتباط بالارض	يتشابه التفكك . إلا أن القرويين فى وقت مبكر هاجروا من القرية أو تحولوا الى أعمال غير العمل الزراعى .	يتشابه التفكك . إلا أن الهجرة كانت أقل خصوصاً وأن القرويين اتجهوا إلى تعليم أبنائهم فى مدارس المدينة فى وقت مبكر .
٣ - المصلحة أساس العلاقة	يتشابه الاتجاه ، لكنها أكثر وضوحا وأكثر تحديدا ، وذلك لازدياد النشاط التجارى وتعدد العلاقات فى القرية وفى القرى الأخرى على هذا الأساس .	يتشابه الاتجاه . إلا أن هناك نزعة الى تبادل الخدمات خصوصا فى العلاقات المتصلة بالمدنية والتعليم .
٤ - ازدياد سلطة القرية والقانون	يتشابه الإتجاه . إلا أن وجود نقطة البوليس مدة طويلة بالقرية جعل أكثر الخلافات تحال عليها أكثر من احالتها الى العمدة ويؤدى دورا هاما فى حسم المنازعات المتزايدة حول المصالح المختلفة	يتشابه الاتجاه . وإحالة عدد أقل من الخلافات على نقطة البوليس . كما أن الإلتجاء الى القضاء فى المدينة أوضح وأكثر .

الخاصيه أو النتيجة	قرية هلا	قرية كفر الشيخ
٥ - الاعتماد المتزايد على القرية والمدينة	يتشابه الاتجاه . ويلاحظ اعتمادا أكثر على القرية أو المدينة . خصوصا فى المسائل المتعلقة بالزواج أو الحاجات المادية .	يتشابه الاتجاه . ويلاحظ اعتمادا أكبر على القرى المجاورة والمدينة . ونتيجة لذلك تزداد صلات القرية أكثر من غيرها بالقرى المجاورة خصوصا عن طريق الزواج .
٦ - تقاليد القرية وقيم الفرد	يتشابه الاتجاه	يتشابه الإتجاه . ويلاحظ نموا أكثر للفردية وتقليد طرق سكان المدن
٧ - الفردية والمصلحة فى الزواج	يتشابه الاتجاه . ويلاحظ انتشارا أوسع للزواج الخارجى داخل القرية وخارجها من القرى المجاورة ومن المدينة فى عدد من الحالات . ولا يقتصر ذلك على زواج أفراد من القرية من فتيات من خارجها ، بل زواج شبان من الخارج من فتيات القرية .	يتشابه الاتجاه . ويلاحظ أن نسبة الزواج الخارجى من القرية أو من خارجها فى حالة الشبان والفتيات تزيد على نسبة القريتين قيطون وهلا . كما يلاحظ اهتماما أكثر بالمسائل الجنسية .
النتائج	النتائج العامة متشابهة تقريبا	النتائج العامة متشابهة تقريبا
١ - ازدياد التنقل الاجتماعى	يتشابه . ولكن يلاحظ أن نسبة التنقل الاجتماعى	يتشابه . ولكن التنقل الرأسى أكثر انتشارا

الخاصية أو النتيجة	قرية هلا	قرية كفر الشيخ
	الرأسي والتوسطي أكثر. فكثير من القرويين يغيرون نوع العمل ، أو يتنقلون من طبقة الى أخرى سواء إلى أعلى أو الى أدنى على أساس ازدياد الثروة أو انعدامها .	وبخصوصا في حالة المتعلمين الذين يتركون القرية ويقيمون في المدينة. ولكن نسبته داخل القرية أقل من القرية السابقة وأزيد من القيطون
٢ ـ اللاتبيية	متشابهة	متشابهة
٣ ـ الاستقلال والتبعية	متشابهان . ولكن التبعية أوسع نظرا لتعدد صلات الافراد في القرية ، ومع القرى المجاورة أو المدن.	متشابهان . ولكن التبعية أكثر انتشارا لازدياد حركة التعليم وشدة العلاقات وامتداد مداها .
٤ ـ فردية البعد البنائي	متشابهة . ولكن المركز الاقتصادي للفرد أكثر تحديدا لمركزه في القرية .	متشابهة . ولكن بجانب المركز الاقتصادي يكون المركز العلمي له دورهام في تحديد المركز عامة .
٥ ـ الهجرة أفقيا ورأسيا	متشابهة . ولكن الهجرة الأفقية هي الغالبة نظرا لهجرة كثير من القرويين للعمل في الزراعة في قرى بعيدة .	متشابهة . ولكن الهجرة الرأسيه أوضح نظرا لهجرة المتعلمين ، أو تغيير نوع العمل بالاشتغال في أعال غير الزراعة في مناطق الهجرة
٦ ـ التفكك النسبي في الفواصل	متشابه	متشابه . ولكن يلاحظ أن نسبة التفكك أزيد من القريتين هلا وقيطون ، لانتشار التعليم .

ومن هذا الجدول يتبين أن قريتي هلا وكفر الشيخ يتشابهان مع قرية القيطون في العوامل التي أدت الى التغير . وفي اتجاهات التغير وعملياته ، والنتائج التي ترتبت على ذلك . وهـذا التشابه هو الذي دعاني الى افتراض انطباق نموذج واحد عليها جميعا . والتشابه هنا أكثر وضوحا وأكثر تحديدا للنموذج من القرى في مقاطعة يونان بالصين أو القرى التي درسها Fei في مقاطعة كيانجو Kiangsu في الصين أيضا . ومع اختلاف القرى في المقاطعتين فانها وجدت متشابهة على الرغم من اختلاف ظروفها ، خصوصا من حيث الموقع وسهولة المواصلات (1) . ولهذا كانت الاختلافات القليلة التي وجدت بينها أكثر من الاختلافات التي وجدتها بين القرى الثلاث . وهذه الاختلافات لا تؤثر على درجة انطباق النموذج على كل واحد منها على حدة .

وترجع هذه الإختلافات النسبية الى عاملين : الأول اختلاف القرى من حيث سهولة المواصلات النسبية . وقد لاحظنا من قبل أن كلا من هـلا وكفر الشيخ أكثر سهولة في هذه الناحية من القيطون ، والثاني الاصلاحات الحكومية والتنظيمات الإدارية ، فقد كانت هـلا مركزا لنقطة البوليس ومقرا للمركز الاجتماعي ، ولهذا تأثرت هلا أكثر من القريتين ، وتأثرت كفر الشيخ أكثر من القيطون نظرا لقربها النسبي من هـلا . ومع هذا فان أثر هذين العاملين لم يؤد الى اختلافات أساسية في اتجاهات التغير ، وإنما يمكن أن يقال أن أثرهما انصب على سرعة التغير ودرجة انتشاره . لكن الملاحظ الآن أن هذه السرعة وهـذا الإنتشار آخذان في التشابه في

1—Hsiao-Tung Fei, Chin-I Chang, Earthbound Chinal London, 1948, pp. 11—12

القرى الثلاث ويميلان الى التطابق كلما ازداد أثر عوامل التغيير الرئيسية .
ومن العوامل التى سوف تساعد على ذلك فى المستقبل ، اننى فى زيارتى
الأخيرة للمنطقة فى مارس ١٩٥٩ وجدت أن الطريق الزراعى الذي يربط
القرى الثلاث بالمدن وعلى الأخص منيا القمح وبنها وميت غمر ، ويمر عليها
مباشرة ، قد تم اعداده ، وتسير عليه السيارات العامة .

اذن يمكننى أن أقول بناء على نتائج التغير فى القرى الثلاث ، إن الحياة
الأسرية تتغير من التعقيد الى البساطة ، وتتغير العلاقات الاجتماعية تبعا لذلك
من البساطة الى التعقيد أى أن حجم « العائلة » يتناسب تناسبا عكسيا مع
كثافة العلاقات ومداها . فاذا زاد الحجم قلت الكثافة وقل المدى . واذا
نقص الحجم زادت الثقافة وزاد المدى . أما بالنسبة للقرابة ، فانه إذا قامت
العلاقة على أساس القرابة . قلت الكثافة الكلية وقل المدى الكلى لها ،
وإذا قامت العلاقة على أساس المصلحة ، زادت كثافتها وزاد مداها . ولهذا
كانت مقارنة العلاقات حجما من حيث كثافتها ومداها . (١) تكشف عن
المدى الذى وصل إليه التغير الاجتماعى . وتقوم هذه المقارنة على أساس أن
الاختلاف بين المجتمعات البدائية والمجتمعات الحديثة هو اختلاف فى الحجم
Size . ففى المجتمعات الأولى تقل الكثافة ويقل المدى ، وفى المجتمعات
الثانية تزداد الكثافة ويزداد المدى . كما أن كثافة العلاقة ومداها تقاس
محليا وخارجيا . وهكذا تكون العلاقات الخارجية فى حالة الصغر
(المجتمعات البدائية) تكاد أن تكون معدومة ، وفى حالة الكبر
(المجتمعات الحديثة) ذات درجة كبيرة من حيث الكثافة والمدى .

1 — Godfrey & Monica Wilson; Op. Cit., p. 25

ولهذا يكون مجتمع أفريقيا الوسطى الحديث أكبر من هذه الناحية من
المجتمعات التى سبقته ، ليس لأن مزيدا من الناس فى علاقات واعية بعضهم
مع الآخر ، بل أيضا أن علاقات أفريقيا والعالم الخارجى ، وبين الفريقين
المعاصرين ، والأجيال السابقة أكثر شدة مما كانت عليه من قبل (١) . ومع
الاختلافات التى سبق الإشارة اليها بين المجتمع البدائى والقروى ، فان
مقارنة العلاقات القديمة والمتغيرة كشفت عن عدد من وجوه الشبه .

1 — Ibid, p. 26

الفصل الرابع

العائلة والحياة الاقتصادية

١ ـ مقدمة

٢ ـ الحالة الاقتصادية القديمة

ا ـ الملكية وتوزيعها

ب ـ العمل الزراعى فى الحقل والعمل فى الدار

ج ـ الانتاج

د ـ التبادل والتوزيع والاستهلاك

هـ ـ تحليل ومقارنة

٣ ـ الحياة الاقتصادية المتغيرة

ا ـ الملكية الزراعية ورأس المال

ب ـ العمل الزراعى والمهنى والتجارى

ج ـ الانتاج وتنوعه

د ـ التوزيع والنقود واقتصاد السوق

هـ ـ تحليل ومقارنة

و ـ نتائج الحياة الاقتصادية المتغيرة

ز ـ مقارنة بين قريتى هلا وكفر الشيخ

ماهى النتائج التى ترتبت على التغير الاساسى الاقتصادى
فى مجتمع القرية على خصائص العائلة الثقافية المادية؟

الفصل الرابع

« العائلة والحياة الاقتصادية »

في المجتمعات القروية التي تعتمد على الزراعة كطريقة في الحياة . تكون علاقة القرويين بالأرض عاملا هاما في وصف حياتهم الإقتصادية ، وتحديد صورة البناء الإجتماعي والعلاقات المتبادلة بينهم ، وفي كل هذه المجتمعات تقريبا تكون « العائلة أو الأسرة » الوحدة الأولى في الحياة الإقتصادية والإجتماعية كما أشرنا إلى ذلك من قبل (١) . ومعنى هذا أن كل تغير في هذه العلاقة ، يؤدي إلى سلسلة من التغيرات تتأثر بها العائلة أو الأسرة ، وما يصاحب ذلك من تغيرات في الحياة الإجتماعية والإقتصادية . ومن هنا كانت دراسة الحياة الإقتصادية القروية ، أو العائلية ، ذات أهمية بالغة في دراسات التغير الإجتماعي في المجتمع القروي على نحو ما سنرى فيما بعد ، ولما كانت ملكية الأرض هي المظهر الوحيد للملكية في القرى خصوصا في الفترة السابقة على التغير ، فانه من المناسب أن أعرض للخطوات التي حدثت منذ عام ١٧٩٨ في المسائل المتصلة بملكية الأرض في مصر ، لأنها تلقى الضوء في نفس الوقت على تطور العلاقة بين الأرض والقرويين في القرى الثلاث .

---

١ — في القرى الثلاث التي درسها Cbang.Fei ونشرا هذه النتائج في كتابهما Earthbound China ،London,1948 كان اهتمامها الاول منصبا على دراسة علاقة الحياة الاقتصادية بنظام ملكية الارض ، على اساس اختلاف هذا النظام في كل منها . وقد توصلا الى أن أختلاف علاقة الانسان بالارض تؤدى الى اختلافات في الحياتين الاقتصادية والاجتماعية على السواء ، وان كانت هناك وجوه شبه كثيرة مصدرها الاعتماد على الارض كمصدر أول للمعيشة pp. —15—17 — كذلك وجد مارتن يانج N.Yang عندما درس قرية تايتو Taitau في الصين أن البناء الاقتصادي يقوم على العائلة ، وهي التي تملك الارض وجميع وسائل الانتاج .

« ففى ١٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ ، أصدرت سلطات الحملة الفرنسية قانونا نص على أن الشهادات التى فى أيدى الفلاحين بأراضيهم لا تكفى لإثبات ملكيتهم بالبيع أو بالميراث ، بل يجب أن يكشف عنها فى سجلات «الروزنامه» نظير دفع رسم لذلك، وإذا وجدت حجته مقيدة بالسجلات يكتب له سند «تمكين» جديد ، ووضع القانون قاعدة لتقدير ثمن الأرض من جديد على أن يدفع المنتفع بها رسما بنسبة ٢ ./. من الثمن . وقرر القانون أنه إذا لم تكن لدى الفلاح حجة أو سند ، أو لم تكن أرضه مقيدة بالسجلات فانها « تضبط « لجانب » « الجمهورية » ، ويصير من حق الديوان أن يتصرف فيها من جديد ، واعترف القانون بنظام التوريث فى الشريعة الاسلامية (١) .

ثم تعاقبت بعد ذلك القوانين فألغى محمد على نظام الالتزام عام ١٨٠٩ وقام بمسح الأراضى خلال خمس سنوات مابين عامى ١٨١٣ – ١٨١٨ ، وعين الحدود الفاصلة بين كل قرية وما يجاورها ، ثم قسم الأراضى الملحقة بكل قرية إلى « أحواض » ووزع الأراضى على الفلاحين وعلى فئات معينة من رجال الدولة ، ثم صدرت فى عام ١٨٤٦ اللائحة الأولى من لوائح الأطيان التى أباحت حرية التعامل بالأراضى التى يزرعها الفلاحون ، وأعترفت بملكية فردية للاطيان وفى عام ١٨٥٨ صدرت اللائحة السعيدية ، وقررت أن لمستغل الأرض حق تأجيرها لمدة لا تزيد على ثلاث سنوات ، وله أن يرهنها ويبيع حقه فى استغلالها للغير ... الخ ، وفى الوقت ذاته ألغى سعيد نظام احتكار تجارة الحاصلات الزراعية ، كما أعفى الفلاحين من الضرائب المتأخرة عليهم .

---

١ — عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية — (الجزء الاول) .

وفى سنة ١٧٨١ صدر القانون المعروف بقانون « المقابلة » الذى كفل حصول المنتفع بالأرض على صك تمليك ملكية تامة متى دفع مرة واحدة ستة أمثال الضريبة السنوية مع اعفائه من نصف الضرائب بعد ذلك بصفة دائمة ، وكان الغرض من هذا القانون الذى أصدره اسماعيل انقاذ الدولة من الافلاس ، وفى ٢٨ ديسمبر عام ١٨٨٣ صدر القانون « المدنى الأهلى » الذى نصت مادته الثامنة على ما يأتى :

« تسمى ملكا العقارات التى يكون للناس فيها حق التملك التام ، وتعتبر فى حكم ذلك الاطيان الخارجية التى دفعت عنها المقابلة » ، وفى عام ١٨٩١ حذف من القانون شرط دفع المقابلة ، وأصبح يمنح المنتفعين بالأرض حق الملكية التامة دون قيد أو شرط .

ومن هذا العرض نتبين أن ملكية الأرض بالنسبة للقرويين أستقرت فى مصر عام ١٨٩١ ولم تحدث تغيرات أساسية فى هذا الشأن ، إلا التغيرات التى تمخضت عن ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وعلى ذلك يمكن القول بأن الملكية فى القرى الثلاث كان لها هذا الوضع فى التاريخ الأسبق . ولهذا فان تحليل الحياة الاقتصادية لن يذهب الى أبعد من ذلك والجدول الاحصائى التالى يصور حالة الملكية فى مصر جميعها عامى ١٨٩٤ ، ١٩١٤ (١) .

---

١ — راشد البراوى ، حمزة عليش ، التطور الاقتصادى فى العصر الحديث — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٤٥، ص ١٤٨ .

مساحة الملكيات	عام ١٨٤٨ عدد الملاك	النسبة المئوية	المساحة بالفدان	النسبة المئوية	عام ١٩١٤ عدد الملاك	النسبة المئوية	المساحة بالفدان	النسبة المئوية
من								
١ — ٥	٥١٢ر١٦٠	٧٧ر٦	٩٣٠ر٦٠٠	١٩ر٨	١ر٤١٤ر٩٢٠	٩٠ر٧	١ر٤٢٥ر٠٦٠	٢٦ر١
٥ — ١٠	٧٥ر٢٤٠	٧ر٤	٥٤٩ر٩٠٠	١١ر٧	٧٦ر٤٤٠	٤ر٩	٥٢٩ر٦٢٠	٩ر٧
١٠ — ٢٠	٢٩ر٦٠٠	٦ر٠	٥٥٤ر٦٠٠	١١ر٨	٣٧ر٤٤٠	٢ر٤	٥٠٧ر٧٨٠	٩ر٣
٢٠ — ٣٠	١٣ر٢٠٠	٢ر٠	٣٢٤ر٣٠٠	٦ر٩	١٠ر٩٢٠	٠ر٧	٢٦٧ر٥٤٠	٤ر٩
٣٠ — ٥٠	٨ر٥٨٠	١ر٣	٣٤٣ر١٠٠	٧ر٣	٧ر٨٠٠	٧ر٥	٣٣٣ر٠٦٠	٦ر١
اكثر من ٥٠	١١ر٢٢٠	١ر٧	١ر٩٩٧ر٥٠٠	٤٢ر٥	١٢ر٤٨٠	٠ر٨	٢ر٣٩٦ر٩٤٠	٤٣ر٩
المجموع	٦٦٠ر٠٠٠	١٠٠	٤ر٧٠٠ر٠٠٠	١٠٠	١ر٥٦٠ر٠٠٠	١٠٠	٥ر٤٦٠ر٠٠٠	١٠٠

ومن هذا الجدول يتضح أنه بعد استقرار الملكية وتوزيعها على القرويين زاد الملاك بصفة عامة خصوصا أولئك الذين يملكون من فدان واحد الى ثلاثين فدانا إبتداء من عام ١٨٩٤ حتى عام ١٩١٤ . ولما لم يكن هناك احصاءات رسمية عن توزيع الملكية فى القرى الثلاث ، فاننى أعتبرت هذا التوزيع الاحصائى السابق مصورا بصفة عامة لتوزيع الملكية فيها ، خصوصا وأن الملاك جميعا فى هذه القرى كانوا من الملاك الصغار ، وأنه لم تكن هناك فوارق بين العائلات فى هذه الملكيات الصغيرة بدرجة ملحوظة .

(أولا) : « الحياة الاقتصادية القديمة »

فى أي بلد زراعى تكون للأرض قيمة كبرى ، وقد لاحظ ذلك كثير من الباحثين فى المجتمعات الريفية فى مختلف أنحاء العالم . ولهذا تقوم الحياة الإقتصادية على ملكيتها واستغلالها أو العمل فيها . وتختلف طرق الملكية من بلد الى آخر باختلاف النسق الإجتماعى والنظم الإدارية وطرق الوراثة . والقري الثلاث هلا — قيطون — كفر الشيخ — نموذج الدراسة ، باعتبارها جزءا من الجمهورية العربية المتحدة ، يسرى عليها النظام الخاص بملكية الأرض ووراثتها المطبق فى الاقليم بأسره . ولهذا هى تختلف عن بقية نماذج القرى الأخرى فى هذه الناحية . ويقوم هذا النظام أساسا منذ أستقرت الملكية عام ١٨٩١ على إباحة ملكية الأرض وتوارثها حسب الشريعة الإسلامية ، إلا فى أحوال خاصة نصت عليها القوانين كحالات « الوقف أو الرهن » ولكن هذه الاباحة المطلقة لملكية الأرض الزراعية حددت عام ١٩٥٢ بناء على قوانين الإصلاح الزراعى التى أصدرتها الثورة فى هذا العام . فلم يعد مسموحا أن يملك فرد أكثر من ٢٠٠ فدان .

ويلاحظ أن القرى الثلاث لم تستفد مباشرة من هذه القوانين لعدم وجود ملاك كبار تزيد ملكياتهم على ٢٠٠ ف وإنما أفادت كما سنرى فيما بعد من القوانين المكملة والتفسيرية الخاصة بتحديد الإيجار وعلاقة المالك بالمستأجر .

هذا ولم تنص الإحصاءات والتعدادات الرسمية حتى عام ١٩٣٧ على مساحة الأرض الزراعية فى كل قرية كما أن التعدادات فيما يتعلق بالنشاط الاقتصادى منذ عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٤٧ لم تثبت أنواع المهن والحرف المختلفة . ولهذا كان معرفة المساحة وبالتالى معرفة وتحديد الملكية صعبا للغاية وكذلك المهن فى هذه الفترة . ولهذا كان جل اعتمادى على رواية « كبار السن » فى هذا العدد الصدد . وبناء على ما تسطيع ذاكرتهم أن تعيه لم تتغير مساحة الأرض الزراعية الملحقة بكل قرية ، كماهو ثابت فى إحصاء ١٩٤٧ . والذى أشرنا اليه فى الفصل الثانى .

وعلى ذلك يمكن القول ، أن أساس الحياة الاقتصادية هوملكية الأرض ، والملكية فى هذه الحالة تكون ملكية عائلية لا ملكية فردية حتى أن إنقسام العائلة الى عائلات بمرور الزمن كما شرحنا ذلك من قبل لا يغير من الاتجاه الى الملكية ، بل تظل أيضا ملكية عائلية . وتمتد للملكية الزراعية فتشمل بجانبها ملكية المسكن والحيوانات الزراعية والمنزلية وأدوات الإنتاج ، بل وبعض أنواع الحلى ، والملابس أيضا ، ولهذا كانت الزراعة وما يتصل بها هى المهنة الرئيسية للسكان فى هذه القرى . فثروة العائلة إذن تقاس بما لديها من أرض زراعيه وما لديها من أنواع الحيوان وأدوات الإنتاج .

والزراعات التى كانت سائدة نوعان :

الأول : عائلى أو محلى كالقمح والأذرة والفول والبرسيم .

والثانى : للسوق وهو القطن . والحيوان المفضل هو الجاموس والبقر والحمير وقليل من الأغنام والماعز والجمال . والدواجن موجود بصفة عامة عند جميع العائلات . ويلاحظ أن المنطقة ليست مكانا لزراعة الأشجار ، ولا يهتم السكان بزراعتها لتركز إهتمامهم على زراعة المحاصيل السابقة . وإنما تنمو أنواع مختلفة منها على جانبى الترع وعلى حافة المزارع ، وتستخدم أخشابها فى بناء المساكن وعمل أدوات الزراعة ، وأهم أنواع هذه الأشجار : النخيل والتوت والسنط والجميز والكافور .

أما توزيع الملكية فى القرى فأهم ما يلاحظ عليه أنه لم يكن هناك تفاوت كبير بين العائلات فى الملكية . وهى تتراوح بين سبعين فدانا أو خمسة أفدنة ، ومع ذلك فنسبة العائلات التى تملك ٧٠ فدانا قليلة جداً والغالبية العظمى كانت ملكياتهم متقاربة ، كما أن الأراضى كان يملكها القرويون المقيمون فى كل قرية . وعلى ذلك لم تعرف القرى نظام الـ absantceism . وعدم وجود هذا النظام أدى الى توازن نظام الملكية ، وبالتالى أدى إلى توازن العائلات والحياة الاقتصادية فترة طويلة . وبعكس الحال فى القرى الواقعة فى منطقة بحيرة تاى Tai فى الصين ، الذى أدى إلى وجود ظاهرة « الملاك المقيمين فى المدينة » الى تدهور الاقتصاد القروى فى وقت مبكر (١) .

ونظرا لأهمية الأرض القصوى فى نظر القروى ، فان مثله الأعلى أن يضيف

1 — H. Ammar, Growing up in an Egyptian village, London, 1954, P. 22.

الى ملكيته أرضا جديدة . ولهذا كانت أهداف الإدخار الأساسية شراء الأرض . ومع تمسك كل قروى بأرضه فقد كان ثمنها مرتفعا جدا . ولهذا كان بيع الأرض فى هذا الوقت يعتبر « نكبة » تحل بالعائلة بعكس شراء أرض جديدة فانه كان يعتبر من « مفاخرها » (١) . الأمر الذى كان يجعل العائلة تتجنب بيع الأرض ما أمكن ذلك إلا اذا كانت هناك ظروف تستدعى ذلك ، وقد ظهر فى هذا الوقت نظام « رهن الأرض » وهو أن تقترض عائلة من عائلة أخرى مبلغا من المال ، وفى مقابله تستغل قطعة من أرضها دون مقابل حتى تتمكن العائلة الأولى من رد الدين . وكان هذا فى نظر القرويين « أهون » كثيرا من التنازل نهائياً عن الأرض ، وبناء على رواية المخبرين ، لم يظهر هذا النظام إلا فى وقت متأخر من هذه الفترة (فترة ما قبل التغير) عندما بدأ التعاون المتبادل والمساعدة غير المشروطة يقل مظاهرها بين العائلات المكونة للبدنة الواحدة . أما قبل ذلك فقد كان من الممكن الاقتراض دون مقابل ودون أى تعاقد كتابى .

ومع أنه لم يكن هناك مكان فى القرى لغير المشتغلين بالزراعة الذين يكونون الغالبية العظمى من السكان . فقد كان هناك عدد من (الأسر) تعمل فى أعمال مختلفة غير العمل الزراعى . ولكنهم لا يملكون أرضا زراعية . وعملهم هذا كان يدور حول تقديم « الخدمات » المختلفة للقرويين وخصوصا فى النواحى التى لا يجيدونها أو يعتبرون العمل فيها امتهانا لكرامتهم الشخصية من حيث أنهم « قرويين » . ولهذا كانت هناك عدة أسر تشتغل بالبناء أو التجارة أو الحلاقة أو الصناعات المحلية كنسج القطن

1 — R, Redfield, The Primitive World and its Trarsferm ations, New York 1957, pp. 33—34.

وعمل الحصير أو اصلاح أدوات الإنتاج الزراعى واعدادها . وبحسب روايات المخبرين فان هؤلاء ليسوا من أهل القرى الأصليين ، بل إنهم استقروا فيها على فترات مختلفة ولم تعترض القرية على إقامتهم باعتبارهم « غرباء » طالما كانوا لا يعملون بالزراعة ، ولم يفرضوا عليها ، وإنما يقومون بأعمال يحتاجها القرويون فعلا . ولهذا فالقروى لا يعترض على وجود غريب فى القرية طالما كانت اقامته سلمية وذات فائدة مباشرة له . وفى ذلك مشابهة « لحالة قرى الهند الشرقية ، فهى لا تعترض على اقامة الغرباء طالما كانوا يعملون فى شىء متصل بالزراعة « فالمعترض ، كان يقيم بالقرية اقامة تختلف بين الدوام والتوقيت » (١) .

ومع ذلك تختلف القرى الثلاث عن القرى المشار إليها فى الهند فى أن الأخيرة تقبل « العامل فى الزراعة » فورا . وهذا وضع قد يكون راجعا الى حاجة القرى الى أيدى عاملة فى الزراعة ، بينما لم تكن القرى الثلاث فى هذه الفترة فى حاجة يوما ما إلى يد عاملة من خارج القرية . ولهذا لم يصل الى كبار السن شيئا من هذا القبيل . أما أن تتحول أسره مهنيا الى العمل الزراعى فيما بعد فهذا أمر آخر . ويلاحظ أن أصحاب الحرف والمهن هذه لم يكونوا قسما مميزا فى القرى يخدمون القرية ككل ، بل أن كثيرا منهم كان يقصر خدماته على بدنات معينة دون غيرها . وغالبا ما كانت مساكنهم تقع فى المنطقة المخصصة للبدنة التى يقومون على خدمتها فى هذه الناحية . والعائلة أو البدنة تحرص بدورها أن يكون نشاطهم مقصورا عليها دون غيرها . وغالبا ما كانت هذه التبعية تضمن للأسرة المهنية الأمن والرعاية الاقتصادية والحماية.

1 — H. Ammar, Op. Cit., P. 21

ولكن هذا الوضع لم ينطبق على اليونانى الذى عاش فى قرية القيطون فترة من الزمن قبل عام ١٩٠٧ ، واليونانيون الثلاثة والاسرائيلى الذين عاشوا فى قرية هلا حتى قبل عام ١٩١٧ . فقد كانوا سواء فى قريتى هلا والقيطون يقومون بمهمة محل البقالة ، الآن ويخدمون القرية كلها دون تخصيص ، وكان أهم مايزودون به أهل القرية التبغ والسجائر والصابون والأقمشة وبعض الأدوات المنزلية البسيطة . كما كانوا يقومون بدور « المقرض » فى بعض الأحيان . وقد روى أحد كبار السن أن سبب رحيلهم من القريتين يرجع إلى كساد تجارتهم والى تنكر القرويين لهم خصوصاً فيما يتعلق بالقروض . وقال آخر إن القرية لم تكن تدفع لهم نقداً . ويعنى هذا أن القرويين كانوا يبادلونهم عينا . ولهذا وجدوا صعوبة فى بيع ما يتجمع لديهم من محاصيل أو نقلها الى المدينة . ولكن مخبرا آخر أكد لى أنهم طردوا من القريتين ولم يغادروها طواعية ، لأنهم كانوا يشربون الخمر .

ويلاحظ أن تحول القروى الى مهنة أخرى غير الزراعة كان أمرا تأباه العائلة ، لأنها وهى تملك الأرض الزراعية التى تكفى أعضائها تعمل على تدريبهم منذ الصغر أن يكونوا قرويين (١)، وبالتالى لاتكون هناك فرصة أمام الأفراد لاختيار نوع العمل . فهم عاملون فى الأرض منذ ولادتهم ولا يذكر المخبرون حالة تحول فيها قروى عن العمل الزراعى الى عمل آخر ، كما لا يتذكرون حالة تحول فيها نجار أو بناء الى زراعى . ولهذا كانت الوراثة فى العائلة وراثة للأرض الزراعية ووراثة أيضا للعمل الزراعى .

---

1 — H. Ammar, Op, Git., p. 21

فطبيعة الحياة الاقتصادية القروية كانت تورث بجميع مظاهر نشاطها للأجيال المتعاقبة . وكذلك الشأن فى الأسر التى تعمل بالمهن أو الحرف ، فالآباء يعلمون أبناءهم منذ الصغر فنونها ويعملون على تدريبهم واشراكهم فى العمل متى سمحت سنهم بذلك . ولهذا تكبر هذه الأسر فتكون عائلات تشبه عائلات القرويين من حيث الخصائص العامة . ولهذا يمكن القول أنه سواء كانت العائلة تعمل فى الزراعة أو فى مهنة أخرى ، فان حياتها الاقتصادية كانت مرتبطة تمام الارتباط بحياتها الاجتماعية . ولهذا كان النشاط الاقتصادى يعكس طبيعة التنظيم العائلى وخصوصا فيما يتعلق بتدرج السلطة وتقسيم العمل على أساس الجنس والسن ، وجمعية الانتاج والتوزيع كما سيتبين ذلك فيما بعد .

...

العمل الزراعى هو الأساس الأول الذى تقوم عليه الحياة الاقتصادية . وهو الذى يحقق أهدافا اقتصادية واجتماعية معا . فالاندماج فى العمليات الزراعية وبذل أقصى جهد فى الأرض يحقق مطلبا اقتصاديا وهو الإنتاج الجدى . أى الحصول على أقصى ما تستطيع الأرض انتاجه بناء على الجهود المبذولة فيها . وكبر حجم الانتاج يوفر للعائلة حاجاتها الرئيسية ويحقق لها فى نفس الوقت فائضا تستطيع أن تزيد عن طريقه مدخراتها ، والعائلة التى يزيد فائض انتاجها تكون متينة المركز الاقتصادى . هذا الى أن العمل فى حد ذاته يعتبر ركنا مهما فى الوجود الاجتماعى . فالعائلة التى ينصرف أعضاؤها الى العمل بهمة ونشاط تعلو قيمتها وتحسن سمعتها . والقروى الذى يعمل بجد فى الزراعة لا يتأثر بهذا انتاج عائلته وتضامنها الاقتصادى

فحسب ، بل يأخذ مركزه الاجتماعى فى العائلة والبدنة وفى مجتمع القرية طابعا معينا . ويعتبر إنصرافه الى العمل وإجادته له أحد القيم والمقاييس التى تحدد أبعاده الاجتماعية ، ويكون له شأن فى علاقاته العائلية وخصوصا فى الزواج .

والعمل الزراعى فى العائلة له عدة خصائص:

الأولى : أنه جمعى بمعنى أن جميع أعضاء العائلة يتعاونون على القيام به ويؤدونه لا عن تقسيم معين ، بل على أساس مسئولية الجميع عن الإنتاج ، فالجميع يعملون فى إعداد الأرض وفى الرى وفى جنى المحاصيل وتجهيزها ونقلها وتخزينها . ويرتبط بذلك فكرة « الحلال والحرام » لا كما قال حامد عمار ، أن العمل الزراعى الذى يستلزم المجهود الشاق هو العمل « الحلال » لأن المرء يكسب عيشه بعرق جبينه (١) ، بل لأن الذى لا يعمل لا يستحق أن يأكل و « حرام » أن يأكل من مجهود غيره .

إذن فالعمل الزراعى من حيث الاشتراك فى مسئوليته هو الذى « يحلل اللقمة » ومعنى هذا أن العمل الزراعى ليس « حلالا » إذا قورن بغيره من الأعمال ، بل هو حلال من حيث أنه الأساس فى أحقية العيش . حقيقة أن القروى يحتقر كل عمل غير الزراعة ، وخصوصا عمل الأسر المهنية فى القرية، ولكنه لا ينظر الى هذا العمل ونتائجه من حيث الحلال والحرام . فالأعمال مراتب وأكثرها نبلا وقيمة هو العمل الزراعى ، والأعمال الأخرى بالضرورة أقل مرتبة . ولهذا مهما كانت ثروة غير المشتغل بالزراعة فانها

1 - H. Ammar. Op. Cit., p. 21

لا تعادل من حيث القيمة فى نظر القروى الثروة التى تمثلها الأرض الزراعية (١) .

والثانية : أنه غير متخصص ، فلا يقف الفرد نشاطه على ناحية واحدة من نواحى العمل الزراعى بعينها ، بل على القروى أن يتقن جميع العمليات الزراعية ، وأن تكون له القدرة والكفاية والخبرة بكل عملية . وفى بعض الأحيان قد تظهر كفايات خاصة فى الحرث أو عمل الأحبال وغير ذلك . ولذلك قد يترك أمرها لمن يجيدها ، ولكن هذا لا يحمل معنى التخصص ، بل إنه مهارة جزئية بجانب الأعمال الأخرى .

والثالثة : أن العمل فى العائلة مكتف بذاته ، بمعنى أن العائلة نادرا ما تحتاج الى يد عاملة من الخارج وهذا ينطبق على القرية ككل وفى الحالات التى تكون فيها ملكية الأرض فى العائلة فوق طاقة اليد العاملة فيها ، أو انها تزيد على حاجاتها الضرورية فان الفائض تؤجره عائلات أخرى تكون فى حاجة أو تكون اليد العاملة زائدة عن المطلوب . وكقاعدة يمكن القول أن القرية من حيث الكفاية لليد العاملة للإنتاج الزراعى كانت متوازنة . وهذا وضع قد يختلف باختلاف المجتمعات القروية . ففى بعض القرى الصينية مثل لوتس تحتاج الى يد عاملة من خارجها فى أغلب الأحيان (٢) .

والرابعة : أنه قاصر على الرجال ، وهنا نلاحظ أن التقسيم أو التخصص فى العمل الزراعى يمكن أن يكون موجودا على هذا الأساس من ناحية الجنس حيث يقتصر العمل الزراعى فى جميع نواحيه على الرجال . وقد تساهم النساء

1 - Ibid, p. 21

2 - Fei, Chang, Earthbound China, London, 1948, p, 37.

فى بعض فروع هذه العمليات ، ولكن هذه المساهمة فى هـذا الوقت لم تكن واضحة ، كما أنها لم تكن مما تشجعه العائلة .

والخامسة : أن سلطة العائلة المركزية والتدرجية على أساس السن جعلت العبء الأكبر من العمل الزراعى على الشبان أو متوسطى السن . ويلاحظ أنه كقاعدة يعفى كبار السن فى العائلة من الاشتراك فى بعض العمليات الزراعية ويكون لهم دور الإشراف والتوجيه فيصبح بالتالى لديهم فراغ نسبى Leisure ، حتى أنه يمكن القول أن التنظيم العائلى الاجتماعى والاقتصادى فى القرية يؤدى الى وجود طبقة من كبار السن الذين لا يعملون أو كما يسمونهم « طبقة الأعيان » Leisure Class . وهم فى الغالب رؤساء العائلات . وفى هذه الحالة يتميزون بمظهر خاص خصوصا فى الملبس .

والسادسة : إن مسئوليات الأعمال الزراعية تتدرج بحسب السن ، فالأطفال دون العاشرة لهم دور معين ويزداد هذا الدور حتى يصل الى مرحلة المسئولية الكاملة بعد الزواج . وفى هذا الصدد تتشابه القرى من هذه الناحية مع الوضع فى قرية سلوا [1] . فالطفل من سن الخامسة حتى العاشرة يوكل اليه نقل الأتربة على الحمير من الدار الى الحقل أو العكس ، وملاحظة الماشية أثناء الرعى أو أثناء جرها لآلات الري . وبتقدمه نحو العشرين توكل إليه عمليات أكبر وأكثر أهمية . فيشترك فى الرى وتنقية المزروعات وفى اعداد الأرض وفى جنى المحاصيل ... وهكذا . ويلاحظ أن حرث الأرض عملية هامة فى نظر القرويين لا توكل فى الغالب الى الشبان ، بل يقوم بها الرجال من سن ٤٠ . لأن الحرث أو « التقصيب » يتطلب خبرة ومهارة فى التنسيق وقدرة على التحكم .

1 — H. Ammar. Op. Cit., pp. 30-32

والعمل فى الدار قاصر على النساء يشمل اعداد الطعام والخبز وحلب الماشية وإنتاج مستخرجات الألبان ، وقد يشمل الاشراف على تغذية الحيوانات فى أثناء وجودها بالدار ، وتربية الدواجن وحياكة الملابس .

وقد سبق أن أشرنا الى أن مشاركة المرأة فى الأعمال الزراعية قليلة جدا . وقد تقتصر على مراقبة الماشية أو الاشتراك فى جنى المحاصيل . ولكن المظهر المميز فى هذا الصدد أن النساء يحملن الطعام من الدار الى الحقل ، لأن الرجال فى أغلب الأحيان يخرجون صباحا دون أن يتناولوا طعام الإفطار ولا يعودون إلا فى المساء . والطعام المنقول الى الحقل بسيط . ولذلك تعتبر وجبة العشاء التى يتناولونها فى الدار هى الوجبة الرئيسية ، حيث يتناولون الطعام وحدهم وكذلك تفعل النساء . ويلاحظ أن البنات قبل الزواج وبعده بقليل يمنعن من الذهاب الى الحقول ويقتصر عملهن على الأعمال المنزلية .

...

والمهارة فى العمل والإنصراف اليه بالنسبة للرجال أو النساء ليست ذات أهمية إقتصادية بل لها أهمية اجتماعية أيضا . فمن الناحية الإقتصادية ، تكون المهارة فى الرجال عاملا من عوامل تحسين الانتاج وتقليل فرص خفض كميته أو بوار المزروعات وبالتالى يرتفع مركز العائلة التى تكون نسبة مهارة أعضائها عالية . أما من الناحية الاجتماعية فان هذه المهارة تكسب الفرد مركزا هاما وتعطيه قدرا من التمييز عن غيره . أما بالنسبة للنساء فالمهارة فى الأعمال المنزلية بجانب ما لها من أهمية اقتصادية فى تدبير شئون الدار فان لها أهمية اجتماعية خصوصا إذا كانت البنت غير متزوجة ، أما بين الزوجات

فتكون المفاضلة بينهن قائمة على أساس هذه المهارة ومن الأمور التى تعيب على الرجل أو المرأة أن ينسب اليهما الكسل أو عدم المقـدرة أو الفشل .

وعند الزواج يشيرون الى مهارة الشاب فى الأعمال الزراعية وانصرافه التام لها كقيمة لها أهمية خاصة . ومن الطبيعى فى مجتمع يقوم على الزراعة كمهنة أساسية ، يكون مثل هذا النـوع من القيم له أهمية عظمى . كما أن أسرة الفتاة تقيس سلوك الشاب مع ابنتهم على هذا الأساس . فالشاب غير الماهر أو غير المنصرف كلية للعمل الزراعى ، تكون أمامه مناسبات كثيرة للتشاجر مع زوجته أو الزواج بغيرها . والزوجة تفاخر بقدرة زوجها ومهـارته بين الزوجات وتعتبر ذلك من محاسنه . وبعض القرويين قد يكون لهم بجـانب مهارتهم الزراعية ، خبرة بالحيـوانات فى حالة المرض أو الحمل أو الولادة ، ولذلك يعتبر مرجعا فى هذه الأمور للبدنة أو للقرية كلها ، ويقوم بتقـديم المعاونة فى هذه الحالات دون مقابل .

أما الفتاة فان خبرتها بشئون البيت واعداد الطعـام تكون عاملا هاما فى اختيـارها للزواج . ولذلك كان الزواج اقتصاديا من هـذه الزاوية (١) والعائلة تحرص اثناء نمو البنت على تدريبها على هذه الأعمـال ويقال لها دائما لتشجيعها ان عدم اجادتها لها ستخفض من قيمتها عند الزواج « وتبور » . كما أن الأم تكون شديدة الحرص على قيام ابنتها بهذا التدريب على خير وجه ، لأنها تعلم من تجربتها ، أن مركزها فى العـائلة وخصوصا بالنسبة للأم الكبرى يتـوقف الى حد كبير على هذه الإجادة . ولذلك

---

1 — R. Redfield, peasant Society and Culture, Chicago, 1956. pp. 124—125

كانت بعض النساء تشتهر فى القرية عامة بقدرتهن على اعـداد أحسن أنواع الفطائر ، أو انضاج كميات كبيرة من الخبز دون أن يحـدث تلف لرغيف واحد . وهذا يمنى بجانب مهارتها ، وقدرتها على احتمال وهج « نار الفرن » أطول وقت ممكن . ومع أن أمور النساء كانت من المسائل التى لا يتدخل الرجال فيها غالبا ، إلا أنه فى اثناء الخـلافات العائلية تظهر « النقائص » وبالتالى يعرفها الرجال وقد قال لى أحد « المخبرين » أن مهارة المرأة تمتد إلى بناتها ، لأن القرية كانت تعتقد أن المرأة الماهرة تورث ابنتها هذه المهارة ، وبالتالى يكثر الطالبون لايديهن زواجا .

ويلاحظ اثناء تدريب الذكور والإناث على الأعمال المستقبلة ، أن الرجل يقسو على ابنه او ابن اخيه ، ويحاسبه على اخطائه الى حد الضرب ، وكذلك تفعل الأم ، ومع ذلك إذا اجاد احدهما ما يوكل اليه من اعمال فانه لا يقابل بالتشجيع أو الاستحسان ، بل يكون موقف الكبار ازاءه سلبيا ، ولا يكون ايجابيا إلا عند الاخفاق .

وإذا كنت قد ذكرت أن العمل فى القرية غير متخصص إلا على أساس الجنس والسن . فقد كان ذلك لأن العمـل الزراعى هـو أساس الحيـاة الاقتصادية . ولـكن هناك بالنسبة لأصحاب الحرف والمهن نوعا من التخصص على أساس الاشتغال بعمل واحد دون غـيره . فالنجار لا يعمـل فى صناعة الحصير أو النسيج ، وكـذلك البناء يقتصر عمله على البناء . وهكذا . ونادرا ما يعمل هؤلاء فى الزراعة . وأن كان بعضهم فى اواخر فترة ماقبل التغير ، نظرا لإمكان شراء قطعة من الأرض أصبح يزاول مهنتـه الأصلية بجـانب العمل فى الأرض . إلا أنهم مع اشتغالهم بالعمل الزراعى ، لم يتغير مركزهم الإجتماعى أو نظرة القرويين اليهم . فالقـروى يفرق بين الذى يملك أرضا

زراعية وصلت اليه عن طريق الأجداد ، وبين الذى يشترى ارضا لم تكن له من قبل . فوراثة الأرض دليل على الأصل العريق (١) . ولهذا لا تدخل مساحة الأرض التى تملكها العائلة فى تقدير مركزها الإجتماعى .

والعمل يرتبط ارتباطا تاما بالدورة الموسمية . وخصوصا موسم الفيضان. وقد سبق أن أشرنا إلى أن الدورة الزراعية مرتبطة « بالتقويم القبطى » . وأن كان « التقويم الميلادى » يمكن أن يقوم مقامه إلا أن القرويين كانوا قليلى المعرفة بهذا التقويم الأخير . ولهذا تشتد العمالة اثناء مواسم الزراعة والفيضان ، وتقل فى الفترات التى تعقب انبات البذور ، وفى الفترات التى تقع بين دورات الرى واثناء التحاريق . وهذه الفترات تعتبر فترات بطالة مؤقتة ، ولكنها فى الوقت نفسه تشتد فيها الصلات الاجتماعية ، فيمارسون فيها الألعاب المختلفة ، ويستمعون للقصص الدينى أو الفولكلورى أو المواويل . ويتم الزواج فى أغلب الأحيان عقب جنى القطن وبيعه . وفى كثير من الأحيان لا يركن القروى الى البطالة ، بل يقضى الوقت فى غزل القطن أو الصوف واعداد الطوب ، والاشراف الدقيق على الماشية . وبمعنى آخر يمكن اعتبار فترات البطالة المؤقتة هذه فترات يعاود النظر فيها القروى فى الأمور التى تمت قبل ذلك ويعد العدة للأعمال التالية . ويدعم فيها من صلاته الاجتماعية ويضع مشروعات المستقبل كالزواج أو شراء الأرض أو إستبدال الماشية . ويلاحظ أنه فى اثناء الفيضان كانت تلجأ الدولة إلى استدعاء عدد معين من الأفراد من كل قرية للاشتراك فى تقوية جسور النيل . وكان العدد يقسم على العائلات المختلفة التى تلتزم بتقديم نصيبها

1 — H. Ammar. ,Op. cit. , p. 21

من هذا العدد من الافراد . وكانت بعض العائلات ترفض تقديم أحد من اعضائها فتلجأ قوات الأمن الى جبر القرويين على الذهاب بطريقة عنيفة دون مراعاة للعدد النسبى من كل عائلة . ولهذا كان يحدث أحيانا أن يؤخذ من العائلة أغلب اعضائها من الرجال ، بينما لا يؤخذ أحد من عائلة أخرى . وهكذا كان الأمر بالنسبة للأعشاب أو الأخشاب التى تلتزم كل قرية بتقديمها لاستخدامها كسدود أمام المياه المتزايدة .

وقد كان التعاون فى العمل مرتبطا بكثافة العلاقات ومداها . وقد اشرت إلى أن الكثافة والمدى يزدادان فى الوحدات الصغيرة ويقلان فى الوحدات الأكبر . أى أن التعاون يكون واضحا جدا فى العائلة وأقل فى البدنة ، وأقل من هذا بكثير إذا أخذنا مجتمع القرية ككل . والتعاون فى هذه الحالة لم يكن على أساس المصلحة الاقتصادية ، وإنما كان على اساس تبادل الخدمات من وجهة النظر القرابية . ومظاهر هذا التعاون الاجتماعية أشرنا اليها فى الفصل الرابع ، أما مظاهره الاقتصادية فكانت فى المعاونة فى العمل الزراعى خصوصا اثناء موسم الحصاد أو غمر الأرض بالمياه ويمتد هذا التعاون الى « الدواوير » أيضا . وقد يشمل التعاون الأدوات والآلات الزراعية والحيوانات على السواء . وكقاعدة يمكن القول أن التعاون فى العمل الزراعى كان مرتبطا بالنسق القرابى ، حتى أن التعاون خارج حدوده كان أمرا غير مرغوب فيه.

...

يتميز الانتاج فى هذه الفترة بأنه مقتصر على الانتاج الزراعى ، ولذلك كانت الثروة فى أساسها ثروة زراعية ، وللانتاج على هذا النحو خاصيتان:

الأولى : الحرية ، بمعنى أن العائلة تنتج أى نوع من المزروعات حسب حاجاتها وعلى أساس ما ترسمه من خطة فى هذا الشأن ، فلم تكن الدولة تتدخل فى تحديد نوع المزروعات ولا مساحاتها . وبالتالى كان يترك ذلك لصاحب السلطة فى العائلة فيوجه الانتاج حسب ما تقتضيه المصلحة العائلية .

والثانية : المركز والسوق ، بمعنى أن الانتاج كان قسمين ، الأول قسم الاستهلاك العائلى قبل كل شىء . واستهلاك الحيوانات كالقمح والأذرة والشعير والفول والبرسيم وبعض الخضروات كالطماطم والباميا ، والثانى قسم يباع ، والمحصول الأساسى للبيع هو القطن . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تبيع العائلة محاصيل من النوع الأول إذا فاضت بشكل ملحوظ عن حاجتها .

أما الإنتاج المنزلى فلم يكن للسوق ، وإنما كان لاستهلاك العائلة ، كالداوجن ومستخرجات الألبان ، وقد يستخدم أيضا فى المناسبات الاجتماعية المختلفة بتقديمه هدية أثناء الزواج ، أو المساهمة عن طريقه فى اظهار الشعور أثناء المآتم وغير ذلك .

والعائلات كقاعدة تزرع الأرض المخصصة لها ، ولكن فى حالة العائلات التى تملك أرضا تزيد على طاقة اليد العاملة فيها ، فانها تؤجرها لعائلات أخرى نظير حصص معينة من المحصول ، وغالبا ما كانت هذه الحصة تقتصر على محصول القطن وحده وبعض العائلات لم تكن فى حاجة فى حقيقة الأمر لإيجار أرض فوق الأرض التى تملكها . ولهذا كان الايجار فى بعض الحالات يؤخذ على أنه « تأدية واجب القرابة » ولهذا كان العامل

الزراعى فى أواخر هذه الفترة عندما يعمل فى أرض عائلة غير عائلته فى حدود النسق القرابى كان لا يعتبر عمله هذا طريقة لكسب معاشه ، وإنما يعتبره مساعدة ومساهمة لهذه العائلة فى الانتاج الزراعى .

والانتاج على هذا النحو جعل العائلات جميعاً من حيث توفير الحاجات الضرورية للمعيشة مكتفية بذاتها ، ولهذا كان من النادر أن يتم تبادل بينها فى مواد الغذاء وإذا تم تبادل على نحو ما ، فانه لا يكون فى حاجة اقتصادية وإنما لتدعيم صلات التعاون واظهار المودة ، فى مختلف المناسبات [1] . فالذى يتزوج ترسل العائلات لعائلته أنواعا مختلفة من المواد الغذائية ليست فى حقيقة الأمر فى حاجة إليها ، وإنما لها دلالة اجتماعية تعنى قوة الروابط التى تربط العائلات . وقد يحدث حين تكون بينهما علاقات وفاق وتعاون متبادل أن يشتد هذا المظهر التبادلى فى المناسبات المختلفة ، ولا يقتصر على الزواج ، بل وعلى المآتم أيضا والمناسبات الدينية الأخرى .

ويلاحظ أن عناصر الإنتاج المختلفة كانت متوفرة محليا عند كل عائلة ، فالأرض معروفة ومقسمة ، تختص كل عائلة بقسم منها ، والعمل متوفر عن طريق أعضاء العائلة ، وكما أشرنا من قبل ، لم تكن العائلات فى الغالب تحتاج الى يد عاملة خارجها إلا فى أحوال قليلة ولأسباب تعاونية قرابية فى نهاية الأمر . أما رأس المال فقد كان متوفرا أيضا لأنه ليس رأسمالا نقديا ، بل هو

---

1 — Ogburn, Nimkoff, Handbook of Sociology, London, 1955. p. 404

ويلاحظ أن التبادل على هذا النحو يكمله تبادل الهدايا الملزمة ، التى كانت عبارة عن معاملة اقتصادية ولكن على مستوى اجتماعى .

عينى يتمثل فى الحيوانات المستخدمة فى العمليات الزراعية المختلفة والبذور التى كانت تحجز سنويا من المحاصيل القديمة والأدوات الزراعية موجـودة أيضا متوفرة ومتوارثة ، ولم تـكن العائلة فى حاجـة الى شىء خارجها سوى « بذور القطن » وهذه كانوا يحصلون عليها من تجار متجولين عن طريق المبادلة بمنتجات زراعية أخرى .

وقد كان التبادل هو الأساس الأول فى المعاملات الاقتصادية . فالحاجات القليلة التى يحتاجونها كانت تتوفر داخل القرية أما عن طريق « البقـال اليونانى » أو التجار المتجولين الذين كـانوا يطوفون القـرى فى فترات منتظمة . وهذه كـانوا يحصلون عليها عن طريق المبادلة . كما أن مقـابل الخدمات المهنية لأصحاب المهن والحرف كـان يدفع عينا فى مواسم الحصاد. ويلاحظ ان الدفع كان يقتصر على المحاصيل الاستهلاكية دون القطن . وتتفاوت كمية مايعطى لهؤلاء بتفاوت المركـز الاقتصادى للعائلة،وباختلاف حجمها (١) . فالعائلات « الغنية » كـانت تعطيهم كميات أكبر من غيرها خصوصا فى حالة النجار والبناء والحداد ، لأن كبر مساحة الأرض الزراعية تقتضى زيادة فى الآلات الزراعية وسعة فى حجم المسكن ، والحـلات الحقلية » كحظائر الماشية ، وهذا يعنى زيادة فى عمل هؤلاء . أما اختـلاف الحجم وأثره فى كميـة « العطـاء » فهذا يظهر على الأخص فى حـالة « الحلاق » ، لأن زيادة أعضاء العائلة خصوصا من الذكور يقتضى زيادة فى عمله وهكذا. ومع أن ما تعطيه العائلات للمهنيين كان لقاء خدماتهـم ، ألا أنهم يعتبرونه مع ذلك مساعدة أو صدقة أو زكاة فى بعض الأحيان . وهـناك

1 — Nots and Queries an Anthropology (Gth ed.) London, 1951, p. 159

استثناء واحـد من هذه القاعدة فى حـالة « الطبال » فقد كان يأخـذ من العائلات كميات متفاوتة من المحاصيل بحسب قدرتها الاقتصادية قبل كل شىء. ولـكنه فى المواسم والاعياد كان يتلقى مأكولات ، خصوصا فى « عيد الفطر » عقب ما أداه من عمل فى ايقاظ القرية لتناول طعام السحـور طوال شهر رمضان ، ولا يقتصر عمله على ذلك ، بل إنه يقرع الطبل أمام الجنازات وهذا الاستثناء قد ينطبق فى بعض الحالات على « المولدة ـ الداية » عنـد الولاده ، أو الحلاق عند الطهارة .

أما النقود التى كانوا يحصلون عليها من بيع القطن فـكانت تدخر لعدة مناسبات كشراء الأرض أو دفع بدل التجنيـد أو الوفاء ببعض الضرائب أو فى المهور . والقروى كان يفضل النقود الذهبية ولا يثق كثيراً بالأوراق المالية . لأنه يعتقد أن قيمة الذهب باقيـة ويمكن حفظه واخفاؤه ، أما النقود فقيمتها متغيرة ويمكن أن تتعرض للبلى . وكان استخدامها فى الشراء نادراً جدا (١) . والقاعدة أن تخفى العائلات مدخراتها المالية وتظهر دائما عدم وجود نقود من أى نوع لديها . ما خلا الذهب التى تتحلى به النساء لأنه ظاهر أمام الجميع . حتى أن أعضاء العائلة ماعدا الأب الأكبر والأم الكبرى، كانوا لا يعلمون عن وجود نقود موفرة لدى عائلتهم ، وإذا عرفـوا فانهم لا يعلمون كميتها بالضبط . وعندما تقترب نهاية رئيس العائلة فانه يخبر ابنه الأكبر بمكان النقود وعددها . والتى كـانت توضع غالـبا فى أوان من الفخار وتدفن فى باطن الأرض ، أو فى مكان يقوم عليـه حائط ، أو فى الحائط نفسه . وقد ظلت بعض الأسر حتى الآن تسير على هذه القاعـدة .

1 — M. N. Srinivas, The Social System of A Mydro Village, in Village India, ed. by Marriot, Chicago, 1956, pp 12 - 13.

ولكنهم يدخرون أوراقا مالية من فئة ٥٠ أو ١٠٠ جنيه ولم يعلموا بالقانون الذى صدر أخيرا بالغاء هذه الأوراق . فضاعت مدخراتهم . وكقاعدة يمكن القول أن العائلة كانت تفضل المبادلة ما أمكن ذلك دون استخدام النقود واسطة فيها .

. . .

ويرتبط التوزيع Distribution بالعائلة القديمة وخصائصها . ولهذا لم يكن هناك توزيع بالمعنى الاقتصادى الحديث . فالانتاج على نحو ما أشرنا إليه كان يتم بصوره جمعية ، والعاملون فيه كانوا وحده غير متميزة من الناحية الفردية ، والأساس أن يبذل الشخص غاية الجهد لا لمصلحته الخاصة بل لصالح العائلة . فالعائلة كانت الهدف الأول للانتاج ، وبالتالى كان التوزيع عائليا . ولهذا لم يكن أى عضو فى العائلة ينتظر جزءا معينا على مشاركته فى العمليات الانتاجيه (١) . أما الكميات الضئيلة من المحاصيل التى كانت تعطى مقابل خدمات أصحاب المهن والحرف المختلفة فى القريه ، فانها لا تأخذ مظهر التوزيع بالمعنى السابق ، نظراً لارتباط هذا المظهر بالمركز الاجتماعى ، أكثر من ارتباطه بالأهداف الاقتصادية .

فالثروة هى ثروة العائلة ككل ، وكذلك المحاصيل التى توضع فى مكان مخصص لها من الدار ويؤخذ منها بحسب حاجة العائلة ، ويشرف على ذلك الأم الكبرى بمشاورة زوجها فى أغلب الأحيان . ويلاحظ أنه من غير الممكن فى الاقتصاد العائلى الفصل بين الاستهلاك والتوزيع . فمظاهرهما متداخلة .

1 — Notes; Op. Cit., p. 168

فالاستهلاك مثلا يقوم أيضا على أسس عائلية ومن وجهة نظرها بحسب القيم المختلفة المرتبطة بمركزها الاجتماعى ونظرتها للمستقبل . ولهذا قد يخصص جزء لا بأس به عن دخل العائلة للمناسبات العامة أو لإظهار الكرم . لأن الكرم فى حد ذاته بالرغم من الأعباء الاقتصادية التى قد تتحملها العائلة بسببه ، مرتبط بسمعتها ومركزها الاجتماعى . ولذلك تحرص العائلة أن تظل سمعتها موضع التقدير فتبالغ أحيانا فى ظاهرة الكرم حتى لو كان هذا على حساب مدخراتها . ويلاحظ أيضا التوزيع والاستهلاك فى العائلة لا يكون على أساس مقدار العمل المبذول فى العمليات الانتاجية ولكن يقوم على أساس الحاجة . وهى التى تحدد الكميات المستهلكة وطريقة استهلاكها . ولم يحدث أن ميزت العائلات بين أعضائها على أساس العمل فى هذه الناحية . ومثال ذلك أن يكون جل إنجاب أحد أعضاء العائلة من الإناث الذين لا يشتركون فى العمليات الزراعية . فلا يعنى هذا تميزهم عن غيرهم ، بل إنهم جميعا من ناحية التوزيع والاستهلاك يكونون على قدم المساواة .

وإذا نظرنا إلى الاستهلاك من الناحية الاقتصادية الحديثة لوجدنا أن الدخل الحقيقى للعائلة يتكون من المحاصيل الاستهلاكية والمحاصيل النقدية كالقطن ، أما الانتاج الحيوانى ، فانه لا يدخل كثيرا عند تقدير دخل العائلة . فالزراعة هى المصدر الأول للثروة . والمحاصيل الناتجة هى التى تكون مجموع الدخل السنوى . وكقاعدة يمكن القول أن المحاصيل الاستهلاكية تستنفذ جميعا أثناء العام . أما الدخل الناتج من بيع القطن فهو الأساس الأول فى مدخرات العائلة ، أو هو الذى يمثل من وجهة نظر معينة فائض الانتاج . ولهذا تتفاوت العائلات على أساس مساحة الأرض الزراعية التى تملكها من هذه الزاوية ، فبعضها ـ خصوصا اذا اعتبرنا أن حجم

العائلات يكاد أن يكون واحدا — يخصص نسبة كبيرة من الأرض لزراعتها بالمحاصيل الاستهلاكية والباقى يخصصه للمحاصيل النقدية . ولهذا تتفاوت نسب الادخار أو الفائض على أساس تفاوت توزيع الملكية . فكلما زادت الملكية زاد الفائض ، وكلما قلت قل الفائض وهكذا . والعائلات تدبر زراعتها وانتاجها على أساس سياسة غير مرسومة . ولكن على أساس اكتفائها الذاتى . فعدم حاجة العائلة من حيث مواد الغذاء الى عائلات أخرى مسألة تحرص عليها كل الحرص . ولهذا تكون السياسة الزراعية متمشية تلقائيا مع هذه النزعة . والجدول (١) الآتى يكشف عن هذا الإتجاه من حيث الاتجاه الى كفاية العائلة من حيث مواد الغذاء بناء على مساحة الأرض الزراعية لكل عائلة على أساس تماثل الحجم :

المحاصيل	عائلة غنية ٧٠ ف	عائلة فوق المتوسط ٢٠ ف	عائلة متوسطة ٢٠ ف	عائلة فقيرة ٥ ف
أرض مؤجرة	٣٠ ٪	١٥ ٪	—	—
القطن	٤٢ ٪	٤٩ ٪	٤٩ ٪	١٠ ٪
الأذرة	١٥ ٪	١٨ ٪	٣٩ ٪	٦٥ ٪
القمح	٥ ٪	٨ ٪	٤ ٪	١٥ ٪
الفول	٥ ٪	٦ ٪	٣ ٪	٧ ٪
البرسيم	٣ ٪	٤ ٪	٥ ٪	٣ ٪

(١) مضمون هذا الجدول تقديرى من حيث تقسيم العائلات ونسب الارض المزروعة والمؤجرة اعتمدت فيه على رواية المخبرين .

ومن هذا الجدول يتضح أن كل العائلات على اختلاف توزيع الملكية فيها كانت تزرع القطن لأنه المحصول النقدى الوحيد . والعائلة مهما كان مركزها الإقتصادى كانت تميل الى زراعته ولو على حساب المحاصيل اللازمة لغذائها وحاجتها الرئيسية وحاجة الحيوانات العاملة فى الزراعة وهذا يوضح قيمة النقود من حيث انها تمثل قيمه فى حد ذاتها والقروى يميل الى الأدخار ما كان ذلك فى استطاعته ولو لكميات محدودة جدا . فبتوالى الزمن تكثر لديه الأموال « حط القرش على القرش يبقى جنيه » ، « القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود » .

كما أنهم يزرعون نسبا تكاد أن تكون متساوية من الأذرة ، لأنه يكون الأساس الأول فى صنع الرغيف وعادة لا يستعملون دقيق القمح إلا فى الأعياد والمناسبات ومن مظاهر الكرم أن يصنع الخبز من هذا الدقيق لتقديمه للزائرين أو الغرباء ، فى المناسبات الدينية وأوقات إحياء الشعائر والموالد . كما أنه ذا قيمة كبرى فى المبادلة ، فالتاجر المتجول يرفض أن يبادل بالأذرة وإنما يفضل القمح الذى يسمى بين القرويين « غلة » . ويلاحظ أيضا اتفاق نسب الأرض المزروعة بالمحاصيل الإستهلاكية بحسب حجم الملكية ، وهذا يؤيد النزعة الى الاكتفاء الذاتى فى هذه الناحية ، أما الفول والبرسيم فجميع العائلات تزرعها لأنها غذاء الماشية الأساسى . والماشية مهمة جدا لدى القروى لأنها رفيقته فى العمل ، ومصدرا — عن طريق البانها — مهما فى الغذاء .

إذن فالملكية وحجم العائلة لا يحددان نوع المحاصيل . وأن العائلات جميعا يزرعون نفس الأنواع — وانما تحدد المساحات التى تزرع من كل نوع ، ويكون الهدف النهائى هو الاكتفاء الذاتى والأدخار عن طريق

فائض الإنتاج النقدي وهو القطن . ولذلك تتشابه العائلات من حيث النشاط الإقتصادى وتختلف من حيث نتائجه على أساس الملكية .

ويرتبط بهذا التخطيط الاقتصادي البسيط للانتاج الزراعى مسألة مستوى المعيشة ويلاحظ هنا أن البساطة وقلة الحاجات كانت القاعدة التى تسير عليها الحياة فى جميع العائلات بغض النظر عن حجم الملكية . فالإهتمام الأول كان منصبا على الغذاء ، والعائلة تعمل للوصول إلى الكفاية الذاتية من هذه الناحية . ولهذا كان تقدير مستوي المعيشة لا بد أن يؤخذ فيه بعض هذه الملاحظات . كما أنه لم تكن هناك منافسات ظاهرة فى هذا الصدد ، أو تمايزا ملحوظا . وفى حساب مستوي المعيشة المحلى يحسب مجموع الدخل من المحاصيل الاستهلاكية والنقدية ، ونسبة المنصرف منه على الحاجات المتعددة على النحو الآتى : (١)

مصادر الانفاق	عائلة غنية ٧٠ ف	عائلة فوق المتوسط ٤٠ ف	عائلة متوسطة ٢٠	عائلة فقيرة ٥ ف
الغذاء	٣٥ ٪	٤٩ ٪	٥٩ ٪	٦٨ ٪
الملابس والحلى	١٥ ٪	١٢ ٪	٧ ٪	٤ ٪
الضرائب	١٠ ٪	١٠ ٪	١٠ ٪	١٠ ٪
المهور	١٠ ٪	٨ ٪	٦ ٪	٥ ٪
الخدمات	١ ٪	١ ٪	١ ٪	١ ٪
السلع	٤ ٪	٤ ٪	٤ ٪	٤ ٪
متنوعات	١ ٪	١ ٪	١ ٪	١ ٪
مجموع	٧٦ ٪	٨٢ ٪	٨٨ ٪	٩٣ ٪

١ ـ هذا الجدول مثل الجدول السابق من حيث المضمون والاعتماد فيه على رواية المخبرين .

وهكذا نلاحظ أن نسبة عالية من ميزانية العائلة كانت تصرف على الغذاء ، الذي يمثل فى واقع الأمر المحاصيل الاستهلاكية كالقمح والأذرة والفول والبرسيم ، كما يلاحظ إرتفاع هذه النسبة كلما صغرت مساحة الأرض الزراعية التى تملكها العائلة . أما الضرائب فكانت تجبى من العائلات بنسب واحدة تتفق مع مساحة الأرض ولذلك كانت نسبتها واحدة فى جميع المستويات ، وهذا أيضا ينطبق على الخدمات والسلع والمتنوعات ويلاحظ أن العائلة الغنية تعنى بملابس أعضائها ، ولعل الفرق بين العائلات فى الملابس وفى المهور هو الذى يكشف عن إختلاف مستويات المعيشة أو يمايز العائلات بعضها عن الآخر من هذه الزاوية . وقد كان من الصعب على أن أحصل على معلومات دقيقة عن مكونات الغذاء لأنها تعتبر كشافا هاما فيما يتعلق بمستويات المعيشة ولكن « المخبرين » أجمعوا على أن التنوع فى الغذاء لم يكن قاعدة . فقد تتنوع العائلات الفقيرة دون الغنية أو العكس ولكن الواقع أنه لم يكن هناك خلاف كبير بين العائلات فى هذه الناحية (١) . فأصناف الغذاء المستمدة من خضروات الأراضى واحدة ، والمرات التى يأكل القروى فيها اللحوم تكاد أن تكون معدودة ومرتهنة بالمناسبات المختلفة ، أما ذبح الدواجن فقد كانت كل العائلات تفعل ذلك لتوفر هذا عند الجميع وكذلك بالنسبة لمستخرجات الألبان . وقد قال لى أحد « المخبرين » ما معناه أن مستوى المعيشة لم يكن ليظهر فى طريقه حياة العائلة الداخلية ، وانما كان يظهر خصوصا عند وجود « الضيوف أو الغرباء أو فى المناسبات أو الموالد ، حيث يمكن تبين الأختلاف بين العائلات من هذه الناحية . وعلى ذلك يمكن القول أن ، « ظاهرة الكرم والضيافة » تعتبر عاملا مهما فى قياس

1 — N. Yung, A chinese village, London, 1947, p.32 .

مستوى المعيشة فى القرية فى هذه الفترة ، والواقـــع أن العائلات تشترك فى هذه الظـاهرة ولـكنها تتمايز تمايزا ملحوظا من حيث التردد أى الـكثرة ، ومن حيث المواد الغذائية أو غيرها التى تقدم فى هذه المنـــاسبات . كما أن العائلات نفسها كانت تربط بين هذه الظاهرة وبين مركزها الإقتصـــادى والإجتماعى .

...

وهكذا يتبين أن الحياة الاقتصادية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتنظيم العائلى، حتى يمكن أن نصف الاقتصاد فى هذه الفترة بأنه كان اقتصادا عائليا . فعمليات الانتاج المختلفة وتقسيم العمل والسلطة الانتاجية وطريقة الاستهلاك والتبادل ومصادر الإدخار وأهدافه ، كل هذا كان يقوم على أسس عائلية . حتى انه ليس من السهل الفصل بين دور الفرد الاقتصادى وبين دوره الاجتماعى فكلاهما مظهر للآخر . كما أن القيم المرتبطة بالحياه الاقتصادية كانت فى واقع الأمر قيما اجتماعية « ولم يكن العمل الزراعى » نوعا « من العمـــل لـكسب العيش بل هو طريقه فى الحياة . كما أن أدوات العمـــل وطرقه كانت جزءا من التراث الذى ينتقل عبر الأجيال فسيكون لهما القدسية والاحترام .

وعلى أساس العرض السابق لمظاهر الحياة الاقتصادية يمكن ابراز خصائصها كما يلى :

١ ـ البساطة :

تبدو بساطة الحياة الاقتصادية فى قيامها على نوع واحد من العمل وهو العمل الزراعى ، فمن المسلم به أن الحياة الاقتصادية لا تتعقد إلا إذا تنوعت

الأعمال وتشعبت العلاقات التى تقوم على هذا التنوع . ولا تقتصر البساطة على نوع العمل ، بل أن الانتـــاج نفسه بسيط أيضـــا والأدوات المرتبطة به تمتاز بنفس البساطة . ولهذا لم يكن للزمن قيمة إلا فى المدى الطـويل الذى يمتد الى فصل من السنة بأ كمله ، ومهما بذل القروى من جهـد فان هذا لا يدعوه الى مناقشة كـفاية الوسائل المستخدمة فى الزراعة أو إمكان وجـود غيرها يؤدى نفس الغرض فى كفاية وبأقل مجهود ممكن . ويلاحظ أن العمليات الإنتاجية اللازمة للزراعات السائدة فى هذا الوقت لم تـكن معقـــدة ولا تتطلب مهارات من نوع خاص ، كما أن المزروعات كانت من النوع الذى لا يتطلب تمهدا ورعاية مستمرين . وتبدو بساطة القرويين وعدم استعدادهم لمواجهة التعقيد فى حياتهم الاقتصادية أو الاجتماعية فى المثـل المشهور « اف سنة ولا تخطى قنا » . أى قناة . ويرتبط مظهر البساطة هذا بالنزعة القومية الى المحافظة على القديم لأنه أثبت على مر الزمن كفايته لتحقيق الأغراض المتوخاه فى الحياة الاقتصادية ، ومن هنا كانت المعـــارضة الشديدة لكل تجديد . فالتجديد سيهدد الانتظام الذى تسير عليه الحياة والذى استقرت على أساسه طرائقهم فى العمل . والبساطة على هذا النحو نتيجة للتوازن النسبى فى المدى الطويل بين المطالب والحاجات وطرق اشباعها وبين الحياة الاجتماعية وهذا التوازن هو الذى جعل « القرية » عاملا محافظا فى التغير الاجتماعى إذا كان التغير يعنى فى جوهره تغييرا فى العلاقة بين طرق الأشباع وبين الحياة الاجتماعية (١) .

---

1 — R. Redfield, Peasant Society and Culture; chicago,1956 P. 137

٢ - التجانس :

لعل صفة التجانس (١) هى التى تميز المجتمعات ذات المهنـة الواحدة عن المجتمعات متعددة المهن . وهذا هو الذى أعطى دوركيم فـكرة الآليـة والعضوية (٢) للتفرقة بين المجتمعات البسيطة والمجتمعات المعقدة . ففى حالة التجانس يترابط أعضاء المجتمع الواحد ترابطا آليا خصوصا إذا كـان نوع العمل واحد بالنسبة للجميع ، أى أنهم متجانسين من هذه الناحية . أما فى حالة اللاتجانس فان أعضاء المجتمع مترابطون ترابطا عضويا على أساس تقسيم العمل وقيام كل فئة بنوع معين منه يكمل الأنواع الأخرى ، وبذلك يكون أعضاء المجتمع كأعضاء الجسم كل منهم يؤدى وظيفة خاصة ، ولـكنهم جميعا يتساندون على قيام الكائن (المجتمع) بوظائفه الـكلية واستمرار الحياة .

وفى القرية يعمل الغالبية فى الزراعة ، وهى أيضا طريقتهم فى الحيـــاة . ولذلك كان انقسام العائلات الى وحدات متمايزة داخل البدنات لا يحمل معنى عدم التجانس وإنما كـان نتيجة لنسق القرابة الذى يميز مجموعات القـرية كل عن الآخر . ولـكن فى غير ذلك فالجميع يعملون فى الزراعـة ، وهى تعنى نفس الشيء للجميع دون استثناء .

الصفات الثقافية أنظر:

١ - التجانس هو الصفة المميزة للسكان خصوصا عندما يبدو عليهم تشابها بيولوجيا أو فى السمات الثقافية أنظر :

H. P. Fairchild, Dictionary of Sociology, New York, 1944, p. 245

S—L. Durkhein, The division of Labour in Society, trans, by G. Simpson, Illinois, 1949, pp. 70-133.

والبحث يؤدى إلى معرفة تشابه العمل وتقسيماته وأهدافه والقيم الاجتماعية المتعلقة به ، وكـذلك فيما يتصل بالانتاج ، أنواعه وطريقة استهلاكه أو توزيعه . أى أن الحياة الاقتصادية القائمة على الزراعة ، والمرتبطـة بالتنظيم العائلى واحدة فى كل أنحاء القرى . حتى أن دراسة وحدة عائلية تكفى لالقاء الضوء على طبيعة الحياة الاقتصادية وارتباطها بالحياة الاجتماعية .

ولـكن تجانس الحياة الاقتصادية لم يؤد فى الفترة القديمة الى شعور يشبه شعور الطبقة الاقتصادية أو الاجتماعية الحديثة ، نظرا للترابط الوثيق بين الحياتين الاقتصادية والاجتماعية . خصوصا وأن العمل فى أساسه كـان ينظر اليه على أنه يؤدي فى نهاية الأمر أهدافا اجتماعيـــة . ويحقق القيم العائلية .

وقد أشرنا من قبل أن الأبعاد الاجتماعية بين القرويين أبعادا قرابـية . وأن القروى يشعر بالإنتماء الى النسق أكـثر من شعوره بالإنتماء الى القرية أو الى طبقة اقتصادية معينة . فمركـز الفرد كان يتحدد على أساس مركـزه ودوره فى حدود النسق القرابى أكـثر من تحدده على أسس اقتصـادية أو اجتماعية أخري . ومع ذلك فالفواصل القرابية لا تعتبر عوامل ولا تجانس بين القرويين ، لأن نظرتهم العامة من هذه الناحية متشابهة . ولهـــذا يمكن القول أنه بالنظر الى الحياة الاقتصادية القائمة على العمـــل الزراعى المتشابه ، والحياة الاجتماعية القائمة على الإنتماء الى النسق القـــرابى . فان القرية كـكل كـانت متجانسة من هذه الناحية . والحالة الوحيدة ، التى يشعر القـروى بمشابهته المطلقة لقروى آخر هى عند المقارنة بينه كمشتغل بالزراعة وغيره ممن لا يعملون فيها كأصحاب المهن والحرف . وهى أيضا المظهر الوحيد لعدم

التجانس في القرية . ولكن نظرا لقلتهم دونما آلة تأثيرهم في حياة القرية ككل فانهم لا يؤثرون في صفة التجانس هذه .

إن تشابه السمات الثقافية Cultural Traits سواء ما تعلق منهـا بالانتاج الزراعي والعمل وأدوات الانتاج وأهداف الحياة الاقتصادية عامة والقيم المتعلقة بها الى جانب تشابه التنظيم العائلي المرتبط بهذا كله ، هو الذي أدى الى حالة التجانس . وبهذا كان هـذا التجانس ثقافيا أكثر منه بيولوجيا أو عنصريا ، لأنه من الصعب أن نعرف بالضبط أصول البدنات .

٣ - الملكية :

تقوم الحياة الاقتصادية على أساس التعاون في دائرة القرابة الأولى وهي العائلة ، كان من أهم مميزاتها . ولهـذا كانت الملكية الفردية بالمعنى التقليدي المعروف غير واضحة تماما . فقد يملك الفرد بعض الحاجات الشخصية كالملابس ، ولكن الأرض ووسائل الانتاج كانتا ملك العائلة . ومع أن الفرد يعلم أنه على أساس نظام الوراثة الاسلامي فانه يمكـن أن تكون له قطعة مستقلة من الأرض باسمه بعد وفاة والده ، إلا أن هذا التفكير لم يكن ظاهرا ولم يؤثر في نماذج السلوك الفردية أو في مظاهر الحياة الجمعية التي كانت تعيشها العائلة . ولهذا لم تكن بواعث العمل ذات أساس فردي بمعنى ، أن أعضاء العائلة لا يعملون بجد في الأرض ، لأنهم سيحققوا كسبا ماديا لكل منهم ، بل كانوا يعملون كوحدة والعائلة . وقد كانوا يعتقدون أن هذا المظهر الجمعي للحياة الاقتصادية هو النموذج الذي يحقق جميع المطالب ويشعر الأعضاء جميعا بالأمن.

٤ - الحاجة والمركز والسوق :

لم يكن الانتاج قاصرا على توفير الحاجات الضرورية المعيشة أي أن حياتهم الاقتصادية لم تكن وقفا على توفير الحد الأدنى اللازم للمعيشة ، بل يلاحظ أن العائلة كانت « تخطط » الانتاج ليفي بمطالبها العاجلة والبعيدة ليحقق القيم التي يؤمنون بها . وقد لاحظت مرجريت ريد Margaret Read أن الناس في أي مجتمع لا يستهلكون ما تقع عليه أيديهم ولا يتجاوز الحد الأدنى اللازم للمعيشة مع بذل أقل جهد ممكن لأن الإنسان كائن يتعقل الأشياء (١) ولهذا كان من الضروري أن نبحث في كل مجتمع عن القيم والاتجاهات التي يتوخاها الناس في حياتهم الاقتصادية وما يرسمونه للمستقبل والجهد الذي يبذلونه لتحقيق انتاج المواد المختارة .

وقد أشرنا من قبل أن العائلة تنتج نوعين من المحاصيل : الأول محاصيل الحاجة ، والثاني محاصيل السوق ، فالأول يحقق مطالبها المباشرة ويستخدم لأغراض اجتماعية أخرى كاظهار الضيافة والكرم وفي حالات التعاون الملزم كما سنبين ذلك فيما بعد . وهذا النوع هو الذي يحقق العائلة الاكتفاء الذاتي . والثاني يحقق ما تخططه العائلة لمستقبلها ، ويسهم في تدعيم القيم القروية العامة . ومع أنه كان « محصولا نقديا » إلا أن إنتاجه لم يكن بقصد التجارة ، وإنما الحصول مباشرة من بيعه على « النقود » . ولهذا كانت العمليات التجارية سريعة ومباشرة ولا تؤدي الى قيام نوع من

---

1 — M. Read, Native Standards of Living and the African Culture Chang.., p. 11 quoted by. H. Ammar, Op. Cit , p 55

النشاط التجارى يمكن أن يميز الحياة الاقتصادية بجانب العمل الزراعى .

أما من حيث المركز، فقد كان الانتاج مرتبطا بمساحة الأرض الزراعية التى تملكها العائلة ومرتبطاً أيضا بحجمها . ولهذا كان مما يرتبط بسمعة العائلة أن يكون إنتاجها من المحاصيل الاستهلاكية أو « محاصيل الحاجة » يزيد على ما تحتاجه فعلا بحيث يمكن أن تستخدم الفائض فى أغراض اجتماعية كحالات التعاون الملزم أو إحياء الشعائر الدينية أو اظهار الكرم والضيافة، كما يكون انتاجها من المحاصيل النقدية « محاصيل السوق » محققا لفائض نقدى تستطيع أن تشترى به أرضا جديدة . أو تكون لديها القدرة على لإعفاء أعضائها من الجندية عن طريق دفع البدل المطلوب ، أو تجنبهم العمل فى السخرة ، يدفع مقابل هذا العمل . وكقاعدة يمكن القول أنه كلما زادت المحاصيل النقدية أو محاصيل السوق كلما دل ذلك على زيادة مركز العائلة واكتفائها من حيث الحاجات الضرورية .

٥ - التعاون الملزم :

كان لقيام البدنة فى القرية وحدة مستقلة على أساس النسق القرابى محددا للتعاون بين العائلات فى الحياة الاقتصادية . وكقاعدة يمكن القول أن التعاون كان تعاونا على أساس المركز القرابى . ولهذا لا نجد أثرا للمصلحة بالمعنى الحديث فى صلات العائلات بعضها بالآخر من هذه الناحية . فالتعاون يحقق أهدافا اجتماعية أكثر من تحقيقه لأهداف اقتصادية . وهو يعتبر مظهراً لقوة الروابط التى تربط العائلات وشعورها « بالواجبات الاجتماعية الملزمة » تجاه بعضها الآخر .

والتعاون الملزم يظهر فى ناحيتين : العمل والهدايا الملزمة . فمن حيث العمل يلاحظ أن إعداد الأرض للزراعة أو جنى المحاصيل ونقلها الى القرية لم يكن يتم فى وقت واحد فى القرية ، بل يتم فى فترات متقاربة . ومعنى هذا أن تفرغ بعض العائلات قبل الأخرى من هذه العمليات والقاعدة أن تعير العائلة التى تسبق بعض أعضائها لمساعدة عائلة أخرى . وفى هذه الحالة تنتظر أن تقوم العائلة الأخيرة بنفس النوع من المساعدة فى حالات مماثلة . ويتم هذا التعاون فى حدود البدنة ، ونادرا ما يخرج هذا التعاون عن دائرة القرابة . وكقاعدة لم يكن التعاون الخارجى فى العمل أمرا مرغوبا فيه . وقد يمتد التعاون فى هذه الناحية الى استخدام وسائل الانتاج المادية والحيوانية أيضا .

ويلاحظ أن التعاون لم يكن أمرا موكولا للفرد ، بل أن سلطة العائلة هى التى توافق عليه وتعمل على تنفيذه . ولهذا قد يختفى التعاون فى حالات الخلاف بين العائلات . ولا يقتصر هذا المظهر التعاونى على العمل الزراعى ، بل يمتد الى الدار أيضا ، فيتم التعاون بين نساء العائلات فى استعارة بعض الأدوات وخاصة أثناء اعداد الخبز ، فقد تستخدم عائلة « فرن » عائلة أخرى فى عمل الفطائر أو تسخين الخبز ، أى فى الحالات التى لا تستدعى فرن العائلة الخاص على نطاق واسع . ويبدو المظهر القرابى للتعاون واضحا فى القرية أو الحقل خصوصا فى حالة العائلات التى تجاور عائلات أخرى فى المسكن أو الحقل . وينتمين الى بدنات مختلفة . والقاعدة أن يقل التعاون الى الحد الأدنى أو ينعدم كلية . ولا يكون للجوار أى إلزام اجتماعى من هذه الناحية .

أما الهدايا الملزمة فهى ظاهرة هامة فى حدود النسق القرابى أيضا . والقاعدة

أن تهدى عائلة من نفس البدنة عائلة أخرى بعض المنتجات الزراعية أو مستخرجات الألبان أو الطعام فى حالة المرض والوفاة والزواج « والطهارة » الختان . وتنتظر بدورها مثل هذه الهدايا فى حالات مشابهة . والتهاون فى المعاملة بالمثل فى هذه الحالات يؤدى الى خلافات كثيرة قد تسفر عن قطيعة ولكن الملاحظ أن العائلات كانت تحرص على تبادل الهدايا لما لها من أهمية اجتماعية فى اظهار التضامن . وفى المناسبات العامة التى تشترك فيها البدنة كالموالد واحياء الشعائر الدينية ، تشترك العائلات فى « النفقات » عن طريق التعاون الملزم لكل عائلة وقد يحدث أن تنفذ من عائلة مخزونها من الأذرة مثلا قبل نضج المحصول الجديد ، فتقدم لها العائلات الأخرى ما تحتاجه على أن ترده فيما بعد . إذن فالتعاون الملزم وإن كان يقوم فى جوهره على التبادل ، الا أنه يحمل فى مظهره تضامن البدنة ككل ، ويظهر الواجبات المترتبة على علاقات القرابة .

٦ ـ القناعة Contentment

القناعة كقيمة مرتبطة بطبيعة الحياة الجمعية الاقتصادية والاجتماعية على السواء : فالقروى لا يعمل من أجل مصلحته العامة ، وإنما من أجل العائلة ، ولا يبذل أقصى الجهد فى العمل الزراعى ليضمن لنفسه الحاجات الضرورية أو ما يزيد عليها ، بل ليضمن لغيره الكفاية من هذه الناحية . ولهذا كانت العائلة تبرز القيم الجمعية وتحقر القيم الفردية وترتبط القناعة من حيث هى الرضا بالأمر الواقع ببساطة الحياة وبساطة المطالب وقلة كثافة العلاقات وضيق مداها وهى هنا مرتبطة أيضا ببعض العقائد الدينية . ولهذا لا نلحظ على الحياة الاقتصادية جريا وراء المصالح وسعيا يصل الى مرتبة التنافس الاقتصادى الحديث للحصول على المنابع المادية ، أو تغيير الوضع

الاقتصادى تغيرا ملحوظا . فالظاهرة العامة أن القرويين قانعون بما « قسمه الله » لهم وراضون به . ولذلك لا توجد علائم القلق والشعور بعدم الأمن الاقتصادى ، فالارض تنتج ما يحتاجونه وتحقق فى كثير من الأحيان فائضا من الإنتاج يستخدمونه فى أغراض شتى . وقد لاحظ حامد عمار هذه القناعة فى قرية سلوا — على الرغم من أنه درس القرية فى عام ١٩٤٨ وما بعدها — ويقول « أن الرضا بما يملكه الفرد أمر يقرظه الله ، وهو أساس سعادة القرويين » حتى أنه وجد فى كثير من أماكن الضيافة عبارة « القناعة كنز لا يفنى » [1] ولكن وجود هذه العبارة فى هذا الوقت مع التغير الذى ذكره فى الحياة الاقتصادية ، لا يعنى فى حقيقة الأمر أن القرويين لازالوا حتى الآن « قانعين » وهنا يجب أن نفرق بين « الملفوظات القروية » وبين السلوك الفعلى ، لأنهما لا يتطابقان — خصوصا فى الوقت الحاضر — فى كثير من الأحيان .

ولكن مع وجود القناعة بما قسم للفرد ، يوجد « حرص » فى الجانب الآخر على هذه « القسمة » ، فالاعتداء على الأرض أو المزروعات مهما كان بسيطا يثير غضب القروى ، لدرجة تصل الى ارتكاب الجرائم . ولهذا كانت القناعة المظهر السلبى للملكية والحرص المظهر الايجابى لها .

٧ ـ الاعتماد الضيق : Narrow.Scale Dependence :

الاعتماد هو نسبة حاجة الفرد أو العائلة فى حياتها الاقتصادية الى وحدات مماثلة أو أكبر . وقد سبق أن أشرت الى أن العائلة هى وحدة الحياة الاقتصادية والاجتماعية مكتفية بذاتها نسبيا . وهذا يعنى أن اعتمادها على

1 — H. Ammar, Op. Cit., p. 35.

العائلات الأخرى أو مجتمع القرية أو السوق أو المدينة ضئيل جداً . ولو أن العائلة من الناحية الاقتصادية البحتة لا تنتج محاصيل سوق ، ولا تحتاج الملابس التي تصنع داخليا في القرية أو المدينة أو تحتاج الى الحلى الذهبية لكان اكتفاؤها الذاتي الاقتصادي تاما . ومع ذلك فاعتمادها على الغير يكون في أضيق نطاق . ولهذا كانت مظاهر الاعتماد تتصف بالضيق . وهذا يعني أن شدة العلاقات الاقتصادية التي تربطها بالقرية أو المدينة ضئيلة ، كما أن عدد الأفراد الذين يشتركون في هذه العلاقات قليل جدا ، وتقتصر في أغلب الأحيان على كبار السن . وإذا نظرنا الى البدنة ككل ، فانه مع الشدة النسبية للعلاقات الاقتصادية بين العائلات المكونة لها ، فانها تكون ضئيلة إذا قيست بالنسبة لمجموع العلاقات في مجتمع القرية . أما غير المشتغلين بالزراعة فان اعتمادهم يتفاوت بين الضيق والاتساع . فبعضهم إذا كان مرتبطا ببدنة معينة ، أي يقوم على خدمتها دون غيرها « كالحلاق » مثلا ، فان اعتماده في هذه الحالة يكون ضيقا ، أما إذا كان — في حالة النجار أو البناء — يخدم القرية ككل دون تخصيص لبدنات بعينها ، فان اعتماده في هذه الحالة يكون واسعا ، لشدة علاقاته واتساع مداها من حيث عدد الأفراد الذين يدخل معهم في علاقات اقتصادية . كما أننا إذا نظرنا الى مجتمع القرية ، فانه أيضا يتميز بالاعتماد الضيق على القرى المجاورة أو المدينة . ولعل ضيق الاعتماد هذا كان من الأسباب التي جعلت القرى في فترة ماقبل التغير في شبه عزلة عن العالم الخارجي .

والخلاصة أن سكان القرى كانوا جميعا « قرويين » أي أن حياتهم الاقتصادية تعتمد على الزراعة وهي ليست عملا مربحا لهم في المحل الأول بل

طريقتهم في الحياة (١) وهي لذلك مرتبطة ارتباطا تاما بحياتهم الاجتماعية ، حتى لا يمكن أن نفصل النشاط الاقتصادي عن الاطار الاجتماعي الذي يتم فيه ، أو القيم الاجتماعية المرتبطة به . وفضلا عن ذلك كانت طبيعة الحياة الاقتصادية هي القاعدة التي قامت عليها العائلة كوحدة اجتماعية واقتصادية ، الأمر الذي أدى الى توازنها فترة طويلة من الزمن . وكان من نتائج ذلك أن أشتدت الروابط التي تربط القروي بالأرض باعتبارها مصدر الحياة . وهذا الارتباط يميز عامة المجتمعات التي تعتمد على الزراعة كمهنة أساسية وكطريقة في الحياة . والقروي في « تخطيطه الاقتصادي » يعلم قيمة النقود والذهب على وجه خاص ، ولهذا فانه يدخل ضمن هذا التخطيط زراعة محاصيل السوق أو المحاصيل النقدية (٢) .

ويمكن وصف الاقتصاد القروي عامة على هذا الأساس بأنه « اقتصاد محلي حر » لأن سلطة العائلة كانت تقوم بدور « التنظيم » في العمليات الاقتصادية الحديثة . كما أن القرويين لم يخضعوا لسياسة اقتصادية زراعية مرسومة تفرض عليهم — كما حدث فيما بعد — زراعة محاصيل معينة وتخصيص مساحات معينة أخرى لكل نوع منها . بل كان رسم السياسة الإنتاجية من شأن العائلة نفسها على أساس حاجاتها وخطتها للمستقبل .

(ثانيا) : الحياة الاقتصادية المتغيرة

التغير في الحياة الاقتصادية في القرى أكثر التغيرات وضوحا . وكان من

---

1 — R. Redfield, OP. Cit., pp. 29-30 .

2 — Oscar Handlin Ths Uprocted, Boston, 1951 p.7.

السهل عند المقارنة أن أتبين الفروق الكبيرة بين القديم والجديد . وقد سبق أن أشرت إلى أن العوامل الاقتصادية كانت السبب المباشر فى تغير العائلة . ونظرا لأن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العائلة كانتا مظهرين لوحدة العائلة . فان التغير فى العائلة صحبة فى نفس الوقت تغير فى الحياة الاقتصادية . إلا أن أثر العوامل الخارجية فى التغير الاقتصادى كانت بارزة بحيث لا يمكن التقليل من شأنها . حقيقة . أن الذى أخل بتوازن الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى الوحدة العائلة كان زيادة السكان المطردة مع ثبات مساحة الأرض الزراعية (١) ، وما ترتب عليه من انخفاض مستمر لمستوى المعيشة ، لكن هذا يصور فى نفس الوقت الباعث على التغير الاقتصادى . خصوصا وأن خصائص الاقتصاد التى كانت تقوم على أساس الحياة الجمعية أخذت تأخذ خصائص جديدة بتفكك العائلة وانفصال الأسر عنها إلى آخر ما أشرنا اليه من نتائج هذا التفكك . أما العوامل الخارجية ذات الأثر الواضح فى تغير الحياة الاقتصادية ، فالخصها فيما يلى : (٢)

١ — الرواج الاقتصادى الذى أعقب الحرب العالمية الأولى ثم الانكماش الذى حدث بعد ذلك .

٢ — الأزمة الإقتصادية العالمية فى عام ١٩٣٠ وما بعدها وما ترتب عليها من كساد وصل تأثيره القرى .

٣ — القوانين المنظمة للتعاون وانشاء البنك العقارى وبنك التسليف الزراعى .

١ — انظر الفصل الثالث .

٢ — راشد البراوى و محمد حمزة عليش ، التطور الاقتصادى فى العصر الحديث القاهرة ، ١٩٤٥ .

٤ — القوانين التى بدأت بقيام الحرب العالمية الثانية والخاصة بتحديد المساحات التى تزرع من القطن والحبوب .

٥ — زيادة تأثير المدينة والسوق واستمرار التحسن فى المواصلات .

كل هذه العوامل بالاضافة الى العوامل الداخلية المترتبة على زيادة السكان كان لها اثرها البالغ فيما يلحق الحياة الاقتصادية من تغير على نحو ماسأعرضه فيما يلى :

. . .

ملكية الأرض لا تزال أساس الحياة الاقتصادية . ولما كانت الأرض الزراعية لم تزد مساحتها عن ذى قبل ، فهى لا تعتبر عاملا عن عوامل التغير . خصوصا وأن البحث فى التغير يدور حول العوامل المتغيرة لا الدائمة (١) . وانما الذى تغير هو توزيع الملكية وطبيعتها ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الملكية كانت ملكية عائلية وأن توزيعها على هذا الأساس لم يؤد الى وجود فوارق كبيرة بين العائلات خصوصا وأنه لم تكن هناك « عزب أو إقطاعيات » يملكها فرد أو عائلة واحدة ، فالقرى كانت من حيث الملكية مكونة من صغار الملاك . وبتفكك العائلة واستمرار الزيادة فى عدد السكان توزعت الملكية على وحدات أكثر من حيث العدد وصغرت بالتالى . وبمرور الزمن ظهرت أسر لا تملك شيئا ظلت تزداد نسبتها حتى عام ١٩٤٧ وهى تزداد على مر الأيام . حتى أن العائلات القليلة الباقية فى القرى التى ظلت محافظة على بعض الخصائص للعائلة القديمة ، تقسم الأرض فعلا بين الأسر

1 —Ogburn, Nimkoff; Op. cit., p. XIX·

المكونة لكل منها ولم تعد الملكية فى جوهرها ملكية العائلة يجرى عليها ما كان يجرى فى الفترة السابقة على التغير . كما أن الخصائص المرتبطة بالملكية الجمعية تتناقص بالتدريج نتيجة لكثرة الخلافات بين أعضاء العائلة ونتيجة أيضا للتأثيرات الخارجية المتتابعة على نحو ما أشرت اليه . والجدول الآتى يبين طريقة توزيع الملكية على أساس تعداد عام ١٩٤٧ كما قدرتها بحسب المعلومات التى جمعتها :

الملكية	قيطون	هلا	كفر الشيخ
من ٤٠ إلى أقل من ٨٠	—	٢ اسرة	٣ أسرة
من ٢٠ الى أقل من ٤٠	٢ اسرة	٤ »	٤ »
من ١٠ الى أقل من ٢٠	٣ »	١٢ »	١٥ »
من ٥ الى اقل من ١٠	٤٧ »	٥٧ »	٥٨ »
من ١ الى أقل من ٥	٣٥٥ »	٤١٧ »	٣١٧ »
من قيراط الى أقل من فدان	٢١١ »	٣٠٢ »	٢٢٣ »
اسر لا تملك أرضا	١٥٠ »	١٨٧ »	١٢٣ »

ويلاحظ النسبة الكبيرة من الاسر التى تملك من قيراط واحد الى ٥ أفدنة وزيادة الأسر التى أصبحت لا تملك ارضا على الاطلاق . كما أن مساحة الأرض الفعلية المخصصة للزراعة تتناقص نظرا لحجم القرية الكبير وتزايده باستمرار لأن المساكن تبنى على أرض كانت تزرع من قبل ، وقسمة الأرض المستمرة نتيجة للوراثة والمشروعات الاصلاحية كحفر الترع والقنوات والمصارف وإقامة الجسور ، كل هذا يعمل على تناقص الأرض المزروعة باستمرار . وفى أوائل مراحل التغير كانت الأسر الفقيرة تؤجر الأرض الفائضة من الأسر التى تملك أرضا تزيد على حاجتها أو على قدرة اليد

العاملة فيها . ولكن كلما مر الزمن تقل مساحة الأرض المزروعة المعروضة للايجار . ولهذا تقل الفرص أمام القرويين للبقاء فى القرية والعمل فى الزراعة . وعلى هذا الأساس بدأ القروى يبحث عن عمل غير الزراعة داخل القرية أو خارجها . وهاجر لذلك هجرة مؤقتة للعمل فى بعض شهور السنة خصوصا فى الشتاء فى تطهير الترع وحفر المصارف وانشاء الطرق ، ثم هاجر بعد ذلك هجرة دائمة الى المدن القريبة أو البعيدة ، وزادت الهجرة خصوصا بعد قيام الحرب العالمية الثانية ، وظهور فرص جديدة للعمل فى معسكرات الاحتلال السابقة فى منطقة قناة السويس ، وأغلب الذين يهاجرونهم الذين لا ملكية لهم ، أو تكون ملكيتهم ضئيلة لا تكفى لسد حاجات المعيشة . وهكذا نجد أن ارتباط القروى القديم بالأرض قد تفكك الآن . لأن الأرض تربط القروى الذى يملك جزءا منها ، أما الذين لا يجدون فى الأرض « مصلحة مباشرة » فانهم لا يترددون فى تركها . وقد سألت عددا من الذين هاجروا من قرية القيطون عن ظروف هجرتهم فأجمعوا على أن الأرض لم تعد تكفى حاجاتهم ، وسيموتون جوعا لو ظلوا بالقرية . ولكنهم لا زالوا يفضلون العمل الزراعى . ولهذا فانهم يظلون على صلات وثيقة بالقرية ويرسلون مدخراتهم الى اقاربهم لشراء أرض خاصة بهم وربما بناء مساكن أو إعادة بناء الموجود منها . كما انهم يساعدون اسرهم التى ظلت بالقرية فى بعض الأحيان إذا احتاجوا مساعدة اقتصادية . وهذا دليل على أن ملكية الأرض لازالت فى نظرهم « الملكية المثلى » برغم معيشتهم فى المدينة . وقد لاحظ مارتن يانج ذلك فيقول « أن القرويين فى الصين الذين يبحثون عن عمل فى المدينة ، يحتفظون بعلاقات وثيقة مع اقاربهم ويبعثون اليهم بفائض كسبهم ليستخدم فى شراء الارض وبناء المساكن (1) .

1 — M. Yang, Op. Cit., P. 223 .

ومع أن التصرف فى الملكية بالبيع أو الرهن لا زال يعتبر « نكبة » فى نظر القروى ، إلا أن هناك الآن عددا من الأسر تبيع أو ترهن اجزاء من أرضها للوفاء بالحاجات والمطالب الجديدة كتعليم الأبناء ، ولهذا فالقروى ينظر الى التعليم من زاوية اقتصادية ، فكأنه يستثمر المال الذى يأخذه من بيع الأرض فى التعليم . والقرية تنظر باحترام يتزايد الآن للقروى الذى يبيع أرضه لهذا الغرض وقد كان بعض القرويين قبل تنفيذ قانون التجنيد الأجبارى يبيعون جزءا من الأرض لدفع « البدل » حتى لا يذهب ابناؤهم للخدمة العسكرية . ولا يمر عام الآن وتحدث عدة عمليات لشراء وبيع الأرض ولم يعد شراء الأرض فى هذه الحالة قاصرا على افراد من النسق القرابى الذي ينتمى اليه البائع . بل يمكن لأى فرد من أى بدنة فى القرية أن يشترى الأرض مهما كان موقعها ومهما كان « شخص » الذى يبيعها ولهذا فان ارض البدنات القديمة التى كانت تعتبر قطعة واحدة مخصصة لكل منها ، اصبحت متداخلة الآن . ولا يقتصر الأمر على بيع الأرض لأفراد من نفس القرية ، بل قد يشتريها افراد من قرى اخرى مجاورة . والقاعدة أن يقبل هؤلاء على شراء الأرض المجاورة « لزمام القرية » ولهذا تداخلت زمامات القرى الثلاث ، ولم يعد ما يثبت فى التعداد « ممثلا لزمام القرية » هو زمامها الفعلى الذى يملكه سكانها ومن النتائج المباشرة لتعدد حالات البيع والشراء أن انخفض ثمن الفدان نسبيا ، وزاد انخفاضه بعد صدور قوانين الإصلاح الزراعى فى عام ١٩٥٢ وما ترتب عليه من تحديد الملكية ، وتحديد ايجار الأرض على أساس « سبع أمثال الضريبة » ولكن يلاحظ أن الانخفاض النسبى فى اثمان الأرض الزراعية صحبة ارتفاع نسبى فى الأراضى التى تصلح لبناء المساكن وتكون قريبة أو ملاصقة للقرية فقد بلغ ثمن القيراط الواحد فى بعض الأحيان ١٠٠ جنيه .

كانت الأرض الزراعية يملكها « القرويين » أى الذين يعملون فعلا فى الزراعة وتكون فى نفس الوقت طريقتهم فى الحياة . ولكن الآن لم يعد جميع الأرض يملكها هؤلاء القرويين . فقد ظهر الآن نوع من الملاك لا يقيمون فى القرية ومع ذلك يملكون أرضا زراعية فيها . وهم جميعا بصفة عامة من أهل القرية وهم طائفتين : الأولى المهاجرون الذين غادروا القرية ويعملون بالمدينة ويستثمرون مدخراتهم فى شراء الأرض أيضا . وهذا يدل على أنه بالرغم من تغير مركز هؤلاء الاجتماعى ومعيشتهم الدائمة فى المدينة ، لا زالو متأثرين بالقيم القروية وخاصة فيما يتعلق بقيمة الأرض الزراعية . والقلة منهم هم الذين يستثمرون مدخراتهم فى بناء مساكن فى المدينة أو شراء الأسهم والسندات . وهؤلاء الملاك الذين لا يقيمون فى القرية غالبا ما يعهدون الى أقاربهم برعايتها أو ايجارها ، وقد لا يراعون ذلك فى بعض الحالات إذا كانت المصلحة الخاصة لا تتفق مع الدخول فى علاقات اقتصادية مع هؤلاء .

وقد ظهر نوع آخر من الملكية غير الأرض الزراعية وهو رأس المال النقدي المستخدم فى التجارة ، وقد يكون صاحب رأس المال مالكا لأرض زراعية أو غير مالك . والمهم أن تقدير مركزه الاقتصادى لا يختلف فى نظر القرية عن مالك الأرض . طالما أن رأس المال يدر عليه دخلا يماثل دخل الأرض الزراعية المساوية لرأس المال من حيث القيمة . ولهذا كان حساب دخل الأسرة الآن يختلف عن حسابه فى العائلة القديمة حيث كان دخلها يقوم أساسا على الانتاج الزراعى . ولكن نظرا للتغير النوعى فى الإنتاج تدخل الآن عناصر أخرى عند حساب الدخل .

فالأسر التى تعمل بالزراعة بحسب دخلها الآن على أساس كمية المحاصيل الزراعية الى جانب الانتاج الحيوانى والمنزلى لأنه كما يتبين فيما بعـد تعمل الأسر على تربية الحيوانات لغرض التجارة بجانب استخدامها فى العمليات الزراعية ، ولم تعـد مستخرجات الألبان أو الانتاج المنزلى من الدواجن يستهلك فى الوحدة العائلية، بل أصبح مظهرا مرتبطا أكثر بالسوق أكثر من ارتباطه بالاستهلاك المحلى . وهناك أسر ممن لا تملك أرضا زراعية تقـوم حياتها الاقتصادية على الحيوانى والانتاج المنزلى . ولهذا يدخـل الإنتاج الحيـوانى والزراعى والمنزلى والكسب التجارى بحسب حالة كل أسرة عند حساب دخلها .

وهكذا نرى أن الملكية أصبحت فردية ، ومرتبطة بالمركز الاقتصادى للأسرة أكثر من ارتباطها بالمركز الاجتماعى. وأنها بحالتها الراهنة أصبحت تفرض على الفرد أن يبحث عن كفايته الاقتصادية لا عن طريق ملكية الأرض الزراعية وحدها ، بل عن طريق أنواع أخرى من الملكية تؤدى نفس الغرض الذى تؤدى اليه ملكية الأرض . وكان تضاؤلها إذا أخذنا مجتمع القرية ككل باعثا على استمرار الانخفاض فى مستويات المعيشة وعاملا هاما فى تفكك الرابطة القوية التى كانت تربط القرويين بالأرض باعتبارها مصدر الحياة ولهذا أصبح التحول عن العمل الزراعى الى غيره من الأعمال داخل القرية أو خارجها ظاهره متزايده .

...

كان العمل الزراعى وما ترتب عليه من مظهر معين للحياة الاقتصادية هو المظهر الأول للنشاط الاقتصادى ومع أن هذا العمل لا زال يمثل حتى اليـوم

الاتجاه الغالب على الحياة الاقتصادية إلا أنه نظرا لعدم كفاية الأرض الزراعية لإعالة الاعداد المتزايدة من السكان خصوصا بعد أن وجدت أسر تتزايد على مر الزمن لا تملك أرضا زراعية . فقد ظهرت أنواع جديدة من العمل وتفككت الى حد ما القيم المرتبطة بالعمل الزراعى وتغيرت النظرة إليه وإلى الأعمال الأخرى فقيمة العمل الآن ترتبط بما يترتب عليه من كسب يؤدى الى سد مطالب المعيشة المتزايدة . ولهذا كان تحول المشتغلون بالزراعة الى القيام بأعمال أخرى ظاهرة نامية . هذا الى أن تفكك العائلة أدى الى عدة نتائج مهمة على خصائص العمل والقيم المرتبطة به . والاحصاء الآتى[1] يوضح الى أى حد تنوعت الأعمال فى القرى التى كانت الزراعة هى المهنة الغالبة على سكانها :

---

١ – كراسات التعداد الخاصة بمديرية الدقهلية – المطبعة الأميرية – القاهرة

السنة	القرية	عدد السكان	النوع	الزراعة	الصناعات	البناء	النقل	التجارة	خدمات	ادارة خدمات اجتماعية	اعمال غير واضحة	لا عمل لهم
١٩٢٧	قيطون	٣٥٨٧	ذكور	١٠٨٦	٣٥	–	–	٣٤	–	–	١٣٩	٥٠١
			اناث	١٨٠	٦	–	–	٤	–	–	٣١	١٧٥١
	كفرالشيخ	٢٣٢٨	ذكور	٥٥٣	٤٤	–	–	٣٠	–	–	١٧٦	٢٩٠
			اناث	١٨٣	٦	–	–	٢٨	–	–	٤٠	٩٨٢
	هلا	٤٤٨٠	ذكور	١٠٧٥	١١٤	–	–	١٢١	–	–	٢٥٤	٦٣٧
			اناث	١١٣	٦	–	–	٢٤	–	–	٤٤	٢٠٩٢
	قيطون	٣٩٥٤	ذكور	١١٣	٦٤	–	–	٥٥	–	–	٢٣٧	١٤٨
			اناث	٤١٢	١١	–	–	٣٨	–	–	٢١٠	١٠٢٩

السنة	القرية	عدد السكان	النوع	الزراعة	الصناعات	البناء	النقل	التجارة	خدمات	ادارة خدمات اجتماعية	اعمال غير واضحة	لا عمل لهم
١٩٣٧	كفرالشيخ	٢٦٥٧	ذكور	٤٩٦	٢٠٤	–	–	٣٤	–	–	٣٣٧	٧٠
			اناث	٣٦١	٨	–	–	٥٤	–	–	٩٦	٥٣٢
	هلا	٤٥٧٨	ذكور	١١٨٧	١٠٧	–	٢	١٠٩	–	–	٣٥٨	٢١٩
			اناث	٢٩٠	٢	–	–	١٣	–	–	١٤٤	١٨٥٣
	قيطون	٣٨٧٩	ذكور	١١٢٦	٣٥	١٢	٣	٦٦	١٨	٤٩	١٩٦	١٦٦
			اناث	١١٣١	٨	–	–	٣٩	٢٣٦	٢	٩٨	١٩٦
١٩٤٧	كفرالشيخ	٢٧٧٥	ذكور	٧٧٠	٣٤	٧	–	٤٢	١٠	٤٨	١٦٩	١١٧
			اناث	٧٢٣	–	–	–	١٨	٢٩٦	١	٨٣	٨٤
	هلا	٤٤٨٩	ذكور	١٠٧١	١٣٦	١٢	١٠	١١٠	٣٠	٥٨	١٨٣	٢٣٢
			اناث	١٢٠٣	٤	–	–	٥١	٤٦١	٥	٤٠	٢٤٣

وأهم ما نلاحظه على هذا الإحصاء أنه غير دقيق ولا يمثل الواقع تماما . كما أن تصنيفه للمهن غير واضح خصوصا فيما يتعلق بالصناعات والإدارة والخدمات الاجتماعية والأعمال غير الواضحة . إلا أنه يعطى فكرة عامة عن تنوع المهن وازدياد عدد المشتغلين بها باستمرار ، كما أنه يبين أن الغالبية العظمى من السكان لا تزال تشتغل بالزراعة .

والواقع أنه قد ترتب على اتساع نطاق توزيع الملكية على الأسر وضآلة المساحات التى تملكها غالبيتها باستمرار الى جانب تزايد عدد الذين لا يملكون أرضا باستمرار ، عدة نتائج هامة : منها أن طبيعة العمل الجمعية التى كانت من خصائص العائلة القديمة لم تعد موجودة ، وأصبح العمل يتخذ طابعا فرديا . ومع أنه لا زال غير متخصص إلا أنه لم يعد فى الوحدة الأسرية مكتفياً بذاته : فبعض الأسر لا تكفى اليد العاملة فيها لزراعة الأرض وتحتاج الى يد عاملة خارجية . وبعضها تزيد فيها اليد العاملة . فتؤجر الأرض ، أو يعمل بعض أعضائها عند الغير . وقد تكون زيادة اليد العاملة بصفة عامة فى القرية فوق طاقتها الزراعية ، فيتحول بعض القرويين إلى أعمال غير الزراعة أو يهاجرون ، هذا الى جانب أن العمل الزراعى لم يعد قاصراً على الرجال . فهذا القصر كان من خصائص العائلة القديمة ، ولكن استقلال الأسر زاد من مسئوليات المرأة فأصبحت تشارك الى جانب العمل المنزلى فى العمليات الزراعية بصورة متزايدة ولا يقتصر عملها حينذاك على بعض العمليات البسيطة ، بل تقوم بالرعى وتنقية المزروعات والرى والحصد والتخزين ... وهكذا .

ويبدو هذا واضحا فى الأسر الفقيرة ، ونتيجة لذلك أيضا زاد عدد الأطفال فى العمل الزراعى والمنزلى على السواء والطفل الآن يحمل مسئوليات

متعددة فى سن مبكرة عن ذى قبل . الأمر الذى كان يظهر فى تهرب القرويين عامة من ارسال أبنائهم للمدرسة الالزامية لأن هذا معناه صرفهم عن العمل الزراعى « وضياع » جزء كبير من وقتهم الذى كان يمكن الاستفادة به فى العمليات الزراعية .

وهكذا نرى :

١ ـ إن أعدادا متزايدة من القرويين تعمل الآن فى المهن المختلفة كالصناعات التحويلية والبناء والنقل وفى العمليات التجارية كالبقالة والسمسرة ومعنى هذا أن النظرة القديمة التى كانت تحقر من أمر هذه المهن قد اختلفت وأصبح مقياس العمل هو ما يحققه من فوائد اقتصادية ومن ربح يجعل المعيشة فى القرية وفى عدم وجود ملكية من الأرض ممكنة . وبالتالى تقاربت الأبعاد الاجتماعية التى كانت تفصل أصحاب المهن عن القرويين وأصبحت العلاقات الاجتماعية المتوازية بينهم ممكنة حتى أن الزواج المختلط أصبح ظاهرة متزايدة .

٢ ـ وأن تحول القرويين الى مثل هذه الأعمال لا يعتبر مظهرا من مظاهر التخصص فى القرية . فالملاحظ أن بعض أصحاب المهن القدماء أصبح يملك أرضا زراعية الآن . ولهذا فانهم يعملون بالزراعة بجانب عملهم فى مهنهم الأصلية ، فالنجار يذهب إلى الحقل ويحمل معه أدوات النجارة ، فيصلح الأدوات الزراعية للقرويين ويقوم بحرث أرضه وريها فى نفس الوقت وهذا ينطبق أيضاً على البقال والتاجر والبناء . خصوصا وأن من النادر أن نجد أسرة بأكملها تقصر نشاطها الاقتصادى على عمل معين . فقد يعمل بعض أعضائها فى العمل الزراعى وآخرون فى أعمال أخرى . ولكنهم جميعا كقاعدة يشاركون فى الزراعة بأنصبة متفاوتة .

وأهم ما نلاحظه على هذا الإحصاء أنه غير دقيق ولا يمثل الواقع تماما كما أن تصنيفه للمهن غير واضح خصوصا فيما يتعلق بالصناعات والإدارة والخدمات الاجتماعية والأعمال غير الواضحة . إلا أنه يعطى فكرة عامة عن تنوع المهن وازدياد عدد المشتغلين بها باستمرار ، كما أنه يبين أن الغالبية العظمى من السكان لا تزال تشتغل بالزراعة .

والواقع أنه قد ترتب على اتساع نطاق توزيع الملكية على الأسر وضآلة المساحات التى تملكها غالبيتها باستمرار الى جانب تزايد عدد الذين لا يملكون أرضا باستمرار ، عدة نتائج هامة : منها أن طبيعة العمل الجمعية التى كانت من خصائص العائلة القديمة لم تعد موجودة . وأصبح العمل يتخذ طابعا فرديا ومع أنه لا زال غير متخصص إلا أنه لم يعد فى الوحدة الأسرية مكتفيا بذاته : فبعض الأسر لا تكفى اليد العاملة فيها لزراعة الأرض وتحتاج الى يد عاملة خارجية . وبعضها تزيد فيها اليد العاملة . فتؤجر الأرض ، أو يعمل بعض أعضائها عند الغير . وقد تكون زيادة اليد العاملة بصفة عامة فى القرية فوق طاقتها الزراعية ، فيتحول بعض القرويين إلى أعمال غير الزراعة أو يهاجرون ، هذا الى جانب أن العمل الزراعى لم يعد قاصراً على الرجال . فهذا القصر كان من خصائص العائلة القديمة ، ولكن استقلال الأسر زاد من مسئوليات المرأة فأصبحت تشارك الى جانب العمل المنزلى فى العمليات الزراعية بصورة متزايدة ولا يقتصر عملها حينذاك على بعض العمليات البسيطة ، بل تقوم بالرعى وتنقية المزروعات والرى والحصد والتخزين ... وهكذا .

ويبدو هذا واضحا فى الأسر الفقيرة ، ونتيجة لذلك أيضا زاد عدد الأطفال فى العمل الزراعى والمنزلى على السواء والطفل الآن يحمل مسئوليات

متعددة فى سن مبكرة عن ذى قبل . الأمر الذى كان يظهر فى تهرب القرويين عامة من ارسال أبنائهم للمدرسة الالزامية لأن هذا معناه صرفهم عن العمل الزراعى « وضياع » جزء كبير من وقتهم الذى كان يمكن الاستفادة به فى العمليات الزراعية .

وهكذا نرى :

١ - إن أعدادا متزايدة من القرويين تعمل الآن فى المهن المختلفة كالصناعات التحويلية والبناء والنقل وفى العمليات التجارية كالبقالة والسمسرة ومعنى هذا أن النظرة القديمة التى كانت تحقر من أمر هذه المهن قد اختلفت وأصبح مقياس العمل هو ما يحققه من فوائد اقتصادية ومن ربح يجعل المعيشة فى القرية وفى عدم وجود ملكية من الأرض ممكنة . وبالتالى تقاربت الأبعاد الاجتماعية التى كانت تفصل أصحاب المهن عن القرويين وأصبحت العلاقات الاجتماعية المتوازية بينهم ممكنة حتى أن الزواج المختلط أصبح ظاهرة متزايدة .

٢ - وأن تحول القرويين الى مثل هذه الأعمال لا يعتبر مظهرا من مظاهر التخصص فى القرية . فالملاحظ أن بعض أصحاب المهن القدماء أصبح يملك أرضا زراعية الآن . ولهذا فانهم يعملون بالزراعة بجانب عملهم فى مهنهم الأصلية ، فالنجار يذهب إلى الحقل ويحمل معه أدوات النجارة ، فيصلح الأدوات الزراعية للقرويين ويقوم بحرث أرضه وريها فى نفس الوقت وهذا ينطبق أيضاً على البقال والتاجر والبناء . خصوصا وأن من النادر أن نجد أسرة بأكملها تقصر نشاطها الاقتصادى على عمل معين . فقد يعمل بعض أعضائها فى العمل الزراعى وآخرون فى أعمال أخرى . ولكنهم جميعا كقاعدة يشاركون فى الزراعة بأنصبة متفاوتة .

٣ ـ وقد ترتب على زيادة إتصال القرى بالمدن إن اختفت بعض الصناعات والحرف القديمة كالغزل والنسيج وظهرت صناعات وحرف أخرى كصناعة الأحذية وحياكة الملابس وصناعة « الطوب الأحمر » وعمل السلال . وكقاعدة يعتمد القرويون على السوق والمدينة فى حاجاتهم المختلفة سواء التى تنتجها القرية أو القرى القريبة . فكثير من القرويين يشترون أثاث منازلهم وملابسهم ويحيكونها ويشترون أيضا الأحذية وبعض الأدوات الزراعية من المدينة . وتتزايد ظاهرة اعتمادهم على المدينة خصوصا كلما تحسنت طرق المواصلات . بل أن بعض الأسر تعمد الى تخزين ما يحتاجونه طوال العام من الصابون والسكر والشاى والبترول وغيره من أدوات الاستهلاك المنزلى . ولا يشترونه من بقال القرية ، بل من السوق أو المدينة .

٤ ـ والعمل للغير أصبح الآن ظاهرة ملموسة فى القرية وله مظاهر مختلفة عن التعاون الملزم فى هذا الصدد فى حالة العائلة القديمة . فالقروى الذى لا يملك أرضا ولا يعمل بمهنة أو حرفة ، قد يعمل عند أسرة غنية « بصفة دائمة » ويسمى فى هذه الحالة « مرابعا » أو قد يعمل بصفة مؤقتة أثناء ضغط العمل الزراعى . وفى الحالة الأولى قد يتناول أجره عينا أو نقدا ، وفى الحالة الثانية يتناول أجره نقدا . كما قد يحسب أجره فى الحالة الأولى على أساس شهرى أو سنوى ، أما فى الحالة الثانية فيحسب أجره على أساس العمل اليومى ، ويدخل فى حساب الأجر ، أجر العامل الزراعى الذى يعمل فى تطهير الترع والمصارف وإن كان يقل عنه فى هذه الحالة ، والمرابع لا يعتبر « خادما » أو « أجيرا » وإنما ينظر اليه عامة على أنه عضو فى العائلة ويعامل على هذا الأساس . ولذلك لا يكلف بأعمال قد تعتبر حطا من مركزه

الاجتماعى ، بل أن عمله يقتصر فى الغالب على الأعمال الزراعية فى الحقل . وقد تعمل النساء أيضاً فى منازل الأسر الغنية اما بصفة دائمة أو بصفة مؤقتة ولكنهن فى الحالتين يتقاضين أجرهن عينا من المحاصيل أو الانتاج المنزلى . والمرأة لا تعد نفسها فى الحالتين « خادمة » بل إنها تعاون الأسرة لأنها تحتاج إليها ، وليست هى التى تحتاج للعمل فى الأسرة للمعاونة فى نفقات المعيشة . والواقع أنه فى حالة عمل الرجل أو المرأة للغير ، يظل كل منهما محافظ على مركزه الاجتماعى بقدر الإمكان ولا يؤدى عمله هذا الى أى مظهر من مظاهر التبعية . ولهذا من الصعب أن يقبل القروى أن يعمل ابنه أو ابنته فى خدمة أحد الأسر فى القرية أو المدينة ، خصوصا إذا كان ينتمى الى أحد البدنات القديمة فى القرية .

ويلاحظ أن عمل الرجل أو المرأة للغير لا يقتصر على النسق القرابى ، بل إنه يتعداه ليشمل أى أسرة فى القرية . ولكن القروى يفضل أن يكون عمله لأقاربه أكثر من الغرباء . وقد يعمد القروى الى « تأجير » أبنائه الذكور دون الإناث للعمل على النحو السابق ، وفى هذه الحالة يتقاضى أجرهم . لأن الأبناء فى هذه الحالة لا يعملون لأنفسهم وإنما للأسرة . وقد لا يعطون أجرهم فى حالة زواجهم الى اسرتهم وقد يعطونها جزءا منه خصوصا إذا استقل المتزوج عن الأسرة .

٥ ـ كان التعاون فى العمل الزراعى يقوم على أساس القرابة ، ولكنه لم يصبح له هذه الصفة الآن فمع أن القرابة لا زال لها بعض الأثر فى هذا التعاون إلا أن علاقة الجوار والمصلحة الخاصة أصبحتا المميزتين للتعاون على اختلاف أنواعه فى الحقل أو المنزل على السواء . ولقد أشرنا من قبل الى أن أعضاء البدنات لا يسكنون الآن منطقة واحدة من القرية جميعا ، كما أن

الأراضي الزراعية المحدودة تداخلت أيضاً . ونتيجة لذلك ولتفكك العائلة فقد أصبحت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية تتخذ اتجاهات جديدة . والقروي الآن أصبح يقدر « علاقة الجوار » والنبي وصى على سابع جار ، وخصوصاً فيما يتعلق بتعاون النساء المتبادل في الأعمال والأدوات المنزلية كما أن الجوار في الحقل يؤدي الى نفس المظاهر . كما أن القروي قد يتعاون بغض النظر عن علاقة الجوار مع أي قروي آخر مهما كانت درجة قرابته على أساس المصلحة المتبادلة . ويلاحظ أن علاقات الجوار والمصلحة المتبادلة تؤدي بدورها إلى علاقات اجتماعية أخرى كالمصاهرة في أغلب الأحيان ويلاحظ أيضاً أن التعاون في هذه الحالات يكون بين الأسر المتماثلة مركزاً اقتصادياً ، إذا كان خارج حدود البدنة ، ولكن هذه القاعدة لا تراعى في حالة التعاون داخل حدود البدنة الواحدة . فتحدث حالات كثيرة من التعاون بينها روابط القرابة ولكن على أساس المصلحة المتبادلة أيضاً .

٦ ـ كانت البطالة في العائلة القديمة بطالة مؤقتة ومع ذلك كان القرويون يشتغلون أثناءها في أعمال مختلفة كما أشرنا الى ذلك من قبل . ولكن ظاهرة البطالة بالمعنى الحديث أخذت تتزايد الآن . فعدد الأسر التي لا تملك أرضاً زراعية ولا تعمل في حرفة أو مهنة معينة آخذة في الازدياد . ومع أن الكثيرين منهم يعملون في أعمال مختلفة بعض الوقت الا أن جزءاً كبيراً من العام يقضونه دون عمل . وكانت البطالة على هذا النحو هي التي دفعت عدداً متزايداً من القرويين الى الهجرة . كما أن بطالة بعض أعضاء الأسر التي تملك الأرض وخصوصاً كبار السن أخذت تتزايد عن ذي قبل ، وهم يكونون الآن ما يطلق عليهم « طبقة الأعيان » أو الطبقة التي لا تعمل في الانتاج

Leisure Class ، وإن كانت تشرف عليه نظرياً .

...

كان الإنتاج الزراعي يحقق المطالب الأساسية ومطالب السوق ، ولكنه يتجه الآن الى السوق أكثر من اتجاهه الى الاكتفاء الذاتي من حيث الحاجات الأساسية . والملاحظة الجديرة بالذكر هنا أن القرى لم تعد تكفي حاجة السكان من حيث الحبوب كالذرة والقمح ، ولهذا تعتمد على السوق في سد النقص . كما أن الإنتاج لم يعد مقصوراً على المحاصيل الزراعية ، بل أصبح الإنتاج الحيواني يكون جزءاً هاماً في الأسرة . ولهذا تعمد كثير من الأسر إلى تربية الحيوان أما لغرض الانتفاع اقتصادياً بمستخرجات الألبان ، أو بيعها صغيرة لذبحها في المدن . ويلاحظ أن المدن تعتمد الآن في اللحوم على انتاج القرى من هذه الناحية . كما أن الأسر بصفة عامة تعنى الآن بتربية الدواجن لبيعها أو بيع بيضها . وكقاعدة يمكن القول أن « فكرة السوق » أصبحت تسيطر الآن على الانتاج على اختلاف أنواعه .

وكان تذبذب أسعار القطن عاملاً هاماً في الاقبال على زراعته وتخصيص مساحات كبيرة له أو الاقتصار على مساحات صغيرة . فعقب الحرب العالمية الأولى والإرتفاع الكبير الذي حدث في أسعار القطن اتجه القرويون الى زراعته بكثرة ولكن هبوط الأسعار بعد ذلك وعدم ثباتها باستمرار جعل القرويون لا يزرعون منه كثيراً وإن كانوا لا يهملون زراعته مطلقاً لأنه المحصول النقدي الوحيد لديهم ، وكقاعدة يمكن القول أن القروي يقبل على زراعة المحاصيل التي يرى أنها ستدر عليه دخلاً نقدياً ، فالحكومة عند قيام الحرب العالمية الثانية لجأت إلى تحديد مساحات الأرض التي تزرع قطناً لتيسر زراعة

أكبر قدر ممكن من الأرض بالحبوب لصعوبة استيراد الحبوب فى ذلك الوقت . ولهذا فان القرويين لم يتذمروا كثيرا لذلك لأن المحاصيل من الحبوب كانت تباع بأسعار مرتفعة تفوق أحيانا من حيث « غلة الفدان » الواحد انتاجه من القطن .

ويلاحظ تأثير المدينة فى تنوع الإنتاج الزراعى . فبعد أن كان مقصوراً على المحاصيل التقليدية من الحبوب والقطن ، أصبح الأرز يزرع الآن على نطاق واسع . كما إتجه القرويون إلى زراعة الخضروات كالكرنب والطماطم وغيرها مما تجد سوقا رائجة فى المدينة . كما أن هناك اتجاها الآن لزراعة أشجار الفاكهة كالبرتقال واليوسفى والجوافة والعنب والتين والموز والخوخ والمانجو . ولكن الإقبال عليها قليل لعدم خبرة القرويين بهذه الأنواع خصوصا فيما يتعلق برعايتها فى أثناء مراحل نموها المختلفة . كما يبدو أثر المدينة أيضاً فى تزايد اعتماد القرية على تسميد الزراعات بالأسمدة الكيماوية التى لم تكن معروفة من قبل ، وفى تغذية الحيوانات « بالكسب » لأنه أرخص من الفول وأكثر أثرا فى نموها من الفول .

والقروى بصفة عامة يتخلى عن القديم ويعتنق الحديث ، إذا وجد أن ذلك سيحقق له فى النهاية ربحا أكثر . فالفول الذى كان يستخدم فى علف الماشية وجد أنه إذا باعه واشترى كسبا يقوم مقام الفول فى هذا الصدد ، فان هذا الاستبدال سيحقق له كسبا ملحوظا ولهذا يشتد الاقبال عليه لدرجة أن بعض التجار يتخصص فى تجارة الكسب دون غيرها .

ومع أن الحكومة أنشأت « المركز الاجتماعى » ليخدم القرى الثلاث خصوصا فى النواحى المتعلقة بحياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، وعينت

اخصائيين زراعيين فيه ، لإطلاع القرويين على أساليب جديدة فى الزراعة والإنتاج . الا أن القرويين لم يتأثروا كثيرا بذلك نظرا لأن تطبيق الأساليب الجديدة على الملكيات الصغيرة فى القرى سيتطلب مجهودا ونفقات باهظة ، وجد معها القرويون أن بقاءهم على القديم أكثر تحقيقا للربح المادى . ولهذا فشل المركز الاجتماعى من هذه الناحية .

وهكذا نجد أن الانتاج :

١ ـ لم يعد حرا توجيه الأسرة كما تشاء وبحسب خطتها للمستقبل ، بل أن القوانين الزراعية تحدد المساحات التى تزرع بالحبوب وغيرها والمساحات التى تزرع بالقطن كما أنها تفرض على القرويين نظاما معينا فى العناية بالمحاصيل وخصوصا القطن من الآفات الزراعية ، وتقوم فى حالة تقصير القرويين بمقاومة هذه الآفات وتحمل القرية النفقات .

٢ ـ يعتمد القروى الآن على المدينة فيما يتعلق بالأسمدة والكسب والبذرة . وقد يدخل فى معاملات مع بنك التسليف الزراعى على أساس تمويل الانتاج انتظارا للمحصول ، فيسدد ما يكون قد استدانة من البنك لهذا الغرض .

٣ ـ والسوق أصبح الهدف الأساسى من الإنتاج . ولهذا تنوع من حيث الزراعة خصوصا زراعة محاصيل لم تكن تزرع من قبل ، ثم أدخل الانتاج الحيوانى والمنزلى ضمن أهداف الانتاج العامة ، بحيث أصبح دخل الأسرة لا يعتمد فقط على المحاصيل الزراعية ، بل على ربحها من الانتاج الحيوانى المنزلى أيضا .

٤ ـ ولم يعد يكفى الانتاج عامة فى القرية حاجات السكان من الحبوب فتعتمد على السوق والمدينة معا فى سد هـذا النقص . الأمر الذى أدى الى زيادة صلات القرية بالمدينة وما يترتب عليه من تغيرات هامة فى ميدان الحياة الاقتصادية .

٥ ـ والانتاج بصفة عامة فى القرى انتاج صغير ، لأنه يعتمد على انتاج وحدات صغيرة هى الأسر ، والتى تكون فى مجموعها من صغار الملاك .

...

كانت النقود ذات قيمة كبيرة فى العائلة القديمة . ولهذا كانوا يحرصون عليها ولا يستخدمونها فى التبادل إلا فى الحالات القليلة التى أشرت اليها . ولكنها أصبحت واسطة التبادل الأساسية . أى أن المعاملات الاقتصادية تقوم الآن على النقود أو ما يقوم مقامها كالسندات والكمبيالات وغيرها . ونتيجة للتغير فى أسس الحياة الاقتصادية لم يعد التبادل يحقق قيما اجتماعية أكثر من تحقيقه القيم الاقتصادية ، بل أصبحت المصلحة الفردية أساس كل معاملة من هذه الناحية . ولم تعد لعلاقات القرابة تأثير هام فى هـذه الناحية . فالثمن أصبح شيئا عاديا فى القرى (١) . حتى أن الإخوة يدخلون فى معاملات اقتصادية على أساس التعاقد المكتوب فى كثير من الأحيان ويظهر هذا عند تقسيم الأرض فيحرص الأطراف المعينون على كتابة شروط القسمة وتسجيلها فى المدينة ، وينطبق هذا أيضا عند تقسيم المسكن .

1 — R. Redfield, A Village that Close Progress : Chan Kom Revisted, Chicago, 1957, pp. 65—66

وقد تنشأ خلافات عديدة تصل الى القضاء إذا لم تحل داخليا . وكل قروى تقريبا يحتفظ بعـدد من الأوراق الرسمية التى تثبت ملكيته فى الأرض أو المسكن أو النقود التى له عند الآخرين .

وأصبح الدفع نقداً هو أساس علاقة القرويين بعـدد كبير من أصحاب الحرف والمهن . وكان لتفكك العائلة أثره فى هذا الصـدد . فهؤلاء كانوا يخدمون عائلات لا أفراد . أما اليوم فانهم يخدمون أفرادا لا عائلات . ولهذا يندر أن يتقاضى المهنى أجراً موسميا من المحاصيل ، بل إنه يفضل النقود إذا كان موعد الدفع مرتبطا بالمحاصيل ، ويلاحظ أن الذين يعاملون الى الآن على أساس الدفع الموسمى ، هم الحلاقون والطبالون والمقرئون . أما غيرهم فانهم يحاسبون على مقـدار العمل المبـذول مباشرة عن طريق « المقاولة » دون انتظار المحصول .

وقد تناول التغير التوزيع والاستهلاك أيضا . فقد كانوا جمعيين ومرتبطين بتنظيم العائلة القديمة الذى يقوم على الجمعية فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية ولكن الأسرة الآن تختص بانتاجها أو بمقابل عمل أفرادها خصوصا إذا كانوا غير متزوجين . أما إذا تزوج الابن وظل فى الأسرة ، فانه فى سنى حياته الزوجية الأولى ، قد يظل يعمل للأسرة ولا يكون له نصيب محدود من الدخـل . ولكن اذا ظهرت الخلافات واضطر الى الانفصال عن الأسرة فان نتيجة عمله يتلقاها مباشرة .

وفى بعض الأسر ذات الملكية الكبيرة نسبيا قد يظل المتزوج داخل الأسرة ، أى يظل يعيش فى المسكن المشـترك ، ولكنه يكون منفصلا اقتصاديا نسبيا ، فيكون له نصيب من الدخل يتصرف فيـه كيف يشاء ،

ويعطى هذا النصيب مقابل اشتراكه فى العمليات الزراعية . وقد ينفصل تماما عن الأسرة ويخصص له الأب جزءا معينا من الأرض يقوم على زراعته ويكون له المحصول الناتج من الزراعة كله .

والخلافات المتعلقة بالتوزيع بين الآباء وأبنائهم وبين الأم وزوجة ابنها خلافات ظاهرة ومستمرة ، وتسبب كثيرا من المشاكل الزوجية ، الأمر الذى جعل نسبة الخلافات حـــول التوزيع تزداد باستمرار وأصبح غضب « الأولاد والزوجات » لهذا السبب ظاهرة عامة . وقد لا ينقضى شهر واحد على الزواج حتى « تغضب » الزوجة وتذهب لأسرتها لأنها لا تريد المعيشة المشتركة ، وغالبا ما يتم الصلح على أساس الاستقلال الكلى أو النسبى وهو استقلال فى جوهره استقلال بنصيب من دخل الأسرة . ويلاحظ أن الخلافات على التوزيع فى الأسر مالكة الأرض تستمر فترات طويلة لأن الوالد لا يوافق على استقلال إبنه فى حياته ، أو أن يعطيه جـــزءا من الأرض يستغلها لحسابه .

قد لاحظ ذلك عمار أيضا ، فالأولاد المتزوجين لا يسمح لهم بملكية خاصة فى حياة والدهم ولذلك عليهم أن يعيشوا ويعملوا معه (١) . ولكن الخلاف على التوزيع فى الأسر التى لا تملك أرضا فان مداه ضيق ونتائجه مباشرة خصوصاً إذا اشتد الخلاف ، فيلجأ المتزوج الى الانفصال من الأسرة والاستقلال فى العمل والسكن ، وسواء كان الرجل يعمل بالزراعة عن طريق الايجار أو يعمل بغير الزراعة ، فهو يظل يعمل لأسرته طالما كان غـــير

---

1 — H. Ammar, Op. Cit., p. 45

متزوج (١) . وحالات انفصال غير المتزوجين سواء فى الأسر المالكة للأرض أو غير المالكة لها قليلة وتكون لأسباب فردية خاصة.

أما الاستهلاك فانه يتعلق بطبيعة المطالب والحاجات . وقد كانت فيما مضى بسيطة . ولهذا كان الاستهلاك فى أساسه ينصب على مواد المعيشة الضرورية ، وفيما يتعلق بغيرها كالكماليات فكان الطلب عليها قليلا جدا . ولكن إزدياد صلات المعيشة بالقرية والآثار المترتبة على ذلك جعل مطالب القرويين تزداد سواء فى المسكن أو فى الزراعة أو مطالب الحيـــاة اليوميـــة .

والجدول الآتى (٢) يوضح الى أي حد تنوعت مصادر الانفاق فى الأسر المختلفة بالنسبة لدخلها فى العام الواحد .

---

1 — M. Yang, Op. Cit. pp. 73 - 82

٢ — جمعت البيانات الواردة فى هذا الجدول بنفسى

مصادر الانفاق	أسرة غنية ٥٠ ف	أسرة فوق المتوسط ٢٠ ف	أسرة متوسطة ١٠	أسرة فقيرة فدان ،أقل
١ ـ الاثاث الحديث	١ ٪	١ ٪	٠ر٥ ٪	—
٢ ـ الإضاءة	٢ ٪	٢ ٪	١ ٪	٠ر٥ ٪
٣ ـ الملابس	٨ ٪	٦ ٪	٤ ٪	٢ ٪
٤ ـ الغذاء	٣٢ ٪	٥٣ ٪	٦٨ ٪	٨٨ ٪
٥ ـ المكيفات	٥ ٪	٤ ٪	٤ ٪	٨ر٥ ٪
٦ ـ الخدمات	٢ ٪	١ ٪	١ ٪	— ٪
٧ ـ أدوات الزينة	١ ٪	١ ٪	٠ر٥ ٪	— ٪
٨ ـ التعليم	٢٥ ٪	١٥ ٪	١٢ ٪	— ٪
٩ ـ التنقلات	٥ ٪	٣ ٪	٢ ٪	١ ٪
١٠ ـ مدخرات	١٩ ٪	١٤ ٪	٧ ٪	— ٪

ومن هذا الجدول تتبين التنوع الملحوظ فى الانفاق ووجوهه . فالتعليم والمواصلات والملابس والأثاث الحديث وغير ذلك مصادر جديدة لم تكن موجودة من قبل وتأخذ من دخل الأسرة نصيبا لا بأس به . ويلاحظ أن أغلب دخل الأسرة الفقيرة يصرف على الغذاء وليس لديها مدخرات ، فهى تكاد تحصل على ما يسد حاجاتها الأساسية البسيطة . وترتبط مصادر الانفاق بموضوع مستويات المعيشة .

وقد سبق أن أشرنا الى أن مستويات المعيشة القديمة لم تكن تختلف من

عائلة الى عائلة على الرغم من اختلاف توزيع الملكية . لأنهم جميعا كانوا يأكلون مواد مشابهة بحيث لم يكن هناك تمايز كبير بينها . أما اليوم فان اختلاف مستويات المعيشة واضح جدا خصوصا بين الأسر التى تملك أرضا كبيرة نسبيا ، والأسر التى تنقص عنها نقصا واضحا . ويمكن قياس مستوى المعيشة على أساس تنوع المواد الغذائية التى تستهلكها الأسر المختلفة فى غذائها ، وذلك كما فعل مارتن يانج M. Yang عند مناقشته مستوى المعيشة فى قرية تايتو Taitou بالصين . والجدول الآتى يوضح اختلاف مستويات المعيشة من ناحية تنوع المواد الغذائية خلال شهر واحد :

1 — M. Yang, Op. Cit , pp. 32—35

المواد الغذائية	أسر غنية ٥٠ ف	أسر فوق المتوسط ٢٠ ف	أسر متوسطة ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
الخبز ـ المصنوع من الاذرة	يستخدم مخلوطا الاذرة والقمح	يستخدم أغلب أيام الشهر	يستخدم طول الشهر	يستخدم طول الشهر
« المصنوع من القمح	ويستخدم القمح فى المناسبات والأعياد	يستخدم فى المناسبات والاعياد وأيام الخبز .	يستخدم فى بعض المناسبات	يستخدم فى العيدين
الباميا	تستخدم ١٠ مرات	تستخدم ١٠ مرات	تستخدم ٥ مرات	تستخدم مرتين
الملوخية	» » »	» » »	تستخدم ١٠ مرات	تستخدم ٥ مرات
البطاطس	» » »	» ٣ مرات	—	—
الأرز	» ١٨ مرة	» ١٠ »	يستخدم مرتين	—
المكرونة	» مرتين	» فى المناسبات	—	—
الجبن المملح	» مع الاكل	» مع الأكل	يؤكل فى الصباح	يؤكل بصفة دائمة
مستخرجات الألبان	تؤكل فى الصباح يوميا	تؤكل فى الصباح بغير انتظام	يؤكل فى الصباح بغير انتظام	—
الفطائر	تعمل أربع مرات	تعمل مرتين	—	—
اللحوم	تؤكل ١٥ مرة	تؤكل ١٠ مرات	تؤكل مرة واحدة	—
الدواجن	» ١٠ مرات	» ٥ مرات	تؤكل ٥ مرات	تؤكل فى المناسبات
الاسماك	تؤكل مرة أو مرتين	—	—	—
الفواكه	تؤكل فواكه الموسم	تؤكل فواكه الموسم	تؤكل بغير انتظام	تؤكل فى المناسبات

ويلاحظ أن الخبز ، المصنوع من الأذرة هو طعام الغالبية من السكان خصوصا الأسر الفقيرة والمتوسطة ولا يستخدم القمح فى صنع الخبز الا فى المناسبات والأعياد فقط ، كما أن الباميا والملوخية الخضراء والجففة هى الغذاء الرئيسى ، أما الأرز والمكرونة واللحوم والدواجن فان استخدامها مقصور على الأسر الغنية وفوق المتوسطة ، أما غالبية الأسر فانها لا تأكل اللحوم والدواجن الا فى المواسم والأعياد . وبصفة عامة يلاحظ بساطة المكونات الغذائية وقد ترتب على زيادة الاتصال بالمدنية فى هذه الايام تنوع المواد الغذائية ، ومع ذلك فانها لا تستخدم كقاعدة إلا فى الأعياد والمواسم أو لإظهار الكرم أو عند وجود ضيوف من خارج القرية أو المدينة . ولكن يلاحظ كقاعدة أن الأسر التى تستخدم اللحـــوم والبطاطس والأرز والمكرونة كمكونات لغذائها تعتـــبر أسرا ذات مستوى عال من المعيشة وكلما قل استخدام هذه المواد كلما دل هذا على انخفاض مستوى المعيشة حتى تصل الى الأسر الفقيرة التى تعيش فى مستوى الكفاف وتعتمد على المحاصيل الزراعية فى القرية فقط كالأذرة والجبن والباميا والملوخيـــة . وقد سألت عددا من القرويين عن سبب اعتمادهم على الأذرة فى صنع الخبز بدل القمح مع أن ثمنها متقارب ، ويزرعونها فى نفس الوقت فقالوا : إن الفرد يستطيع أن يأكل خبز الأذرة أكثر ما يأكل من خبز القمح » فكأن القاعدة هى الامتلاء .

إذن هل نجد فى القرى ملامح الطبقة على أساس ما لحق الحياتين الاقتصادية والاجتماعية من تغير ؟ إن الفردية والمصلحة وتفكك العائلة وروابط القرابة ، ونفتت الملكية ، والاعتماد المتزايد على السوق وتأثيرات المدينة والهجرة كل هذه مظاهر جديدة غيرت الى حد كبير من الأسس القديمة التى كانت

تقوم عليها الحياة القروية . فهل كان لها أثر فى اتخاذ الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية مظهرا محددا بحيث يسمح بوجود فوارق ظاهرة تقسم السكان إلى طبقات . الواقع أن تعريف الطبقة يقوم عليه خلاف كبير . ولهذا فان البحث عن الوجود الطبقي فى القرى على أساس التعريفات المتباينة قد يؤدي الى الخلط . ولكن يحسن هنا أن أضع مقاييسا موضوعية إذا انطبقت على حالات التمايز فى القري أمكن أن نقول بوجود الطبقات . هذه المقاييس ثلاث :

الأول مقياس اقتصادى ويستخدم فى قياس الأبعاد الاقتصادية بين السكان على أساس الدخل ومستوى المعيشة ومصادر الانفاق .

والثانى : مقياس اجتماعي ويستخدم فى قياس الأبعاد الاجتماعية التى تفصل بين الأفراد سواء اعتمد على القياس السابق أو على اعتبارات أخرى تتصل بالقرابة أو الانتماء إلى البدنات .

والثالث : مقياس سيكولوجى ويستخدم فى شدة الشعور المشترك الذي يربط بين المطبق عليهم المقياسان السابقان .

وعلى هذا الأساس نلاحظ أن الروابط الاجتماعية القائمة على أساس القرابة قد تفككت وحل محلها روابط المصلحة إلا أن الأفراد لا زالوا يقيسون بعدهم الاجتماعى عن غيرهم بمقاييس المركز القرابى ، ولهذا فان القروى الذى لا ملكية له وينتمى الى بدنة كبيرة يرفض أن يسوي بينه وبين آخر لا ملكية له ، ولكن لا ينتمى الى بدنة أو بدنة قليلة الشأن . وإذا أخذنا القياس الاقتصادى وحده فان القرويين لا يعتبرون أنفسهم

متساويين إذا تماثل مركزهم الاقتصادى . وعلى هذا الأساس فان الشعور المشترك لا يعتبر ضروريا فى قيام الطبقة من الناحية الواقعية لا زال غير واضح فى القرى تماما . ولهذا كان الوجود الطبقى من حيث المركز الاقتصادي قائم فعلا فى القرية ، وقد يظهر فى صورته الاجتماعية والسيكولوجية فى بعض الفترات ، ولكنه ظهور لا يلبث أن يختفى ، ولكنى لاحظت أن الطبقة بمعناها ومقاييسها السابقة تظهر فى حالتين :

الاولى : الأولى عندما يخرج القرويون من جميع البدنات جماعات للعمل فى تطهير الترع والمصارف ويقضون لذلك فترات تطول أو تقصر خارج القرية فيكونون جميعا مجموعة متجانسة تربطهم مشاعر واحدة . ولكن هذه الروابط الطبقية تتفكك حالما يصلون الى القرية ، وقد يكون شعورهم بالانتماء الى قرية واحدة ، هو الذى يوحدهم أكثر من الشعور الطبقى ولو أنه كان من الممكن ملاحظة جماعات القرويين فى أماكن عملهم البعيدة وملاحظة علاقاتهم خصوصا اذا كانوا ينتمون الى قرى مختلفة ، ومعرفة طبيعة مشاعرهم ككل لأمكن الحكم ، عما اذا كانوا يعتبرون أنفسهم برغم انتمائهم الى قرى مختلفة جماعة واحدة ، أم انهم يكونون جماعات منفصلة ، تحددهم الأبعاد القروية ؟

والثانية : عندما يهاجر القرويين ويستقرون بصفة دائمة فى أماكن عملهم الجديدة ، فانهم فى الغالب يكونون طبقة متمايزة بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية والاقتصادية فى القرية وقد زرت جماعة منهم استقروا فى منطقة « الزاوية الحمراء » فى غمرة بالقاهرة عدة مرات . ولاحظت شعورهم

بالإنتماء الشديد بعضهم للآخر من عدة نواح ، من حيث اشتغالهم بأعمال متشابهة كعمال للمصانع ، ومن حيث انتمائهم لقرية واحدة . حتى انهم يحرصون على عدم نقل المشاكل أو الخلافات التى قد تقع بين اسرهم فى القرية اليهم ، ويقولون « نحن هنا لا بد أن نعيش معا » أما فى القرية فهذا وضع آخر . ومع ذلك فقد لاحظت أنهم يكونون علاقات وثيقة مع غيرهم على أسس اقليمية ، ولهذا تشتد علاقاتهم ويتقاربون مع الأفراد الذين ينتمون الى قرى قريبة ، أو قرى تقع فى دائرة المركز أو المديرية . أى أن احساسهم « بالانتماء الاقليمى » لا زال عاملا هاما فى تحديد كثافة علاقاتهم ومداها بالتنبه الى مختلف الافراد الذين يعيشون معهم . وكقاعدة يمكن القول أن الرواسب التى لا تزال موجودة لأهمية روابط القرابة ، ولأهمية الانتماء الى القرية أو المركز أو المديرية ، تعمل على عدم قيام الطبقة بالمعنى الدقيق . وهذا وضع يختلف تماما عن ما هو موجود فى القرى الهندية التى يمايز الأفراد فيها على أساس انتمائهم الى طوائف معينة ، حتى أنه من الممكن أن تقسم الى طبقات على أساس الاختلافات الدينية والاجتماعية (١) .

...

التغير فى الحياة الإقتصادية لا يمكن فصله عن التغير فى العائلة القديمة ، أيهما أحدث أولا ، وأيهما أدى إلى تغير مصاحب فى الآخر ؟ وقد أشرت من قبل إلى امتزاج الحياتين الإقتصادية والاجتماعية فى العائلة واعتماد كل منهما على الآخر . حتى أن اتجاهات التغير فى كل منهما كانت متشابهة تقريبا . ولكن يلاحظ الآن أن كل تغير فى الحياة الاقتصادية تصاحبه تغيرات فى

1 — S. C. Dube, Indian village, London, 1956 p. 4.

الحياة الاجتماعية وخصوصا فى الأسر وعلاقاتها المختلفة بعضها بالآخر . حتى أنه من الممكن أن أزعم أن تغير الأساس الاقتصادي فى العائلة القديمة هو الذى أدى فى حقيقة الأمر إلى تفككها وإلى أزدياد مظاهر التفكك بمرور الزمن . فكلما تغير توزيع الملكية وكلما زاد تأثير المدنية والقانون كلما تغيرت الخصائص التى كانت تجعل من العائلة وحده من حيث العمل والانتاج وما تؤدى اليه هذه الوحدة من سلطة وقيم تمتد إلى الحياة الاجتماعية كلها . ولهذا كلما تفككت الروابط التى أدت إلى « كلية » العائلة كلما ظهر دور العوامل الاقتصادية عند البحث كعامل هام فى تدعيم هذه الكلية أو فى أختلال توازنها . ومهما كان الأمر ، فان هذا يكشف عن الإرتباط الوثيق بين العائلة والحياة الاقتصادية عند التغير . إذن ماهى الخصائص التى تميز الحياة الاقتصادية المتغيرة الآن بمقارنتها بالخصائص القديمة ؟ هذا ما سأعرضه فيما يلى . وينبغى أن أنبه هنا أننى أعرض لعمليات واتجاهات متغيرة لم تصل إلى مدى بعيد بعد بحيث يمكن الحكم على اتجاهاتها المستقبلة ، وانما اثبت الوضع كما هو الآن :

١ — التعقيد النسبى :

كانت بساطة الحياة الاقتصادية تقوم على أساس التوازن بين الحاجات المختلفة للقرويين وبين طرق اشباعها ، وذلك فى ظروف القرى آنذاك والتى أشرنا اليها تفصيلا من قبل . ولكن ظهر فيما بعد أن هذا التوازن أختل لعدة أسباب ، منها عدم كفاية طرق الأشباع القديمة لمواجهة المطالب المتزايدة وخصوصا الحاجات الأساسية للمعيشة . ولهذا تعقدت نسبيا الأسس العامة التى تقوم عليها الحياة الاقتصادية . فلم يعد العمل الزراعى هو العمل الوحيد الشريف ومع أنه لا زال يمثل الاتجاه الأساسى لنوعية العمل ، إلا أنه قامت بجانبه

أنواع أخرى متعدده كالعمل فى التجارة والصناعات التحويلية والبناء والنقل والخدمات العامة والإدارة . الأمر الذى أستدعى وجود مهـارات خاصة لم تكن مطلوبة من قبل فى العمـــل الزراعى الذى أستقرت طرائقه وأدواته وأصبحت متوارثة . كما أن الانتاج الزراعى نفسه تعرض لتغيرات هامة من حيث تنوع المحاصيل وتدخل الحكومة فى تحديد حرية القرى فى أن يزرع ما يشاء حسب خطته للمستقبل . كما أصبـح توجيه الانتـاج « الى السوق » أكثر من « الحاجة » . كل هذا أدى إلى تفكك الانتظام الذى تعوده القروى من قبل فى مكونات حياته الاقتصادية ، حتى أن العام الجديد ليس فى صميمه ترويدا مشابها للعام الذى مضى . فالزمن أصبح مصدر قلق . ولهذا فان الحياة الاقتصادية من حيث العمل والانتاج والكفاية تميل الى التعقيد .

٣ ـ اللاتجانس النسبى (١) :

سكان القرى جميعا كانوا « قرويين » أى مالكون لأرض يعملون فيهـا ، وزراعتها هى طريقتهم فى الحياة . ولم يخل بهذا التجانس وجـــود عدد من أصحـاب المهـن أو الحرف لأنهم من الناحية الاقتصادية كانوا معتمـدين على القرويين . وكانوا فى نظر القرية غرباء سمح لهم بالاقامة للحـــاجة إلى خدماتهم التى لا يفضل القروى القيام بها . ولكن التغير فى الحياة الاقتصادية لم يجعل الأرض جميعا ملكا للقرويين المقيمين بها ، بل نمت ظاهرة الملاك غير المقيمين Absenteeism (٢) ، ونلاحظ هنا أن أسباب وجود هذه الظاهرة

---

1 — R. Redfield, A village that chesé Progrese, chicago, 1956 p. 69 ويلاحظ الفرق فى اللاتجانس الذى ينمو فى القرى وبين اللاتجانس فى قرية شان كوم الذى كان نتيجة لهجرة العائلات منها واليها بين فترتى دراستها .

2 — Fei, chang, Op. cit, , pp. 6-7.

مختلفة عن أسباب وجودها فى القرى الواقعة حول بحيرة تاى Tai فى الصين . والتى ظهرت بسبب تدهور صناعة الحرير مما خلق أزمة اقتصادية ، لجأ معها القرويين الى بيع الأرض لتفادى المجاعة . كما انها ليست بالنمو الذى وصفه كل منه Chang , Fei . وترجع أساسا الى كثرة الديون التى تراكمت على بعض القرويين اثر الأزمة الاقتصادية العالمية فى عام ١٩٣٠ وما بعدها . والى بيع الأرض بسبب الهجرة أو سد نفقـات التعليم المتزايد فى القرى . وإلى جانب هؤلاء تزايد عدد غير المشتغلين بالزراعة وطريقتهم فى الحياة لا تقوم عليها مباشرة كالمشتغلين بالتجارة والصناعات وغيرها . كما أن ازدياد عـدد الافراد الذين لا يملكون أرضا جعل المراكز الاقتصادية والاجتماعية تمايز وما يترتب على ذلك من شعور بالأختلاف أكثر من الشعـــور بالمشابهة . هذا إلى أن السمات الثقافية للحياة فى المدينة أخذت تؤثر فى السكان بطرق متفاوتة . فبعض الأسر تقلد سكان المدينة ، وهى الأسر الغنية . وبعضها يقلد بقدر محدود ، وبعضها الآخر لا زال « قرويا » كما كان أجداده من قبل . ولا يقتصر اللاتجانس على نوع العمل أو الشعور بل يتعــداه الى شكل المساكن والملابس كما سنبين ذلك فى الفصل التالى . وكقاعدة يمكن القول أنه كلما زاد التغير فى الحياة الاقتصادية كلما زاد اللاتجانس نتيجـة لازدياد الفوارق بين سكان القرية .

٣ ـ الفردية :

ومن التغيرات الهامة التى لحقت الحيـــاة الاقتصادية ، تفكك المظهر الجمعى لها والذى كان مرتبطا بالعائلة القديمة . فالاتجـاه الآن إلى الفردية . فبواعث العمل الأساسية لم تعد لصالح العائله بل لصالح الفرد . وهو يسعى ما وسعه الجهد للوفاء بمطالب الحياة المتزايدة ويرسم خطتـه للمستقبل فى

حدود دائرة أسرته الضيقة ، وخارج حدود دائرة العلاقات القرابية ويشكل علاقاته مع الأفراد ومع مجتمع القرية ككل على أساس مصلحته المباشرة ، وتزداد ظاهرة الفردية وضوحا كلما زاد تغير الحياة الاقتصادية وخصوصا كلما تفتتت الأرض الزراعية وتوزعت على عدد كبير نتيجة لتطبيق نظام الوراثة الاسلامى . ولهذا أصبحت الأسرة هى الوحدة الاقتصادية فى بناء القرية الاقتصادى . ومن الطبيعى أنه فى العائلات التى لا تزال محتفظة ببعض خصائصها الاجتماعية والاقتصادية القديمة لا تكون الفردية واضحة على النحو السابق . بل لا زال التعاون الاقتصادى أساس علاقاتها الداخلية ولكنها تقوم على المصلحة الخاصة فى علاقاتها الخارجية بغض النظر عن النسق القرابى . ويقول حامد عمار فى ذلك على أساس ملاحظاته فى قرية سلوا « أنه ليس هناك تعاون منظم بين أعضاء » العائلة الممتدة الواحدة إذا لم يكونوا يعيشون فى بيت واحد » [1] ولكنه يقول « أن المعاونة الاقتصادية كاقراض النقود والحيوانات والمحاصيل يمكن أن توجد فى « العائلة الممتدة » ومع ذلك فانه لا يمكن الركون اليها فى العون الاقتصادى ، فالقوة الاقتصادية لمثل هذه العائلات والعلاقات المنسجمة بين أعضائها ليست كما اعتقاد أن يصورها كتاب الشئون الاجتماعية فى « مصر » . ثم يقول فى الهامش « أنه تأثر عن طريق ملاحظاته العامة ، أن العائلة الممتدة يبدو أنها أقوى وأكثر أثرا كوحدة اقتصادية من العائلات ذات الملكيات الكبيرة ، التى تختلف عن ما هو واقع فى سلوا التى هى مجتمع من صغار الملاك » [2] ، ولكن إذا لم تعش « العائلة الممتدة » تحت سقف واحد فى جمعية اقتصادية ،

---

1 — H. Ammar, op. cit , p. 44

2 — Ibid, p. 441 .

فانها لا تصبح « عائلة ممتدة » بل تكون أسرا بالمعنى الذى أشرت اليه من قبل واذا عاشت تحت سقف واحد مستقلة وحداتها الأسرية اقتصاديا ، فانها أيضا لا تكون « عائلة ممتدة » ايضا . ولهذا إذا ظلت العائلة بخصائصها القديمة نسبيا مهما كانت ملكيتها محافظة على وضعها القديم ، فانه لا شك من وجود التعاون الاقتصادى التام بين اعضائها . ولا يقتصر هذا التعاون على العائلات ذات الملكيات الكبيرة . والأساس هنا ، هو الى أى مدى استقلت الأسر اقتصاديا واجتماعيا عن العائلات القديمة . فكلما زاد الاستقلال كلما زادت الفردية وكلما كانت المصلحة لا القرابة أساس العلاقة . ولعل عمار عند بحثه فى سلوا لم يتبين بوضوح استقلال الأسر عن العائلات كما هو واضح فى القرى الثلاث التى تكون موضوع الدراسة هذه .

٤ — ازدياد أثر السوق :

كانت الحاجة والسوق والمركز اهداف الانتاج فى العائلة القديمة ، ولكل ناحية منها وظائفها الخاصة . وكانت طبيعة الانتاج الجمعية مع ظروف توزيع الملكية آنذاك عاملا هاما فى تدبير العائلة لأهداف الانتاج بحيث كان الاكتفاء الذاتى النسبى أهم ما تحرص عليه العائلة . ولكن اختلاف توزيع الملكية الآن بمعنى توزيع الأرض على عدد كبير من الاسر وصغر المساحات التى تملكها غالبيتها ، الى جانب وجود عدد كبير منها لا ملكية لها على الاطلاق جعل اهداف الانتاج تتغير بتغير هذه الظروف . خصوصا وأن الانتاج نفسه تنوع ولم يعد مقتصرا على الانتاج الزراعى بل شمل الانتاج الحيوانى والمنزلى . ولهذا يمكن القول أن المحاصيل المفضلة الآن فى القرى هى « محاصيل السوق » أو المحاصيل النقدية وأصبح امكان « بيع الانتاج » فى السوق باعثا هاما فى تنوع الانتاج والاعتناء بنواحيه المختلفة . ومثال

ذلك أن الانتاج الحيوانى من مستخرجات الألبان والانتـــاج المنزلى من الدواجن كانا يعتبران انتاجا لاستهلاك « الدار » وكانت العائلة تستخدمه فى مواد غذائها . ولكنها اليوم تقلل الى الحد الأدنى من استخدامه فى الغذاء وتعرضة فى السوق طالما سيحقق ربحـــا ماديا . وظهر اثر السوق أيضا فى انواع العمل غير العمل الزراعى وفى النشاط التجاري المتزايد الذي يقوم به « قرويون » اصلا . ومعنى هذا أن محاصيل الحـاجة وأن كانت لا تـكفى كـكل الآن . إلا انها فى نفس الوقت اصبحت محاصيل سوق ايضـا . وقد اشرنا من قبل عند مناقشة مستويات المعيشة أن الغالبية يصنعـون الخبز من الأذرة ولا يدخلون الأرز فى غذائهم إلا نادرا . ولهذا تعتبر محاصيل القمح والأرز الآن فى القـرى محاصيل سوق شأنها فى ذلك شأن القطن . وطبيعى أنه كلما زاد أثر السوق زادت المعاملات الاقتصادية على أساس الثمن. وأصبح القروى ينظر الى كل شىء مقدرا بقيمته النقدية ، وقد وجد ردفيلد مثل هذه الظاهرة فى قرية شان كوم Chan kom المتغيرة فالاثمان أصبحت شيئا عاديا ، كما أن المعاملات النقـدية صارت أكثر وضوحا مما كانت عليه .. وبالتدريج ايقن السكان أن لـكل شىء خـدمة أو مكانا مقـــابلا نقديا وأصبحت المعاملات تجرى على أساس التعاقد المـكتوب.

والناس فى القرية يتاجرون فى الخارج ومع بعضهم الآخر .. ولـكن النزعة التجارية لم تدخل الأسرة بعـــد (١) . وعلى أى حال فكلما زاد تغير الحياة الاقتصادية كلما زاد أثر السوق وما يستتبعه من معـاملات اقتصادية على أساس النقود . وكلما تحولت محاصيل الحاجة المؤدية للاكتفاء الذاتى

1 — Rr Rodfield. op. cit,, pp. 65—66 .

الى السوق ووصل اكتفاء الأسرة الى الحـــد الأدنى . أو بمعنى آخر زاد اعتماد القرية على السوق حتى فى مواد غذائهم الأساسية .

٥ ـ المصلحة اساس التعاون :

كان التعاون الاقتصادى يحقق اهـدافا اجتماعية ، لأن اغلب العائلات لم يكونوا فى حاجة حقيقية بعضهم للآخر . ولهذا كان التعاون فى العمل أو أهمية الهدايا الملزمة لا ينظر اليهما من الناحية الاقتصـــادية ، وانما كانا مظهرين للتضامن القرابى . ولما تفكـكت العـائلات وأنفصلت عنهـا الاسر مستقلة ، خاصة من الناحية الاقتصادية . أصبحت كل منها تسعى الى تحقيق مصالحها الاقتصادية بطريقة فردية . ولهذا يقسم الأخوة أرض الأسرة فور وفاة والدهم . ولا يميلون الى ابقائها « مشاعا » كما كانت من قبل . فكل فرد يريد أن يعرف نصيبه بالضبط من الملـكية وموقعه حتى يستطيـع أن يحدده . وقد يتم التعاون بين الأخوة فى النواحى الاقتصـــادية كالعمل وأدوات الانتاج ،ولـكن أقل خلاف من هذه الناحية يؤدى الى تفكك هذا التعاون . حقيقة أن التعاون فى هذه الحالة يبدو فيه « الزام القرابة » ولكنه ليس مثل الالزام القديم فى حالة العائلة . فالأسرة كـقاعدة تتعاون مع أى أسرة أخرى مهما كانت البدنة التى تنتمى اليها طالما أدى هذا التعـاون الى فوائد اقتصادية . ولهذا نقيس الأسرة بدرجة التعاون ونميل الى جعل قاعدة « المثلية » هى الأساس .

ومع هذا تختفى تدريجيا مظاهر التعاون القائم على المصلحة المتبادلة ويحل محلها بصورة متزايدة ، اداء الخدمات عن طريق الثمن . فالأسرة التى تحتاج الى يد عاملة تلجأ الى دفع مقابل العمل والحصول عليه من أى طريق . حتى أنه فى حالة الأدوات والآلات الزراعية فتؤجر للأسرة التى تحتاجها ومثال

ذلك أن بعض الأسر تشترك فى إقامة « طنبوشة أو ساقية » لرفع المياه من الترعة ، ويكون استخدامها قاصرا على هذه الأسر . فاذا أرادت أسرة أخرى مهما كانت درجة قرابتها لهذه الأسر استخدام هذه الآلات ، فانها أما أن تدفع مقابلا نقديا أو تؤدى خدمة مماثلة .

أما الهدايا الملزمة فقد ضاق نطاقها ولم تعد مقصورة على البدنة ، تدخل فيها الآن اعتبارات أخرى كعلاقات الجوار أو المصاهرات الخارجية . وتغيرت النظرة اليها . وأصبحت ذات أهداف اقتصادية أكثر منها اجتماعية . ولهذا ينظر اليها الآن من حيث الكم والكيف معا .

إذن فالتعاون من حيث المدى لم يعد مقصورا على المركز الفرابى ، بل يتم فى ضوء المصلحة الخاصة سواء فى داخل دائرة القرابة أو فى خارجها . ومن حيث أهدافنا فانه يحقق أغراضا اقتصادية تتزايد وضوحا وتحديدا كلما تغيرت الحياة الاقتصادية . ولقد ترتب على هذا أن تعاون البدنات القديم فى المناسبات والأعياد لم يعد ملزما للأسر . فالملاحظ أن كثيرا من الأسر ترفض أما لسوء حالتها الاقتصادية أو لتفكك روابطها بالأسر الأخرى ، أن تشترك بأى قدر فى هذه الظروف .

أما التعاون فى البيت فان الزوجة كقاعدة تفضل أن تتعاون مع جيرانها المباشرين أو مع قريباتها خصوصا اذا كانت تنتمى الى بدنة غير بدنة زوجها مهما كان بعد منزلها عن منازلهن . وكقاعدة يمكن القول أنه كلما زاد التغير فى الحياة الاقتصادية من خيث الاتجاه الى قلة الدخل ، كلما قل التعاون على أى صورة ، وأصبح « تقديم الخدمات » على أساس الثمن .

٦ – القناعة المتغيرة :

كانت القناعة مرتبطة بطبيعة العائلة القديمة وما توفره للفرد من أمن اقتصادى وإذا كان هناك من هذه الناحية فانه متصل برئيس العائلة أو السلطة فيها . وما كان يشرك أعضاء العائلة فيما يساوره من أفكار (١) . كما ارتبطت أيضا ببساطة الحياة وبساطة المطالب والحاجات بالتالى . ومن هنا كان الرضا بما « قسمه الله » يميز الحياة الاقتصادية القديمة . ولكن التغير أدى الى ظهور الفردية ، ووقعت مسئولية توفير مطالب الحياة على عاتق الأسرة . ولهذا فهى تسعى لكسب « القوت » على أساس مصلحتها الخاصة . ويتخذ هذا السعى صورة الكفاح المرير فى حالات الأسر الفقيرة وخصوصا التى لا تملك شيئا . ولهذا فان القلق الاقتصادى ظاهرة متزايدة . وقد كانت القناعة فوق هذا مرتبطة بما يتوقعه الفرد فى المستقبل ، ولم يكن يختلف كثيرا عما كان عليه . ولهذا فان المستقبل لم يكن يعنى شيئا أكثر من التقدم فى الزمن .

ولكن المستقبل يحمل فى طياته الآن « مجهولا » يقلق القروى كثيرا . وإذا كانت هناك « قدرية » من هذه الناحية فانها لا تؤدى الى القناعة وقد ترتب على ذلك أن القرويين يتنافسون الآن فى ميادين العمل المختلفة . فيتنافسون على إيجار الأرض ، ويتنافسون فى نواحى النشاط التجارى والمهنى وغير ذلك .

والقروى لا يكتفى إذا أجر أرضا أن يقصر المساحة على ما تسد حاجاته

1 — M. Yang, Op Cit., p. 73

ومطالبه ، بل يسعى الى المزيد لتوفير فائض الانتاج ، وهدفه فى النهاية أن يصبح من الملاك . ومن أبرز الظواهـــر على تزايد القلق ، تزايد حركـة الهجرة فى السنين الأخيرة ، والاتجاه الى تعليم الأبناء ، على أسـاس أن « تعليمهم » تأمين المركـز الاقتصادى لهم ولأسرهم الى جانب ما يحققه من « فوائد » اجتماعية فى مجتمع القرية المتغير ويظهر التبرم بالوضع الاقتصادى فى الخلافات التى تقوم بين الأزواج على أساس عدم القدرة على توفـير المطالب والحاجات المتزايدة ، أو على أساس النظر الى الغير . فالقروى يشعر فى أعماقه أنه لا يختلف عن غيره الذى يملك أرضا لا بأس بها . ولهذا من المسائل التى تلاحظ فى القرى الآن « كثرة الشكوى » سواء من الوضـــع الاقتصادى أو من « اتجاهات العلاقات الاجتماعية ،أو من السلطة . ولعل هذا يؤيد ما أذهب أنه بالرغم من تغير أسباب القناعة القديمة ، فان عكسها الان يتخذ مظهرا سلبيا أكثر منه ايجابيا . فكثير من القرويين الآن غير قانعين ولكنهم لا يعملون شيئاً . ولهذا إذا كانت القناعة المطلقة تميز الاقتصاد المطلق ،فان تغيرها الآن يعني أن اقتصاد القرية أخذ يتجه الى الخارج أى أن يصبح مفتوحا . وهذا واضح من اذدياد أثر السوق على الحيـاة الاقتصادية باستمرار .

ويتضح أكثر من الاتجاه المتزايد لتنويع الانتاج والاعتماد على مصادر أخرى غير الانتاج الزراعى ، الأمر الذى أتاح الفرصة ـ كما قال فى وشانج Fei, Chang (١) ـ للامكانيات الفردية فى الظهور . ولكن دور هـــذه الإمكانيات فى الاقتصاد المتغير لا زال محدودا جـدا حتى الآن والحالات

1 — Fei. Chang, Op. Cit., p. 84.

القليلة جدا التى يقوم فيها بعض الأفراد بمشروعات اقتصادية خاصة « كانتاج الطوب الأحمر » أو استغلال البيئة المحلية فى تطوير الأدوات والآلات على طرق جديدة فى الاستعمال لا تكشف عن اتجاه تام .

٧ – الاعتماد المتسع Large Scale dependence

إن اعتماد الأسرة أو القرية ككل فى ميدان الحياة الإقتصادية عـلامة من علامات التغير الإجتماعى . وكلما زاد الاعتماد كثافة ومدى زاد التغير . وضيق الاعتماد واتساعه هو الذى يميز المجتمعـات المغلقة (البـدائية) عن المجتمعات المفتوحة (الحديثة) (١) . ولهـذا كانت العائلة القـديمة ضيقة الاعتماد جدا نظرا لمظاهر الاكتفاء الذاتى ، على العائلات الأخرى وعلى مجتمع القرية ككل . وكـان الاعتماد فى جوهره غير قائم على اسس اقتصادية اكثر من قيامه على اسس اجتماعية تبـدو فيها أهمية عـلاقات القرابة . ونتيجة لذلك قل اعتماد القرية بالتالى على القرى المجاورة أو المدينة. ولكن التغيرات العديدة التى طرأت على الحياة الاقتصادية والتى أشرنا اليها من قبل ، غيرت من طبيعة الاعتماد . فالأسرة الآن تعتمد على القرية وعلى السوق وعلى المدينة . وتعددت صلاتها الاقتصادية بالخارج حتى شملت الدولة بأسرها فى كثير من نواحيها المتعلقة بنظم الحياة الاقتصادية .

فكثير من حاجات الأسرة، لا تتوفر الآن فى القـرية ، فتستوردها من السوق أو المدينة حسب الأحوال ، ويبدو أن تزايد اعتماد القرى على العالم الخارجى ظاهرة ملحوظة فى كثير من المجتمعات الريفية فى مختلف انحـاء

1— Godfrey & Monica Wilson, The Analysis of Social change, cambridge, 1954, 66. 25—30.

العالم فى اليابان والهند والصين والمكسيك . « فالقروى فى الصين يعتمد الآن فيما عدا المحاصيل والخضروات على أسواق المدينة أو المحلات التجارية فيها (١) . وعن طريق الدراسات المقارنة التى عقدها ردفيلد Redfield لعدة مجتمعات قروية مدروسة ، لاحظ أن ، « العلاقة بين القرية والمدينة ، تقوم على الصلة بالمؤسسات الإقتصادية ... فالمحاصيل تباع فى القرية أو فى أى مكان آخر لمشتر من مجتمع حضرى يدفع الثمن نقدا ... ولهذا فان الطابع الإقتصادى للقرية يتلخص فى أنه يجمع بين « الأخوة البدائية » للمجتمع غير المتحضر و بين الخصائص الإقتصادية للمجتمع المتمدن (٢) .

وقد كان اتساع الاعتماد المتزايد على السوق والمدينة عاملا هاما فى تغير عدد من مظاهر الحياة الإقتصادية القديمة . وخصوصا فيما يتصل بالمعاملات التجارية ، وتنوع المحاصيل خاصة تلك التى تجد رواجا فى المدينة، الى جانب ما اتاحه هذا الاعتماد من تغير نظرة القروى الى العمل أو ارتباطه بالأرض ، الأمر الذى أدى الى اقبال كثير من القرويين بصورة متزايدة على العمل فى أعمال غير العمل الزراعى ، والى اتاحة الفرصة للهجرة خصوصا الى الاماكن الصناعية ، أو التى تتطلب يدا عاملة بكثرة كما كان الحال فى معسكرات الاحتلال السابقة . وخلاصة الأمر أن نظرة القروى الى القرية كمكان اعتماد من حيث العلاقات الإقتصادية والاجتماعية على أساس كفاية حاجاته ومطالبه منها ، لم تعد محققة لما يريده . ولهذا زاد اعتماده على الخارج ،

---

1 — M. Yang, OP. cit. P. 198 ٬

2 — R. Redfield, The Primitive world and its transformations, New york, 1957, PP. 32—33.

وأخذت صلاته تتزايد بالقرى المجاورة والأسواق والمدن ان بقى فى القرية وتغير اعتماده نهائيا إذا هاجر الى مكان آخر . إذن فتغير الحياة الاقتصادية يؤدى الى ربط اقتصاد القرية المحلى باقتصاد أكبر حتى يصح القول بأنه يرتبط الآن بالاقتصاد القومى بأجمعه .

...

النتائج التى ترتبت على الحياة الإقتصادية المتغيرة واضحة الأثر جدا فى القرى . ونظرا للترابط الوثيق الذى كان قائما فى العائلة بين الحياتين الاقتصادية والإجتماعية ، فان النتائج التى ترتبت على تغير العائلة فى الحياة الاجتماعية هى نفسها النتائج التى ترتبت على التغير فى الحياة الاقتصادية . خصوصا واننى لا أستطيع أن افصل بين نواحي المجتمع الواحد المختلفة فهى جميعا مترابطة متساندة . ولهذا كان كل تغير فى أى ناحية لا يمكن أن يكون مفهوما إلا فى ضوء التغيرات التى حدثت فى النواحى الأخرى . خصوصا وأننى لم ألحظ تخلفا كما قال أجبرن Ogburn (١) أو عدم استواء Unevenness (٢) كما قال جودفرى ومونيكا ويلسون . فالفوارق البسيطة بين سرعة التغير فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية ، لم تخلق شيئا من هذا القبيل. ويمكننى أن أقول أن « الفردية الاقتصادية والاجتماعية » ذات اتجاهات وآثار متشابهة .

ولهذا كانت النتائج التى ترتبت على تغير العائلة مثل ازدياد التنقل

---

1 — W. Ogburn; Social Chage.

2 — Godfrey & Nonica Wilson, Op. Cit. pp. 163—165.

الاجتماعى ، واللاتثبتيه ، والاستقلال والتبعية وفردية البعد البنائى ، والهجرة الرأسية والأفقية ، والتفكك النسبى فى الفواصل ، هى نفسها التى ترتبت على تغير الحياة الاقتصادية ، حتى أنه يمكن القول أنه بالإضافة الى العوامل الخارجية ، كانت العائلة والحياة الاقتصادية وما لحقهما من تفكك متآزرتين فى إحداث هذه النتائج . وبجانب ذلك هناك عدة نتائج أخرى لتغير الحياة الاقتصادية ومع ذلك ليست هى العامل الوحيد فيها ، بل أغلب الظن أن دورها فيها أوضح من دور العوامل الاجتماعية الأخرى خصوصا وأننى أشرت إليها فى عدة مناسبات فى الفصل الخاص بالعائلة .

ـ الاتجاه الى التخصص :

هل تتجه القرية الى الترابط العضوى بدل الترابط الآلى القديم كما قال دوركايم Durkheim ؟ [1] هل هناك من مظاهر التخصص فى العمل ما يؤيد هذا الزعم ؟ . الواقع أنه كما أشرنا الى ذلك من قبل ، تغلب على القرى حتى الآن من حيث العمل ، العمل الزراعى . والمشتغلون بالزراعة يكونون الغالبية العظمى من الرجال والنساء القادرين على العمل . ولكن الإحصاءات تدل على تزايد عدد المشتغلين بمهن أخرى غير الزراعة ، كالصناعات التحويلية والبناء والنقل والخدمات وغير ذلك .

ومع أن كثيرين من هؤلاء يجمعون بين عملهم هذا والعمل الزراعى ، إلا أن نسبة منهم تتزايد الآن تقصر نشاطها الاقتصادى على مهنة واحدة من هذه المهن . ويعتمد القرويون عليهم فى مطالبهم المتزايدة [2] ، وتبدو

1 - Durkbeim, Op. Cit , pp. 70-130.

2 - Redfield, Op. Cit., p. 46.

ويلاحظ أن قرية شان كوم تعتمد على أصحاب الحرف أكثر من اعتمادها على المدينة بينما تعتمد القرى عليهم وعلى المدينة بدرجات متفاوتة وان كان الاعتماد على المدينة أكثر .

أهميتهم ودورهم الاقتصادى كلما زاد التغير وزادت المطالب ويظهر هذا فى قرية هلا التى يعيش فيها عدد كبير من الذين لا يعملون بالزراعة . وكقاعدة يعيش فى كل قرية من القرى الثلاث بجانب هؤلاء عدد من المعلمين والموظفين الذين يعملون بمدرسة القرية . كما أن اهتمام الحكومة المتزايد بالمشروعات العمرانية المختلفة سيؤدى فى المدى الطويل إلى ظهور التخصص واضحا فى القرى ، خصوصا إذا طبقت أنظمة الزراعة الحديثة . ومهما كان أمر التخصص الآن ، فان بذوره أصبحت موجودة وهى تنمو باستمرار كلما زادت نسبة عدد غير المشتغلين بالزراعة أو عدد الذين لا يقصرون نشاطهم الاقتصادى عليها .

٢ ـ الاتجاه الى التعليم :

أشرت فى الفصل الثانى الى الزيادة المطردة فى نسب الذين يذهبون الى مختلف مراحل التعليم فى المدن . ولكن ربط تزايد التعليم على هذا النحو بالعوامل الاقتصادية قد يبدو غريبا . ولكن الواقع أن أساس ادراجه هنا هو نتيجة لما يجرى فى أذهان القرويين ونظرتهم الفعلية لأهداف التعليم . حقيقة أن التعليم يحقق فى نظر القروى مزايا اجتماعية متعددة تتعلق أساسا بمركزه الاجتماعى الذى لم يعد يعتمد كثيراً على العلاقات القرابية . ولكنه من ناحية أخرى يحقق أهدافا اقتصادية ، أظن أنها الحافز الأول لاقبال القرويين على ارسال أبنائهم للمدارس . وقد ساعدت مجانية التعليم وتقليل نفقاته على زيادة نسبته من ناحية ، وعلى اسهام الأسر الفقيرة فى هذا الاتجاه .

والقروى الآن يبيع الأرض ليواجه اتجاه نفقات إبنه الذى يتعلم فى المدينة حتى يمكنه أن يعيش « مستورا » بعد ذلك . وهو يقرن التعليم بالوظيفة

وبدخلها الثابت » وينتظر دائما أن يساعده ابنه متى وجد عملا اقتصاديا . ويلاحظ أن نسبة الأسر المتوسطة أو الفقيرة التى تعلم أبنائها أكبر من نسب الأسر الغنية . وهذا يؤيد ما أذهب اليه عن القيم الإقتصادية المرتبطة بالتعليم الآن فى القرى . ويعمد كثير من القرويين الذين لهم أرض مهما كانت مساحتها الى التفرقة فى الميراث بين « الموظف » من أبنائه وبين من ظل « قرويا » فيخص إبنه القروى بنصيب أكبر . وقد يحرم الموظف اذا لم يساعده اقتصاديا كما كان يتوقع (١) .

٣ ـ ارتقاء مركز المرأة :

مع أن المرأة لا تزال نظريا تابعة للرجل ، عليها طاعته واحترامه ، وله عليها المركز الأول والسيادة . الا أن انفصال الأسر عن العائلات القديمة رفع من مركزها قليلا على أساس المسئوليات الاجتماعية التى أخذت تزداد مشاركتها فيها . ولكن ازدياد مسئولياتها الإقتصادية كان العامل الأول فى تزايد مركزها الآن . خصوصا اذا عرفنا أن القرى الثلاث تتكون فى أغلبها من أسر صغيرة الملكية . فالمرأة تهم بقدر متزايد فى العمل الزراعى كما أنها تقوم بقدر كبير من المعاملات التجارية مع الغير وفى السوق خصوصا فيما يتعلق بالإنتاج المنزلى من مستخرجات الألبان والدواجن . وغالبا ما تكون لها الحرية فى هذا الميدان دون حاجة الى الرجوع إلى زوجها . كما أنها تقوم مقام الرجل إذا مات بكل ما كان يقوم به من عمل فى الزراعة أو غيرها . وتصبح فى أغلب الأحيان مسئولة مسئولية تامة عن الأسرة من الناحية الاقتصادية .

١ ـ انظر الفصل الثالث .

والظاهرة الجديدة بالملاحظة أن الزوج يرجع الى زوجته لا فى المسائل الاجتماعية وحدها كزواج الأبناء والبنات ، بل فى المسائل الاقتصادية المتعلقة بالإنتاج والمعاملات الإقتصادية مع غيره ، وهى فى الغالب التى تحتفظ بالعقود أو النقود فى بعض الأحيان خصوصا بعد مرور عدة سنوات على الزواج ، وتكون قد أنجبت عدداً من الأولاد .

٤ ـ تناقص لعب الأطفال والكبار :

كانت العائلة القديمة توفر للصغار والكبار معا فراغا نسبيا يمارسون فيه ألعابا مختلفة ، وقد يستمعون فى بعض المناسبات الى أغان وقصص ومواويل وغيرها . ولهذا كان فولكلور القرية محفوظا ومتناقلا . كما أنهم بجانب هذا الفراغ كانوا الى حد ما غير مسئولين عن ضمان أسباب المعيشة فى العائلة ، لأن هذه كانت مسئولية السلطة وكبار السن . ولهذا لم يثقل كواهلهم الشعور بالقلق الاقتصادى وانعدام الأمن . أما الآن فالظاهرة التى لاحظتها عن كثب هى تناقص لعب الأطفال والكبار ، والإختفاء التدريجى لفولكلور القرية وازدياد الفولكلور القومى بصفة عامة نتيجة ازدياد آثار المذياع . فالأطفال الآن منهمكون فى العمل الزراعى ، وتزداد مسئولياتهم فيه ، كما أن كثيرا من الأطفال يعملون للغير . ولهذا قلت فرص الفراغ أمامهم ليمارسوا ألعابهم القديمة .

وهذا أيضا ينطبق على الكبار ، وتسليتهم الآن أما الجلوس للتسامر على « المصاطب » أو ارتياد « المقاهى » التى يزداد عددها الآن فى القرى . وبصفة عامة فان الكبار الموجودين بالقري سواء منهم من يعمل فى أرضه أو للغير ، يعمل طول اليوم ويعود بادى التعب فينام . ولكن فى فصل الصيف يتغير هذا المظهر خصوصا بالنسبة لأبناء القرويين الذين يتعلمون فى المدينة ،

فبعضهم قد يشارك فى العمل الزراعى أو فى أعمال الأسرة الأخرى غير الزراعة إلى حد معين ، والبعض الآخر يظل فى فراغ حتى يعود ثانيا الى المدرسة . ونتيجة لذلك يكثر اللعب ومظاهر اللهو الأخرى ، ويشترك مع هؤلاء فى أغلب الأحيان بعض رفقاء السن من القرويين .

٥ — تناقص الاهتمام بالشعائر الدينية الجمعية :

كان الاهتمام بالشعائر الدينية الجمعية من صفات العائلة القديمة . وقد أشرت فى الفصل الثانى إلى ارتباط إقامة الشعائر الدينية بالعائلة وبالحالة الإقتصادية ، وخصوصاً فيما يتعلق بالطرق الصوفية والموالد و « الحضرات » وغير ذلك . ولكن تفكك العائلة واستمرار الإنخفاض فى المستوى الإقتصادى ، جعل الاهتمام بهذه الشعائر يتضاءل ولم يعد لها المظهر الجمعى الذى كان لها من قبل . وقد تقيم بعض الأسر بعض الشعائر فى مناسبات مختلفة ولكنها تتخذ طابعا فرديا .

ومع أن تأثيرات المدينة والاذاعة والصحافة كان لها نصيب فى تناقص هذا الاهتمام وفى تغير النظرة إلى مضامين العقائد الدينية عامة . إلا أن العامل الإقتصادى كان له أثر هام فى وقت مبكر . فالاشتراك فى شعائر الطرق الصوفية أو فى الموالد كان يعنى تحميل العائلة القديمة نفقات متعددة ، كانت تسمح ميزانيتها وتمتاك بمواجهتها . أما الآن فان متوسط دخل الأسرة يتناقص ، وقد أشرت الى عدد الأسر الذى يتزايد ممن لا يملكون شيئا أو يملكون مساحات ضئيلة جدا من الأرض (١) . ولهذا فان قدرتهم الاقتصادية

١ — أنظر الفقرة (١) من القسم الثانى من هذا الفصل

حددت الى درجة كبيرة من استمرار إقامة الشعائر السابقة أو الذهاب الى الموالد وغير ذلك . ونظرا لتشابه مجموعات كبيرة من الأسر فى هذا الموقف، فان عدم الاشتراك فى هذه الطقوس لا يؤدى الى أى لوم أو جزاء اجتماعى، ولم يعد يدخل فى تحديد مركز الفرد الاجتماعى .

إذن فالاهتمام بالشعائر الدينية الجمعية أصبح الآن فى القرى مسألة فردية، ومع هذا فانه يتناقص بالتدريج ، كما أن التدين باعتباره قيمة اجتماعية أصبح مسألة تخص الفرد أكثر مما تخص الجماعة ومع ذلك ففى بعض الأحيان تكون سمعة الفرد المرتبطة بعدم التدين عاملا مهما فى تحديد علاقاته الإقتصادية مع الآخرين ، خصوصا اذا كان الأمر يتعلق بايجار الأرض أو استدانة نقود أو رهن .

٦ — تناقص تعدد الزوجات :

كانت العائلة القديمة تميل الى زيادة حجمها كما أشرت الى ذلك من قبل ، ولهذا الغرض كانت تلجأ العائلات فى بعض الأحيان الى تعدد الزوجات، خصوصاً إذا كانت الزوجة لا تنجب اطلاقا ، أو كان انجابها من الإناث أو لأسباب أخرى . وكانت طبيعة المعيشة الجمعية والقدرة النسبية للعائلات على إعالة كل أعضائها ، من الأسباب الهامة التى جعلت هذه الظاهرة تتردد كثيرا ، خصوصا وأنهم كانوا يجدون التبرير الدينى لذلك على أساس الشريعة الإسلامية . ولكن استقلال الأسر الاقتصادى وضآلة الملكية واستمرار الانخفاض فى مستوى المعيشة أدى الى تناقص هذه الظاهرة (١) .

١ — عدد حالات المتزوجين بأكثر من واحدة الآن (١٩٥٧) ١٨ فى القبطون و ٢١ فى كفر الشيخ و ٢٦ فى هلاء ، أما قبل ذلك فكان بكل قرية ثلاث أو أربع أضعاف ما هو موجود الآن تقريبا .

ولهذا تقل نسب المعددين للزوجات عاما بعد عام ، حتى فى وجود أسباب التعدد القديمة مثل عدم الإنجاب . فهناك فى كل قرية حالات متعددة ، من زوجين يعيشان معا الآن منذ فترة طويلة دون أولاد ، والرجل لا يفكر فى الزواج ثانية . ولكن إذا أراد الرجل الزواج مرة ثانية فالإتجاه الآن الى طلاق زوجته الأولى . ولهذا السبب ترتفع نسب الطلاق الآن عما كانت عليه من قبل . ولا يعنى ذلك الأسر الغنية فى القرى تعدد الزوجات فيها ، بل أن الإتجاه الآن هو أيضا الى الاقتصار على زوجة واحدة . كما أن هذا لا يعنى أن تعدد الزوجات على أى مستوى كانت فيه الأسرة من الناحية الاقتصادية أصبح أمرا مقضيا عليه . فبعض الرجال يعددون زوجاتهم حتى الآن . ولكن نسبتهم ضئيلة جدا حتى أنه يمكن القول أن تغير الحياة الاقتصادية المستمر واستمرار تأثير المدنية وانتشار التعليم سيؤدى الى جعل الطلاق هو الوسيلة المفضلة للزواج مرة ثانية بدل الجمع فى وقت واحد بين أكثر من زوجة واحدة .

...

القرى الثلاث كما أثبتت الدراسة الحقلية وتحليلها متشابهة أيضا كما تشابهت فى تغير العائلة والنتائج التى ترتبت عليها . ولهذا فان ما قلته عن الاختلافات النسبية بينها فى العائلة ينطبق أيضا على تغير الحياة الاقتصادية . وجدول المقارنة الاتى يوضح هذا القول .

الخاصية أو النتيجة	قرية هلا	قرية كفر الشيخ
الخصائص العامة	متشابهة تقريبا .	متشابهة تقريبا .
١ ـ التعقيد النسبي	نلاحظ زيادة فى الحاجات والمطالب ، وزيادة فى نسبة عدد غير المشتغلين بالعمل الزراعى ، الى جانب الاهتمام بالانتاج الذى تستهلكه المدينة كالفواكه والخضروات وذلك بسبب قرب القرية من المواصلات البرية والحديدية والمائية .	نلاحظ نفس الزيادة ولكن نسبتها أقل من القرية السابقة ، وهى مع ذلك أكثر من قرية القيطون بسبب القرب من المواصلات المختلفة .
٢ ـ اللاتجانس النسبي	اللاتجانس أوضح لكثرة العمال والموظفين ورجال الأمن والتجار ، والملاك الذين يقضون بعض الوقت فى القرية والبعض الآخر فى المدينة .	اللاتجانس اكثر وضوحا لازدياد نسبة المتعلمين وغير العاملين فى الزراعة واتساع نطاق ظاهرة الملاك الذين لا يعملون فى الأرض .
٣ ـ الفردية	مشابهة لقرية القيطون وتزداد نظرا لازدياد الاهتمام بالمعاملات الاقتصادية واشتداد النزعة التجارية .	مشابهة لقرية هلا . وأن كان استقلال الاسر الاقتصادى ومظاهر الفردية اكثر وضوحا . كما أن بواعث العمل أصبحت متعددة الأهداف .

الخاصية أو النتيجة	قرية هلا	قرية كفر الشيخ
٤ - ازدياد أثر السوق	السوق واضح جدا فى الانتاج الذى تنوع الى درجة أكبر من القيطون خصوصا فيما يتعلق بالانتاج الحيوانى . كما أن الثمن أصبح مظهر كل خدمة أو أى شىء مادى .	مشابهة لقرية هلا . ويهدف الانتاج أكثر الى السوق . حتى ان استغلال النقود على هيئة شركات بسيطة فى الانتاج الحيوانى ظاهرة واضحة فى هذه القرية عن قريتى قيطون وهلا .
٥ - المصلحة أساس التعاون	مشابهة لقرية القيطون ، وأن تميزت بازدياد المعاملات الاقتصادية عن طريق العقود والنقود حتى بين الأخوة . ولذلك فقد يثرى فرد عن طريق النشاط التجارى ولا يساعد أخاه الذى يعيش فى مستوى الكفاف . وفى بعض الأحيان يقبل العمل عنده نظير أجر معين .	مشابهة لقرية هلا . ويلاحظ أن النقود أى الثمن هو أساس كل خدمة أو أى مظهر تعاونى حتى بين الأخوة . فالموظفين الذين يملكون أرضا فى القرية يؤجرونها لاخوتهم القرويين أو لأقاربهم عن طريق العقود ولا يتهاونون فى تحصيل الايجار كله كما هو مكتوب فى العقد .
٦ - القناعة المتغيرة	المنافسة والسعى لاكتساب الثروة وعدم القناعة أوضح من قرية القيطون وهناك	السعى وراء المصالح المادية أمر متواضع عليه فى القرية ، وهم يتنافسون

الخاصية أو النتيجة	قرية هلا	قرية كفر الشيخ
	كثيرون يريدون الوصول الى المستوى الاقتصادى الذى وصل اليه البعض عن طريق التجارة وتأجير مساحات كبيرة من الأرض فى القرى المجاورة .	تقريبا فى كل شىء . فى شكل المسكن وفى طريقة اكتساب الثروة وفى التعليم وغير ذلك . والقرية عامة أكثر اتجاها الى الأهداف الدنيوية .
٧ - الاعتماد المتسع	أكثر وضوحا واتساعا من قرية القيطون نظرا لقرب وسائل المواصلات وللنشاط التجارى الداخلى والخارجى المتزايدين .	يزداد الاتساع لارتباط القرية بصلات متعددة بالمدينة عن طريق التعليم والحاجات والمطالب المتزايدة والتجارة .
النتائج العامة :	متشابهة تقريبا .	متشابهة تقريبا .
١ - الاتجاه الى التخصص	القرية أوضح وأسرع فى هذا الاتجاه من قرية القيطون . وعلى الاخص فيما يتعلق بالنشاط التجارى وبعض الصناعات كضرب الارز وطحن الحبوب ، ومستخرجات الألبان .	متشابهة مع قرية القيطون . أما الذين لا يعملون فى الزراعة ويتخصصون فى بعض الصناعات فانهم يميلون الى العمل فى المدينة لا داخل القرية كما هو الحال فى قرية هلا .
٢ - الاتجاه الى التعليم	مشابه لقرية القيطون ولكن يلاحظ أن نسبة التعليم أقل على الرغم من	يلاحظ ارتفاعا متزايدا فى نسبة المتعلمين واتجاهها أكثر من قريتى هلا

الخاصية أو النتيجة	قرية هلا	قرية كفر الشيخ
	أنها أسهل منها من حيث المواصلات . ويرجع هذا الى تفتت الملكية فى وقت مبكر وارتفاع نسبة الأسر الفقيرة .	والقيطون فى وقت مبكر الى التعليم ويرجع هذا الى جانب سهولة المواصلات الى صغر حجم القرية وعدم التفاوت الواضح فى توزيع الملكية بين الأسر .
٣ ـ ارتقاء مركز المرأة	مشابه لقرية القيطون . ولكن يلاحظ تزايد دور المرأة فى المعاملات الاقتصادية وفى العمليات الزراعية .	مشابه لقرية القيطون . ويلاحظ أثر ازدياد التعليم فى تدعيم مركز المرأة فى الأسرة الى جانب الميل المتزايد الى تعليم البنات .
٤ ـ تناقص لعب الأطفال والكبار	مشابه لقرية القيطون . ولكن يلاحظ وجود مقر المركز الاجتماعى فى القرية كان عاملا فى ادخال الالعاب الحديثة ككرة القدم وأقبال الشبان على تعلم هذه الرياضة، وخصوصا فى أوائل انشاء المركز . ويشتد الاقبال على الرياضة أثناء فصل الصيف .	مشابه لقرية القيطون . ويلاحظ أن القرب من قرية هلا كان عاملا فى مشاركة الشبان فى انواع الرياضة التى يشجعها المركز الاجتماعى كما أن الاقبال على اللعب يشتد أيضا فى فصل الصيف عندما يعود الطلبة من المدارس .

الخاصية أو النتيجة	قرية هلا	قرية كفر الشيخ
٥ ـ تناقص الاهتمام بالشعائر الدينية الجمعية	مشابه لقرية القيطون . وأن بقيت بعض المظاهر المحلية والتى تتناقص بالتدريج	مشابه لقرية القيطون . ولكن يلاحظ زيادة الاهتمام بالمسائل الدنيوية . وعدم الاهتمام الجمعى بالتدين الذى تتزايد النظرة اليه باعتباره مسألة فردية .
٦ ـ تناقص تعدد الزوجات	مشابه لقرية القيطون. ويلاحظ أن الذين يثرون عن طريق التجارة أو الصناعات المحلية يعددون الزوجات بقصد الوصول الى مركز اجتماعى بالانتماء الى بدنات قديمة ، خصوصا إذا كانوا أصلا من طائفة الحرفيين أو المهنيين . أو يتزوجون من المدينة للتشبه بسكانها .	مشابه لقرية القيطون. ولكن يلاحظ فى حالات التعدد القليلة أن القروى يتزوج من قرية أخرى أو المدينة . خصوصا إذا تغير مركزه الاقتصادى عن طريق التجارة أو الاجتماعى عن طريق التعليم .
٧ ـ الهجرة	مشابهة لقرية القيطون. ولكن يلاحظ تزايدا فى العدد ، وحدوثها فى وقت مبكر . كما أن اتجاه الهجرة كان ولا يزال أغلبه الى العمل الزراعى المؤجر ، أو ملكية ارض زراعية فى مناطق أخرى خصوصا فى شمال المديرية .	مشابهة لقرية القيطون . ولكن يلاحظ ان هجرة المتعلمين والعمال المهرة أظهر من غيرها لكثرة الذين يتعلمون فى المدارس فى مراحلها المختلفة وإقبال بعض القرويين على تدريب ابنائهم مهنيا فى المدينة وتفضيلهم العمل فى المصانع البعيدة أو القريبة .

من هذا الجدل يتضح تشابه الحياة الاقتصادية فى القرى الثلاث وخصوصا ما طرأ عليها من تغير نتيجة لتغير علاقة القرويين بالأرض، والتأثيرات الخارجية المتتابعة وأهمها تأثيرات المدنية والقوانين الحكومية المنظمة للانتاج الزراعى. ويعتبر تغير علاقة الإنسان بالأرض فى المجتمعات القروية عاملا هاما فى التغير وأداة صالحة لدراسة الحياة الاقتصادية المتغيرة [1]. كما أنها تلقى ضوءا متزايدا على تغير الحياة الاجتماعية المرتبطة بالحياة الاقتصادية فى مجتمعات صغيرة تعتمد على مهنة واحدة وهى الزراعة، ويكون التشابه واضحا بين الأفراد فى المهارات والقيم والنظرة الى الحياة، وفى كثافة العلاقات ومداها وفى دور الحياة التى يكاد كل فرد أن يمر على جميع مراحلها.

حقيقة أن القرى الثلاث ثبت أنها تنتمى الى نموذج واحد، وبذلك تكون دراسة الحياة الاقتصادية من وجهة نظر التغير مخالفة لدراسة فى وشانج Fei, Chang, من حيث أنهما اختارا عدة نماذج تختلف كل منها عن الأخرى فى علاقة الانسان بالأرض، ليتمكنا عن طريق الدراسة المقارنة أن يصلا الى تعميمات تصور التشابه أو الاختلاف فى الحياة الاقتصادية نتيجة لاختلاف النموذج [2]. إلا أن الغرض النهائى من دراسة هذا يتفق مع وجهة نظرهما خصوصا اذا كان الهدف دراسة التغير نتيجة الاختلاف.

فالقرى فى مرحلة ما قبل التغير تمثل نموذجا لعلاقة وثيقة بين الأرض والانسان، وفى مرحلة التغير تمثل نموذجا لعلاقة متغيرة بادية التفكك بين الأرض والإنسان أيضا. الأمر الذى كان من الممكن معه ادراك أسباب الارتباط وأسباب التفكك فى كل حالة على نحو ما أشرنا إليه. ونظرا لعدم

1 - Fei, Chang; Op. Cit., pp. 16-17
2 - Fei, Chang; Op. Cit., p. 16

وجود دراسات سابقة عن المجتمع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة منشورة بطريقة علمية كما هو الحال فى الصين، فان إجراء دراسة على النحو المشار إليه كان صعبا للغاية. ولهذا يمكن أن أعتبر دراستى هذه مرحلة أولى فى الدراسات المقارنة على أساس النماذج المختلفة للحياة فى القرية.

هذا الى أن الاختلافات فى تغير الحياة الاقتصادية بين القرى الثلاث لم يكن مرجعها اختلاف العوامل، أو اختلاف فى درجة انطباق النموذج على كل منها من حيث ارتباط الحياة الاجتماعية بالحياة الإقتصادية على أساس العلاقة الوثيقة بين الانسان والأرض فى مجتمعات متكونة من صغار الملاك. بل ترجع أساسا الى اختلاف فى سرعة التأثر نتيجة لظروف نسبية كالسهولة المتفاوتة فى المواصلات. ولكن ما لاحظته على تغير الحياة الاجتماعية ينطبق أيضا على تغير الحياة الاقتصادية من تطابق اتجاهات التغير، وتماثل سرعة العمليات التغيرية خصوصا فى الوقت الحاضر. حتى أنه لا توجد مظاهر تغيرية فى قرية لا نلاحظها فى القرية الأخرى.

الفصل الخامس

العائلة والثقافة المادية

١ ـ مقدمة

٢ ـ الثقافة المادية القديمة

ا ـ المسكن والأزياء وأدوات الاستخدام اليومى

ب ـ أدوات الزراعة

ج ـ تحليل ومقارنة

٣ ـ الثقافة المادية المتغيرة

ا ـ التغير فى المسكن والأزياء وأدوات الاستخدام اليومى وأثر المدينة

ب ـ التغير فى أدوات الزراعة

ج ـ تحليل ومقارنة

د ـ مقارنة بين قريتى هلا وكفر الشيخ

الفصل الخامس

العائلة والثقافة المادية

كثير من الباحثين في المجتمعات القروية فى كثير من أنحاء العالم ـ فى شاميربت Shamirpet نامهاللى Namhalli فى الهند ، وتايتو Taitou فى الصين وشان كوم Chan Kom فى المكسيك ـ أشاروا الى أن التغير فى الثقافة المادية كان أوضح مظاهر التغير الاجتماعى واتفقوا جميعا على ارجاع هذا التغير الى تأثيرات المدينة ، وخصوصا التكنولوجيا الحديثة. كما أن بعض هذه التغيرات قد تفرضها الحكومة (١) وبعضها الآخر يحدث نتيجة للانتشار Diffnsion (٢) أو الرغبة الايجابية فى التغير (٣) ولكنهم فى نفس الوقت يلاحظون أن درجة التغير فى أجزاء البناء الاجتماعى ليس لها نفس الوضوح وإن أشاروا الى عدد من التغيرات التى حدثت فى العائلة وفى العلاقات الاجتماعية بصفة عامة ، وخصوصا من حيث الكثافة والمدى . وعلى أى حال فوصفهم للتغير لم يلاحظ فيه اى مظهر للتخلف Lag أو عدم الاستواء Uneveness ، مما يدل على أن التغير فى الجانبين المادى واللامادى من المجتمع لا يسيران غير متوازيين الأمر الذى يترتب عليه اختلال التوازن .

---

1 -J. Embree, A Japanese Village, Suye Mura, London, 1946 pp. 223-227

2 - M. Yang, Achinese Village, London, 1947, p.. 250; Dube; Indian Village, London. 1956, p. 216

3 - R. Redfield A Village, that Chose, progress. Chicago 1947, pp. X, 9,12,25,46,69.

والواقع أن التغير فى المجتمعات القروية ، يختلف عن التغير فى المجتمعات البدائية ، من حيث الدرجة والسرعة . ففى المجتمعات البدائية يكون اتصال البدائيين بالثقافة الأوربية وخصوصا النواحى التكنولوجية فيهـــا مباشرا وكثيفا ، الأمر الذى يؤدى الى سرعة أكبر فى تغير المظاهر المادية عن المظاهر اللامادية ، الأمر الذى يؤدى الى وجود احتمالات لعـدم الاستواء ، كما أن تأثير التكنولوجيا فى المجتمعات الحديثة وخصوصاً الاختراعات التى تتجمع بسرعة فائقة يكون من الشدة بحيث لاتلحق بها التغيرات فى الجوانب اللامادية ، ولذلك تكون هناك احتمالات كثيرة ، كما قال أجبرن Ogburn للتخلف الثقافى Cultural lag ، ولـكن المجتمعات القروية غالبا ما تقع نسبة كبيرة منها بعيدة عن المدن ومراكز الصناعة ، ولذلك يكون تأثير المدينة والطرق والمناهج الحديثة للعمل أو الحياه ، لا يؤدى الى تغـيرات هامة فى الثقافة المادية بحيث تبدو معها المظاهر اللامادية قـديمة غير متوافقـة . فالتغيرات المادية تحدث فى القرى على فترات تختلف طولا وقصراً وبدرجات متفاوتة فى الصغر . بل أن مظاهر التغير الاجتماعى فى القرى الثـلاث بدأت تنضج فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وتزداد بمرور الزمن ، قبل أن تتأثر الثقافة المادية تأثرا ملحوظا .

وكل ما فى الأمر أن اهتمام الباحثين بقياس وتحديد التغيرات المـادية يرجع الى سهولة ادراكها أكثر من إدراك البناء الاجتماعى الذى يكون على درجة أكبر من التعقيد . ولهذا قد ترجع فكرة التخلف الى صعوبة قياس التغيرات الاجتماعية بحيث يمكن مقارنتها عدا وقياسا بالتغيرات المادية . وقد سبق أن ناقشت هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى الباب الثانى ولـكنى أحب أن أضيف هنا الى أن دراسة الثقافة المادية فى المجتمعات

البدائية والقروية تعتبر بداية موفقة لدراسة المجتمع لأنها تؤدى الى سلسلة من المداخل تنكشف معها كل الأسس التى تقوم عليها الحيـاة الاجتماعية . ومعنى هذا أن الثقافة المادية فى المجتمع القروى مثلا مرتبطة إرتباطا وثيقا بنظام الحياه الاجتماعية الذى يكون على صلة تتفاوت شدة بالبيئة التى يعيش فيها هذا المجتمع .

ويقول ردفيلد «أن الباحث ليفهم الطابع المنظم لحياة أى مجتمع لا يستطيع أن يبدأ فى كل مكان ، فلا بد له أن يبدأ من نقطة معينة ... وعادة تكون البداية بالأشياء المباشرة الوضـــوح ، وأهمها المساكن والأدوات ... وإذا نظرنا الى المنشور عن الحياة البدائية أو القروية ، فاننا نجـــد فى أوائل الصفحات أوصافا للعمل والأرض ... هذه الأشياء واضحة وفهمها إسهل نسبياً . لـكن الباحث لا يبدأ بهذه الأشياء المادية المرئـية لسهولة إدراكها ووصفها فقط كما قال ردفيلد . بل لأنها فى المجتمعات الصغيرة البدائيـة أو القروية خصوصا فى فترات ما قبل التغير ـ أى المراحل التاريخية ـ تعـتبر المظهر الأول للتفـاعل بين البيئة والإنسان . وتكشف الى أى حـد يتوافق الإنسان مع الظروف المحلية التى يعيش فيها ، وكيف يكيف حياته فى مظاهرها المختلفة ليضمن الوفاء بمطالب الحياة الأساسية . ولهذا كانت علاقة الانسان بالطبيعة فى فترة ما قبل التغير عاملا أسياسيا فى فهم ثقافته المادية . الأمر الذى اعتقد معه أن نقد ردفيلد لايفانز بريتشارد Evans-Pritchard عنـد دراسته للنوير Nuer فى الربط بين الطبيعة Nature وبين النشاط الإنسانى فى الحياة الإجتماعية (١) . فيه مغالاة . حقيقة أن فهم القرية ككل من خلال

---

1 - R. Redfield, The Little Community Viewpoints the study of a human Whole, Chicago. 1966, p. 19

علاقة الإنسان بالإنسان أمر جوهرى ، ولـكن القـــرية كـكل من حيث طبيعة الحياة والعمل والثقافة المادية ، لا يمكن أن تفهم إلا من خلال علاقتها بالطبيعة .

إن القرية الآن قد ينطبق عليها ما يذهب اليه ردفيلد من حيث فهمها ولـكنها قبل ذلك ومع علاقاتها التاريخية بالمجتمع الـكبير التى هى جزء منه قد تـكون معتمدة عليه فى عدة نواح ، فانها كانت شديدة الصلة ،وشديدة الاستجابة ، وشديدة التوافق مع البيئة المحلية التى كانت تعيش فيها ،والمقياس هنا هو درجة الاعتماد ([1]) كما ذهب الى ذلك جودفرى وموتيـــكا ويلسون Godfrey & Monica Wilson فمجتمع النوير والقرية القديمة كانت أبعاد اعتمادها ضيقة جدا من حيث الانسان والمـكان ، ولهذا كـان تأثير المـكان (الطبيعة) والإنسان (الأقارب) هما المحددان لحياته الاجتماعيـة ، وكانت الثقافة التى هى التفاعل والتوافق بين الانسان والمـكان هى ثقافـته . ولما تغيرت هذه الأبعاد بالغزو الأوربى (النوير) وتأثير المدنية وتغير الحياة الاقتصادية (القرية) اتسعت هذه الأبعاد ، فاتسع نطاق الانسان ، واتســع نطاق المـكان ، ومن ثم أصبحت علاقات الإنسان بالإنسان عاملا هاما الآن فى فهم مجتمع القرية والمجتمع البدائى على السواء .

إذن فالثقافة المادية فى ارتباطها بالعائلة التى تعتبر وحدة الحياة الاجتماعية والاقتصادية أو وحدة البناء الاجتماعى والاقتصادى تصور فى فترة ما قبل التغير مظاهر تكيف الإنسان فى علاقته بالبيئة ، وفى الفترة المتغيرة ،تصور علاقة الإنسان بالإنسان ـ أى امتداد علاقـة الانسان المحلى بغـيره فى

---

1 - Ibid, pp. 32-33.

أماكن مختلفة وفى المدينة بوجه خاص ، وما ترتب على هـذا الازدياد من تغيرات انعكست على ثقافته المادية .

أولا ـ الثقافة المادية القديمة

الأرض الزراعية الخصبة ، والمناخ المعتدل ، وانتظام مياه الرى ، وطبيعة الأرض المستوية والحياة الجمعية فى العائلة مع قلة الاتصال بالخارج ، كـل هذا جعل الثقافة المادية من حيث المسكن والطعـام والأدوات والصناعات المحلية ، وطريقة الانتقال ، والفنون المختلفة تتخذ طابعـا معينا . فالأرض الزراعية ألزمت القرويين البقاء بجوارها بصفة دائمة لرعايتها . وطبيعة الأرض المستوية جعلتهم يبنون مسا كـنهم وسط الحقول ، ودورة المناخ المنتظمة جعلتهم فى بناء هذه المساكن يراعون مناسبتها لتقلبات الجو ، ونظام مياه الرى على أساس رفعه من مجاريه ، جعلهم يهيئون وسائل الرى لتناسب هذه الاعتبارات وطبيعة الأرض الطينية جعلهم يستخـدمون أدوات تتفق مع « تقدمهم » فى وسائل الإنتاج المختلفـة ، وانقسام العام الى فصول مناخية الى جانب العمل الزراعى جعلهم يناسبون أزياءهم لتتوافق مع هذه الظروف ونظرا لقلة حاجتهم للانتقال الخارجى جعل « الحمار » بجانب استخدامه فى الأعمال الزراعية وسيلة الانتقال الأولى . هذا الى أن قيام حياتهم الاقتصادية والاجتماعية على أساس المعيشة الجمعية فى العائلة ، جعل مضمونات الثقافة المادية تتخذ مظهرا عائليا متوازنا . فـكل هـذه المظاهـر من مساكن وأدوات وطرق استعمالها أثبتت كـفايتها بالتجربة الماضية للنهوض بمطالبهم البسيطة وناسبت طريقة العمل وأهدافه .

...

مسكن العائلة هو مكان « إيواء » مكوناتها المادية من البشر والحيوان والأدوات والمحاصيل . « والمتاواه » كوظيفة للمسكن،تكشف عن سبب عدم اهتمامهم فنيا فى العائلة أو فى القرية بتنسيق المساكن داخليا أو اعطائها مظهرا جماليا خارجيا . وإنما كان الاهتمام الأول يتعلق بالحجم . ولهذا لا توجد فوارق ظاهرة بين مساكن العائلات إلا من حيث الحجم . وفى هذه الحالة يرتبط الحجم ، بحجم العائلة وبمساحة الأرض التى تملكها : وكقاعدة كلما زاد حجم العائلة وزادت مساحة أرضها كلما زاد حجم المسكن . ولذلك كانت مظاهـــر التفاوت الحجمى تقوم على كبر أو صغر المساحة التى يشغلها المسكن وعدد الحجرات الداخليـة واتساع « وسط الدار » وحجم حظيرة الماشية ، ومساحة الباب الخارجى .

ويقع مسكن العائلة فى نطاق المنطقة التى تشغلها البدنة من القرية ، والتى كانت تجاور مباشرة أرضها الزراعية . وكانت هذه قاعدة مرعيـة فى كـل البدنات ، فلم يحدث ان وجدت عائلة يقـــع مسكنها وسط مساكن بدنة أخرى . والعائلة فى جوارها للعائلات الأخرى من نفس البدنة كانت تشعر بالأمن والحماية . هذا وتنقسم المنطقة المخصصة للبـــدنة الى « حارات » وتسمى الحارة الأكبر باسم البدنة . ولا يعنى هذا أن هناك فواصـل بين مناطـق البـدنات السكنية ،فالقرية متصلة من هذه الناحية ، ولذلك تتلاصق المساكن ، الأمر الذي كان يؤدي الى بعض الخلافات بين البدنات نظـــرا لهذا الجوار .

ويمر بالقرية شارع دائرى يسمى « داير الناحية » تمر فيـــه فى الغالب مواكب الجنازات والأفراح ، ولا يستخدمه القرويون فيما عـدا ذلك إلا

نادرا ، لأن كـل بدنة تستخدم منه الجزء المواجه لمنطقتها فى الوصـول الى الحقل صباحا أو رجوعه بها مساء خوفا من الحسد والعين الشريرة .

وفى بناء المساكن كان القرويون يعتمدون اعتمادا تاما على البيئة المحلية . فالغالبية العظمى من المساكن تبنى بالطـوب « اللبن » الذى يصنع إما من الطمى المتخلف فى الترع أو من « الردم » المتخلف من عمليات تسوية الأرض مضافا إليه فى الحـــالتين « التبن » أو بعض الأعشاب الهشة . ويقومون « بضرب الطوب » فى فترة الجفاف حيث تـكون الأرض خالية من المزروعات والعمل الزراعى قليل . والأخشاب اللازمة للسقف أو الباب فانها تؤخذ من الأشجار التى تنمو بكثرة على أطراف الحقول أو على جانبى الـترع ، وعلى الأخص أشجار السنط والـكازورين . وليس من المهم أن تـكون الأخشاب مستقيمة بقدر ما تـكون موافقة لطول أو عرض الحجرات، ويغطون السقف بالبوص أو الغاب ثم بطبقة من الطين . ويشترك فى عملية البناء النجار والبناء والقرويون أنفسهم من الرجال ، أما النساء فان عملهم يقتصر بعـد ذلك على طلاء المسكن من الداخل أو الخارج بالطين المخلوط بالتبن .

والمظهر الخارجى يميل الى الخطوط المنحنية أو الدائرية ، ويظهر هذا على الخصوص فى النوافذ والأبواب . والباب عبارة عن عدة ألواح من الخشب السميك متلاصقة على هيئة مستطيل ، يغلق « بضبه » من الخارج « وبسقاطة » من الداخل . والأبواب الداخلية تصمم على نمط الباب الخارجى وإن كانت أصغر . ويلاحظ أن العائلة تخصص حجـــرة لـكل إبن متزوج من أبنائها وتحرص الزوجة فى هذه الحالة على غلق الباب من الخارج أو من الداخل على حسب الأحوال .

أما النوافـــذ فانها عبارة عن فتحات دائرية أو مستطيلة فى أعلى الحائط تسد بالخرق البالية فى الشتاء ، ولم تكن تصمم فى البناء إلا لأغراض التهوية أو إخراج الدخان فى الشتاء خصوصا فى الحجر التى يكون فيها فرن ، ينام على سطحه الأفراد لغرض التدفئة . وقد يكون باب الحظيرة مماثلا لباب المسكن ولكنه فى الغالب عبارة عن مجموعة غير منتظمة من الألواح الخشبية تقوم بعناية حاجز يمنع الماشية من الخروج، ولكنه لا يمنع الحيوانات الصغيرة أو الدواجن التى تشاهد فى كل مكان فى المسكن .

والتنظيم الداخلى للمساكن متشابه . ففى كل مسكن مساحة خالية تتوسطه تسمى « وسط الدار » غير مسقوفة ، وتقع حولها الحجرات المختلفة وحظيرة الماشية . ومهما تعددت الحجرات باختلاف حجم العائلة فانها على نمطين : الأولى هى « القاعة ذات القبة » وتستخدم فى الشتاء وتصميمها يقوم على بناء « فرن » مسقوف بداخلها وتغطى بطبقة سميكة من الطين ، والثانية ، « المندرة » وهى حجرة تستعمل فى الصيف أو لاستقبال الضيوف . وفى الشتاء يصنعون الخبز فى القاعة ، وفى الصيف يصنعونه فى الفرن الذى يوجد غالبا فى ناحية أو ركن من وسط الدار ، ويجاوره « الكانون » الذى يستخدم فى طهى الطعام . ويوقد كلا من الفرن والكانون بالأحطاب ونوع من الوقـــود مصنوع من روث الماشية المخلوط بالأعشاب أو القش . ويقولون أنه يعطى حرارة أشد ، ويستمر فى التوهج مدة أطول.

أما حظيرة الماشية فانها تقع فى نهاية « وسط الدار » من الخلف إذا كان المسكن لا يقع فى طرف القرية ، وإلا كانت بجوار الباب مباشره . ويرجع ذلك إلى خوف العائلة من اللصوص الذين « ينقبون » أى يفتحون جزءا

فى الحائط ويخرجون منه الماشية . ويوجد فى داخل الحظيرة أو بجوارها حجرة صغيرة لحفظ اللبن والبيض . وغالبا ما تستخدم بعض حجـرات المسكن لتخزين التبن أو القطن أو الحبوب اذا لم توضع على السطح فى صوامع خاصة على هيئة مخروط له فتحة علوية وسفلية :

ويتميز أثاث المسكن بالبساطة . وتبدو الفوارق بين العائلات فى استخدام الحصير أو المراتب للنوم حسب ثروتها ، وكذلك الشأن فيما يتعلق بالأغطية أو الوسائد. وهذا ينطبق أيضا على الإضاءة وأدوات المطبخ والأكل. فالعائلات الغنية تستخدم المراتب والأغطية الصوفية والقطنية ووسائد الرأس فى النوم والأوانى النحاسية والأطباق المصنوعة من النحاس أو الصاج فى الأكل . أما العائلات الأخرى فانها تختلف فى استخدام هذه الأنواع حسب قدرتها الاقتصادية . فالعائلات الفقيرة يستخدمون الحصير والأغطية الصوفية فى النوم، يستخدمون الأوانى الفخارية والأطباق الخشبية فى الأكل . وقد سبق أن أشرت فى الفصل الرابع الى الفوارق بين العـائلات فيما يتعلق بمستويات المعيشة خصوصاً فى الطعام .

وكقاعدة يستمد الأثاث والطعام من البيئة المحليـــة أو من التجار المتجولين الذين يترددون على القرى بين الحين والآخر . والاختــلاف بين العائلات هو اختلاف فى الكم والكيف بحسب الحجم والمركز الإقتصادى . وفكرة القرويين عن الأثاث مرتبطة « بحط الجنب » أى بالراحة . والراحة فى أن ينام المرء فى أى مكان « خالى البال ، وقد كانت العائلة من حيث طمأنينة الفرد توفر له أكبر قدر منها . ولهذا لم يلق بالا الى تنوع الأثاث أو مراعاة شروط معينة فيه .

ويلاحظ أن القروى لا ينام فقط فى المسكن ، بل إنه ينام فى الحقل أيضا تحت شجرة أو فوق حظيرة الماشية أو بجوارها . ولهذا كانت بساطة الأثاث مرتبطة بمجموع القيم والنظـــرة الى الحياة . فمطالب القروى الأساسية وأمانيه لا تتعلق بتأثيث المنزل ، وإنما تتعلق كما أشرت إلى ذلك فى الفصل الثالث بالمهارة وكثرة الإنجاب وفائض يحقق له أهدافه الأساسية كشراء أرض جديدة . أما الطعام فانه مرتبط بفكرة « الامتلاء » .

حقيقة أن القروى يحب تنوع الأكل واحتوائه على الدسم وعلى الأخص اللحـــوم . إلا أنه لا يعلق أهمية كبرى على نوع ما يأكل ، بل ان بعض المأكولات ترتبط ببعض الشعائر والمـواسم الدينية «كالفتة والمفروكة» وغير ذلك . كما أنه لا تكون لديه فكرة عن المواد الغذائية الموجـودة فى بعض أنواع الأطعمة دون غيرها . ويلاحظ أن القـرويين لا يأكلون فى الصباح وطوال النهار إلا الخبز والجبن أو بعض مستخرجات الألبان الأخرى . وقليلا ما يتناولون طعاما مطهيا كالباميا والملوخية إلا فى العشاء عندما يعودون إلى الدار ، والعشاء الوجبة الرئيسية للعـائلة . وفى كل من الوجبات يستهلكون مقادير كبيرة من الخبز الذى يعتبرونه المادة الرئيسية فى الطعام . وجميع المواد الداخلة فى طعامهم ترتبط ببعض العقائد الدينية فهى « نعمة » ولذلك لا يجوز تحقـــيرها أو التبرم بها إذا تكـررت لفترات طـويلة .

ولـكن أكثر هذه المواد « قداسه » هو الخبز . فلا يسمح بالقاء الخبز على الأرض ، أو إعطائه للـكلاب إلا بجوار الحائط ،حتى لا تطؤه الأقدام، ويحرص القروى على إلتقاط فتات الخبز من الأرض إذا وجـدها ملقـاة ،

وينفض عنها التراب ويقبلها ، ويبقيها معه أو يضعها بجـــوار حائط . ولا يتنوع الطعام أو تزاد كمياته إلا لإظهار الكرم والمركز الاجتماعى أثناء الضيافة ، وفى المواسم والشعائر الدينية والأعياد . ويرتبط هذا المظهر بميل القرويين الى « عرض الطعام » حين يضعونه على « صوان » كبيرة تحملها النساء إلى أماكن الضيافة أو الاحتفال بحيث يمكن أن يرى كل فـــرد كميات وأنواع الطعام الذى تقدمه العائلة .

والملابس للرجال والنساء والأطفال تتميز بالبساطـة والشكل الفضفاض . وتميل الى البياض أو الزرقة عند الرجال ، والى السواد عند النساء . ولـكن ملابس الأطفال تكون ذات ألوان زاهية . وتشـابه ملابس الكبار كلما اقتربوا من مرحلة النضج أى قبل زواجهم مباشرة . وعادة ما يخلع الرجل رداءه الخارجى أثناء العمل الزراعى ، ويبقى بملابسه الداخليـة التى أهمها السروال الذى يغطى معظم الساق . وتختلف أغطية الرأس عند الرجال من الطاقية الى اللبدة أو العمامة ، ولما كـانت الغالبية يسيرون حفاة ، فانهم فى أحذيتهم يفضلون الحذاء « أبو ابزيم » وهو حذاء يغطى القدمين وجزءا من الساق . ولا يتزين الرجل على الإطلاق . أما النساء فيتحلين بالذهب حـول الرقبة وعلى الصدر والأذنين ، ويلبسن الخلخال . ويلاحظ أن خلخال المتزوجة يكون اسمك من خلخال البنت البكر . وتضع السيدات من كبيرات السن غطاء للرأس يسمى « ملسا » أما الأقـل سنا فتضـع غطاء يسمى « تليه » . وهذا بخلاف المنديل البسيط المطرز الذى « يعصبن » به الرأس. ويلاحظ أن تغطية الوجه ليست قاعدة عامة ، فالبنت غالبا لا تغطى وجهها . أما اذا تزوجت فانها تغطى وجهها عند سيرها خصوصا اذا صادفت رجلا أو مجمـوعة من الرجال فى طريقها . والنساء عامة يغطين الفم عند التحدث مع الرجـال من

المحرمين . ومع هذا فانه اذا كان هناك اختلاف من حيث النوع فى ملابس العائلات على أساس مستواها الاقتصادى ، إلا أنه يلاحظ أن الفوارق ليست واضحة تماما . ولكن التمايز يقوم على أســــاس السن . فالكبار يعتنى بملابسهم أكثر ممن هم أصغر منهم سنا خصوصا وأنهم يمثلون العائلة ، وهم الذين ينوبون عنها فى المناسبات المختلفة كما أنهم هم الذين يستقبلون الضيوف ، ويقومون بالدور الأول فى العلاقات الاجتماعيـة فى حالات الزواج أو الخلافات . وعندئذ تكون العناية بالملابس لها أهمية اجتماعية خاصة .

ومع أن الملابس والحلى تعتبر فى العائلات من الملكيات الخاصة ، أو لعلها هى المظهر الوحيد للملكية الخاصة فى العائلة . إلا أنها فى بعض الأحيان تستخدم استخداما جمعيا خصوصا فى فئات السن الواحـدة . فالرجل قد يلبس رداء أخيه اذا كان رداؤه غير ملائم وكذلك فيما يتصل بالأحذية وأغطية الرأس والملابس الداخلية . وكذلك المرأة قد تلبس رداء « سلفتها » أى زوجة أخ زوجها أو تستعير حليها . وكقاعدة تعتبر حلى الأم الكبرى فى العائلة من حق كل زوجة أو ابنه أن تتزين بها فى مناسبات خاصة .

ومن المظاهر المألوفـــة فى بعض المساكن أن يعلق رداء أو أكثر وراء الباب على أوتار خشبية تدق فى الحائط ، يستخدمها من يخرج من المسكن فى غير أوقات العمل الزراعى لقضاء حاجات معينة . ولذلك لا يتنازعون كثيرا حول هذه المسائل ، والمتبع أنه عند شراء الملابس تشترى العائلة كميات منها للرجال والنساء والأطفال من نفس النوع واللون فى أغلب الأحيان الأمر الذى يؤدى الى تشابه جميع أعضاء العائلة من حيث المظهر . بل الى تشابه جميع القرويين .

معا . ولهذا كان الارتباط بين الأداه والإنسان والحيوان فى العمل الزراعى وثيقا ، حتى أن القرويين يكونون أزاء الأداه والحيوان عوطف معينـة ، وقد يخاطبها ويستحثها كما يستحث الإنسان أو يخاطبه . ولهذا يحـــزن إذا كسرت الأداه أو تلفت ، أو اذا نفق الحيوان أو مرض . لا لأن الكسر أو النفوق يسبب خسارة مادية ، بل نظرا للعلاقات المتعددة التى كونها معهما . ويلاحظ أن طبيعة الأدوات الزراعية من حيث المجهـــود الذى يبذل فى استخدامها والزمن الذى يستغرقه الإنسان أو الحيوان فى استخــــدامها ، والمنفعة المباشرة لها ، ترتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة الحياة الاجتماعيـــة والاقتصادية .

فالقروى عمله الأساسى هو الزراعة وهى أيضا طريقته فى الحياة . وتقوم علاقاته الاجتماعية على أساس الصلة الوثيقة بين العمـل والإنتاج والحيـاة الجمعية فى العائلة وما يترتب عليها من دوره معينة لحياة الفرد . ولذلك فان انصراف القروى الى العمل وبذله أقصى جهد فيه ، واستغراقه لأطول وقت ممكن فى أدائه يؤدى الى حالة التوازن فى التنظيم العائلى . وقيام الحيـــاة الاجتماعية بخصائصها التى شرحناها بالتفصيل من قبل . ولهذا لو تغـير الجهود ، وتغيرت فترة العمل الزمنية ، وتغيرت النظرة الى نفعـية الأداة ، لاختل التوازن ، ولكانت الحياة العائلية وبالتالى الحياة القروية ذات مظهر مختلف تماما .

إذن فالعلاقة بين الانسان والبيئة والفنون والطرق التى استخدمها فى استغلالها ونماذج الاستجابات التوافقية التى كونها معها هى التى جعلت الحياة القروية القديمة تستقر لآماد طويلة على نحو ما أشرنا إليه . كما أن عزله القرى النسبية وكفاية البيئة المحلية الوفاء بمطالب القرويين ، جعـل جميع

مظاهر ثقافتهم القروية تستقر على نحو معين لمدة طويلة ، وا كتسبت خلال هذه المدة الإلزام والعمومية والقدسية والاحترام .

والأدوات الزراعية بسيطة غير معقدة ولا تحتاج الى مهارات خاصة فى استخدامها ، والتدريب على استخدامها لا يتطلب وقتا طويلا . والمفروض على كل قروى أن يجيد استخدامها أو ملاحظة استخدامها جميعا . ويمكن تقسيمها من حيث طريقة إستخدامها ونوع المجهود الذي يبذل فيها الى أنواع ثلاثة :

١ ــ أدوات المجهود البشرى

وهى التى يستخدمها القروى عن طريق بذل مجهود فردى أو تعاونى على مستوى بشرى . مثل الفأس التى تستخدم فى أغراض كثيرة أهمها حفر القنوات وإعداد الأرض للزراعة وإزالة الأتربة وروث الماشية من الحظائر ، وتنقية المزروعات من النباتات الطفيلية ، وتقطيع الأخشاب الصغيرة وفروع الأشجار . وتعتبر الفأس أهم أداه زراعية عند القروى ، ونظرا لتعدد استخدامها فى أشياء متنوعة ، ونظراً لخفتها ، فان القروى غالبا ما يحملها معه باستمرار . حتى أنه قد يستخدمها كسلاح فى بعض الأحيان إذا دخل فى معركة مع آخرين ولهذا كان ارتباط القروى بالفأس وحرصه عليها أكثر من ارتباطه وحرصه بأية أداه أخرى. وهو وإن كان لا يملكها ملكية خاصة ، إلا أنها تصبح كذلك باستمرار عمله بها ، حتى أنه يرفض أن يعمل بفأس أخري ، ويعلل ذلك بأنه يجد صعوبة فى القبض عليها ، لأنها تهيأت على طول استخدامها مع اليد التى تمسكها باستمرار . كذلك من أدوات المجهود البشرى « الشادوف » الذى يستخدم فى رفع المياه من

القنوات العميقة أو الترع لري الأرض ، و « المدراه » التى تستعمل بعد « درس » أعواد القمح أو الفول أو الشعير فى فصل « التبن » عن « الحبوب » و « الشقرف » الذي يستخدم فى تقطيع أعواد البرسيم وفى حصد القمح والفول والشعير وتقطيع أعواد الأذرة أو القطن و « المدقة » التى تستخدم فى تقطيع أعواد الفول بعد جفافها . وقد يوكل استخدام هذه الأداه للنساء . والملاحظ أن الأدوات الأخيرة تستخدم استخداما جمعيا ، إذ يتناوب استخدامها أعضاء العائلة دون تمييز ، ولا يكون معها القروى علاقة كما هو الحال بالنسبة للفأس .

٢ ـ أدوات المجهود الحيوانى :

وهى التى يقتصر فى استخدامها على قوة الحيوان وحده تحت ملاحظة القروى ، وأهمها « الساقية » وهى اما أن تستخدم فى رفع المياه من الترع عندما يكون منسوبها منخفضا وخصوصا بعد فترات اطلاق المياه فيها ، أو فى رفع المياه من الآبار الجوفية التى تحفر فى الأماكن البعيدة عن الترع ويكون الوصول إليها صعبا أو غير ممكن . كما يستخدم الحيوان أيضا فى إدارة « الطاحونة » التى تستخدم فى طحن الحبوب ، ونظرا لضخامة أحجارها ، فان القرويين يستخدمون حيوانين فى وقت واحد لجرها . وفى العادة يلاحظ الحيوان أثناء هذا العمل الأطفال فوق سن العاشرة ، لأن مهمتهم تقتصر على استمرار دفع الحيوان للساقية . أما الطاحونة فيلاحظها النساء لأنها تكون واقعة بين المساكن .

٣ ـ أدوات المجهود الحيوانى والبشرى المشترك :

وهى التى يشترك فى العمل عليها الانسان والحيوان معا . وان كانت تعتمد على القوة الحيوانية أكثر . ودور القروى فى هذه الحالة القيادة

والتنظيم . وأهمها المحراث . ويجره فى أغلب الأحيان حيوانين ، يقودها قروى واحد ، وفى الغالب لا يقوم بهذه العملية غير الكبار ، ولا يترك أمرها للشبان إلا نادراً ، لأنها تتطلب نوعا من الخبرة والمهارة ، خصوصا فى مدى تعميق « سن المحراث » فى الأرض ، خصوصا وأن بعض البذور يجب أن تلقى فى الأرض على أعماق متفاوتة . ويقتصر دور الشبان فى عملية الحرث على نثر البذور . وقد تقوم الزوجة بهذه المهمة فى بعض الأحيان .

ويتعاون القروى والحيوان أيضا فى عمليتى « التقصيب والتزحيف » والأولى تسوية الأرض عن طريق إزالة الإرتفاع الذى ترتب على وضع الأسمدة البلدية ، عاما بعد عام فى الأرض . والثانية تسوية الأرض دون إزالة أى شىء منها خصوصا بعد الحرث . وتستخدم فى الحالة الأولى « الصابية » وفى الثانية « الزحافة » . ويعتبر الحرث أصعب هذه العمليات يليه التقصيب فالتزحيف ، على أساس المجهود والخبرة والدقة .

ويلاحظ أن الحيوانات المفضلة فى العمل الزراعى هى الجاموس والثيران والبقر ، أما الحمار والجمل فلا يستخدمان إلا فى عمليات النقل من الحقل الى المسكن أو العكس . ويستخدمان أيضا فى الركوب ويقتصر استخدام الجمل على العائلات الغنية وقد تستخدمه العائلات المتوسطة ، ولكن العائلات الفقيرة تستخدم الحمار . كما أن بعض العائلات الغنية قد تخصص بعض ذكور الحمير للركوب فقط . وحينذاك يستخدمها رئيس العائلة أو كبار السن فيها للذهاب الى الحقل والعودة منه . واستخدامها على هذا النحو له أهمية اجتماعية فى إظهار متانة المركز الاقتصادى للعائلة ، وأهمية رئيس هذه العائلة من حيث السلطة فى البدنة وفى القرية . ولم يذكر أحد من

المخبرين شيئا عن وجود الخيول بالقرى الثلاث . ولعل ضيق الطرق الزراعية الشديد فى هذا الوقت كان يمنع من استخدامها . الى جانب عدم خبرة القرويين بمدى فائدتها فى العمل الزراعى . وإن كان وجودها فى بعض القرى الأخرى التى أعرفها له أهمية اجتماعية خاصة.

أما الصناعات المحلية التى كانت موجودة بالقرى ، فيلاحظ أنها بسيطة وأهمها صناعة الحصير والغزل والنسيج اليدويين . وموادها كانت تستمد من البيئة المحلية . وإذا أدخلنا الحرف والمهن فى هذه الصناعات ، لم تكن مميزة لأى قرية ، نظرا لأن الذين كانوا يقومون عليها قلة ، والقرى كانت تعتبرهم غرباء وأقل مركزاً . ولعل هؤلاء هم الذين كانوا يمثلون صلة القرى بالعالم الخارجى . لأن الأدوات التى كانوا يستخدمونها ، يشترونها من المدينة فى أغلب الأحيان . وما كان القروى يهمه أن يفكر فى كيفية حصول هؤلاء على أدواتهم . فالمهم أن خدماتهم تؤدى له وهو داخل القرية خصوصا وأن المطالب البسيطة الأخرى التى كان يحتاجها بين الحين والآخر كانت أغلبها تصل القرية عن طريق تجار متجولين يتبادلون معه السلع بالمنتجات والمحاصيل الزراعية . ولهذا ظلت الثقافة المادية للقرى تعكس آثار البيئة وطبيعة حياتهم الاجتماعية والاقتصادية التى تقوم على أساس المعيشة الجمعية فى العائلة .

. . .

هل هناك ترابط وثيق بين البيئة وطريقة الحياة ونوع الثقافة المادية ؟ هل يمكن أن نفسر تنوع هذه الثقافة على أساس محلى بحت ؟ هل هناك وجه شبه بين القرية فى فترة ما قبل التغير وبين المجتمعات البدائية باعتبار أن كلا

المطالب والحاجات وطرق اتباعها . وهنا نلاحظ أن مطالب القروى تمثل الحد الأدنى اللازم للمعيشة ، فالمسكن مكان « يئوى الانسان » وهو فى هذه الفترة يتناسب مع تنظيم العائلة ، والملبس شىء « يستر الجسم » ويتناسب مع الأحوال المناخية وطبيعة مهنة الزراعة ، والأكل « حاجة تملأ البطن » ويتنوع بتنوع المنتجات المحلية الزراعية والحيوانية ، كما أن أدوات الزراعة تؤدى ما هو مطلوب منها وتناسب طريقة العمل العائلى ، وتتفق مع النظرة الى المجهود والزمن والمنفعة ولكن هل الوفاء بالغرض يؤدى الى البساطة ؟ الواقع أن البساطة ترتبط من ناحية اخرى بمجموع القيم والنظرة الى الحياة فهل كانت هذه القيم متصلة بالثقافة المادية ؟

وقد أشرت فى الفصل الثالث أن القيم الأساسية كانت مرتبطة بالحياة الجمعية والزواج والأولاد وللهارة والتدبن وفائض الإنتاج وبذلك نرى أن مكونات الثقافة لم تكن داخلة ضمن المسائل التى يضع القروى عليها أهمية كبرى . فليس من ثمة اتجاهات تتعلق بنوع الطعام أو المسكن أو أدوات الزراعة أو الفنون أو الملابس ولهذا كانت تحتل من تفكيره أدنى درجة . ويلاحظ أن الثقافة المادية فى مجموعها كانت تتكون من جزئين :

الأول : متوارث ويقبل كما هو دون تغير كمى أو كيفى كأدوات الزراعة والمساكن والفنون ، والثانى يتجدد بطبيعة الاستهلاك ، ولكن على أساس النموذج القديم كالملابس والطعام والأثاث وغير ذلك وقد يتغير كما لا كيفا حسب الأحوال . وبمعنى آخر كانت القناعة أو الزهد الذى تمخض عنه الاكتفاء الذاتى النسبى للعائلة منعكسة على طبيعة الثقافة المادية . اذن

سامية المراسى
Samia

منها الى ثقافة متميزة ؟ والى أى مدى تثبت صحة نظرية روبرت ردفيلد فى الاختلاف بين القرية والمجتمع البدائى من حيث الثقافة المتصلة والثقافة المستقلة ؟ لقد أجاب ردفيلد وزملاءه وتلاميذه عن هذه الأسئلة فى دراساتهم الحياة القروية ومقارنتها بالحياة البدائية فى جهات متعددة من العالم كالهند والصين والمكسيك وجنوب ايطاليا . وملخص ما ذهبوا اليه أن الثقافة القروية بعكس ثقافة المجتمع البدائى ، ثقافة معتمدة على ثقافة أكبر ، ولهذا لا تفهم مستقلة ، وإنما ينبغى أن تفهم من خلال الثقافة الكبرى التى هى جزء منها .

ولكن هذا الاتجاه أعتقد أنه ينبغى إعادة النظر فى صدقه على القرية خصوصا فى دراسة لتغيرها . أو بمعنى آخر ، هل « القرية القديمة » مع أنها وحدة من تنظيم أكبر تنطبق عليها هذه النظرية ؟ هلا يمكن فهمها من الداخل وتحليل ثقافتها المادية وبنائها الاجتماعى على اعتبار أنها كل ؟ إننى أسلم مع ردفيلد أن القرية المتغيرة الآن من حيث ازدياد صلاتها بالعالم الخارجى وزيادة اعتمادها على القرى المجاورة والمدينة والحكومة لا يمكن فهم مايجرى فيها دون إدراك آثار هذه العلاقات أو قياس هذا الاعتماد . ولكن القرية القديمة لها وضع آخر ، كما سيتبين من مناقشة خصائص الثقافة المادية فى ارتباطها بالعائلة والحياة الاقتصادية ، وصلة هذا كله بالبيئة المحلية كما يلى :

١ ــ البساطة :

أشرنا فيما سبق إلى أن الثقافة المادية بسيطة . والبساطة هنا مرتبطة بمكونات هذه الثقافة من حيث الكم والكيف . ومقياس البساطة هو تعود

فالبساطة كانت من أهم مميزات الثقافة المادية القديمة المرتبطة بالعائلة كوحدة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى قيامها على الترابط الوثيق بين الأرض والإنسان .

٢ ـ الاعتماد على البيئة المحلية :

البيئة المحلية كانت توفر أغلب مطالب القرويين سواء فيما يتعلق بالمسكن أو الغذاء أو الملابس ، والأدوات أو الأثاث . وما كانوا يحتاجونه مما لا توفره هذه البيئة فانهم كانوا يعتمدون فى توفيره على أصحاب المهن والحرف فى القرية ، أو على التجار المتجولين . وفى بعض الأحيان قد يسافر أحد القرويين الى المدينة ليشترى الحلى . ومع هذا فقد كانت حاجتهم الى الخارج قليلة ، لا تمثل درجة من الكثافة تصل الى حد الاعتماد الداخلى الكبير على البيئة ومع هذا كانوا يشترون سلعا تقليدية لا تتغير ولا تتنوع الأمر الذى لم يؤد الى أى تأثير واضح على الصبغة العامة لثقافتهم . اذن يمكن القول بأن اعتمادهم الواسع على البيئة المحلية أوضح وأبلغ أثرا فى نموذج الثقافة المادية من اعتمادهم الضيق جدا على الخارج والذى لم تكن له تأثيرات تذكر على هذا النموذج .

٣ ـ العائلة وحدة الثقافة المادية :

العائلة ككل كانت تملك الأرض ووسائل الإنتاج والمسكن ، وفى هذا الصدد كانت مكتفية بذاتها حتى أن التعاون كما اشرت الى ذلك من قبل كان يحقق أهدافا اجتماعية أكثر من تحقيقه لمصلحة اقتصادية مباشرة . وإذا أخذنا القرية ككل وجدنا أن العائلات المنتمية الى البدنات المختلفة كانت متشابهة من حيث مكونات الثقافة المادية وارتباطها بمظاهر الحياة

الأخرى . ولهذا يمكن القول بأن ثقافة القرية المادية كانت وحدة متميزة تعكس آثار البيئة واعتمادها الضيق على الخارج . وقلة كثافة العلاقات أو مداها مع القرى الأخرى أو المدينة . أو بمعنى آخر كان تأثير الثقافة الكلية للمجتمع الريفى غير ظاهر الأثر فى ثقافة القرية .

كما أن تشابه القرى الثلاث من هذه الناحية لا يدل على تأثيرات الثقافة الكلية أكثر من تأثير البيئة المحلية . والاختلاف الوحيد بين العائلات فى القرية الواحدة أو بين القرى الثلاث هو اختلاف فى الكم فقط لأن مكونات الثقافة المادية واحدة . ولهذا لا نجد عائلة تستخدم أنواعا من الأدوات أو تدخل فى طعامها أو ألوانا تختلف عن ألوان طعام العائلات الأخرى ، لا نجد تمايزا فى الفنون أو الملابس أو العناية الشخصية أو الزينة ، ذلك لأن حجم العائلة وملكيتها هما اللذان يحددان الثقافة المادية كما وخصوصا فى الأدوات والمساكن والملابس ، فكلما كبر حجم العائلة وزادت ملكيتها زادت الأدوات واتسع المسكن ولكن فى حدود النموذج التقليدى . فبعض العائلات يكون عندها ثلاث محاريث وبعضها الآخر عنده محراث واحد ، ولكن شكل المحراث وطريقة استخدامه ينتميان الى نفس النموذج الموجود فى القرية كما أن المسكن قد يبنى على مساحة واسعة ، وقد يبنى على مساحة ضيقة ، وقد تختلف عدد الحجرات وشكل الباب . ولكن التنظيم الداخلى واحد ، كما أن طريقة بنائه والأدوات المستخدمة فى البناء هى نفسها فى القرية بأجمعها ولهذا لا ترتبط سمة العائلة أو مركزها الاقتصادى أو الاجتماعى بكيف مكونات الثقافة المادية بقدر ما ترتبط بكمها .

٤ ـ اللاتجمعية :

« تتجمع الثقافة المادية عندما تفوق عدد العناصر الجديدة عدد العناصر

المفقودة ( ) والتجمع هو أساس فكرة « نمو الثقافة Growth of Cultur° وكلما زاد التجمع زاد التغير ، فاذا لم يكن هذا التجمع ملحوظا تصبح الثقافة حينذاك ثابتة Stationary فاذا نظرنا إلى الثقافة المادية فى القرى لوجدنا أنها لا تتجمع على هذا النحو . بل أن نسبة مكوناتها كانت قليلة على أساس ارتباطها بالعائلة ، وقد عرفنا أن العائلة القديمة كانت تميل الى زيادة الحجم أى أنها تضم أكبر عدد من الأعضاء فى إطارها . ولهذا قلت المساكن والأدوات بعكس الحال لو كانت أقل حجما لتعدد المساكن وتعددت أيضا الادوات . ونلاحظ أن المكونات المتوارثة كانت تستخدم لفترات طويلة من الزمان وفى حالة الرغبة فى تجديدها أو عمل غيرها ، فانها تعمل على أساس النموذج القديم دون تغير وبالقدر الذى تحتاجه العائلة.

أما المكونات المتجددة كالملابس والفنون والطعام فانها كانت متجددة من حيث الكم لا من حيث النوع . والثقافة إذا تجمعت من حيث الكم دون الكيف فان هذا لا يؤدى الى نموها أو الى تغير ، بل تظل تحمل خاصية اللاتجمع لأن المهم فيه هو نسبة « العناصر الجديدة » الى العناصر القديمة . وتعتبر هذه الخاصية غاية فى الأهمية لأنها تدل على عزلة الثقافة المادية وقلة تأثرها بالخارج أو بالتغيرات المادية التى تحدث فى المدينة. كما أنها تثبت تأثير البيئة الهام فى طبيعة مكونات هذه الثقافة .

ومن المظاهر الدالة على ذلك أن « سلاح المحراث » ظل كما هو من حيث الشكل والمادة المصنوع منها لفترات طويلة ، وكذلك الشأن بالنسبة للفأس وغيرها من المكونات الأساسية للثقافة المادية . فالقروى كان يصر على تشابه الجديد بالقديم شكلا ونوعا ويرفض أن يقبل أى تغير حتى لو ثبتت

1 — W. Ogburn, M Nimkoff, Handbook of Sociology . London 1953, pp. 518—519

كفاءته عند الاستخدام . ويربط القديم فى هذه الحالة « بالبركة » أو غير ذلك من التبريرات إذن فلا تجمعية الثقافية المادية جعلها « ثابتة » فترة طويلة ، وجعلها فى نفس الوقت معتمدة على البيئة المحلية فى توفير أغلب مكوناتها .

٥ ـ التساند الوظيفى :

الثقافة المادية كانت مرتبطة ارتباطا وظيفيا بالحياة الاجتماعية ، وهى فى العائلة تكون مع النظام العائلى الأجتماعى والاقتصادى وحدة واحدة . لأنه إذا أعتبرنا هذه الثقافة جزءا من الثقافة الكلية للعائلة أو القرية فانها ذات صلة بالظروف الضرورية للمعيشة فيهما (١) ، لأنها كانت تسهم عن طريق ما تؤديه من وظائف فى الحياة الاجتماعية الكلية لهما (٢) . ولهذا إذا نظرنا الى خصائص الثقافة المادية ، وخصائص كل من العائلة والحياة الإقتصادية لوجدناها متشابهة تقريبا . الأمر الذى كان من الصعب معه أن نفهم الثقافة المادية منفصلة عن ترابطها الوثيق مع بقية العناصر المكونة للبناء الاجتماعى . ويلاحظ أن هذا التساند هو الذى جعل للعائلة أو القرية صفة « التميز » distinctiveness . والتساند على هذا النحو تساند داخلى ، بمعنى أنه غير مرتبط ارتباطا مباشرا فى الوحدة العائلية أو فى القرية ككل بنسق خارجية أكبر . ولهذا لم تكن هناك ظروف تخلق مايسمى بالتخلف أو عدم الأستواء نتيجة لتفكك التساند أو النمو فى جزء دون الآخر . إذن فالتساند الوظيفى

1 — A. R. Radcliffe . Brown, Structure and Primitive society London, 1956. p 179 .

2 — Ibid. pp. 178-181 |.

في الفترة السابقة على التغيير يعني في بعض نواحيه « ضيق الاعتماد وقلة الكثافة في العلاقات الخارجية ».

٦- ثقافة الاتصال والانفصال :

القرى الثلاث كانت دائما جزءا من مدينة واحدة لها ثقافة واحدة . فهل أدى ذلك إلى تشابه الوحدات المكونة لهذه الثقافة ؟ وهل معنى هذا أن ثقافة القرية لا يمكن أن توصف بالإستقلال ، أي أن لها صفة عامة متميزة ؟ وهل يؤدي تشابه عدد كبير من القرى في ثقافتها المادية الى القول بأن هذا التشابه راجع في المحل الأول إلى انتمائها الى اصل ثقافي واحد ؟ أن ردفيلد ومدرسته في الدراسات القروية يجيبون بالايجاب على هذه الأسئلة جميعا .

وقد قلت فيما سبق هنا ان هذا القول إن انطبق على المجتمعات القروية الآن، فانه لا ينطبق بالضرورة على هذه المجتمعات في فتراتها التاريخية . فنحن لا نعلم كثيرا من تاريخ نشأة هذه القرى . وكل ما نستطيع العثور عليه يتضمن كتابات متفرقة تصف الحياة القروية عامة وتتعرض لشخصية القروى من عدة نواح ، أو نجد كتبا تحصر القرى الموجودة في الجمهورية العربية وقت الكتابة . وقد ينسى المؤلف عددا منها كما هو شأن القرى الثلاث محل هذه الدراسة . وعند ما يتعرض للقرية فانه يصفها بسرعة ويركز على أمرين :

الأول ، ماتشتهر به هذه القرية ، أو صفات أهلها بطريقة عامة . وطبيعي أن مثل هذا المنهج لا يفيد في الدراسات العلمية . وقد اعترف ردفيلد بعدم كفاية المصادر التاريخية في هذا الصدد ، لأن المهتم بالدراسات الإنسانية والمؤرخ يقفان بعيدا عن الدراسات الخاصة بالحياة القروية (١) وسواء كان

1 — R. Redfield, peasant society and Culture. Chicago, 1956, p. 80

على القرية آثار تفاعل القرون في أنماط الحياة (١) أو تأثرها بأحداث تاريخية معينة ، فان اثر البيئة على القرية لا يمكن الاقلال منه . هـذا الى أن ردفيلد ومعاونيه وتلاميذه يقررون أن « القرية متشابهة في جميع انحاء العالم لا في الوقت الحاضر فقط بل تاريخيا أيضا ، حتى أن مظاهر هذا التشابه التي أشار اليها أوسكار هاندلن O. Hanblin يتقبلها ردفيلد ويقول ، انها « أصبحت عنده حقيقة واقعة عندما قرأ عن المجتمعات القروية في عدة أماكن مختلفة»(٢) ومع أن « القرية » في هذه الاماكن تخضع لظروف تختلف من مكان الى مكان من حيث طبيعة الثقافة الكلية لكل منطقة ، إلا انها تتشابه مع ذلك. فكأن التشابه يمكن أن يرجع إلى عامل آخر غير ارتباط القرية بثقافة أكبر ، وهو طبيعة الحياة المعتمدة على الزراعة كطريقة في الحياة . واعتماد القرويين على الزراعة يعني في واقع الأمر اعتمادهم على البيئة المحلية . والتشابه بينهم في جميع انحاء العالم يرجع إلى تشابه العلاقة بين الإنسان والبيئة في أغلب الأحيان . إذن فالبيئة تلعب دورا هاما في تحديد نموذج الثقافة المادية في القرية بغض النظر عن كونها جزء من ثقافة أكبر لها جوانبها المادية الخاصة بها . وقد تبين من العرض السابق ضيق اعتماد القرى على الخارج فيما يتعلق بمكونات الثقافة المادية ، وكفايتهم الذاتية النسبية القائمة أساسا على البيئة المحلية . إذن فالعائلة كمجتمع صغير داخل مجتمع أكبر هو القرية، لها ثقافة منفصلة متميزة اكثر منها متصلة بثقافة اكبر . وعلى ذلك يمكن عند دراسة القرية أو العائلة من هذه الزاوية أن يكون مدار الأهتمام الأول على أثر البيئة في نموذج الثقافة المادية المرتبطة عن طريق التساند الوظيفي مع اجزاء الحياة الإجتماعية الأخرى .

1 — Ibid, p. 79
2 — O. Handlin ; The Uprooted. Boston, 1951, p. 7
Quoted by Redfield Op. Cit. pp. 106—107 .
3 — Ibid, p. 79

والخلاصة أن الثقافة المادية للعائلة فى القرى الثلاث فى فترة ماقبل التغير كانت تكون جزءا متكاملا مع الحياة الإجتماعية والاقتصادية سواء فى العائلة أو القرية التى كانت تتميز بالصغر والعزلة والكفاية الذاتيـة النسبية وتعكس فى صناعتها العامة مظاهر قلة الكثافة من حيث شدة العلاقات ومداها والاعتماد الضيق ، كما أنها كانت — ببساطتها — تتفق مع مجموع قيم القرويين ونظرتهم الى الحياة .

ثانيا — الثقافة المادية المتغيرة :

التغير فى الثقافة المادية من حيث أنه تغير فى نواحى يمكن ملاحظتها بسهولة فانه من هذه الزاوية يعتبر أكثر التغيرات التى حدثت فى القرى وضوحا وهو فى نفس الوقت يصور زيادة صلات القرى بالعالم الخارجى ، ويعكس تأثيرات المدينة المتزايدة . ولذلك كان دور العوامل الخارجية فيه أكثر أهمية من أى عوامل أخرى .

حقيقة أن عوامل التغير لا ينبغى أن نفصلها بعضها عن الآخر ، فهى مترابطة ، وقد يحدث أن تكون تأثيراتها كل على حدة لا يمكن أن نفصل بينها . ولهذا فان تأثير المدنية والانتشار الثقافى منها الى القرى حدث فى نفس الوقت الذى كانت العوامل الداخلية التى ذكرناها تؤثر فى العائلة وفى الحياة الاقتصادية . فكأن عوامل التغير الداخلية والخارجية على السواء . كانت تعمل فى (معية زمنية) ولكن تأثير المدنية فى حالة الثقافة المادية ينبغى النظر إليه بشىء من الإهتمام . نظرا لأن كل تغير يحدث أو كل تجديد فى مكونات هذه الثقافة لا ينبعث داخليا وإنما يأتى منقولا أو منتشرا من الخارج .

ويتوقف قبول القرية لهذه المظاهر الجديدة على عـدة عوامل ، منها اتجاهات التغير الداخلية ومدى سرعتها ، لأنها مهمة فى درجة تقبل القرويين لطريقة حياة سكان المدينة . ومنها أيضا حقيقة الوضع الاقتصادى ، لأن التغير فى الثقافة المادية وقبوله يعنى زيادة فى النفقات أو فى التكاليف الاقتصادية ، ولهذا قد يقل انتشار مكونات الثقافة المادية للمدينة الى القرى على هذا الأساس . وعلى ذلك أستطيع أن أقول أن دور العوامل الداخلية يكون فى الإسراع أو التباطؤ فى انتشار المظاهر الجديدة . إذن فالتغير فى الثقافه المادية يحمل بين طياته مقارنة بين القديم والجـديد من حيث أدائه للأغراض المطلوبة وهى رخص التكاليف ، كمال الأداء ، سهولة العمل وتوفر الإمكانيات .

ويلاحظ أن القديم يعيش فى القرى جنبا الى جنب مع الجديد ، دون أن يحدث اختلال أو عدم استواء ، ولهذا لا تجد أسرة تغيرت ثقافتها المادية كلية ، بل لا تزال هناك كثير من مكوناتها القديمة ، وتتجمع هذه المكونات بسرعات متفاوتة على أسس مختلفة كما سنبين ذلك فيما بعد . ولكن الملاحظ أن الأسرة لا تكيف الأوضاع القديمة لتناسب الأوضاع الجديدة ، ولهذا قد تتغير طريقة الاستخدام والغرض من الأداه الجديدة عن استخدامها وغرضها الأصليين .

...

لاتزال نسبة كبيرة من المساكن موجودة على النمط القديم ، ولكن نسبة أخرى تظهر الآن مختلفة فى عدة نواح . ولكن وظيفة المسكن لم تتغير فلا زال مكان « الإيواء » لمكونات الأسرة المادية من البشر والحيوانات

والأدوات والمحاصيل . ونتيجة لإنفصال الأسر واستقلالها عن العائلة القديمة حدث تغير فى حجم المسكن فهو يميل الى الصغر . وقد انقسمت كثير من مساكن العائلات الى عدة مساكن تستقل بكل منها أسرة واحدة.

كما أنه نتيجة لزيادة السكان تزداد المساكن الآن زيادة ملحوظة ، حتى أن القرية نتيجة لحركة البناء المستمرة يزداد حجمها عاما بعد عام على حساب الأرض الزراعية . ولم يعد هناك قاعدة فى بناء المساكن من حيث الموقع فقد كانت للمساكن لاعتبارات تتصل بالأمن والخوف من اللصوص تبنى فى نطاق ضيق ، ولم يحدث إن كان هناك منزل يبعد عن القرية على أى نحو . فالقاعدة أن تكون المساكن متلاصقة ، أما الآن فهناك عدد من المساكن تقع على مسافات مختلفة من القرية ، كما أن مساكن العائلات المنتمية الى بدنة واحدة كانت جميعا فى منطقة واحدة من القرية . ولكن هذه القاعدة تغيرت الآن . فهناك أعداد تتزايد من المساكن لعائلات مختلفة الانتماء توجد فى جهات متعددة من القرية ، وذلك لعدة أسباب من بينها أن القروى يبنى مسكنه حيث يستطيع أن يشترى أرضا صالحة بثمن مناسب ويبنى المسكن على هذه الأرض مهما كان موقعها . وان كان يفضل أن يقع مسكنه على قدر الامكان فى منطقة بدنته القديمة أو قريبا من أرضه ، ومنها أن الزواج الخارجى جعل عددا من الأزواج يسكنون فى المنطقة التى تنتمى اليها الزوجة إذا كانت من بدنة أخرى ، خصوصا اذا كان لها مسكن مستقل أوجزء من مسكن.

ويلاحظ أن المسكن ليس هو مكان الإيواء الوحيد الآن ، فالحظيرة التى يبنيها القروى فى طرف أرضه تستخدم فى كثيرمن الأحيان للنوم، خصوصا

فى أوقات رى الزراعات عندما يضطر القروى الى العمل ليلا ، أو اذا كان يزرع محاصيل من التى يسهل سرقتها كالبطيخ والشمام والطماطم ، أو إذا كانت لديه حديقة بها بعض أشجار الفاكهة . وفى هذه الحالة تبيت معه زوجته وأبناؤه خصوصا إذا كانوا صغارا . وبعض الأسر يبنى الحظيرة من طابقين الأسفل يخصص للحيوانات ، والأعلى يخصص للقروى وأسرته ، وتنتشر هذه الحظائر فى الأرض الزراعية البعيدة عن القرية ، والتى يفضل أن يبقى بها القروى فترات تطول أو تقصر إذا كان العمل الزراعى يستدعى وجوده بصفة مستمرة . وفى هذه الحالة يحرص القروى أن يكون معه سلاح كبندقية أو بلطة أو عصا غليظة (شومه) ، ولكن استعمال البنادق الآن أصبح مفضلا . ويحرص أغلب القرويين أن يحتفظ ببندقية مهما غلا ثمنها . وكثير من القرويين يبيتون فى العراء خصوصا فى فصل الصيف وقت درس القمح .

ويستخدم القرويون الآن فى بناء المساكن موادا يستقدمونها من المدينة فلم تعد البيئة المحلية تفى بالأغراض المطلوبة فى المسكن وأهم ما يستقدمونه من المدينة الأخشاب وبأنواعها المختلفة والقضبان الحديدية والاقفال والبلاط والأسمنت والطوب الأحمر والنوافذ فى بعض الأحيان . وتختلف الحاجة الى هذه المواد باختلاف نوع المسكن . ونلاحظ هنا أن المساكن التى تبنى الآن ثلاث فئات : مساكن الأسر الفقيرة وهى لا تختلف كثيرا عن المساكن القديمة ، ويميل القروى الى الاعتماد على البيئة المحلية كلما أمكن ذلك . ولهذا تستخدم أخشاب الأشجار والطوب اللبن ، والثانية مساكن من يملكون أرضا تكفى حاجات أسرهم ولا يكون هناك فائض، فتستخدم فى أغلب الأحيان الأخشاب المستقدمة من المدينة والقضبان الحديدية والنوافذ ولكنها لا زالت تبنى من الطوب اللبن .

أما مساكن من يملكون أرضا تكفى حاجات أسرهم ويكون لديهم فائض يتفاوت بتفاوت الملكية ، فكلما زاد الفائض مالت الأسرة الى بناء المسكن بالطوب الأحمر ، واستخدام الأسمنت والقضبان الحديدية والأخشاب المستقيمة والألواح الخشبية لتغطية الأسقف . وقد لاحظت فى السنتين الأخيرتين أن بعض سكان القرى الثلاث ممن حققوا بعض الأرباح من التجارة ، يبنون الآن مساكن جديدة لا تختلف عن « الفيلا » فى المدينة وقد زود أحدهم بيته فى قرية كفر الشيخ بالمياه الجارية والكهرباء عن طريق آلات تستخدم لهذا الغرض .

وقد كان المظهر الخارجى للمساكن يميل الى الخطوط المنحنية أو الدائرية ولكن فى البيوت التى تبنى حديثا يميلون الى الخطوط المستقيمة والمربعات والمستطيلات . سواء فى الحائط أو النوافذ أو الأبواب ، ويلاحظ أن بعض المساكن تصمم على أساس وجود بابين أحدهما لدخول الماشية ويتكون من قطعة واحدة ، والآخر ليستخدمه أفراد الأسرة ويتكون من جزئين . ويلاحظ أن نسبة ضئيلة جدا من المساكن هى التى تطلى من الخارج بطلاء غير الطين ، بل أن بعض المساكن التى تبنى من الطوب الأحمر تطلى أيضا بالطين . ويعلل القرويون ذلك بأن كثرة الأتربة وكثرة روث الحيوانات تؤدى الى اتساخ المسكن من الخارج . ولهذا اذا أرادوا طلاء المسكن فانهم يطلونه من الداخل بالجير .

وقد حاول المركز الاجتماعى عن طريق موظفيه تشجيع القرويين على طلاء مساكنهم بالجير ولكنه فشل فى النهاية فى اقناعهم بذلك . أما المساكن التى تبنى على طراز مساكن المدينة ، فانها فى الغالب تقع على مسافة غير

محدودة من القرية ، وترش بالأسمنت من الخارج وتطلى بطلاء أبيض فى أغلب الأحيان .

ويظل التنظيم الداخلى للمسكن فى مساكن الأسر الفقيرة القديمة على ما كان عليه ، ولكن الاختلاف يظهر فى المساكن التى تبنى حديثا ففى المساكن ذات البابين يكون هناك مكان مخصص للحظيرة بعيدا عن المكان المخصص لاستعمال أعضاء الأسرة ، وكلما كانت مساحة المسكن صغيرة ضاق « وسط الدار » ويكون هناك ميل الى تسقيفه ، ويحتوى على « الفرن والكانون » والسلم الموصل الى السطح أما الجزء المخصص للأسرة فانه يحتوى على الحجرات التى تستخدم فى النوم وفى تخزين المحاصيل ، والمندرة ، التى يستقبل فيها الضيوف . وكقاعدة تكون للمندرة فى مثل هذه المساكن نافذة مستطيلة تطل على الخارج ويميل القروى فى مثل هذه الحالات الى بناء دور آخر ، ولكنه لا يشمل مساحة المسكن العلوية ، بل يقتصر على بناء حجرة (تسمى مقعدا) أو حجرتين يستخدمان فى الصيف للنوم ، وفى الشتاء لتخزين المحاصيل .

وفى بعض هذه المساكن توجد مصطبة داخلية يجلس عليها الزائرون المحليون ، وتستخدم كمكان اجتماع أثناء المناقشات أو الخلافات الأسرية . كذلك قد يخصص مكان « لقضاء الحاجة » يشبه فى بعض الأحيان دورات المياه الحديثة ، ولكنهم يستخدمون فيها « القلل » أو « العلب الفارغة » ، كما قد يقتصر على فرن واحد وهو الموجود « بوسط الدار » . وفى هذه الحالة يستخدمون الأخشاب التى توضع على حوامل فخارية أو نحاسية للتدفئة أثناء فصل الشتاء . أما المساكن ذات الباب الواحد فان تنظيمها الداخلى يشبه تنظيم المساكن القديمة ، والاختلاف يكون فى وجود « المندرة » ذات

النافذة المطلة على الشارع . وكقاعدة يمكن القول بأن شكل المنزل وحجمه وطريقة بنائه وتنظيمه الداخلى ، كل هذا يرتبط بمركز الأسرة الاقتصادى فتزداد المظاهر الجديدة ، كلما زاد الدخل ، وتقل كلما قل الدخل . والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا أن غالبية المساكن مهما كان نوعها توضع فوقها الأحطاب والأعشاب أو على جزء منها .

ويميل أثاث المساكن إلى التنوع والتعقيد فى أغلب المساكن حتى بالنسبة للأسر الفقيرة ، ولكنه يختلف من حيث الكم والكيف ، باختلاف المركز الاقتصادى . والجدول الآتى يكشف الى أى حد تغير الأثاث سواء ما اتصل منه بالنوم أو الإضاءة أو أدوات الطعام أو مكونات حجرات الاستقبال أو المندرة ، .

النوع	أسر غنية لديها فائض (٤٠ ف)	أسر متوسطة (لا فائض) ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
الأسرة	توجد أسرة ولكنها تستخدم كلها .	لا يوجد سرير واحد قد لا تستخدم	لاتوجد .
المراتب	توجد وينام عليها بعض افراد الأسرة .	تستخدم غالبا .	توجد ولا تستخدم
الأغطية الصوفية	توجد وتستخدم مع القطنية فى الشتاء .	توجد وتستخدم فى الشتاء	تستخدم دائما .
الأغطية القطنية	توجدوقد تستخدم صيفاً	توجد، قدتستخدم فى الشتاء	لا توجد .
الكلوب	يستخدم احيانا .	غير موجود .	لا يوجد .
مصباح قوته ١٥ شمعه	يوجد ويستخدم لإضاءة المدخل .	غير موجود .	لا يوجد .

النوع	أسر غنية (لديها فائض) ٤٠ ف	أسر متوسطة (لا فائض) ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
مصباح قوته ١٠ شمعات	يوجد ويستخدم فى بعض الحجرات .	يوجد ويستخـــدم عند وجود زائرين .	لا يوجد .
« قوته ٥ شمعات	يستخدم فى حجرات النوم	يستخدم فى أغلب الأحيان	يوجد ويستخدم أحيانا
« قوته ١ شمعه	« « « أيضا	يستخدم فى مدخل المسكن	يستخدم للاضاءة الدائمة
الإضاءة خارج المسكن	أحيانا .	لا توجد .	لا توجد .
المرآة	توجد وتستخدمها النساء والبنات .	توجد وتستخدمها النساء والبنات .	توجد قطعة صغيرة .
الدولاب	يوجد فى حجرات النوم.	يوجد فى بعض الأسر .	لا يوجد .
السجاد والكراسى	توجـد فى حجـرات الاستقبال .	لا توجد وتستخدم الدكه	لا توجد .

النوع	أسر غنية (لديها فائض) ٤٠ ف	أسر متوسطة (لا فائض) ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
الصنابير النحاسية	توجد وتستخـدم لغسل الوجه واليدين .	قدا توجد فى بعض الأسر	لا يوجد .
الابريق النحاسى	يوجد ويستخدم عنـد وجود زائرين .	يوجد ويستخـدم عند وجود زائرين .	لا يوجد .
« الفخارى	لا يستخدم .	يستخدم للشرب .	يستخدم للشرب .
الصابون	يستخدم باستمرار .	يستخدم بشىء من الحرص	يستخدم للاستحمام فقط .
رافعات المياه	توجد واحدة فى المسكن	توجد فى أغلب المساكن	لا توجد .
الأطباق الحديثة	تستخدم فى الطعام .	توجد ولا تستخـدم إلا فى وجود زائرين .	قد توجد ولا تستخدم.

النوع	اسر غنية (لديها فائض) ٤٠ ف	أسر متوسطة (لا فائض) ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
المناضد	توجد ولا تستخدم إلا أحيانا .	لا توجد .	لا توجد .
الأكواب والملاعق والسكين والشوكة	تستخدم أحيانا عند الأكل .	يوجد بعضها ولا يستخدم إلا فى وجود زائرين .	لا توجد فى أغلب الأسر
مواقد الغاز	تستخدم فى طهى الطعام .	توجد ويستخدم معها الكانون .	قد يوجد ولا يستخدم كثيرا .
الأوانى النحاسية	تستخدم فى طهى الطعام .	تستخدم مع الأوانى الفخارية .	توجد ولا تستخدم كثيرا .
المذياع	يوجد غالبا .	لا يوجد .	لا يوجد .

من هذا الجدول تتبين مدى ما وصل إليه تأثر القرى بالمدينة من حيث مكونات الثقافة المادية فى ناحية الأثاث والإضاءة وأدوات الطعام . ويرتبط التنوع فى هذه الأشياء بمركز الأسرة الاقتصادى ، ولكنه من ناحية أخرى يرتبط بالمركز الاجتماعى أيضا فكلما زادت هذه الأشياء عند الأسرة ، كلما كان لديها القدرة على الظهور فى القرية فى المناسبات المختلفة بمظهر « المختلف » عن بقية أفراد الأسرة . ذلك لأن التشبه بسكان المدينة أصبح الآن فى القرى أمرا يحاول بلوغه كل قروى ما سمحت له أحواله الاقتصادية بذلك .

والدليل القوى على أهمية تنوع هذه الأدوات الاجتماعية أن جزءا كبيرا منها لا يستخدم فى الاستعمال اليومى ، بل يظل محافظا عليه لاستعماله فى المناسبات أو عند اظهار الكرم والضيافة فى وجود الغرباء أو الرجال الرسميين كالموظفين والضباط الذين يكثر ترددهم على القرى لأغراض متعددة فى الوقت الحاضر . كما يلاحظ أن هناك فروقا واضحة بين القرويين من الأسرة الغنية والمشتغلين بغير بالزراعة حتى من يوازونهم من حيث الدخل فى هذه الأدوات ، فبالرغم من تشابهها من حيث الكم عند كل منهم ، إلا أن الفئة الأخيرة تستعملها أكثر ولا تقصر على هذه المناسبات أو عند استقبال الغرباء . وكقاعدة يميل القروى المشتغل بالزراعة الى استخدام الأدوات التقليدية أكثر من استخدام الأدوات الجديدة .

ويلاحظ أن الطعام لا زال مرتبطا بفكرة الامتلاء خصوصا عند الأسر الفقيرة ، أما مواده فانها لم تتغير كثيرا اللهم إلا فى كثرة إدخال الأرز فى الأكل وبعض الخضروات التى لم تكن تزرع من قبل كالكرنب

والكوسة واللوبيا . ولكن ظاهرة شرب الشاي أصبحت منتشرة جـدا بين القرويين على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية . وقـد بدأت فى الانتشار فى أوائل الحرب العالمية الثانية خصوصا بعد أن عم نظام البطاقات للتموين . فكثير من القرويين لم يكن يشرب الشاى على أساس أى قاعـده مرعية ، ولكن ادراج السكر والشاى ضمن المواد التموينية . جعل جميع القرويين يصرون على أخذه من البقال باعتباره حقا لهم وبالتدريج أقبلوا على شربه حتى أن القروى يستهلك منه كميات كبيرة الآن . وهو الشراب المفضل الذى يقدم للضيوف . ولكن استهلاك البن يأتى فى المرتبة الثانية ، خصوصا أن قلة من القرويين وهم كبار السن غالبا هم الذين يفضلونه ، كما أنه يستخدم فى المآتم والمناسبات العامة .

ويبدو التغير فى الملابس والعناية الشخصية والزينة من الجدول الآتى :

الملابس والعناية الشخصية والزينة	أسر غنية ٤٠ ف	أسر متوسطة ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فاقل
الملابس: الرجال			
الملابس الصوفية	يلبسها الجميع خصوصا فى المناسبات .	يلبسها الكبار فقط فى المناسبات .	لا تلبس .
المعاطف أو العباءة	العباءة للكبار والمعطف للشبان .	تستخدم دون قاعدة .	لا تستخدم ولكن يلبس الشبان المعطف أحيانا .
القفطان والجبة	يلبسها رئيس الأسرة	لا تلبس .	لا تلبس .
الملابس القطنية العادية	يلبسها الجميع فى العادة .	تلبس عادة .	ميل الى الملابس الداكنة
العمامة	يلبسها رئيس الأسرة .	قد لا يلبسها رئيس الأسرة	لا تلبس .
الطاقية	يلبسها الشبان .	يلبسها الجميع .	يلبسها الجميع .

الملابس والعناية الشخصية والزينة	أسر غنية ٤٠ ف	أسر متوسطة ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
الطربوش	يلبسه غير المشتغل بالزراعة	لا يلبس .	لا يلبس .
اللبدة	لا تلبس .	لا تلبس .	تلبس أحيانا خصوصا لغير العامل بالزراعة .
الحذاء ـ البلغة	يلبس الجميع الأحذية .	يلبس الحذاء فى المناسبات ـ والبلغة عادة .	تستخدم البلغة .
النساء			
الملابس الحريرية	تلبسها النساء فى المناسبات	تشترى عند الزواج فقط .	تشترى عند الزواج فقط .
الملابس الملونة	تلبسها النساء فى المنزل .	تلبس فى المنازل .	تلبس فى المنازل .
الملابس السوداء .	تلبسها النساء عند الخروج وفى المناسبات .	تلبس فى جميع الأوقات دون قاعدة .	تلبس فى جميع الأوقات دون قاعدة .

الملابس والعناية الشخصية والزينة	أسر غنية ٤٠ ف	أسر متوسطة ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
الملابس القصيرة	تلبسها الفتيات خصوصا فى أسر لا تعمل بالزراعة	لا يميلون إليها .	لا يميلون إليها .
الحذاء ذو الكعب المتوسط	تلبسه متوسطات السن .	قد تلبسه الفتيات .	لا يستخدم .
البلغة	قد تلبسها المتقدمات فى السن .	تلبسها المتقدمات فى السن .	تلبسها المتقدمات فى السن .
الأطفال :			
ملابس الذكور	عادة تشبه ملابس الرجال	عادة تشبه ملابس الرجال	عادة تشبه ملابس الرجال
ملابس الإناث	عادة تشبه ملابس النساء	عادة تشبه ملابس النساء	عادة تشبه ملابس النساء

الملابس والعناية الشخصية والزينة	أسر غنية ٤٠ ف	أسر متوسطة ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
العناية الشخصية والزينة :الرجال			
الاعتناء بالمظهر	يلاحظ زيادة فى هذا الاعتناء .	تقل العناية بالمظهر .	تزداد قلة العناية بالمظهر
قص الشعر والذقن	يحرصون عليه غالبا .	يراعون الانتظام .	لا يراعون الانتظام .
الاستحمام	أسبوعيا أو بعد الاتصال الجنسى فى المنزل	أسبوعيا أو بعد الاتصال الجنسى فى المنزل أوالترعة	بعد الاتصال الجنسى فى الترعة .
الوشم	لا يقبلون عليه	قديوشم بعض أفراد الأسرة	يقبلون عليه .
النساء			
الاعتناء بالمظهر	زيادة أكثر من الرجال .	تقل العناية بالمظهر .	تزداد قلة العناية بالمظهر

الملابس والعناية الشخصية والزينة	أسر غنية ٤٠ ف	أسرة متوسطة ١٠ ف	أسر فقيرة فدان فأقل
الاستحمام	أسبوعيا أو بعد الاتصال الجنسى فى المنزل .	أسبوعيا أو بعد الاتصال الجنسى فى المنزل .	بعد الاتصال الجنسى فى المنزل .
الحلى	تقتنى المرأة أو الفتاة الحلى الذهبية .	تقتنى الزوجة الحلى الذهبية .	ليست هناك قاعدة .
الروائح	تضع النساء والفتيات الروائح فى المناسبات .	قد تضع النساء الروائح فى المناسبات .	لا يستخدمن الروائح .
التجميل	يجمل الوجه والكعب .	قد يجمل الوجه والكعب أحيانا .	لا يلجأون الى التجميل
الخلخال	يقل استخدامه .	تلبسه المتزوجات .	تلبسه المتزوجات وغير المتزوجات .

من هذا الجدول يتضح أن تنوع الملابس أو ازدياد العناية الشخصية والزينة خصوصا فى المظاهر الخاصة بسكان المدينة ترتبط بالمركز الاقتصادى لأن القروي قد يرغب فعلا فى شراء ملابس صوفية مثلا أو لبس الأحذية وقد تحب النساء التجميل والروائح ، ولكن إمكانيات الأسرة خصوصا فى الأسر الفقيرة من الناحية الاقتصادية لا تمكنهم من اشباع الرغبات ولهذا فان اهتمامهم يتركز أكثر على توفير الحاجات الضرورية . كما أن هذا يرتبط بالزمن والمجهود الذى يبذل فى العمل . فيزداد الزمن والمجهود كلما قل دخل الأسرة بقلة ملكيتها من الأرض أو ضيق مدى النشاط التجارى التى تكون الأسرة مندمجة فيه . ولهذا فان أفراد الأسرة الغنية يجدون من يسمح لهم بارتداء الملابس الغالية والحديثة ، بينما لا نجد هذا فى الأسر الفقيرة .

ومع هذا فان القرويين فى أوقات العمل لا يتمايزون كثيرا من حيث الملابس والاعتناء بالمظهر ، حتى لا يمكن التفريق بين من ينتمون الى أسر غنية أومتوسطة أو فقيرة . ولا يظهر التمايز واضحا إلا فى المناسبات المختلفة كالأعياد والحفلات وعند زيارة قرية أخرى أو السفر الى المدينة . وكقاعدة يمكن القول بأن القروى الذى يعمل بالزراعة فعلا يميل الى البساطة فى ملبسه وفى اعتنائه بمظهره ، ويعتقد أن العمل الزراعى يتطلب هذه البساطة . ولهذا فان ثمة ظاهرة يتزايد ظهورها بوضوح فى القرى ، على أساس ازدياد التخصص . وهى التمايز بين العاملين فى الزراعة وبين العاملين فى أنواع المهن الأخرى أو المهتمين بالعمليات التجارية . فالقروى الذى يعمل بنفسه فى الزراعة قليل الاهتمام بالعناية الشخصية والزينة . ويرتدى الملابس الداكنة البسيطة أثناء العمل، والملابس البيضاء القطنية فى حالة الفراغ أوفى المناسبات

والاعياد ، ويميل الى لبس البلغة بدل الحذاء . والخفير الذى يعمل كأحد رجال الأمن فى القرية ويعمل بالزراعة فى نفس الوقت ، يميل الى الملابس الداكنة السوداء أوالزرقاء ولبس الأحذية الطويلة ويضع على رأسه «اللبدة» وقد يلبس شيخ الخفراء اللبدة والعمامة . والذين يشتركون فى العمليات التجارية كنشاط أساسى يلبسون رداء غير واسع الأكمام ومقفول عن عند الرقبة ، ويميلون الى ارتداء الملابس الصوفية والأحذية الحديثة ، ويضعون على رؤوسهم طاقية من القماش الأبيض ، ويرتدون الطربوش والمعطف عند الاتصال بالخارج . وقد يرتدى بعضهم عند الاتصال الخارجى الجبه والقفطان والعمامة . ويشاركهم فى هذا « طبقة الأعيان » من الأسر الغنية المشتغلة بالزراعة .

أما العاملون فى المهن فليست هناك قاعدة فى ارتدائهم الملابس أو فى اعتنائهم بمظهرهم . والنساء فى الأسر التى تعمل بالزراعة فانهن يملن الى الأزياء القديمة ، أما النساء فى الأسر التى تعمل بالتجارة أو المهن ، يملن الى تقليد أزياء المدينة والاعتناء بالمظهر كالتجميل واستخدام الملابس القصيرة نسبيا .

ويبدو تأثير المدينة واضحا فيما يتعلق بالفنون المختلفة . والتغيير هنا يكون على حساب تناقص مظاهر الفنون القروية البسيطة وازدياد مظاهر الفنون الحديثة ، حتى أن الوحدة الثقافية فى هذه الناحية بين القرية والمدينة يزداد تكاملها باستمرار . وأهم ما أثر فى القرية فى هذا الصدد « الإذاعة » فقد إنتشرت الأجهزة الإذاعية ويزداد انتشارها عاما بعد عام . ويقبل القرويون أفرادا وجماعات على سماع الأغانى والموسيقى والأخبار وغيرها من

المواد التي تقدمها الاذاعـة وكان من آثار ذلك أن الموال يختفي شيئا فشيئا الآن وتحل محله الأغاني الحديثة المذاعة . وبدأت القرى تسمـع ألوانا من الموسيقى لم تكن تسمعها من قبل وأخذ القرويون يستسيغونها .

ويلاحظ أن أعـدادا متزايدة من القرويين يحفظون الأغاني ويرددونها في المنزل أو في الطريق أو في الحقل أو في الأفراح . وقد عملت الإذاعة على توسيع آفاق القرويين على نحو ما أشرت اليه من قبل في الفصـــل الثالث خصوصا بعد أن أخذت القراءة والكتابة تزداد نسبة الملمين بها باستمـرار ، الأمر الذي يمكنهم الآن من قراءة الصحف والمجلات والنشرات الحكومية كنشرات وزارتي الزراعة والصحة والشئون الاجتماعية . ويلاحظ أن هذه الصحف والنشرات لا يدل نسب التوزيع منها على مدى اقبال القرويين عليها ، لأنها تتداول بين أكبر عدد ممكن من القرويين ، ومن المظاهر المألوفة أن يقرأ القروي الصحيفة بصوت عال ليسمعه أكبر عدد من أقـرانه الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ويسألون المتعلمين أو المهاجرين العائدين عندما يجلسون معهم عن كل شيء يتعلق بالمدينة والعالم .

أما الزخرفة والنقش وغيرها من الفنون الأخرى فالتغير فيها ليس واضحا ، ولا زال القرويون يميلون الى عدم التعقيد ، وإن كان بعضهم يعلق صـورا مختلفة أو يكلف البناء برسم صور مختلفة على الحائط الداخلي أو الخـارجي إذا كان مطليا بالجير . ولكن يلاحظ أن ظهور القهوة بدل المصطبة كمكان للتسلية جعل كثيرا من القرويين يترددون عليها ويلعبون الألعاب المختلفة التي توجد في « قهوة المدينة » وقد أشرت فيما سبق أن نسبة الألعاب والاهتمام بها قلت عن ذي قبل . وكقاعدة يمكن القول أنه فيما يتعلق بالفنون يزداد اعتماد القرية على المدينة في كل مظاهرها.

وبجانب انتشار المذياع والجرائد والمجلات يستخدم القـرويون الآن السيارات والدراجات والقطار في الانتقال الى المدينة أو إلى القرى البعيدة ، كما امتدت الى القرى الثلاث المواصلات السلكية وأدخل بعض السكان في منازلهم آلات سلكية خاصة . ويلاحظ أن هذه المواصلات تستخدم مع استخدام « الحمير » في الانتقال من القرى القريبة . ومن المباني الحكومية التي أنشئت في القرى ، مدرسة القيطون التي تم بناؤها عام ١٨٩٥ ، والمركز الاجتماعي بقرية هلا الذي لم تتم مبانيه حتى الآن . وهناك مشروع ينفذ الآن لتزويد القرى بالمياه الجارية عن طريق الأنابيب الممتدة تحت الأرض . والجدول الآتي يوضح عدد المؤسسات والآلات والمنازل الحديثة في القرى الثلاث (١) :

المؤسسات والآلات والمنازل الحديثة	القيطون	كفر الشيخ	هلا
آلة اضاءة كهربائية	—	١	—
طلمبات ماصة كابسة	١	٤	٣
آلات ري	—	٣	٥
آلات حرث	—	١	٤
سيارات	١	٤	٥
دراجات	٢٢	٢٣	٢٤
مذياع	٢٦	٣٧	٢١
آلة سلكية	٢	٣	٣
منازل بالطوب الأحمر	٧	١٢	٩
منازل ذات أثاث حديثة	٣٥	٨٢	٤٤
مدارس	١	١	٢
مؤسسات اجتماعية	١	٢	٢

١ ـ يقوم هذا الاحصاء على تعداد أجريته بنفسي في القرى الثلاث في مارس ١٩٥٨ .

من هذا الجدول تتبين الى أى حد تأخذ القرى بمظاهر الحياة المادية فى المدينة.

ومن العوامل المادية التى ساعدت على ذلك طرق المواصلات ، وقد أشرت فى الفصل الثالث أن طريقاً زراعيا تسير عليه السيارات العامة تم انشاؤه ويربط بين القرى الثلاث وبين مدينتى ميت غمر ومنيا القمح ومرور خطوط المواصلات السلكية واللاسلكية بجوار القرى ، ووجود بعض الأسر التى أثرت عن طريق التجارة وتمكنت من شراء مساحات لا بأس بها من الأرض الأمر الذى تيسر معه استخدام الآلات الحديثة فى الزراعة . كما أمكن وصول الجرائد والمجلات للقرويين بسهولة .

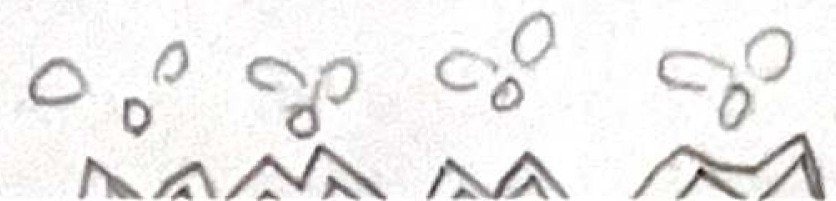
. . .

لم تتغير أدوات الزراعة كثيرا عن ذى قبل ، والتغيرات التى حدثت فى بعضها تعديل أو امتداد للقديم ، ولا زالت أيضا لا تحتاج الى مهارات خاصة فى استخدامها ، كما أنها تستغرق فى العمل عليها نفس الوقت .

ويمكن تقسيمها كما قسمت فى القسم الأول من هذا الفصل من حيث طريقة استخدامها ونوع المجهود الذى يبذل فيها الى الأنواع الآتية :

١ ـ ادوات المجهود البشرى :

لا تزال الفأس أهم أداه عند القروى وتؤدى نفس الوظائف القديمة كما أن « الشقرف » لا يزال يستخدم فى الأغراض التى كان يستخدم فيها من قبل وكذلك الشأن بالنسبة « للمدراه » . ولكن يلاحظ أن الشادوف اختفى من قرية الفيطون ، ولا يزال هناك شادوفان فى كل من قريتى هلا و كفر الهيخ



ويستخدمان على الرياح التوفيقى ، ويستخدم الشادوف فى هذه الحالة فى رى الخضروات التى يزرعها بعض القرويين فى مساحات صغيرة على حافة الرياح ويصدرونها عقب نضجها من هناك توا الى المدينة . وكذلك لم تعد « المدقة » تستخدم فى تقطيع أعواد الفول واستبدلت « بالنورج » . ويلاحظ أن أدوات المجهود البشرى تقل تدريجيا ويزداد الاعتماد فى العمل الزراعى على الحيوان .

٢ ـ ادوات المجهود الحيوانى :

ويلاحظ أنها زادت وتنوعت فى هذه الفترة . فقد تنوعت الآلات الرافعة للمياه من باطن الأرض أو من الترع . فمن باطن الأرض تستخدم الساقية الحديدية ذات الطلمبات بدل الساقية ذات البئر ، ويستخدم « التابوت والطنبوشة » فى رفع المياه من الترعة . كما أن « النورج » يستخدم الآن على نطاق واسع فى درس القمح والأرز والشعير والفول . وفى كل الأحوال يلاحظ الأطفال انتظام دورة الحيوان فى « مدار الآله » .

٣ ـ ادوات المجهود الحيوانى والبشرى المشترك :

يلاحظ أنها لم تتغير عما كانت عليه ولكن نظرا لتفكك العائلة وبالتالى تناقص الملكية النسبية لكل أسرة ، فان الاتجاه الآن الى استخدام حيوان واحد بدل حيوانين كما كان الاتجاه من قبل فى جر « المحراث والزحافة والقصابية » .

٤ ـ الآلات الحديثة :

آلات الزراعة الحديثة قليلة كما هو واضح فى الجدول السابق ، وهى

مملوكة لأسر محدودة تسمح ملكيتها باستخدامها. ويلاحظ أنه من الاسباب المهمة لعدم اقبال الفلاحين على استعمال هذه الآلات بجانب نفقاتها الباهظة أن مساحات الأراضى المخصصة لأغلب الأسر لا تسمح بسهولة استخدام هذه الآلات لكثرة القنوات والجسور والحدود التى تفصل ملكيات الأسر بعضها عن الآخر، كما أن الطرق الزراعية بين القرية والحقول ضيقة جداً لا تسمح بمرور هذه الآلات .

ولعل من أهم مظاهر تأثير المدينة والسوق فى القرى ، أن اختفت الصناعات البسيطة التى كانت موجودة من قبل مثل صناعة النسيج والحصير نظرا لزيادة اعتماد القرويين على « المحلات التجارية فى المدينة أو السوق » فى شراء ما يلزمهم من الأقمشة وأدوات الزراعة المختلفة . ولكن قامت صناعة طحن الحبوب وضرب الأرز فى قريتى هلا وقيطون حيث توجد آلتين لذلك فى هلا وآله واحدة فى القيطون .

كما يلاحظ أن أصحاب المهن والحرف فى القرية يعتمدون على المدينة أيضا أكثرة من ذى قبل فى شراء الأشياء التى يطلبها القرويون . وقد يقتصر عملهم فى بعض الأحيان على العمل اليدوى حين يفضل البعض شراء ما يلزمه بنفسه كأدوات البناء ، وأدوات الرى والحرث والدرس ، ويصبح عمل البناء أو النجار أو الحداد فى هذه الحالة مجرد القيام بالعملية نفسها . لأنه كان قديما يحتفظ ببعض الأدوات لبيعها للقرويين عند الحاجة . فالحداد مثلا كان يحتفظ بعدد من « الفؤوس » و « أسلحة المحاريث » وقطع غيار للسواقى وغير ذلك .

...

إن مقارنة الثقافة المادية القديمة بالثقافة المادية المتغيرة الآن ذات أهمية كبيرة من ناحيتين : الأولى ، فى الكشف عن عوامل التغير فى هذه الناحية وعمليات التغير ونتائجها ، والثانية ، فى اختبار مدي صحة نظرية التخلف الثقافى Cultural Lag لاجبرن Ogburn أو عدم الاستواء لجود فرى ومونيكا ويلسون G. & M. Wilson خصوصا فى حالة النموذج المكون من القرى الثلاث . وسوف يتبين ذلك من مناقشة خصائص الثقافة المتغيرة فيما يلى :

١ ـ التعقيد النسبى :

البساطة التى كانت تميز مكونات الثقافة المادية تنعقد الآن ولكن بنسب مختلفة . أى أن التغير فى هذه المكونات لم يكن متوازيا من حيث الكم والكيف . والقاعدة هنا مناسبة للناحية الجديدة لمطالب الفرد فى المسكن وفى العمل الزراعى وفى علاقته مع الآخرين . بحسب كثافة علاقاته ومداها الى جانب مركزه الاقتصادى . ولهذا تكون مظاهر التعقيد النسبى غير متساوية عند جميع الأسر .

إذن فالاسرة التى تعمل فى النشاط التجارى أكثر تعقيدا فى هذه الناحية من الأسر المماثلة مركزا اقتصاديا وتعمل فى الزراعة ، ويتدرج التعقيد على هذا الأساس حتى يصل الى الحد الأدنى فى الاسر الفقيرة وقد لاحظ فى Fei أن الرجل عندما يتخلى عن أداه ويكتسب اداه جديدة ، فانه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الاداة الجديدة تناسب غرضه بطريقة أوفى (١) .

1— H-T. Fei, Peasant Life in China, London , 1943, pp. 2,3

وقد اثبتت التجربة صدق هذا القول عندما يقارن القروى بين القـــديم والجديد ، أو بين السفر راكبا حمارا وبين السفر عن طريق استخدام القطار أو السيارة . ولكن قبول الاداه الجـــديدة لا يتوقف فقط على الاقتناع أو التصور المتسبق لها [1] ، بل يتوقف على عـدة أمور هامة مثـل الجهل أو التكاليف الاقتصادية التى قد لا تـكون فى مقدور الفـرد [2] ، الأمر الذى قد يؤدى الى رفض الأداه الجديدة وعدم استخدامها . وفى هـذه الحالة يستند الرفض الى عدة عوامل منها أن استعمال القديم أسهل من استعمال الجديد إلى جانب النزعات المحافظة عند كبار السن ، وغير ذلك من عوائق التغـير الثقافى والاجتماعى . ولهذا فان انخفاض المستوى الاقتصادى بصفة عامة فى القرى يقلل الى حد كبير من نسبة المكونات الجديدة للثقافة المادية ، ويبدو هذا على وجه خاص فى أدوات الزراعـة التى لا تزال نسبة كبيرة منهـا على ما كانت عليه فى فترة ما قبل التغير . ذلك لأن استخدام الآلات الحديثة يقتضى نوعا من التعاون بين الأسر يفتقد الآن فى القرى ، ولعله كان ممكنا فى وجود البدنات والعائلات المكونة لها .

كما أنه يقتضى تنظيما خاصا للأرض غير التنظيم الموجود الآن ، والذى تنقسم فيه الى عدد كبير من القطع المحدودة ، التى تقوم بينها فواصـل من قنوات وحدود وطرق زراعية ويقتضى أيضا أن يقتنع القروى بقلة تكاليف الآلات الحديثة فى المدى الطويل ، وإمكان استغلال الماشية للانتاج الحيوانى وزيادة الدخل .

1- Maciver, Page; Op. Cit. pp. 555-556

2- Ogburn, Nimkoff, Op. Cit., pp. 553-557.

ومع ذلك فاذا اقتنع القروي بذلك ، فان الغالبية العظمى من القرويين ليس لديهم فائض نقدي يمكنهم من شراء هذه الآلات أو الإسهام فى شرائها عن طريق التعاون . ولهذا أعتقد أن قدراً كبيرا من التعقد فى مكـونات الثقافة المادية فى القرى يتناسب مع المركـز الاقتصـادى . ولهـذا تختلف القرى من هذه الناحية بحسب اختلاف عدد الأسر ذات المركـز الاقتصادى الذى يسمح لهـا باستخدام الأدوات الحديثة ، وعلى أساس ما ذكرته فى الفصل الرابع تـكون قرية كـفر الشيخ أكثر القرى تجمعا لمظاهـر الثقافة المادية فى المدينة ، وتليها هلا فالقيطون . أما العقبات الأخرى التى ذكرها اجبرن [1] . فان انتشار التعليم وزيادة اتصال المدينة بالقرية والقـرويين أنفسهم بالمدينة والنزعة الى التقليد تعمل على الاقلال من أثرها فى الاعراض عن الجديد .

وقد لاحظ عدد من الباحثين فى بعض انحاء العالم أن مظاهر الحيـاة فى المدينة تأخذ الآن طريقها الى القرى كما هو شأن القرى الثلاث هنا ، أى أن مظاهر التعقيد فى مكونات الثقافة المادية فيها آخذة فى الإزدياد ، فقد وجد دوبيه Dube أن فى شاميربت Shamirpet تغيرات ملحوظة فى الزينـة والملابس وأدوات المنزل ، كما أن تحسن المواصلات أدى الى دخول المذياع وقيام محلات تجارية تبيع أدوات وحاجات مصنوعة فى المدن [2] .

وفى الصين لاحظ مارتن يانج M. Yang مثل ما لحظته فى القرى الثلاث

1 — Ogburn, Nimkoff, Op. cit., pp. 558—560

الجهل — تقديس الماضى — المحافظة — الخوف من الجديد — المصالح الخاصة

2 — Dube, Op. Cit., pp. 216-222

من أن القرويين فى « تايتو » Taitou يعرفون الطرق الحديثة فى الزراعة، ولكن ليس لديهم المال الكافى ، كذلك يثير تقسيم الأرض الى قطع صغيرة صعوبات كثيرة فيما يتعلق بالرى أو فى تطبيق نظام الزراعة الآلية (١)

٢ ـ الاعتماد على المدينة والسوق :

لعل تغير الاعتماد من حيث توفير مكونات الثقافة المادية فى القرى من أهم التغيرات الملاحظة . وكلما مر الزمن زاد الاعتماد على « العالم الخارجى » وقل الاعتماد الى الحد الأدنى على البيئة . حقيقة أن البيئة لا تزال تقدم « المادة » لعدد لا بأس به من هذه المكونات ، خصوصا فى أدوات الزراعة والمساكن إلا أن تزايد الاعتماد الخارجى أصبح ملحوظا الآن حتى فى أجزاء هذه الأدوات والمساكن . وهذا يدل على أن التغير فى مدى الاعتماد بالنسبة للعائلة والحياة الاقتصادية والثقافية المادية القديمة يؤدى الى نتائج متشابهة كما سبق أن أشرت فى الفصلين الثالث والرابع . ولكن تغير الاعتماد هنا يدل على شىء آخر يتعلق بعوامل التغير .

حقيقة أن التغيرات الداخلية كانت من العوامل المهمة فيما يلحق العائلة والحياة الاقتصادية من تغير ، وكانت نتائجها واضحة على اتجاهاتهما التى تلت ذلك ، إلا أنه فيما يتعلق بالثقافة المادية كان أثر العوامل الخارجية وأهمها المدينة والسوق أكثر ظهورا من العوامل الداخلية لأن الجديد فى مكوناتها يأتى فى واقع الأمر من الخارج ، خصوصا أننى أشرت أن عوامل

2 — M. Yang, Op. Cit., p. 230

التغير الخارجية أدت الى اختفاء الصناعات المحلية التى كانت موجودة من قبل ، الأمر الذى أدى الى زيادة اعتماد القرى على الخارج فى كل شىء تقريبا — فى الملبس والفنون والأثاث — والطعام فى بعض الأحيان وفى كثير من أدوات الزراعة والمساكن : ومع هذا فانه مالم تمهد التغيرات فى العائلة والحياة الاقتصادية لهذا التغير المادى لظل تأثير البيئة أوضح من المدينة أو السوق ، وبمعنى آخر يمكن الاستدلال من ذلك على مدى الترابط بين العوامل الخارجية والداخلية فى عمليات التغير ، حتى اذا تركناها جانبا، لوجدنا أن كل تغير فى الأساس الاقتصادى الذي كانت تقوم عليه العائلة ، يؤدى الى تغيرات مصاحبة فيها من حيث تكوينها ووظائفها ومن ثم تنتشر سلسلة من التغيرات المصاحبة الأخرى فى مختلف نواحى الحياة بما فى ذلك الحياة الاقتصادية والثقافية والمادية .

ويلاحظ أن التغير فى مكونات الثقافة المادية تغيرات « تلقائية » أى أنها نتجت عن الانتشار عن طريق الاتصال الثقافى Culture Contact بين القرية والمدينة والعكس . ولكنه فى نفس الوقت لم يكن انتشارا موجها كما هو الوضع بالنسبة لسوهى مورا Suye Mura فى اليابان (١) . فالحكومة لم تتدخل تدخلا واضحا فى فرض مظاهر مادية جديدة على القرى ، وإن كان « المركز الاجتماعى » يمثل شيئا من هذا القبيل فانه فشل فى تحقيق اغراضه (٢) . ولذلك تزداد نسبة المظاهر الجديدة ازديادا تدريجيا يتوقف

1 — J. Embree, A Japanese Village, Suye Mura, London, pp. 227-232

٢ ـ التشابه بين المركز الاجتماعى فى القرى الثلاث ، وبين البعثة الثقافية التى عملت فى قرية شان كوم فى عامى ١٩٤١ ، ١٩٤٥ من حيث الاغراض والنتائج.

على زيادة الاتصال بالمدينة ، وعلى مناسبة اتجاهات الحيـــاة الاجتماعية والاقتصادية الداخلية لمثل هذه المظاهر ، والتغير التدريجى على هذا النحو يدل مرة أخرى على مدى تساند جميع أجزاء الحياة الثقافية فى القرى عنـد التغير .

إذن فثقافة القرية المادية (وغير المادية) الآن تعتمد اعتمادا مباشرا على ثقافة أكبر كما قال ردفيلد ، على عكس ما كانت عليه من قبل عندما كانت تعتمد اعتمادا مباشرا على البيئة المحلية . ولهذا فان التغيرات التكنولوجية فى المدينة تصل القرية وتتأثر بها فى فترات زمنية مختلفـــة . ولذلك لا يمكن دراسة هذه الثقافة من الداخل كما كان اتجاهى فى الثقافة القديمة ، بل لا بد من ادراك العلاقة بين مكونات هذه الثقافة الآن وتأثرها بالمكونات العـامة للثقافة الكلية .

٣ ـ التمايز الطبقى :

لا تأخذ الأسر فى القرى بمظاهر الثقافة المادية فى المدينة بنفس القدر . بل تختلف نسبة هذه المظاهر باختلاف مركـز الأسرة الاقتصادى ونوع المهنة الغالبة . وكـقاعدة يمكن القول بأنه كلما ازداد الدخل ازدادت المظاهر وكلما قل الدخل كلما قلت . ولـكن الملاحظ أن الأسرة مهما كـانت فقيرة فان ملاحظة مكونات حياتها المادية تـكشف عن اختلاف واضـح عن المكونات القديمة ولهذا نجد بعض الأطباق والأكواب الزجاجية والأوانى المصنوعة من النحاس أو الألمنيوم ، وقد تجد مرآة أو كرسيا مصنوعا من الخشب .

والمشاهد أن كل أسرة فقيرة تحاول أن تقتنى من الأدوات الجـــديدة ما يسمح لها دخلها بذلك . هذا الى أن بعض المهاجرين من هـــذه الأسر الفقيرة عندما يعودون لزيارة أقاربهم يأتون ومعهم بعض الأدوات والاشياء الخاصة بالمدينة كـالأقمشة والاحذية وأدوات الزينـــة كالروائح وبعض الملابس كالمعاطف ويقدمونها كهدية لأسرهم . وأكـثر الاسر حرصا على تقليد سكان المدينة فى هذه النواحى هم المشتغلون بالتجارة وأصحاب المهن والاسر التى تملك أرضا تفيض على حاجتها ، فتزرع جزءا منها وتؤجر الباقى والأسر التى يتعلم بعض أفرادها فى مراحل التعليم المختلفة فى المدينة . ولكن جميع الأسر تتساوى فى اعتمادها على المدينة والسوق فى توفـــير مطالبها المختلفة . وإن كان هناك ميـل أكـثر للاعتماد على السوق عنـد الاسر الفقيرة ، خصوصا وأن السفر الى المدينـــة يكلف نفقات كـثيرة تفـوق قدرة هذه الأسر .

٤ ـ النمو الكمى والكيفى :

مكونات الثقافة المادية الجديدة فى القرى ، لا تنمـو من الداخل كما هو الحال فى المجتمعات الحديثة خصوصا فى المـدن الـكبرى حيث تزداد الاختراعات ، بل أنها تنمو فى الخارج بمعنى أن كل عنصر جديد يأتى من المدينة . ولهذا كان تقليد سكان المدينة هو الأساس الأول فى نمو هـــذه المكونات . أى أن تجمع الثقافة المادية يكون على أساس الانتشار Diffusion ولـكن سرعة التجمع مرتبطة بتحسن الاحـوال الاقتصادية فى القرى ، وزيادة تأثير المدينة ، وخصوصا عن طريق التحسن فى وسائل المواصلات .

ويلاحظ أن النمو الكمي في المظاهر المادية الجديدة هو الغالب على النمو الكيفي ، وذلك من حيث أن نمو الوسائل المادية كما هو زيادة في مجموعها دون تحسن ملموس في كيفيتها (١) وأن النمو الكيفي في هذه الوسائل يعني قدرة متزايدة في تحقيق ايديولوجيتها من حيث الوفاء بالأغراض المرتبطة بها . ودليل ذلك أن الأداة الجديدة تستخدم في المدينة استخداما كميا وكيفيا في نفس الوقت ولهذا تكون لها القدرة على التأثير بما يحقق الغرض منها ، ولكنها في القرية قد تستخدم على نحو لا يؤدي الى تحقيق هذا الغرض . فالمذياع مثلا أدى الى عدد من التأثيرات في الحياة الحضرية انتشرت في كل اتجاه وترتب عليها تقارب الفوارق الثقافية بين الأفراد بغض النظر عن قدراتهم الإقتصادية والإجتماعية (٢) . ولكنه في القرية لم يؤد الى هذه النتائج . واستخدام السيارة في السفر وتأثيث المنازل بالأثاث الحديث لم يؤد ايضا الى نتائج مشابهة لنتائج هذه الأدوات الحديثة في المدينة . ولذلك يمكن القول بأن كثيراً من المظاهر الثقافية المادية للمدينة والتي دخلت القرى لا تحقق ايديولوجيتها لأن التغير في الجوانب الاخرى من الحياة الإجتماعية لم يصل الى الدرجة التي يمكن أن يتكيف بها . وإذن فالزيادة في هذه المظاهر زيادة كمية فقط تدفعها الرغبة الملحة في تقليد سكان المدينة مع ما فيها من اظهار المركز الإقتصادي والإجتماعي ولهذا ليس غريبا أن يترك القروي السرير لينام على الارض أو يترك المائدة ويأكل على الطبلية ، أو يترك « الحمام الحديث » ويستحم في الترعة . ولا يعني ذلك أن هناك تخلفا أو عدم استواء

1 — P. Sorokin, Society, Culture and Personality, N. Y. 1947 pp. 586-587

2 — Ogburn, Nimkoff; Op. Cit., pp. 564—568

بين المظاهر المادية من حيث تقدمها وبين اجزاء الحياة الاخرى ، لأن أساس ظهور التخلف هو وجود اللاتوازن الذي يتضمن الصراع . وهذا غير موجود في القرى ، طالما أن النمو الكمي يهدف الى اظهار المركز الاجتماعي والاقتصادي أكثر من كشفه لنمو كمي من حيث الاستعمال .

٥ — المعية في التغير : Togetherness in Change

إذن تكون نظرية التخلف الثقافي أو عدم الاستواء غير متحققة في دراسة التغير في القرى الثلاث خصوصا بين النواحي المادية وغير المادية ، وذلك لان النظرية كانت تصور وضعا يختص أما بالتغير السريع المترتب على تأثيرات التكنولوجيا الحديثة في المدينة ، أو بالتغير السريع أيضا من البدائية الى التحضر (١) . ولكن مظاهر التغير في القرى الثلاث وخصوصا في الجانب المادي ثبت انها ليست سريعة بل متدرجة ، كما انها ليست شاملة لارتباطها بالمركز الاقتصادي ونوع المهنة ودرجة الاتصال بالمدينة ، وانها تنمو كميا لا كيفيا . والى جانب ذلك لا توجد مظاهر الصراع أو نتائج سوء التوافق أو الاختلال فالقديم يعيش جنبا الى جنب مع الجديد دون أن ينشأ في ذهن القرويين أدنى فكرة عن التعارض . بل انهم يناسبون الجديد في كثير من الاحيان ليلائم القديم . ومثال ذلك أن مواقد الغاز ومحلها المطبخ في البيت الحديث تشعل في أي مكان ، كما تحفظ في أي ركن من المنزل . والملابس في الاسر التي تشتري الاثاث الجديد لا تزال تعلق على اوتاد خشبية تدق في الحائط وهكذا .

ولكن مع هذا أعتقد أنه إذا صدقت نظرية التخلف وعدم الاستواء

1 — G & M. Wilson, Op. Cit., pp. 163—167.

فانها تصدق على المجتمعات الكبيرة ككل، وعلى المناطق الصناعية بوجه خاص، أما فى حالة المجتمعات الصغيرة والتى تكون المهنة الغالبة هى الزراعة، وخاصة عندما تظل تقوم على الأساليب القديمة نظرا للاسباب التى أشرت إليها، فان مظاهر التخلف أو عدم الاستواء لا تبدو واضحة أو لا تكون موجودة أصلا . ولهذا فان ثقافة القرية المتكاملة تتغير ككل أو فى معية Togetherness لأن أى تغير فى الكل يؤدى إلى تغير فى الأجزاء الأخرى وأى تغير فى هذه الاجزاء يؤدى الى تغير فى الكل(١) ومعنى هذا أن سلسلة التغيرات المصاحبة تسير دون تباطؤ فى أى ناحية وبطريقة متوازية فى كل أجزاء الحياة الاجتماعية المرتبطة المادية وغير المادية ، وعلى ذلك فالثقافة المادية القديمة كانت متوازية مع العائلة والحياة الاقتصادية ، وهى اليوم متوازنة فى تغيرها مع تغيرات العائلة والحياة الاقتصادية أيضا ، أو كما يقول ج ، م ويلسون ، أن التوازن الذى يلاحظ فى القرى الثلاث هو توازن متحرك Moving Equilibrium (٢)

. . .

الاختلافات النسبية بين القرى الثلاث لا تكشف عن اختلافات فى عوامل التغير أو عملياته ونتائجه وانما الفروق الاساسية فى درجة الانتشار من حيث الزمن أو المدى . ولكن الشقة تضيق الآن بسرعة بين القرى حتى أن كل مظهر جديد فى قرية كاستخدام الآلات السلكية الخاصة يقلد فورا فى القريتين الآخريين وهكذا . والجدول الآتى يوضح هذه الفروق .

---

1 — P. Sorokin, Social and Cultural Dinamics, Vol IV, N. Y., 1941, p. 145.

2 — G. & M. Wilson, Op. Cit., pp. 163–167

المظاهر والخصائص	قرية هلا	قرية كفر الشيخ
الآلات الحديثة فى الزراعة	توجد بعض هذه الآلات . ويلاحظ أنها غير موجودة فى قرية القيطون .	توجد بعض هذه الآلات بنسبة أقل من هلا .
المساكن الحديثة والمبنية بالطوب الأحمر .	توجد بنسبة أكبر ويلاحظ أن «الفيلات» غير موجودة بقرية القيطون، وهناك بعض المساكن مزودة بطلمبات ماصة كابسة .	توجد بنسبة أكبر من قرية هلا. ويلاحظ أن زيادة نسبة المساكن المزودة بالطلمبات الماصة الكابسة . والاضاءة الكهربائية فى مسكن واحد .
الأزياء الحديثة	نسبة أكبر من قرية القيطون من الرجال والنساء يلبسونها .	نسبة أكبر من قرية هلا تلبسها .
الأثاث الحديث	نسبة أكبر من قرية القيطون تعتنى باقتناء هذا الأثاث .	نسبة أكبر من قرية هلا .

المظاهر والخصائص	قرية هلا	قرية كفرالشيخ
العناية الشخصية والزينة	مشابهة لقرية القيطون	يلاحظ اعتناء أكثر بالمظاهر الخارجى وتميل الى التجميل .
المذياع	عدد أكبر من قرية القيطون .	عدد أكبر من قرية هلا .
الصحف والمجلات	تقرأ وتشترى بنسبة متشابهة للقيطون .	تزداد النسبة عن القريتين .
الخصائص	مشابهة تقريبا .	مشابهة تقريبا.
التعقيد النسبى	مشابهة للقيطون .	أكثر تعقيداً .
الاعتماد على السوق والمدينة .	اعتماد أكثر على السوق .	اعتماد أكثر على المدينة .
التمايز الطبقى	أكثر وضوحا .	مشابه لقرية القيطون.
النمو الكمى والكيفى	مشابه لقرية القيطون.	هناك اتجاه للنمو الكيفى .
المعية فى التغير	مشابهة للقيطون .	مشابهة للقيطون .

من هذا الجدول يتضح أن الفوارق الموجودة بين القرى الثلاث لاتجعلها غير متشابهة بل هى جميعا تنتمى الى نموذج واحد . والاختلاف هو أساسا اختلاف فى الانتشار ويرجع الى أن قريتى هلا وكفر الشيخ أيسر من حيث المواصلات من قرية القيطون قبل عام ١٩٥٨ ، والى وجود مراكز الادارة والمركز الاجتماعى بقرية هلا ، والى انتشار التعليم فى وقت مبكر فى قرية كفر الشيخ ، كما ان النشاط التجارى يزداد فى قرية هلا عن قريتى القيطون وكفر الشيخ . ولكن مع هذا كله لا تختلف قرية عن أخرى اختلافا كبيرا يمكن أن يؤدى الى اختلافها من حيث النموذج .

الفصل السادس

نتائج البحث

١ - نتائج عامة

٢ - مدى صدق الفروض والنظريات بالتطبيق على التغير فى القرى الثلاث .

الفصل السادس

نتائج الدراسة

تبين من تحليل ومقارنة بعض مظاهر التغير الاجتماعى ، فى الفصول السابقة ، أن النموذج الذى تنتمى إليه القرى الثلاث ، هلا وقيطون وكفر الشيخ يختلف من حيث عوامل التغير واتجاهاته ونتائجه عن المجتمع البدائى والمجتمع الحديث من عدة نواح . ولهذا كان التعميم فى دراسات التغير الاجتماعى بحيث تنطبق نتائج الدراسات التى أجريت فى عدد من المجتمعات البدائية والحديثة على المجتمعات القروية ، أمرا فيه مخاطرة علمية كبيرة ، بل أن المجتمعات القروية نفسها فى كثير من أنحاء العالم كما رأينا من قبل لا تكشف عن تطابق أو تشابه فى هذه الناحية ، ذلك لأن التغير يتوقف على عدة عوامل لا تتشابه فى كل حالة ، كما أن ظروف المجتمعات القروية تختلف من مكان الى مكان ، بل أن القري نفسها فى المكان الواحد من الجمهورية العربية المتحدة ، تختلف فيما بينها أيضا ولهذا كانت دراسة المجتمعات القروية على أساس النماذج هو الطريق العلمى المضمون للوصول الى تعميمات خصوصا فى ميدان حديث من البحث كالتغير الاجتماعى .

والتحليل والمقارنة فى الفصول السابقة ، وإن كان الهدف الأساسى منهما اختبار الفروض والنظريات التى حاولت التحقق منها ، إلا أن العرض فى نفس الوقت أعطى صورة عامة ، « للقرية » فى فترتين من تاريخها ، فترة كان يظن أن البناء الاجتماعى فيها « مستقرا » وفترة أخذ البناء فيها يتغير وما زال يتغير . ولهذا فقيمة الرسالة تقع فى مدى تحقيقها للهدف الأساسى .

والصورة العامة التى رسمتها للقرية القديمة والقرية المتغيرة فى النموذج المختار لأن عوامل التغير التى أثبتها هنا قد تتغير نتيجة لظروف ليست موجودة الآن ، وبالتالى قد يترتب عليها نتائج مخالفة . ومعنى هذا أننى لا أزعم بناء على هذه الدراسة قدرة على التنبؤ بسير التغير فى المستقبل ، خصوصا وأن التنبؤ فى « المسائل الانسانية » لمدى طويل صعب للغاية ، تكتنفه ظروف مختلفة وغير متوقعة لا يستطيع الباحث أن يتثبت منها ، بعكس الحال فى « المسائل المادية » التى تمكن الباحث أن يتنبأ متى توافرت شروط معينة . إذن فالتنبؤ « بمستقبل » النموذج المدروس من حيث التغير الاجتماعى « هو فى واقع الأمر مجرد احتمال ». وكل الذى يمكننى الادلاء به هنا هو النتائج والملاحظات التى توصلت اليها من هذه الدراسة على النحو الآتى :

١ ـ التغير فى النسق يقوم على مبدأين :

الأول مبدأ التغير الملازم أو التغير الداخلى ، ومعنى كل هذا أن كل نسق طالما ظل يقوم بوظائفه ، فانه يتغير وأن أسباب التغير متضمنة فى النسق نفسه ، وكل تغير فى نسق معين يؤدي الى تغيرات فى النسق الأخرى المعتمدة عليه ، بحيث أن نتائج التغير فى كل حالة لا تغير النسق الى شىء له خصائص تختلف عن الخصائص البيئية لهذا النسق أى أن التغير لا يؤدى الى خلق خصائص جديدة لم تكن متضمنة فى النسق — بصورة غير ملاحظة — من قبل . وهذا لا يؤدى الى استبعاد آثار العوامل الخارجية التى يتركز دورها فى الاسراع أو التأخير فى التغير الملازم للنسق ، أو فى تسهيل أو تعويق تحقيق النسق لامكانياته ، أو فى قمع أو زيادة نمو بعض خصائص هذا النسق ، أى أن دور العامل الخارجى يكون فى التعجيل أو التعويق حسب الأحوال .

فتكوين العائلة كان ينبىء بتغيراتها المستقبلة ، لأنها فى واقع الأمر تتكون من عدة أسر ، وهى ككل كانت تقوم بطريقة جمعية بالوظائف التى يمكن أن تقوم بها كل أسرة على حدة ، ولهذا فتفكك العائلة الى أسر نتيجة للتغير الاجتماعى لم يغير من رابطة الرجل والمرأة ، وانجاب الأطفال والاشراف على تربيتهم واعطائهم مركزا ودورا فى مجتمع القرية ، كما أن وظائف النشاط الاقتصادى من حيث ضمان اشباع الحاجات المادية الى جانب المركز الاجتماعى المتعلق بمدى ونتائج هذا النشاط كان متضمنا فى الحياة الاقتصادية القديمة وما تتغير إليه الآن . ولهذا كان انتاج السوق والاعتماد على النقود فى التبادل ، والميل الى التعاقد بين الأقارب فى شئون المعاملات الاقتصادية لا يعد فى واقع الأمر ظواهر مختلفة لم تكن متضمنة أصلا فى الاقتصاد العائلى من قبل . ومهما كان شكل النشاط الاقتصادى ، فانه يهدف الى الوفاء بمطالب المعيشة وتعين مركز اجتماعى خاص .

وهذا هو الذي دعانى الى القول بأن التغير الداخلى كان الباعث الأول والمؤثرات الخارجية كانت عوامل معجلة ، لأن الوحدات الأسرية المكونة للعائلة القديمة ، هى التى بدأت بالانفصال ثم الاستقلال نتيجة لتفكك الأسس التى قام عليها اتحادها من قبل ، كما ان ازدياد السكان وهو عامل داخلى كان له الشأن الأكبر فى تغير شكل النشاط الاقتصادي ، وكلما زاد أثر العوامل الخارجية كلما تطور هذا الشكل بحيث تزداد سرعة التغير فى هذه الناحية .

والثانى مبدأ الحدود ، ومعناه أن العلاقة السببية الوظيفـــية بين اثنين أو أكثر من المتغيرات أ ، ب لها حدود معينة ، أى أن هذه العلاقة لا تظل دائما صحيحة ، إذ يأتى وقت لا يكون لها معنى ، أو تكون صالحة لتفسير التغير . ومثال ذلك أن ارتفاع مستوى المعيشة فوق الحاجات الضرورية يؤدى الى زيادة فى المواليد وانخفاض نسبة الوفيات ، ولكن زيادة أكبر قد لا تؤدى الى انخفاض نسبة الوفيات هذه التى كانت نتيجة لطردية العلاقة السابقة ، كما أن النسق لا يتغير فى واقع الأمر الى ما لا نهاية ، فامكانياته فى التغير قاصرة على عدد محدود من التغيرات أو نماذج التغير ، ولذلك مهما صنفنا النسق الاقتصادية فانها لن تزيد على ستة أو ثمانية ، وكذلك الشأن بالنسبة للعائلة أو الزواج فانها لا تزيد على عشرة وهذا ينطبق بالتالى على كل النسق الاجتماعية الأخرى .

٢ — التغير فى العائلة والحياة الاقتصادية والثقافية المادية فى النموذج تغير كمى أكثر منه تغير كيفى . خصوصا اذا فهمنا التغير على أنه « زيادة فى الوحدات » والتغير الكيفى على أنه « تحسن فى الوظيفة من حيث الأداء » . فالعائلات فى القرية القديمة كانت قليلة العدد ، أما الأسر فى القـــرية المتغيرة فهى كثيرة ، ومع ذلك فالكثرة هنا لم تؤد الى « تحسن » ملموس فى التدريب الاجتماعى وطرق التربية ، فالمناهج القديمة لا تزال كما هى وان تغيرت أهدافها .. وهكذا .

كما أن قيام الاسرة على رعاية قطعة صغيرة من الأرض الزراعية بطريقة فردية لم يؤد الى تحسن فى الأدوات الزراعية أو فى الانتاج ، فـلا تزال المناهج القديمة كما هى ، وهذا ينطبق أيضا على الثقافة المادية ، فالتغير فيها

من حيث مكوناتها القديمة هو فى واقع الأمر زيادة فى العدد نتيجة لزيادة الأسر واستقلالها من حيث المسكن والعمل الزراعى ، كما أن الجديد فيها لا يحقق الهدف منه . ولهذا يغلب النمو الكمى على النمو الكيفى عند التغير الاجتماعى فى هذه النواحى الثلاث .

٣ — التغير فى القرية ككل أو فى أجزاء منها كمجتمع أدى الى وجود خاصيتى الامتداد الداخلى والاعتماد الداخلى والخارجى . فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى القرية القديمة كانت محددة بالعائلة والبدنة ولذلك كانت ضيقة ، ولكنها فى حالة التغير امتدت حتى شملت مجتمع القـرية ككل . ومعنى هذا أن كثافة العلاقات بالنسبة للفرد والجماعـة أصبحت أكثر لأنها امتدت فشملت أفرادا أو جماعات متعددة لا تقتصر على النسق القرابى وحده ، بل كل فرد أو جماعة يمكن أن يترتب على امتداد العلاقـــة اليهما مصلحة مباشرة أو غير مباشرة . كما أن الاعتماد الضيق الذى كانت وحدته الصغرى العائلة والكبرى البدنة فى القرية القديمة أصبح اليوم اعتمادا واسعا وحدته المجتمع القروى بأسره . ولا يظهر هذا فى الناحية الاجتماعية فحسب بل فى الناحية الاقتصادية أيضا . ولا يقتصر إتساع الاعتماد على الداخل ، بل يشمل الخارج أيضا ، فالقرية ككل يزداد اعتمادها بازدياد التغيرات الاجتماعية على القرى المجاورة والسوق والمدينة .

٤ — يؤدى التغير فى القرية الى النمو اللاتجانسى . فلم يعد التشابه هـو الظاهرة التى تسترعى النظر عند ملاحظة الحياة الاقتصادية والاجتماعيـــة والثقافة المادية ، ومعنى هذا أن القرية كمجتمع يتغير الآن من البساطة الى التعقيد . ففى العائلة القديمة كانت البساطة هى الخاصية الاولى التى تلاحظ على أدائها لوظائفها والعلاقات التى تربطها بغيرها والقيم التى توجه حياتها وتنظر

من خلالها الى الحياة . ولكن تفكك العائلة اليوم الى أسر أدى الى تعقد فى العلاقات واختلاف فى الاهتمامات وتمايز من حيث أهداف الحياة. ولهذا يمكن القول أن التغير فى هذا الميدان هو تغير من البساطة الى التعقيد ومن التشابه الى الاختلاف . وفى الثقافة المادية يتخذ التغير نفس الاتجاه فهو يميل الى الانتقال من الاقتصار على الضروريات الى ادخال الكماليات . ولما كان نمو الثقافة المادية يعتمد فى المحل الأول على المركز الاقتصادى إلا أن عامل التقليد يجعل كثيرا من الأسر تحاول أن تساير هذا النمو على قدر طاقتها الاقتصادية . كما أن تغير النشاط الاقتصادى يكشف عن هذا الانتقال بصورة ملموسة أكثر . فلم يعد العمل الزراعى هو العمل الوحيد بل أصبحت أعمال أخرى كالتجارة والاشتغال بالمهن تقف جنبا الى جنب مع العمل الزراعى ، ولم يعد القروى حرا فى تخطيط نشاطه الاقتصادى كما يريده ولم تعد القيم الاجتماعية المرتبطة بالانتاج الزراعى ذات أثر فى توجيهه ولهذا يمكن القول أن النشاط الاقتصادى يتغير من الوحدة الى التنوع ومن الحرية الى التقييد ومن المركز الى السوق .

٥ ـ لا تتغير العائلة أو الحياة الاقتصادية أو الثقافة المادية على فترات سريعة متلاحقة بل أن التغير يسير فى بطء فى انتقاله من مرحلة الى أخرى ولهذا لا ينتقل التغير الى مرحلة تاليه الا بعد أن يتخطى العقبات التى تقف فى وجهه والتى قد تتمثل فى الجهل أو الخوف أو السيطرة أو عادة قديمة ، أو سلطة يمثلها كبار السن ، أو روابط قرابة مرعية بشدة . ومثال ذلك أن انفصال الأسر عن الوحدات العائلية كان يمر على مراحل من المعيشة المشتركة الى التقسيم الداخلى « للدار » ، الى مراعاة انصبة معينة فى الانتاج ، الى تحديد النصيب على أساس الأيدى العاملة ، ثم الى الاستقلال الداخلى أخيرا ويتبعه فى كثير من الحالات الاستقلال بمسكن خاص . وفى الزواج لم

يتخطط النسق القرابى فى اختيار الزوجة الا بالتدريج ايضا . كما أن تغير النشاط الاقتصادى من المركز الى السوق تم تدريجيا ، وهذا ينطبق أيضا على تنوع الانتاج والاشتغال بمهن أخري غير الزراعة . حتى أن القوانين المحددة للمساحات التى تزرع بحاصلات معينة لم تظهر جميعا دفعة واحدة ، بل ظهرت بالتدريج . ولذلك فعمليات التغير ذات خاصتين : الأولى ، التوازن المتحرك بمعنى أن التوازن فى النسق لا يختل بصورة واضحة بحيث يؤدى الى سوء توافق يمكن أن يطلق عليه تخلفا أو عدم استواء . بل أن النسق يظل محتفظا أثناء تغيره بقدر ملحوظ من التوازن . والثانية ، الانتشار التدريجى ، ومعنى ذلك أن التغير يسير فى حلقات تتسع تدريجيا كلما بعدنا عن مركز التغير . فالتغير فى العائلة يؤدى الى تغير فى مظاهر النشاط الاقتصادى ، وهذا يؤدى بدوره الى تغير فى القيم والنظرة الى الحياة فالعادات والتقاليد .. وهكذا .

٦ ـ الشعور الجمعى الذى كان يستمد أسسه من الوحدة العائلية وقيام العلاقة على أساس القرابة فى مجتمع قليل الاعتماد من حيث الوحدات المكونة له كل على الآخر ، ومن حيث الاعتماد على القرى المجاورة أو المدينة ، أخذ الآن فى التفكك نتيجة لتغير الأسس التى كان يقوم عليها . فلم يعد تشابه الأفراد من حيث مركزهم الاجتماعى يقوم على الانتماء لبدنة معينة بل أصبح مركز الفرد الاجتماعى مرتبطا الى حد كبير بمركزه الاقتصادى ، ومن ثم فقد زادت الأبعاد الاجتماعية بين الأفراد على هذا الأساس، وأصبحت المصلحة الفردية تحدد علاقات الفرد وتعين اتجاه شعوره الجمعى . ولهذا يمكن أن يقال ، أن الفردية ظاهرة نامية الآن ، وبالتالى لم تعد أنماط السلوك الثابتة تحكم دوره حياة الفرد ، بل أصبحت هناك أنماط متعددة ومتغيرة ، يمكن أن يجد فيها الفرد تبريرا لكل سلوك قد يعده كبار السن

مثلا عدوانا على التقاليد أو القيم القديمة . وبصفة عامة يمكن أن يقال أن فى القرية الآن نمطين رئيسين من السلوك ، النمط القديم الذى يحاول التزامه كبار السن ، ونمط متغير يتحراه الشبان على وجه خاص يغلب عليه النزعة الفردية ، ولهذا يتشعب هذا النمط الى أنواع متعددة بحسب اختلاف الشبان أنفسهم من حيث التعليم أو نوع النشاط الاقتصادى ، أو تشعب العلاقات الاجتماعية المترتبة على الزواج الخارجى أو الخبرات المختلفة كالخدمة العسكرية .

٧ ـ الوحدة القرابية التى كانت تقوم على الاكتفاء الذاتى النسبى والمحافظة على التقاليد ، وعلى القناعة ، والتعاون الملزم والاعتماد الضيق ، يتغير الآن نتيجة لتغير هذه الأسس التى كانت تعطى للفرد مركزه الإجتماعى والإقتصادى ، الى وحدة من نوع جديد . فقد تبين من الفصول السابقة أن الروابط القرابية تتفكك وبسرعة فى الوقت الحاضر الأمر الذى أدى الى اختلاف فى دور الفرد ، فى النسق القرابى منذ أن تعدد ولأنه نتيجة للزواج الخارجى الى عدة نسق قرابية متمايزة . ولهذا أصبح مركزه الاجتماعى لا يرتبط بانتمائه الى بدنة معينة ، بل يرتبط بمركزه الاقتصادى ، وتحددت أبعاده الاجتماعية فى مجتمع القرية على هذا الأساس.

ولهذا يمكن أن يقال ، أن الوحدة القرابية تتغير الآن الى وحدة طبقية حين يرتبط المركز الاجتماعى بالمركز الإقتصادى بعيدا عن الروابط القرابية فى المجتمع القروى ككل . ومع أن الوحدة الطبقية فى القرية ليست لها حدود واضحة تماما كما هو الحال فى المدينة إلا أنها للباحث فى التغير الاجتماعى تعتبر ظاهرة نامية . ويمكن لذا أضفنا الى المقاييس الاجتماعية والإقتصادية مكونات الثقافة المادية والشعور السيكولوجى المتميز أن

نستطيع دراسة الطبقة فى المستقبل كجزء واضح المعالم فى البناء الاجتماعى .

٨ ـ يتسع الإنتماء كلما زاد التغير الاجتماعى . ذلك لأن انتماء الفرد فى القرية القديمة كان ضيقا ، فانتماؤه كان يدور فى ثلاث دوائر ، وتقل كثافة هذا الانتماء كلما بعدنا عن المركز فالعائلة كانت تمثل وحدة الانتماء الأولى حيث تتميز العلاقات فيها بالكثافة والتعدد وكانت البدنة تمثل وحدة الانتماء الثانية حيث تقل كثافة العلاقات وتعددها أمام مجتمع القرية ككل فكان يمثل الوحدة الثالثة حيث تصل علاقات الإنتماء الى أدنى درجة من حيث الكثافة والتعدد .

هذا كان وضع الغالبية العظمى من الأفراد ، ولكن كبار السن خصوصا من كانت لهم سلطات عائلية وبدنية ، لا ينطبق عليهم هذا التصوير للانتماء تماما ، لأنهم كانوا يدخلون فى علاقات متعددة مع البدنات الأخرى وسلطة القرية فى بعض الأحيان ، قد تصل الى درجة من الشدة والتعدد خصوصا فى حالات الخلافات أو مجالس الصلح أو فى الأمور التى كانت تهم القرية ككل . أما الإنتماء اليوم فانه يتغير ليشمل مجتمع القرية ككل ، ولهذا يشعر القروى الآن بانتمائه لهذا المجتمع أكثر من انتمائه الى نسق قرابى معين ، ويزداد هذا الشعور كلما زاد التغير . ولا يقتصر هذا الشعور على القرية ، بل تعداه الى المركز فالمديرية فالدولة بأسرها منذ أخذ القرويون يتأثرون بالأحداث السياسية والاجتماعية والإقتصادية التى تؤثر فى المجتمع فى الجمهورية العربية ككل . وهنا تبدو القرية فى صورة واضحة جزءا من كل وثقافتها جزءا من كل أيضا .

٩ ـ وهكذا نتبين أن الدراسة أثبتت صحة الفروض والنظريات التى قام هذا البحث على التحقق منها . فالبيئة فى القرية القديمة كانت عاملا له أهمية

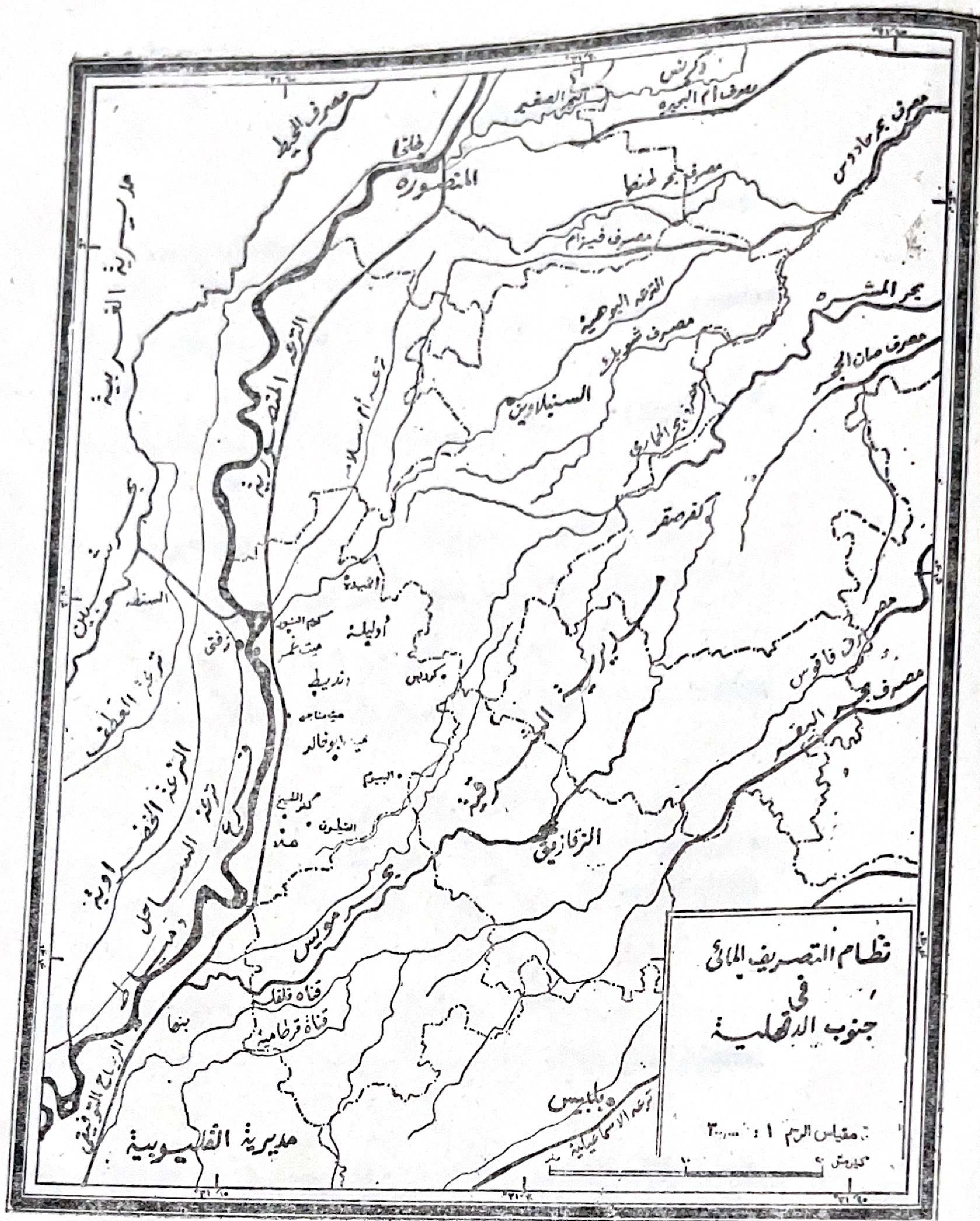
أهمية عظمى فى حياة العائلة الوحدة الرئيسية فى البناء الاجتماعى ، وهى أنها جعلت النشاط الإقتصادى مرتبط ارتباطا وثيقا بالحياة الاجتماعية وما يترتب عليه من قيم وحددت نظرة القرويين للحياة. وهى التى أعطت صفة «الكلية» للمجتمع القروى على أساس الاكتفاء الذاتى النسبى . والبيئة فى القرية المتغيرة ، وإن كان من المناسب عدم اهمالها فى تفسيرات التغيرات الاجتماعية إلا أن أثر القرى المجاورة والقانون والسوق والمدينة بعد إن تغيرت علاقة « الإنسان والطبيعة » نتيجة للزيادة المستمرة فى عدد السكان ، أصبح لا يمكن إغفالها لما لها من نتائج واضحة على سرعة التغير واتجاهاته . وهذا يعنى أيضا أن العوامل الداخلية فى التغير الاجتماعى التى كان لها الأثر الواضح الأول فى بواعث التغير بحيث بدت العوامل الخارجية عوامل معجلة فحسب ، أصبحت الآن تترابط وتتساند مع العوامل الخارجية فى أحداث التغيرات وفى سرعتها واتجاهاتها أيضا .

ووضح أيضا أن التوازن المتحرك والإنتشار التدريجى لعمليات التغير لا يؤديان إلى تخلف أو عدم استواء فى أجزاء « الثقافة القروية الواحدة » فالمية فى التغير هى الخاصية الرئيسية لعمليات التغير ونتائجه واتجاهاته . كما أن مجتمع القرية ككل يتغير الآن من مجتمع بسيط كانت القرابة فيه أساس العلاقة فى الوحدات القرابية المكتفية بذاتها ، الى مجتمع معقد تكون المصلحة فيه أساس العلاقة والاعتماد المتبادل فى خاصية الجزء والكل معا . وأن الاصلاح الاجتماعى غير المفروض بقوة القانون ما لم يوجه على أساس دراسة لعمليات التغير واتجاهاته فان يؤدى الى نتائج مثمرة .

١٠ – هل يمكن بناء على هذه الدراسة أن نتنبأ وأن نخطط المستقبل ؟ وإذا كانت القدرة على التنبؤ هى الغاية العظمى من العلم ، فانها فى علم الاجتماع مهمة صعبة جدا ، ذلك لأنه كلما انتقلنا من العلوم الطبيعية الى

العلوم البيولوجية ثم الى العلوم الإجتماعية ،تصبح الظروف غير ثابتة ومعقدة فى نفس الوقت ، وبالتالى يزداد ضيق الحدود التى يمكن التنبؤ فى مداها . ومثال ذلك أننا قد نستطيع التنبؤ بالحجم المستقبل للسكان ، وتوزيع السن ونسب الزواج والمواليد ، فى مجتمع ينمو السكان فيه نموا مطردا دون عائق، ولكن اذا لجأ المتزوجون فى المدى القصير الى تحديد النسل ، فان كل تنبؤ سابق يصبح عديم القيمة ، ولهذا يضيق المدى الذى يمكن أن نذهب إليه فى التنبؤ بسير التغير الاجتماعى . ولكننا من ناحية أخرى نستطيع أن نتنبأ فى حالات معينة بدرجات متفاوتة الدقة ، فنستطيع أن نقول إن النشاط التجارى مثلا يزداد فى المواسم والأعياد .

وعلى ذلك لا يمكن التنبؤ مثلا باتجاه التغير الاجتماعى فى الحياة الاقتصادية فى القرية لمدى طويل ،خصوصا وأنه من الممكن فى أى لحظة ولأسباب غير متوقعة أن تدخل الصناعات الريفية كنوع من أنواع النشاط الاقتصادى ، أو أن تتحول الزراعة التى تقوم على العمل اليدوى والمجهود الحيوانى الى زراعة تقوم على استخدام الآلات ، أو قد تهدم القرية ويعاد بناؤها من جديد ... الخ ، مثل هذه الأمور التى يمكن أن تحدث نتيجة لمشروعات أو قوانين تصدرها الدولة . وبالتالى تختلف العلاقة التى تقوم بين المتغيرات. والتى كان قيامها على نحو معين فيما مضى أساسا هاما فى تعيين التغير الاجتماعى . وإذن فالحديث فى دراسات التغير الاجتماعى عن مستقبله أمر فيه مخاطرة كبيرة . ولكن اذا كان المطلوب الاستفادة من مثل هذه الدراسات فى التخطيط الاجتماعى ، فان الخطة لابد أن توضع للوصول الى هدف معين فى زمن محدد .


نظام التصريف المائى
فى
جنوب الدقهلية
مقياس الرسم ١ : ٣٠٠,٠٠٠
المنصوره
طلخا
مصرف الخيط
دكرنس
مصرف أم البيره
البحر الصغير
مصرف بحر طناح
مصرف فيزام
الترعه البوهيه
مصرف شوبرا
السنبلاوين
بحر المشرع
مصرف صان الجحر
كفر صقر
ترعة أم سلامه
الزقازيق
بحر مويس
قناة قلقل
قناة قرطامية
بنها
مديرية القليوبية
بلبيس
ترعه الاسماعيلية
فاقوس
مصرف بحر البقر
زفتى
ميت غمر
أوليلة
ديرب نجم
الرياح التوفيقى
منيا القمح
كوم النور
كفر الشيخ
البيوم
السنطه
ترعه العطف
كوسين

SELECT BIBLIOGRAPHY

1 — Ammar Hamed, Growing up in an Egyptian Village : Silwa, Province of Aswan, London, 1954.

2 — Barnes, J. A., Marriage in a Changing Society, London, 1951.

3 — Beals, A., in Village India, edited by Marriot. N., Chicago, 1955.

4 — Benedict R. Patterns of Culutre. London, 1953.

5 — Dodd, S., Dimensions of Society, New York, 1940.

6 — Dube, S. C. Indian Village, Landon, 1959.

7 — Embree, J. E. A Japanese Village, Suye Mure, London 1946.

8 — Evans-Pritchard, Social Anthropology, 1951.

9 — Fortes, N., Time and Social Structure, An Ashanti case study, in : Social Strurcture, editad by himself, Oxford, 1949.

10— Handlin, O., The Uprooted. Boston, 1951.

11—Herskovits, N. J., Acculturation : A Study of Cultural Contact, New York.

12— Hughes, E. C., The Cultural Aspect of Urban Research in "The state of the Social Sciences" edited by White, L. D., Chicago, 1956.

13— Kroeber, A. C., Anthropology, New York, 1956,

14— Loomis, Ch. & Beegle, A., Rural Social Systems New York, 1950.

15— Lundberg, G., Foundations of Sociology, New York 1958

16— MacIver, R. and Page C., Society London. 1958.

17— Malinowski, B., Dynamics of Culture Change, New York 1945.

18, Marriot, (ed) M., Village India, Studies in the little Community, Chicago, 1955.

19— Ogburn, W., and Nimkoff, Handbook of Sociology, London, 1953.

20— Ogburn, W., Social Chang, second printing, New York 1952.

21— Radcliffe—Brown, Structure and Function in Primitive Society, London, 1956

22— Redfield, R., The Folk Culture of Yucatan, Chicago, 1941.

23— Redfield, The Folk Society, Amer. J. Socio, L. 52, 4 (January 1947) 293—308.

24— Redfield, The Little Community, view points for the study of human whole, Chicago.

25— Redfield, Peasant Society and Culture, Chicago, 1956

26— Redfield, A Village that chose progress, Chan Kom, Revisited, Chicago, 1957.

27—Sorokin, P., Social and Cultural Dynamics, V. 4, NewYork 1941.

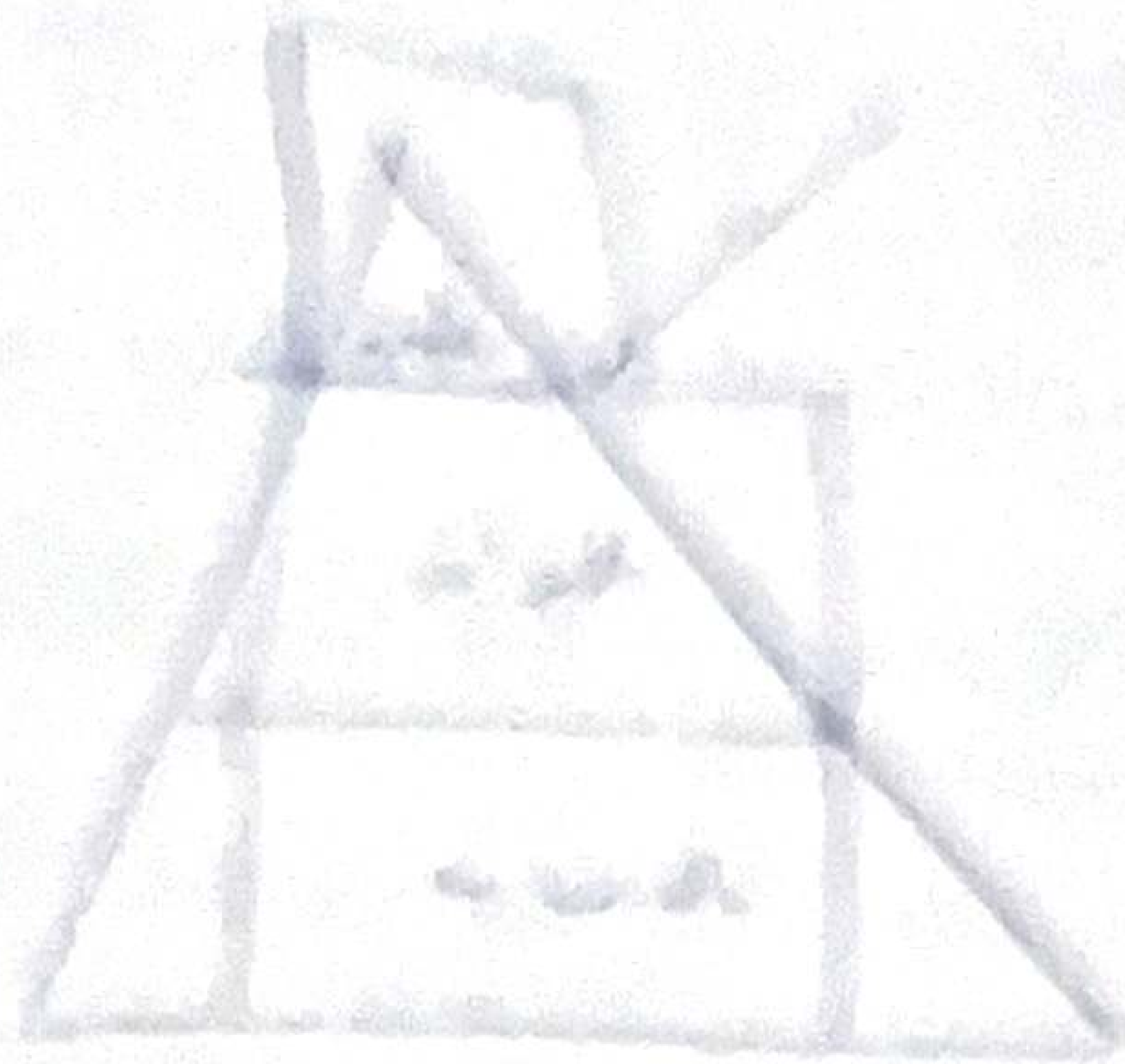
28— Sorokin, Society, Culture and Personality, New York, 1947

29— Sprott, Sociology, London, 1956.

30— Wilson, G. and Wilson, M., The Analysis of Social Change, 1945

31— Yang, M. C., A Chinese Village, Taitou, Shantung Provine, London, 1946.

32— Znaniecki, The Method of Sociology, New York, 1934.







٤٧ ٢ - ٢٢ - ٢

الثمن ١٢٥ قرشا

١٠٠